

الجزء الثالث

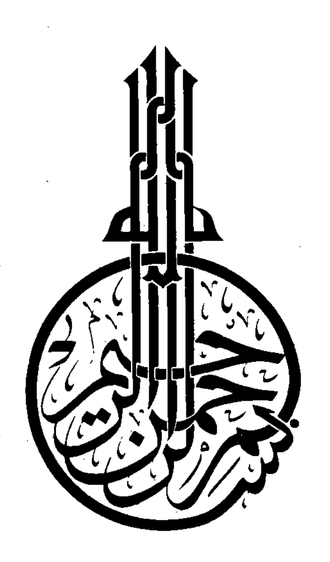
١٩- سلمان الفارسيّ
٢٠- جرير بن عبد الله البجليّ
٢١- الدكتور مصطفى السباعي
٢٢- الشيخ محمد الحامد

تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

من نجوم الإسلام

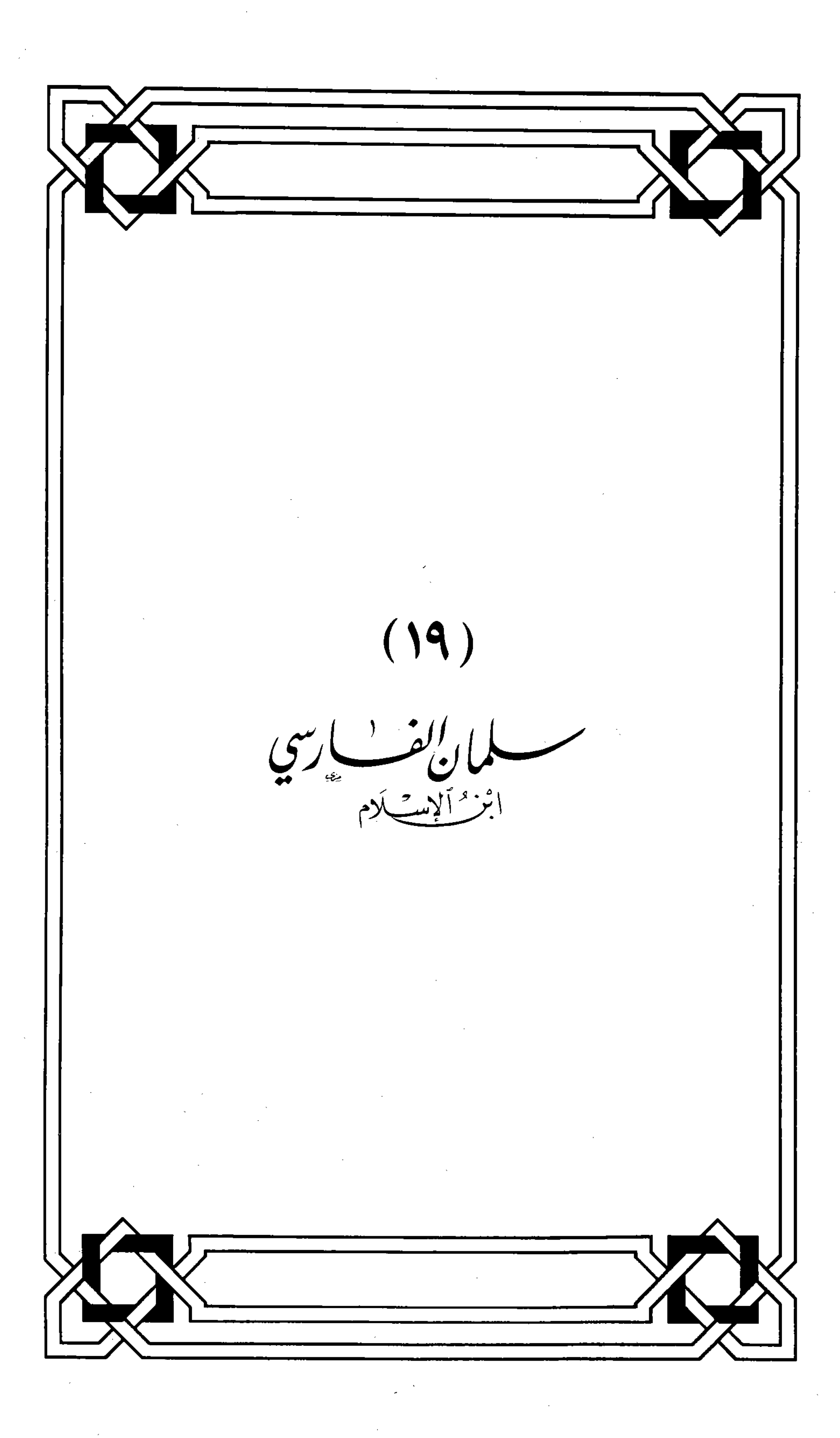
الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

جميع الحقوق محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



(١٩)

سلمان الفارسي

ابن الإسلام



بسم الله الرحمن الرحيم

حدّثنا الفتى صادق أمين قال:

كان الشيخ نايف مدعوّاً إلى الغداء عندنا، وكنت وأختي صادقة متلهّفين لزيارته، والجلوس بين يديه، والاستماع إليه، لأنه ـ كما قال لنا أبي ـ عالم جليل في كثير من العلوم الشرعية والأدبية والعربية، وخاصّة علم التاريخ الذي حفظه عن ظهر قلب، كما قال أبي، التاريخ القديم، والتاريخ الوسيط، والتاريخ الحديث، للعرب والعجم، وتاريخ المسلمين وغير المسلمين.

كنت لا أرفع عينيّ عن الساعة الجداريّة، إلا لأنظر في ساعتي اليدويّة، وكذلك كانت أختي صادقة، أمّا سائر إخوتي، فقد كانوا مشدودين إلى التلفزيون، يتابعون الرياضة وأخبارها، وكنت أحاول تنبيههم إلى الضّيف القادم، وكانت محاولاتي تذهب عبثاً.

وعندما رنَّ جرس الباب، أسرعت لاستقبال الشيخ، وأنا أطير من الفرح.

دخل الشيخ نايف، وإخوتي يتابعون السّباق على الشاشة الصّغيرة بعيونهم، فيما كانوا ينهضون لاستقبال الشيخ، والسلام عليه.

استقرّ الشيخ نايف على كرسيّه، وعيناه على إخوتي، وعيون إخوتي تلتهم المباراة والمتسابقين العدّائين التهاماً.

حاول أبي إغلاق الجهاز، ولكنّ الشيخ أشار إليه أن يتركهم وما هم فيه، حتى إذا ما انتهت المباراة بعد دقائق، قال الشيخ بصوته الجهوريّ:

ـ الآن أغلقوا التلفزيون، لأحدّثكم عن مباراة أخرى، وعن السبّاقين الأربعة من أجدادكم العظام.

أسرعت صادقة فأغلقت التلفزيون، ثمّ قرّبنا كراسيّنا من الشيخ، فقال أبي:

ـ هاتِ يا شيخنا الجليل.

فابتسم الشيخ ابتسامة كلُّها وقار، وقال في تساؤل:

ـ قبل الغداء أم بعده؟

أجاب أبي في ابتسام أيضاً:

ـ كما تحبّ.. الغداء جاهز.

فرفعتُ إصبعي كأنّني في المدرسة، وقلت:

ـ إذا سمحتَ أنت وأبي يا أستاذ، نسمع حديثك الآن، وعلى المائدة، وبعد المائدة، إذا تكرّمت.

وأسرعت صادقة تؤازرني بقولها:

ـ وأنا أضمّ صوتي الضّعيف إلى صوت صادق.

ازداد إشراق وجه الشيخ وقال:

ـ كما وعدتكم.. سوف أحدّثكم الآن حديث رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: عن السابقين الأربعة، في مباراة عالمية ـ إذا جاز التعبير ـ.. مباراة وسباق نحو الخير، وسعادة الإنسانيّة في الدّارين.. في هذه الحياة، وبعد الممات..

ولملم الشيخ أطراف عباءته، ثم مسح على لحيته الشقراء وقال:

ـ عن أنس رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

السُّبَّاق أربعة :

أنا سابق العرب

وصهيبٌ سابق الرُّوم

وسلمانُ سابق الفُرْس

وبلالٌ سابق الحبشة .

صدق رسول الله

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

الشيخ : هذا هو السِّباق الحقيقيّ يا أحباب . . سباق نحو الله . . نحو الإسلام . . لإسعاد الإنسان . . لإنقاذ العرب من جاهليّتهم وأصنامهم ، لإنقاذ الرُّوم من صُلبانهم وضلالهم ، لإنقاذ الفُرس من نارهم وطغيان طواغيتهم . . لإنقاذ البشرية من الظّلمات التي كانت تتخبّط بها .

ثمّ التفت نحو أبي وقال :

ـ سمعتُك تقول : الطعام جاهز ، ونسينا أن نقول لك : ونحن جاهزون .

فهبَّ أبي قائماً وقال :

ـ حديث السُّبَّاق الأربعة العظام ، أنساني الطّعام . . تفضَّلْ يا فضيلة الشيخ .

نهض الشيخ نايف ، ثمّ تقدّم نحو المائدة ، وبقيت وإخوتي حيث كنّا ، وكلّي أملٌ ورجاء في أن يدعونا الشيخ إلى مؤاكلته ، فأنا شديد الرّغبة في الجلوس إليه ، والإفادة من كلّ كلمة وحركة تصدران منه .

ولم يخيّب الله رجائي ، فقد جاءنا صوت الشيخ وهو يسأل أبانا عنّا ،

ويطلب منه أن يسمح لنا بمشاركتهما الطعام، ثمّ جاءنا صوت الوالد يدعونا، وكنّا أسرعَ منه في تلبيةِ النّداء.

جلستُ قُبالةَ الشيخ، وصرتُ أسترق النظر إليه، لعليّ أستفيد من طريقة طعامه، من كلامه، من كيفية شرابه، ولكنّي رأيته يأكل بضع لُقيمات، حمِدَ اللهَ بعدها، فألحّ عليه أبي لعلّه يستزيد من بعض الألوان التي لم يذقها، ولكنّ الشيخ كان يدعو لوالدي، وكأنّه لم يحسّ بإلحاحه:

ـ أكل طعامكم الأبرار، وأفطر عندكم الصائمون، وصلّتْ عليكم الملائكة الأخيار، وذكركم الله فيمن عنده. أدام الله النِّعم، وحفظها من الزّوال.

ومسح الشيخ شفتيه بالمنديل الأبيض الذي كان بجانبه، ثم قال:

ـ أحدُ السبّاقين الأربعة، سلمان الفارسيّ رضي الله عنه قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنّ أكثر النّاس شِبَعاً في الدّنيا، أطولُهم جوعاً يوم القيامة».

ولذلك، ما كان رسول الله ﷺ، وما كان أصحابه الكرام، يملؤون بطونهم، خاصّة بعد ما سمعوا النبيَّ الكريم عليه الصلاة والسّلام يقول:

«ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيماتٌ يُقِمْنَ صُلْبَه».

وكان سلمانُ الفارسيّ ـ سابق الفرس ـ يطالب من يطلب منه النصحية، بالقصد والدّوام.. بالاعتدال في كلّ شيء.

عدنا إلى أماكننا في غرفة الضّيوف، ورآنا الشيخ ننظر إليه، ننتظر حديثه، فبدا السُّرور في وجهه، ثمّ قال:

ـ يا سبحان الله!. المباراة في التلفزيون ذكّرتني بالسّبّاقين الأربعة، وطعامكم الطيّب الذي يغري من يذوقه بالاستزادة منه، ذكَّرني بالرجل

الزاهد الصالح سلمان الفارسيّ رضي الله عنه، ما كان أروعه!.

فتجرّأت وقلت:

حدّثنا عن هذا الصّحابيّ الزاهد يا سيِّدي.

فتنحنح الشيخ وقال:

ـ كما تحبّ يا بنيّ أنت وإخوتك.

ثم التفت نحو أبي وقال:

ـ ما رأيك يا حاج؟

ـ وهل يعلو على رأيك رأيٌ يا سيِّدنا؟ تفضّلْ.

قال الشيخ:

ـ سلمان الفارسيّ، أيّها الشباب، صحابيّ جليل، مُلئ علماً، كما مُلئ زهداً وإيماناً وتواضعاً، كان يسمّي نفسه: (سلمان الإسلام) و(ابن الإسلام) ويقول:

أبي الإسلامُ لا أبَ لِي سواه   إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ

أصله من مجوس (أصبهان) من بلاد فارس كما كانوا يقولون، ومن إيران، كما نقول اليوم، وُلد في قرية (جيان) أو (جَيْ) ونشأ فيها، وكان ذا عقل كبير، جعله يتمرّد على المجوسيّة التي يعبد أهلُها النار، ورحل إلى الشام والمَوْصل ونُصَيبين وعمُّورية، بحثاً عن الحقيقة، عن الدّين الذي يرتاح إليه، وتطمئنّ إليه نفسه، عند أصحاب تلك البلاد، من مجوس ويهود ونصارى، فجالس علماءهم، وقرأ كتبهم، ثمّ قصد بلاد العرب، عندما علم بقرب زمن النبيّ العربيّ محمد ﷺ، وصحب بعض بني كلب من العرب، فغدروا به وخانوه، وبعد أن استخدموه، استعبدوه، وباعوه ليهوديّ من بني قريظة، فجاء به إلى المدينة المنوّرة، وفي المدينة علم بهجرة النبيّ الكريم إليها، فقصده سلمان، وجلس بين يديه، وآمن به، فأمر النبيُّ الكريم

أصحابه بأن يساعدوا سلمان على تحرير نفسه من الرّقّ والعبوديّة، فسارع الصحابة إلى مساعدته، فاشترى نفسه من صاحبه اليهوديّ، وصار حرّاً كسائر الصّحابة الكرام، ولازم النبيَّ، واستفاد من علمه وأخلاقه وزهده، وكان سلمان ذا رأي حصيف، وهو الذي أشار على النبيّ الكريم ﷺ بحفر الخندق، عندما غزت الأحزاب المدينة، وكان سلمان قويَّ البنية، فاختلف فيه المهاجرون والأنصار، كلٌّ فريق يريده أن يكون معه، فقال لهم رسول الله

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: «سلمانُ منّا أهلَ البيت».

صادقة: هنيئاً له بهذا النّسب الجديد.. أن يكون من أهل بيت النبيّ

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: وأن يكون ابن الإسلام، وسلمان الإسلام.

ثمّ التفتت صادقة إلى أبيها وقالت:

ـ ما أجمل هذا النّسب يا أبي!.. سلمان الإسلام.. صادقة الإسلام!.

فابتسم أبي قائلاً:

ـ بارك الله فيك يا ابنتي يا صادقة، فلك ذكاءٌ لمّاح، وعقلٌ أكبر من عمرك، يا صادقة الإسلام.

ابتسم الشيخ ابتسامة عريضة، وابتسمنا معه في سرور، ثم سألتُ الشيخ الجليل:

ـ متى وُلد سلمان ومتى توفّي يا سيّدي؟

أجاب الشيخ:

ـ لقد عاش الصحابيّ الجليل سلمان عمراً مديداً، طويلاً.. لا أحد يعرف متى ولد، ولكننا نعرف أنه توفّي سنة ستٍّ وثلاثين من الهجرة.

يبدو أنّ النّسب الجديد لسلمان رضي الله عنه كان يلحّ على صادقة، فسألت الشيخ:

ـ هل كان أقربـاء النبيّ الكريم ﷺ يعدّون سلمان واحداً منهم ياشيخي الجليل؟

عادت الابتسـامة العريضة تتوّج الشـفتين المكتنزتين، لتنفرجا عن أسنان نظيفة سليمة، قبل أن ينطلق لسان الشيخ بقوله:

ـ كان أمير المؤمنين عليٌّ كرّم الله وجهه إذا سُئل عن سلمان يقول:

«سلمان امرؤ منّا وإلينا أهلَ البيت»

وإذا سُئل عن علم سلمان كان يجيب:

«من لكم بمثل لقمان الحكيم؟ علمَ العلمَ الأوّل، والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول، والكتاب الآخر، وكان بحراً لا ينزف.».

فهتفْنا جميعاً:

ـ الله أكبر.. الله أكبر..

وقال أبي:

ـ هذه الشهادة من الإمام علي، لاتَعْدِلُها شهادة..

فقال الشيخ:

ـ كان سلمان معروفاً عند الصّحابة الكرام بسلمان الخير، وكان كعب الأحبار يقول:

«سلمان حُشي علماً وحكمة».

واسمعوا هذا الحديث الشريف.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنّا جلوساً عند النبيّ ﷺ، فأُنزلت عليه سورة الجمعة:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة : ١ ـ ٣].

قلت: من هم يا رسول الله؟ فلم يردّ عليّ، فأعدت السؤال مرّة ثانية، وثالثة، وكان فينا سلمان الفارسيّ، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، ثم قال:

«لو كان الإيمان عند الثّريّا، لنا له رجال أو رجل من هؤلاء».

صادقة: ما شاء الله.. هنيئاً لسلمان الإسلام بشهادة رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: واسمعوا هذا الحديث اللطيف.

عن ثابت رضي الله عنه قال:

كان سلمان في عصابة يذكرون الله، فمرّ النبيّ ﷺ، فكفّوا. فقال النبيُّ.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: قال لهم النبيّ الكريم:

«ما كنتم تقولون؟»

قالوا: نذكر الله.

قال النبي الكريم عليه الصلاة والسلام:

الجميع: عليه الصلاة والسلام.

الشيخ: «إني رأيت الرحمة تنزل، فأحببت أن أشارككم فيها».

ثمّ قال:

«الحمد لله الذي جعل في أمتي من أُمرتُ أن أصبر نفسي معهم» .

الجميع : ما شاء الله .

الشيخ : وكان سلمان رضي الله عنه من أصحاب الكرامات ، أذكر لكم منها هذه الكرامة :

بينما كان سلمان وأبو الدرداء ـ رضي الله عنهما ـ يأكلان في قصعة ، إذا هما يسمعان تسبيح تلك القصعة ، وتسبيح الطعام الذي فيها .

الجميع : ما شاء الله . . الله أكبر .

صادقة : هل هناك آية كريمة أو آيات ، نزلت في هذا الصحابيّ الجليل يا عمّي الشيخ؟

الشيخ : طبعاً طبعاً . .

من هذا القبيل ، نزول الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة : ٦٩] .

نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسيّ رضي الله عنه ، وذلك أنّ سلمان حين قدِمَ على رسول الله ﷺ ، جعل يخبر عن عبادتهم ـ يعني عن عبادة أصحابه ـ واجتهادهم ، وقال : يا رسول الله . كانوا يصلّون ويصومون ويؤمنون بك ، ويشهدون أنك تُبعث نبيّاً .

فلمّا فرغ سلمان من ثنائه على أصحابه أولئك ، قال رسول الله ﷺ : «يا سلمان ، هم من أهل النّار» فأنزل الله هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ التي ذكرتُها لكم قبل قليل .

صادق : من هم أصحاب سلمان هؤلاء يا سيِّدي الشيخ؟ أليسوا من أصحاب رسول الله ﷺ؟

الشيخ : الحقّ معك يا صادق، فأنا لم أحدّثكم عن أصحاب سلمان، فاسمعوها . .

تقول كتب التاريخ :

كان سلمان صديقاً لابن الملك، وكانوا كلهم من المجوس، وكانت صُحْبتهما قويّة، وصداقتهما متينة، يتشاوران في كلّ أمر ويتناصحان، ولا يقضي أحدهما أمراً دون صاحبه، وكانا يخرجان إلى الصّيد معاً .

وذات مرّة، وفيما هما في رحلة صيد، شاهدا بيتاً من شَعْر، فسارا إليه، ووجدا فيه رجلاً يقرأ في كتاب ويبكي . فسألاه عن أمره، وعمّا يبكيه، فقال لهما :

«الذي يريد أن يعلم هذا، لا يقف موقفكما، فإن كنتما تريدان أن تعلما ما فيه، فانزلا حتى أعلّمكما» .

فنزلا إليه، فقال لهما ذلك الرجل :

«هذا كتاب جاء من عند الله، أمر فيه بطاعته، ونهى عن معصيته، نهى عن الزّنى والسرقة، ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل» .

وقال لهما : هذا الكتاب هو (الإنجيل) الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام .

فوقع كلام الرجل في قلوبهما، وتابعاه، وأسلما معه، فقال لهما :

«إنّ ذبيحة قومكما عليكما حرام، فلا تأكلوا ممّا يذبح قومكم» .

واستمرت الصلة بينهما وبين ذلك الرجل النصراني الراهب، حتى كان يوم عيد الملك، فذُبحت الذّبائح، وقُدّم الطعام للناس، وصار الناس يلتهمون من ذلك الطعام اللذيذ، ولاحظ الملك والناس أن سلمان وابن الملك لاتمتدّ أيديهما إلى الطعام، فأمرهما الملك بالأكل، فقال له سلمان :

«إنّا لا نأكل من ذبائحكم . . إنكم كفّار، ولا تحلّ ذبائحكم» .

قال الملك: من قال لك هذا؟

قال سلمان: راهبٌ التقيناه وآمنّا بما يقول.

فدعا الملك الراهب، وقال له:

«ماذا يقول هذان؟»

قال الراهب: صدقوا فيما قالوه.

قال الملك: لولا أنّ الدّم فينا عظيم لقتلتك. ولكن اخرج من أرضنا.

فخرج الراهب من مجلس الملك، ولحق به سلمان وابن الملك وهما يبكيان عليه، فقال لهما:

«إن كنتما صادقين، فأنا في بيعة (أي في كنيسة) بالموصل، مع ستين رجلاً نعبد الله فيها».

فلمّا التقى سلمانُ رسولَ الله ﷺ أخبره خبرهم، وقال للنبيّ الكريم: «لو أدركوك صدّقوك واتّبعوك».

فنزلت الآية التي ذكرتُها لكم، فدعا رسولُ الله ﷺ سلمانَ وقال له:

«نزلت هذه الآية في أصحابك.»

ثمّ قال النبيّ ﷺ:

«من مات على دين عيسى ومات على الإسلام قبل أن يسمع بي، فهو على خير، ومن سمع بي اليوم ولم يؤمن بي فقد هلك».

الجميع: صدق رسول الله ﷺ.

الشيخ: ثم أنزل الله تعالى:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] صدق الله العظيم.

صادقة: هل تذكر لنا بعض أقوال سلمان الإسلام يا عمّي؟

الشيخ: لا بأس يا صادقة. . اسمعوا ما قال سلمان رضي الله عنه. .

قال: «ثلاثٌ أعجبتني حتى أضحكتني:

مؤمّل دنيا والموتُ يطلبه

وغافلٌ وليس بمغفول عنه

وضاحكٌ ملءَ فيه، لا يدري أساخطٌ ربُّ العالمين عليه، أم راضٍ عنه».

صادقة: يا سلام. . ما أروع هذا الكلام.

الشيخ: لم ينتهِ كلامُ سلمان. .

«وثلاثٌ أحزنتني حتى أبكتني:

فراقُ محمّدٍ وحزبه

وهَوْلُ المطلع

والوقوف بين يدي ربّي عزّ وجلّ، ولا أدري إلى جنّته أو إلى ناره».

صادقة: وأنا تحزنني هذه الثلاثة وتبكيني يا عمّي.

الشيخ: لمّا افتتح المسلمون (جَوْخَى)، وهي بلدة في العراق، دخلوا يمشون فيها، وأكداسُ الطعام فيها أمثال الجبال. وكان سلمان يمشي مع رجل من المسلمين، فقال الرجل لسلمان:

ـ يا أبا عبد الله. . ألا ترى إلى ما أعطانا الله؟!

فقال سلمان:

ـ وما يعجبك؟ ألا ترى إلى جنْب كلِّ حبّة ممّا ترى حساباً؟

صادق: هذا الصّحابيّ الجليل من رجال الآخرة يا سيِّدي.

الشيخ: ولهذا زهد في هذه الدنيا وأعرض عن زخارفها. .

كان سلمان والياً على المدائن .

صادقة : عاصمة كسرى؟

الشيخ : نعم يا صادقة . . بعد أن فتحها المسلمون طبعاً .

صادقة : طبعاً .

الشيخ : وكان راتب سلمان خمسة آلاف .

صادق : في الشهر؟

الشيخ : بل في السنة . . وكان سلمان ينفق عطاءه (أي راتبه)، يوزّعه على فقراء المسلمين، وكان ينسج الخُوص (أي ورق النَّخل) ويأكل من عمل يده . . وكان يقول :

«أشتري خوصاً بدرهم، فأعمله وأبيعه بثلاثة دراهم، فأعيد درهماً فيه، وأنفق درهماً على عيالي، وأتصدّق بدرهم» .

صادق : الله أكبر . . أمير مدينة المدائن، ينفق راتبه على الفقراء والمساكين والمحتاجين، ويأكل من عمل يده، من نسج الخُوص؟ أين نحن من أولئك الرجال العظام يا سيِّدي؟

الشيخ : اسمع ـ يا ولدي ـ ما فعل أمير المدائن سلمان رضي الله عنه . .

جاء رجل من أهل الشام، ومعه حملُ تِبْن، فمرّ بسلمان في ثوبه المتواضع، وعباءته التي كان يخطب الناس وهي على كتفيه، فكان يفرش بعضها، ويلبس بعضها . .

رآه الشاميُّ في ثيابه المتواضعة، وفي بنيته القويّة، فقال له :

ـ تعالَ احملْ هذا الكيس من التّبن .

صادقة : كأنّه ظنّه حمّالاً يا عمّي؟! .

الشيخ : نعمْ يا صادقة . . هكذا ظنّه .

صادق : وماذا كان ردّ الأمير سلمان يا سيِّدي ؟

الشيخ : امتثلَ سلمانُ للأمر ، وحمل كيس التّبن ، وسار خلف الشامي ، ورآه الناس ، فقالوا للشامي :

ـ ويحك . . هذا أمير المدائن .

فاعتذر الشاميّ ، وقال لسلمان :

ـ لم أعرفك يا سيِّدي .

وطلب منه أن يعطيه الحمل ، ولكنّ سلمان أبى إلا أن يوصله إلى بيته ، وقال له :

ـ إني قد نويت فيه نيّة ، فلا أضعه حتى أبلغ بيتك .

صادقة (ساخرة) : مثلنا تماماً ! .

فضحك أبي والشيخ ، فضحكنا ، وأطلق أخي الصغير ضحكة كانت محبوسة ، ثمّ قال في مرارة :

ـ لو سمعوكِ لحبسوكِ يا صادقة .

وقال الشيخ ، وهو يلملم أطراف عباءته :

ـ أخيراً . . أريد أن أذكّركم بالحادثة المشهورة ، عندما اعتلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب المنبر ، وعليه حُلّة ـ والحُلّة مؤلفة من ثوبين ـ . وخطب الناس قائلاً :

ـ أيها الناس . . . اسمعوا وأطيعوا .

فصاح سلمان بصوته المجلجل :

ـ والله لا نسمع ولا نطيع .

فسأله أمير المؤمنين :

ـ لماذا يا أبا عبد الله؟!

أجاب سلمان :

ـ إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً، وعليك حُلّة (أي ثوبان).

فقال أمير المؤمنين وهو على المنبر :

ـ لا تعجلْ يا أبا عبد الله.

ثمّ نادى عمر : يا عبد الله. فلم يجبه أحد، فنادى من جديد :

يا عبد الله بن عمر.

فأجابه ابنه عبد الله : لبّيك يا أمير المؤمنين.

فقال عمر : نشدْتُك الله. الثوب الذي اتّزرتُ به، أهو ثوبُك؟

قال عبد الله : اللهمّ نعم.

عندئذٍ قال له سلمان رضي الله عنه :

ـ الآنَ قلْ نسمعْ.

فسرتْ همهمة إعجاب بيننا، فيما كان الشيخ ينهض مودِّعاً.

* * *

أسرعتُ إلى غرفتي، وسجّلت بعض المعلومات التي ذكرها لنا الشيخ نايف عن الصحابيّ الجليل سلمان الفارسيّ رضي الله عنه، ثمّ غبتُ في حلم جميل من أحلام اليقظة، تخيّلتُ فيه سلمان، وما يمكن أن يكون عليه.. تخيّلتُ طوله وعرضه، لون بشرته، لون شعره، لون عينيه، كيفية نطقه، لباسه.. وما إلى ذلك، وفيما أنا على تلك الحال، برز أمامي رجلٌ طويل السّاقين، غزير الشعر، كثّ اللحية، قويّ البنية، شديد الأسر، له

ساعدان قويّان، فيه تواضعٌ وفيه شموخ يجعلك تهابه وتحترمه، ولكنّه لا يبعدك عنه . .

هببتُ واقفاً، وكدتُ أصيح :

ـ عَرَفتُك . . أنت سلمان الفارسيّ . .

ولكنّي كففتُ وأحجمتُ بعد ما أقدمتُ، وغضضتُ بصري حياءً ومهابة، ثمّ رفعتُه إليه، فطالعتني ابتسامة حلوة توّجتْ شفتيه، والتمعت في عينيه، فهتفت :

ـ أهلاً بك يا سيِّدي في بيتك .

مدّ يده المديدة، فضاعت كلتا يديّ في كفّه، وحاولت أنْ أهزَّ يده، أن أحرّكها بالسلام، فلم أستطع، فتذكرت العضلات المفتولة في ساعديه، وتمنّيت لو أنّ الله الكريم يرزقني ساعدين كساعديه، لأكون المؤمن القوي الذي يحبُّ الله ويحبُّه الله .

غبت لحظةً في حلم لذيذ، أفقتُ منه على همسة في أذني :

ـ انتبه يا صادق، هذا هو حبيب شيخنا . . هذا هو الصحابيّ الجليل . .

فقاطعها الرجل المهيب :

ـ أنا أخوكم في الإسلام . . أنا سلمان الفارسيّ .

فهتفتْ صادقة :

ـ بل أنت سلمان الإسلام يا جدّي العزيز .

ظهرت السعادة في عيني سلمان الإسلام، وقال :

ـ كأنكِ تعرفينني يا ابنتي .

أجابت صادقة :

ـ لقد حدّثنا شيخنا عنك كثيراً يا جدّي، وقال لنا : إنك كنت تنتسب

إلى الإسلام، فأنت ابن الإسلام، وأنت سلمان الإسلام.

ازدادت ابتسامة سلمان اتّساعاً، ثمّ تساءل:

ـ ثمّ ماذا؟

فقالت صادقة:

ـ أنا، الأمَةَ الفقيرةَ إلى الله، أعرف بعض أخبارك يا سيّدي.. كنت أقرأ سيرة جدّي أبي الدّرداء، وجدّتي أمّ الدّرداء، فعرفتُ بعض أخبارك، كما عرفت بعضها الآخر من قراءتي لكتب التاريخ وسير الرجال، وأنت من ساداتهم.

كان الإعجاب ظاهراً على مُحيَّا الرجل الصالح، وهو يستمع إلى صادقة، وهي تتحدّث بلسانها العربيّ المُبيْن:

ـ اسمك، يا جدّي العزيز، سلمان، وكنيتُك: أبو عبد الله، وأنت من أهل أصبهان في إيران.

ـ في ماذا؟

ـ عفواً يا جدّي.. أصبهان من (فارس) التي ندعوها اليوم (إيران)..

ـ ثمّ ماذا؟

ـ تركتَ دين آبائك، وخرجت تبحث عن الحقيقة.. عن الدين الذي ترتاح إليه النفس والعقل، وعندما علمتَ بقرب بعثة النبيّ العظيم محمد ﷺ في بلاد العرب، وجّهتَ وجهك إلى هناك، وصحبتَ قافلة عربية، فغدروا بك، وجعلوك عبداً لهم، وباعوك ليهوديّ من أهل المدينة، ثم أسلمتَ لله ربِّ العالمين، وآمنت برسوله الأمين ﷺ.

وسكتت صادقة هنيهة، ثمّ قالت:

ـ هذا بعض ما يحضرني من سيرتك العطرة يا جدّي العظيم، فهل أزيد؟

فانبريتُ أقول :

ـ أختي صادقة تقرأ كثيراً عن أجدادنا العظماء، وأنا أقرأ مثلها تقريباً، ولكنَّا نحبّ أن نسمع سيرة حياتك من لسانك الطاهر يا سيِّدي .

ثمّ انتبهتُ إلى أنّ الصحابيّ الجليل ما زال قائماً على قدميه، فأبديتُ أسفي واعتذاري، فقد كانت المفاجأة كبيرة بمثولي بين يدي رجل عظيم أحبَّه رسول الله ﷺ، وأحبّه المهاجرون والأنصار، وأحبَّه شيخنا، كما أحبَّتْه ملايين المسلمين على مدى أربعة عشر قرناً .

حاول الشيخ الجليل مقاطعتي لأكفّ عن إطرائه، ولكنّي كنت مندفعاً يتدفّق الكلام من فمي في إطراء الرجل بما أعرف عنه، ثمّ تذكّرتُ أنّ «الامتثال خير من الأدب» فقلت له، وأنا أشير إلى الكرسيّ الأثير لديّ :

ـ تفضَّلْ بالجلوس يا سيِّدي .

وبعد أن استقرّ في مجلسه قلت :

ـ الآن، يا سيِّدي، جاء دورك، لتحدّثنا عن حياتك الحافلة .

وقالت صادقة التي كانت تجلس إلى يمينه :

ـ لا نريد أن نشقَّ عليك يا جدّي العزيز، وإن كنّا نرغب في سماع الصغيرة والكبيرة من الحوادث التي حفلتْ بها حياتك المديدة .

تحرّك الصحابيّ الجليل في مقعده، ثمّ قال :

ـ كما تحبّان يا حفدة رسول الله ﷺ ويا أحبّاءه، ويا أبناء الإسلام العظيم . .

سوف أحدّثكم بإيجاز، على عادتكم أنتم العرب، فالبلاغة في الإيجاز، وكان رسول الله ﷺ يوجز إذا تكلم، ويوجز إذا خطب، ويوجز إذا تحدّث لجلسائه والوافدين إليه، عليه أفضل الصلاة والسلام .

كنتُ رجلاً من أهل أصبهان، من قرية يقال لها (جَيْ) . .

وكان أبي دُهْقان أرضه.

صادق: عفواً سيِّدي، ما معنى الدُّهْقان؟

سلمان: الدهقان: السيّد والرئيس وصاحب القرية.

صادق: شكراً لك يا سيِّدي..

سلمان: وكنت من أحبِّ عباد الله إليه.. إلى أبي..

وقد اجتهدتُ في المجوسيّة، حتى كنت قاطن النار التي نوقدها، ولا نتركها تخبو.

صادق: عفواً سيِّدي على مقاطعتي إياك.. ما معنى قاطن النار؟

سلمان: قاطن النار: الذي يوقد النار.. القيِّم على النار.. وكنتُ أنا القيّم على نار المجوسيّة.

صادق: أعوذ بالله.

سلمان: وكان لأبي ضيعة، أرسلني إليها يوماً، فخرجت، فمررت بكنيسة للنصارى، فسمعتهم يصلّون، فدخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فأعجبني ما رأيت من صلاتهم، وقلت لنفسي: هذا خير من ديننا الذي نحن عليه، فما برحتُهم (أي ما تركتُهم وغادرتهم) حتى غابت الشمس، ولا ذهبت إلى ضيعة أبي، ولا رجعتُ إليه، حتى بعث في أثري..

صادقة: ألم تسأل النّصارى عن دينهم يا جدّي؟

سلمان: بلى سألتهم عن دينهم، وعن أصل هذا الدّين، فقالوا لي: في الشام.

صادق: وماذا قلتَ لأبيك يا سيِّدي عندما عدتَ إليه؟ ألم تسوّغ له سبب غيابك؟ و..

سلمان: على رِسْلك يا بنيّ.. سوف أحدّثك بما يشفي غليلك إن شاء الله..

قلت لأبي حين عدت إليه: إني مررت على قوم يصلّون في كنيسة لهم، فأعجبتني صلاتهم، ورأيت أنّ دينهم خير من ديننا.

صادق: الله أكبر.. تقول لأبيك بكلّ صراحة؟

صادقة: ما كانوا يعرفون اللفّ والدّوران مثلنا يا أخي.

صادق: أما خفتَ منه يا سيِّدي؟ فأنت تتركُ دينه إلى دين جديد.

سلمان: لا بدَّ من الصّدق يا أولادي.. هذا دين وليس الدين بالأمر السَّهل، ولا بالأمر الهيّن الليّن.. عقيدة تعتقدها وتواجه بها ربَّك.. ولهذا لم أخف، كما أنني قلت لكم: إنه كان يحبّني ويُؤْثرني على غيري.. وقد حاورني أبي فيما قلت وحاورته، فلم يقتنع بما قلت له، كما لم أقتنع بالعودة إلى عبادة النار التي أوقدها، وفي استطاعتي أن أطفئها بما أريق عليها من ماء.

صادقة: ثمّ ماذا يا جدّي؟

سلمان: ثمّ جعل أبي في رجلي حديداً.. قيّدني بقيود حديديّة، وحبسني.

صادقة: لا حول ولا قوة إلا بالله.. هذه ضريبة يبدو أنه لا مفرَّ من أدائها.. كلّ مؤمن مكتوبٌ عليه دفع هذه الضريبة.

صادق: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]. صدق الله العظيم.

صادقة: وبعدها يا جدّي العزيز؟.

سلمان: أرسلتُ إلى النصارى أخبرهم أني دخلت في دينهم، وسألتهم إذا قَدِمَ عليهم ركبٌ من الشام أن يخبروني قبل عودتهم إليها،

لأرحل إلى الشام معهم. وقد فعلوا. فحطّمت الحديد وخرجت، وانطلقت معهم إلى الشام.

صادق: هنيئاً لك يا سيِّدي هذه الجرأة وهذا الإيمان.

سلمان: وهناك في الشام، سألت عن عالمهم، فقيل لي: هو الأسقف صاحب الكنيسة. فأتيتُه وأخبرتُه خبري، وأقمتُ معه أخدم، وأصلّي.

صادقة: حقّقتَ أمنيتك يا جدّي.

سلمان: لا يا ابنتي.

صادقة: لماذا يا جدّي؟

سلمان: لأنّ ذلك الأسقف كان رجل سوء في دينه، إذ كان يجمع الصّدقات من الناس ليوزّعها، ثمّ يكتنزها لنفسه.

صادقة: ولا يعطيها الفقراء والمحتاجين؟

سلمان: كما قلت لكما.. ولهذا أبغضته بغضاً شديداً.

صادقة: بئس رجل الدين هو.

سلمان: ثمّ مات.

صادقة: واسترحتَ واستراح الناس من سوئه وشروره.

سلمان: مات الأسقف السيّئ الذي اكتنز لنفسه سبع قِلال (جِرَار) من الذهب، وكلُّها سرقها من أموال الصّدقات، من أموال الفقراء والمساكين، فاجتمعتْ إليه النّصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إنّ هذا الأسقف كان رجل سوء، يأمركم بالصّدقة ويرغّبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئاً.

قالوا: وما علمُك بذلك؟

قلت: أنا أدلّكم على كنزه.

قالوا: فدلَّنا عليه.

فأريتُهم موضعه، فاستخرجوا منه سبع قِلال مملوءة ذهباً، فلّما رأوها قالوا:

«والله لا ندفنه أبداً».

فصلبوه، ثمّ رجموه بالحجارة.

صادق: يستأهل هذا المصير.

صادقة: وأنت، يا جدّي العظيم، تستأهل كلَّ خير على شجاعتك وأمانتك.

صادق: إني أتخيّل ماذا كان يفعل غيرك؟ لا بدّ أنه كان يسرق ذلك الذهب، ويسكت عن ذلك الأسقف الشرّير.

صادقة: ولهذا جذبك الإسلام إليه، وكنت صفيَّ رسول الله ﷺ.

صادق: ثمّ ماذا يا سيّدي؟ فقد شوّقتَنا لمعرفة المزيد من هذه الحياة الحافلة.

سلمان: ثمّ جاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً يصلي الخمس أفضلَ منه، ولا أزهدَ في الدنيا، ولا أرغبَ في الآخرة، ولا أدأبَ منه على العبادة ليلاً ونهاراً.

صادقة: هنيئاً لك به يا سيّدي، فقد وقعتَ على ضالّتك.

سلمان: فأحببتُه حبّاً ما علمتُ أنّني أحببتُ أحداً مثله قبْلَه.. وأقمتُ معه زماناً، فلمّا حضرتْه الوفاة قلت له:

«يا فلان. إني قد كنت معك، فأحببتك حبّاً لم أحبَّه أحداً من قبلك، وقد حضرتْك الوفاة، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟».

قال: «أيْ بنيّ.. والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنتُ عليه، لقد

هلك الناس، وبدّلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالمَوصل، وهو فلان، وهو على ما كنتُ عليه، فالْحَقْ به».

صادق: أعوذ بالله.. لم يبق على دين النصرانية إلا ذلك الرجل؟ ومنذ ذلك الزمان؟.

صادقة: أجل يا أخي.. لقد غيّروا، وبدّلوا، وتركوا دين الله، واتّبعوا الهوى والشّهوات، هم واليهود من قبلهم، ولذلك لم يؤمنوا بالنبيّ الكريم محمد.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

سلمان: عليه الصلاة والسلام.

فلمّا مات الرّجل، وغُيّب تحت الثَّرى، لحقتُ بصاحب الموصل، فقلت له:

«يا فلان. إنّ فلاناً أوصاني عند موته أن ألحقَ بك، وأخبرني أنّك على أمره».

فقال لي:

«أقمْ عندي».

فأقمتُ عنده ما شاء الله أن أقيم، ثمّ حضرتْه الوفاة، فقلت له:

«يا فلان. إنّ فلاناً أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني به؟»

قال: «أيْ بنيّ. والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنّا عليه إلا رجلاً بنُصيبين، وهو فلان. فالْحَقْ به».

صادقة: كم تعذّبتَ وأضنيتَ نفسك يا جدّي، وأنت تلاحق الصالحين، بحثاً عن الحقيقة.

سلمان: فلّما مات صاحبي وغُيِّب في التّراب، لحقتُ بصاحب نصيبين، وأخبرته بما جرى وبما كان من أمري، ومما أمرني به صاحبي، فقال لي:

«أقمْ عندي».

فأقمتُ عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، ولكنّ الموت ما لبث أن نزل بذلك الرجل الخيّر، فلمّا حضرته الوفاة قلت له:

«يا فلان. إنّ فلاناً كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟»

قال: «أيْ بنيّ. والله ما أعلم أحداً بقي على أمرنا، آمرُك أن تأتيه، إلا رجلاً بعمّورية، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببتَ فأتِه، فإنّه على مثل أمرنا».

فلمّا مات صاحب نصيبين هذا، لحقتُ بصاحب عمّورية، وأخبرته خبري، فقال:

«أقمْ عندي».

فأقمتُ عند رجل على هَدْي أصحابه وأمرِهم.

صادق: عفواً يا سيِّدي.. كيف كنتَ تعيش؟ من أين كنتَ تأكل؟ من مالٍ أخذتَه من أبيك الغنيّ مثلاً؟

سلمان: لا يا بنيّ.. ما كان لي أن آكل من ذلك المال الحرام، مال المجوس، بل كنت أعمل بيدي، وآكل من عرق جبيني.

صادقة: بارك الله فيك يا جدّي العفيف، فما ينبغي لرجل مثلك يترك المال والزّعامة والجاه في بلده، ويرحل وراء حلم كان يراودك للوصول إلى الدّين الحقّ.. أقول: ما ينبغي لمثلك إلا أن يأكل من كدّ يمينه.

صادق: أنا أعتذر عن سؤالي الفجّ يا سيّدي.

سلمان: ولمَ الاعتذار يا بنيّ؟ أنت لم تخطئ في سؤالك. . كان ينبغي أن تسأل، لتعرف الحقيقة.

صادقة: وأنا أعتذر عن سؤال أخي يا جدّي، لأنّه كان عليه أن يعرف مع من يتحدّث.

سلمان: يتحدّث مع رجل مسلم كسائر المسلمين يا بنيّة. .

هل أتابع حديثي؟

صادق وصادقة: نعم يا سيّدي يا جدّي العزيز.

سلمان: ثمّ نزل الموت بساحة صاحبي، وقبل أن تدركه الوفاة، ذكرتُ له ما كان من أمري مع أصحابه، ثمّ سألته أن يوصي بي إلى من يعرف من أصحابه الصالحين، وما يأمرني به، فقال:

«أيْ بنيّ. والله ما أعلم أصبحَ على ما كنّا عليه أحدٌ من الناس آمرُك أن تأتيه، ولكنّه قد أظلّك زمان نبيّ مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجراً إلى أرضٍ بين حَرّتين.

صادق: عفواً يا سيّدي. . ما معنى الحَرّتين؟

صادقة: أنا أجيبه يا جدّي إذا سمحت.

سلمان: أجيبيه يا صادقة.

صادقة: الحَرّتان مثنّى حَرّة. والحَرّة: هي الأرض ذات الحجارة السود.

صادق: شكراً لك يا صادقة. . نعمْ يا سيّدي الصّحابيّ الجليل.

سلمان: قال لي صاحبي أسقف عمّورية:

«قد أظلّك زمانُ نبيّ مبعوثٍ بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجراً إلى أرضٍ بين حَرّتين، بينهما نخلٌ، وفيه علاماتٌ لا تخفى، يأكل

الهديّة، ولا يأكل الصَّدَقة، بين كتفيه خاتم النبوّة. فإن استطعتَ أن تلحق بتلك الدّيار فافعل».

صادقة: علامات النبوّة إذن، يا جدّي، أنّ النبيّ العربيّ

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: لا يأكل الصَّدقة، ويأكل الهديّة، وبين كتفيه خاتم النبوّة.

سلمان: نعم يا ابنتي.. هكذا قال لي صاحبي الرجل الصالح: أسقف عمّورية.

ثمّ مات هذا الرجل الصالح، فمكثت بعمّورية ما شاء الله أن أمكث، ثمّ مرّ بي نفرٌ من التجار، من قبيلة بني كلب العربيّة، فوجدتها فرصة سانحة، في الذّهاب إلى بلاد العرب، فعرضتُ عليهم أن يحملوني معهم إلى أرض العرب، وأعطيهم بقراتي وغنماتي.

صادق: فقبلوا.

سلمان: فأعطيتهم إياها، وصحبْتُهم، حتى إذا قدِموا بي إلى وادي القُرى، ظلموني، فباعوني لرجل من يهود.

صادق: كيف باعوك وأنت حرّ يا سيّدي؟

سلمان: غدروا بي، وادّعوا أنني عبدٌ من عبيدهم، وصرتُ إلى ذلك اليهوديّ، ورأيت النخل، ورجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي أسقف عمّورية.

صادق: ولكنّك تقول، يا سيّدي، إنهم باعوك في وادي القُرى، وليس في المدينة المنوّرة.

سلمان: حلمَك عليّ يا صادق، حتى أتمَّ حديثي.

صادق: أنا آسف يا سيِّدي.. تفضّلْ.

سلمان: فبينا أنا عند ذلك اليهوديّ، قدِمَ عليه ابن عمّ له من المدينة

المنوّرة، من بني قريظة، فابتاعني (أي اشتراني) منه، واحتملني (أي أخذني معه) إلى المدينة، فوالله، ما إنْ رأيتُها حتى عرفتُها، فقد كانت كما وصفها لي صاحبي العمّوري، فأقمتُ فيها.

صادق: ورأيتَ النبيَّ الكريم ﷺ؟

سلمان: لا يا صادق.. ابتعث الله رسوله ﷺ في مكة، فأقام فيها كلَّ تلك المدّة، وأنا لا أسمع له بذكر، مع ما أنا فيه من أمر الرّق من شغل.

صادقة: لا حول ولا قوة إلا بالله..

سلمان: ثمّ هاجر النبيّ الكريم إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس نخلة لسيّدي اليهوديّ أعمل فيها بعض العمل، وسيّدي جالس في ظلّ النخلة، إذ أقبل ابن عمٍّ له حتى وقف عليه، فقال له:

«يا فلان.. قاتل الله بني قَيْلة. والله إنهم الآن لمجتمعون في (قُبَاء) على رجل قدمَ عليهم من مكة اليوم، يزعم أنّه نبيّ».

صادق: عفواً يا سيِّدي لمقاطعتك.. من هم بنو قَيْلة؟

صادقة: أنا أقول لك يا أخي.. إنهم الأوس والخزرج، لُقِّبوا بهذا الاسم، نسبة إلى أمّهم قَيْلة بنت كاهل.

صادق: شكراً يا صادقة.. تفضّل يا سيّدي تابعْ حديثك، فهو يأخذ بمجامع القلوب.

سلمان: فلمّا سمعت كلامه، أخذتْني الحُمَّى، حتى ظننتُ أني ساقط على سيّدي. ثمّ نزلتُ عن النخلة، وقلت لابن عمه: ماذا تقول؟

فغضب سيّدي، فلكمني لكمة شديدة وقال:
«مالك ولهذا؟ أقبلْ على عملك».

اشتدّ غضبي لما أسمع، فقلت لسيّدي سلمان:

ـ وسكتَّ له؟

أجاب الرجل الصالح :

ـ قلت له : لا شـيء . . لا أريد شيئاً . إنما أردت أن أتأكّد من صحّة ما سمعت من ابن عمّ سيّدي .

وقلت في الحدّة نفسها :

ـ وما تزال تصفه بسيّدك ؟

أجاب الصحابيّ الجليل في ابتسام :

ـ أليست هذه هي الحقيقة ؟

فصحتُ :

ـ أيّ حقيقـة تعني ؟ أن يغدر بـك أجلاف العرب ، ويبيعوك ليهوديّ أثيم ، بعد أن أعطيتهم كلَّ ما تملك من غنم وبقر ؟

قال الصحابيُّ الجليل في هدوء عجيب :

ـ لا تأسَ (تحزن) على ما فات ، والأمور بخواتيمها .

وتدخّلتْ صادقة :

ـ ألا نعود إلى حديثك الرائع يا جدّي الرائع ؟

ابتسم الرجل الصالح وهو يقول :

ـ بل أنتم الرائعون . . أنتِ يا صادقة . . وأنت يا صادق .

وجال بناظريه فينا ثمّ قال متابعاً حديثه :

ـ ولمّا أمسيتُ ، جمعـتُ ما كـان عندي ، ثم خرجـتُ حتى جئـتُ رسول الله ﷺ بقُباء . . دخلتُ عليه ، وكان معه نفرٌ من أصحابه ، وقلت له ، مختبراً إياه ـ بأبي هو وأمي ـ عن أول علامة من علامات نبوّته :

«إنكم أهل حاجة وغربة ، وقد كان عندي طعام نذرتُه للصدقة ، فلمّا ذُكر لي مكانكم ، رأيتكم أحقَّ الناس به ، فجئتكم به» .

صادق: فامتنع الرسول الكريم عن الأكل منه.

سلمان: وقال لأصحابه: «كلوا باسم الله» وأمسك هو، فلم يبسط إليه يده، فقلت في نفسي:

«هذه والله واحدة.. إنه لا يأكل الصَّدَقة».

صادقة: عليه صلوات الله وسلامه.

سلمان: رجعتُ إلى بيتي، ثمّ عدت إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الغداة، أحمل طعاماً، وقلت له ـ بأبي هو وأمّي ونفسي ـ:

«إني رأيتك لا تأكل الصَّدقة، وقد كان عندي شيء أحبُّ أن أكرمك به هديّة».

ووضعت الطعام بين يديه الشريفتين، فقال لأصحابه:

«كلوا باسم الله».

وأكل معهم.

صادق: فقلتَ في نفسك ـ يا سيّدي ـ: هذه هي العلامة الثانية من علامات نبوّته.. إنه يأكل الهديّة.

سلمان: ثمّ رجعتُ فمكثت ما شاء الله، ثمّ أتيتُ رسول الله، فوجدتُه في البقيع قد تبع جنازة، وحوله أصحابه، وعليه شملتان، كان مؤتزراً بواحدة، ومرتدياً الأخرى، فسلّمتُ عليه، ثمّ عدلتُ لأنظر أعلى ظهره، فعرف أني أريد ذلك، فألقى بُردته عن كاهله، فإذا العلامة بين كتفيه.. خاتم النبوّة كما وصفه لي صاحبي العمّوري، فأكببتُ عليه أقبّله وأبكي.

صادق: هنيئاً لك يا سيِّدي.

سلمان: ثمّ دعاني ـ بأبي هو وأميّ ونفسي ـ فجلستُ بين يديه، وحدّثته حديثي كما أحدّثكم الآن.

فقالت صادقة وهي تمسح دموعها :

ـ ثمّ أسلمتَ يا جدّي، ونلتَ شرف صحبة النبيّ الكريم ﷺ. أمّا نحن، فلم تكتحل عيوننا برؤية النبيّ العظيم، ولا شاهدتْ خاتم النبوّة بين كتفيه الطّاهرين الشامخين.

كانت صادقة تتحدّث في تأثر شديد، انتقلت عدواه إليّ، ففرّت بضع دمعات من عينيّ، فهدّأ الصحابيّ الجليل من روعنا، وبشّرنا بأننا أحبّاء رسول الله ﷺ، وأنّنا سوف نرد عليه الحوض ـ إن شاء الله تعالى ـ وتكتحل عيوننا بمشاهدة وجهه المنير، فالمرء مع من يحبّ، ونحن نحبّ النبيّ الكريم عليه الصلاة والسلام، وسوف نكون معه بإذن الله.

بعد أن هدأت سألت سيّدي سلمان :

ـ والآن يا سيِّدي، وبعد أن عشنا معك رحلة البحث عن الحقيقة، نرجو أن تحدّثنا عن حياتك الجهاديّة مع الرسول القائد عليه الصلاة والسلام.

ولكنّ صادقة اعترضتْ وبادرتْ تقول :

ـ قبل أن ندخل في معامع الجهاد، أرجو أن تشرح لي، يا جدّي العزيز، معنى خاتم النبوّة الذي رأيتَه، وكان دليلك الثالث على صدق النبوّة.

ابتسم الرجل العملاق وقال :

ـ خاتم النبوّة، يا أولادي، هو قطعة لحم بارزة حمراء عند الكتف الأيسر، عليها شعر كثيف، وهي على هيأة جُمْع الكفّ، ولكنها كالبندقة، لا تزيد عن حجم البندقة أو بيضة الحمامة.

قالت صادقة :

ـ شكراً لك يا جدّي العزيز، وأرجو أن نتلّبث مع الرسول القائد عليه الصلاة والسلام، تحدّثنا عن ذكرياتك الأثيرة مع النبيّ الكريم، وكلُّها أثيرة!.

قال الصحابيّ الجليل :

ـ صدقتِ يا صادقة . . كلّها ذكريات أثيرة وحبيبة .

وأغمض سلمان عينيه ، ورفع حاجبيه ، وسرح بفكره ثم قال :

ـ شغلني الرقُّ كثيراً عن رسول الله ﷺ ، حتى فاتني حضور غزوتي بدرٍ وأحد ، فما كان من سيِّدي رسول الله .

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

سلمان : إلا أن أمرني بأن أكاتب .

صادق : ما معنى أن تكاتب يا سيِّدي؟

سلمان : ألا تعرفون ما معنى مكاتبة العبيد؟

صادق : لا يا سيِّدي ، لا نعرف ، لأنّ الرّقّ قد أُلغي من حياتنا منذ زمن .

سلمان : الحمد لله . . فهذا ما كان يسعى إليه الإسلام الذي عمل على تجفيف منابعه ، تمهيداً لإلغائه .

صادقة : نعمْ يا جدّي العزيز .

سلمان : قال لي رسول الله ﷺ : «كاتِبْ يا سلمان» .

صادق : يعني؟

سلمان : يعني . . اشترِ نفسك من سيِّدك .

صادق : لم أفهم .

سلمان : أنا أفهّمك . . كان العبد الرّقيق منّا يشتري نفسَه من سيّده ، يقول لسيّده : أريد تحرير نفسي من العبوديّة . . بعني نفسي . ثمّ يتّفق العبد وسيّده على مبلغ من المال يدفعه العبد لسـيّده ويصير حرّاً .

صادق : فهمتُ . .

سلمان: فكاتبتُ صاحبي.. اشتريت حرّيّتي بثلاث مئة نخلة وبأربعين أوقية من الذهب.

صادق: يا لطيف.. ومن أين لك كلُّ هذا يا سيِّدي؟

سلمان: أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يعينوني على دفع المبلغ.. قال لهم: «أعينوا أخاكم» فأعانوني بالنخل، فكان هذا يأتيني بثلاثين وَدِيّة،

صادق (مقاطعاً): عفواً سيّدي.. ما معنى الوَدية؟

سلمان: الوَدِيّة هي غصن يخرج من النخل، فيُقطع ثمّ يُغْرَس.

صادق: شكراً لك يا سيّدي.

سلمان: وكان الآخر يأتيني بعشرين وديّة، وثالث بخمس عشرة وديّة، ورابع بعشر، وهكذا حتى تجمّع لديّ ثلاثُ مئة وديّة، فقال لي رسول الله

الجميع: صلى الله عليه وسلم

سلمان: «اذهبْ يا سلمان فنقِّرْ لها (أي احفرْ لكلٍّ منها حفرة) فإذا فرغت (من الحفر لها) أكون أنا أضعُها بيدي» (أي أنّ رسول الله ﷺ، يريد أن يغرس تلك الوديّات بيديه الطاهرتين).

صادقة: وكذلك كان يا جدّي؟

سلمان: ففقَّرتُ لها، أي حفرتُ لها ثلاث مئة حفرة، وأعانني أصحابي الكرام في عملية الحفر هذه، ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرتُه، فخرج معي إليها، فجعلنا نقرّب له الوَديَّ، ويضعه رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

سلمان: بيده الشريفة، كما كان يسقيها من دلوٍ بيده الشريفة أيضاً، فوالله ما مات منها وديّة واحدة.

صادقة: أدّيتَ النخل، وبقي الذهب يا جدّي.

سلمان: أجلْ يا ابنتي.. بقي عليّ أن أؤدّي لصاحبي أربعين أوقيةً ذهباً.

صادقة: من أين جئتَ بها يا جدّي؟

سلمان: من عند سيِّدي رسول الله ﷺ..

أعطاني رسول الله - بأبي هو وأمي ونفسي - قطعة ذهبيّة مثل بيضة الدجاجة، أتاه بها أصحابه الكرام، وقال لي:

«خذْ هذه فأدِّ بها ما عليك يا سلمان».

نظرتُ إلى تلك القطعة الذهبيّة، فاستقللْتُها، وقلت:

«وأين تقع هذه مما عليّ يا رسول الله؟».

فقال لي النبيُّ الكريم:

«خذها، فإنّ الله - عزّ وجلّ - سيؤدّي بها عنك».

«فأخذتُها، فوزنتُ لصاحبي منها - والذي نفسُ سلمانَ بيده - أربعين أوقيّة، فأوفيتُه حقَّه، وعُتقتُ، وتحرّرتُ، وكنتُ مع رسول الله ﷺ، فشهدتُ معه غزوة الخندق وغيرها، لم يَفُتْني معه مشهد».

صادق: وصلْنا إلى مربط الفرس يا سيّدي.. نريد أن تحدّثنا عن غزوة الخندق، فقد تعلّمنا وقرأنا أنك كنتَ صاحب فكرة الخندق.

سلمان: أجلْ يا ولدي.. وسوف أحدّثكم عن هذه الغزوة التي كان اليهود والمشركون العرب يريدون بها استئصال شأفة الإسلام والمسلمين ونبيّ الرحمة معاً.

صادق: نريد التفصيل يا سيِّدي.

سلمان: كما تحبُّ يا ولدي.. فاسمعوا وعُوْا ما أقوله جيّداً..

قصد نفرٌ من زعماء يهود إلى مكة المكّرمة، في السنة الخامسة للهجرة

النبويّـة، والتقوا فيها زعماء المشركين، وألّبوهم (حرّضوهم) على النبيّ الكريم وعلى الإسـلام والمسـلمين، وعاهدوهم أن يكونـوا معهم ضدّ المسلمين، حتى يستأصلوهم من جذورهم.

اتفقوا على أن يهاجم المشركون المدينة وأهلها المسلمين من الخارج، وأن يهاجم اليهود من الداخل، في عملية غدر عُرف به اليهود من قديم الزمان.

صادقة: والمعاهدة التي كانت بين المسلمين واليهود؟

سـلمان: اليهود لا عهد لهم ولا ذمّـة.. إنهم غدّارون، وهم بهذه الخطة الخبيثة يضعون المسلمين بين شقّي رحى.

صادق: والمسلمون؟

سلمان: ما كنّا ندري من أمر هذه الخطة الخبيثة شيئاً، حتى فوجئنا بجيش عَرَمْرَم (أي كبير) يتوجّه نحو المدينة.

صادق: كم كان عدد جيش المشركين يا سيّدي؟

سلمان: كانوا عشرة آلاف مقاتل.

صادق: من قريش؟

سلمان: بل من قريش ومن سائر القبائل العربية.. زعماء اليهود التقَوْا أولاً زعماءَ قريش، وحرّضوهم على المسلمين، وتعاهدوا على أن يكونوا معاً ضدّ الإسلام والمسلمين، ثم خرجوا إلى قبيلة غَطَفان، ودعوهم إلى قتال المسلمين، فاستجابوا لهم، ثم طافوا في قبائل العرب، ودعوهم إلى ذلك، فاسـتجابت لهم بعض القبائل، واتّعدوا وتعاهدوا وتقاسـموا وتواثقوا، ثمّ انطلقوا يستعدّون، حتى إذا كان الموعد الذي اتفقوا عليه لمهاجمة المدينة، خرجت قريش في أربعة آلاف، بقيادة أبي سفيان، وخرج بنو سليم، وخرج بنو أسد، وخرجتْ فزارة وأشجع وبنو مُرّة، وجاءت غطفان، حتى بلغ جيش الأحزاب المشركة عشرة آلاف مقاتل.

صادق: إذن سمَّوْا هذه الغزوة باسم غزوة الأحزاب، لأن المشركين

المهاجمين كانوا من عدّة قبائل؟

سلمان: وأسموها غزوة الخندق من أجل الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة.

صادقة: نعمْ يا جدّي، نحن نصغي إليك.

سلمان: لمّا سمع رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم

سلمان: بمسير المشركين إلى المدينة، استشار أصحابه فيما يفعل مع هذا الجيش الضخم المهاجم، فأشرتُ عليه بحفر الخندق.

صادق: كيف اهتديتَ إلى هذه الفكرة الرائعة يا سيّدي؟

سلمان: لمّا رأيت كثافة جيش المشركين، وقلّة عدد جيش المسلمين، علوتُ هضبة عالية، ومسحتُ أرض المعركة القادمة بناظري، فرأيت المدينة محصَّنة بالجبال والصخور والبساتين المحيطة بها من كلّ جانب، ما عدا فجوة واسعة شمال المدينة، وتذكّرت ما كان يفعل الفرس المدافعون عن مدنهم بحفر الخنادق حولها، فأسرعتُ إلى رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

سلمان: وأشرتُ عليه بحفر الخندق من تلك الجهة المَخُوْفة، وفكّر الرسول بما أشرت به عليه، ثمّ ما لبث أن اقتنع بالفكرة، وأمرَنا بحفر الخندق.

صادق: كيف تمّ حفر الخندق قبل وصول الجيش المهاجم يا سيّدي؟

سلمان: قسم النبيُّ منطقة الحفر على أصحابه، فكان لكل عشرة منا أربعون ذراعاً، وكان النبيّ الكريم يعمل معنا، يحفر ويحمل كأيّ فردٍ منا، وكنا نستعين به في تفتيت الصخور الضخمة.

صادقة: يعني . . كان الرسول القائد يحفر الخندق بيديه الشريفتين، ويحمل الأتربة والحجارة على ظهره مثلكم يا جدّي؟

سلمان: بل ربّما حفر وحمل أكثر ممّا نحفر ونحمل، وكان ينشد من شعر عبد الله بن رواحة:

لا همَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلنْ سكينةً علينا ... وثبّتِ الأقدامَ إنْ لاقينا
إنّ الذين قد بَغَوْا علينا ... إذا أرادوا فتنةً أَبَيْنا

وكنّا ننشد معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في سعادة:

اللهمّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخره
فارحم الأنصار والمهاجره

وكنّا نهتف ونحن نحفر ونعمل بجدّ:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

حتى انتهينا من حفر خندق عريض عميق، لا يقوى المشركون على اجتيازه، وذلك قبل وصول الجيش المهاجم من الأحزاب الكافرة.

صادقة: كان عددكم ثلاثة آلاف يا جدّي، أليس كذلك؟

سلمان: بلى يا ابنتي . . وقد عانينا الكثير من الجوع والتعب . . كنّا نعمل في النهار، ونستريح في الليل في بيوتنا، وعيون الحرس يقظى ترصد الطرقات، فقد بثَّ الرسول القائد عيونه في كل مكان.

صادقة: عليه صلوات الله وسلامه.

سلمان: وعندما حضر جيش الشرك، فوجئ المشركون بالخندق، إذ لم يكن للعرب عهد بمثل هذه الوسيلة الدفاعية، كما فوجئوا بالمسلمين وقد اتخذوا لأنفسهم مواقع خلف الخندق.

صادق: واليهود؟ ألم يكونوا اتفقوا مع المشركين على الهجوم والغدر بالمسلمين من الداخل؟

سلمان: أجلْ يا بني.. ولكنّهم جبناء، ولم يجرؤوا على مهاجمتنا، والرسول العظيم كان حاسباً حساب غدرهم، فبثّ حولهم العيون، ليأتوه بأخبارهم، وكان ـ عليه السلام ـ قد وضع نساء المسلمين وأولادهم في بيوت محصَّنة، وأمَّر عليهم عبد الله بن أمّ مكتوم.

صادقة: الأعمى؟

سلمان: الأعمى بصراً، البصير بصيرة يا بنتي.

وأذكر لكم بهذه المناسبة، أننا عندما علمنا بنقض يهود للمعاهدة، خفنا، واشتدّ الأمر علينا، وازدادت يقظة الرجال والنساء منا، وعندما أرسل يهود واحداً منهم، وراح يطيف بحصن نساء المسلمين، نزلت إليه صفيّة بنت عبد المطلب، عمّة رسول الله ﷺ، وأخت أسد الله حمزة، فقتلَتْه.

فهتفتُ أنا وصادقة:

ـ الله أكبر.. الله أكبر.

ثمّ تابع سيّدي سلمان يقول:

ـ مرّ بنا شهر كامل من الحصار، لقينا فيه ما لقينا من العَنَت، ومع ذلك، كنّا سعداء إلى جانب رسول الله ﷺ، نستمدّ من صبره وشجاعته وعزيمته ما يُعيننا على لأواء الحياة، وشدّة الحصار، وأحاط المشركون بالمسلمين حتى جعلوهم في مثل الحصن من كتائبهم، ووجَّهوا نحو منزل رسول الله ﷺ كتيبة غليظة، فقاتلها المسلمون يوماً إلى الليل، فلمّا حانت صلاة العصر، دنت الكتيبة من المنزل، فلم يقدر النبيُّ ولا أحد من أصحابه على الصلاة، فلمّا انكفأت الكتيبة المشركة من الليل، قال رسول الله ﷺ:

«شغلونا عن صلاة العصر، ملأ الله بطونهم وقلوبهم ناراً».

وزفر الصحابيُّ الجليل زفرة حَرَّى، ثم قال:

ـ فلمّا اشتدّ البلاء، بحصار المشركين من الخارج، والخوف من غدر يهود من الداخل ـ نافقَ ناسٌ كثير، وتكلّموا بكلام قبيح.

ورأى رسول الله ـ ﷺ ـ ما بالناس من بلاء وكرب، فانطلق يبشّرنا ويقول:

«والذي نفسي بيده، ليفرجنّ عنكم ما ترون من الشّدّة، وإني لأرجو أن أطوفَ بالبيت العتيق آمناً، وأن يدفعَ الله إليّ مفاتيح الكعبة، وليهلكنّ الله كسرى وقيصر، ولننفقنّ كنوزهما في سبيل الله».

فهتفتُ عالياً:

ـ الله أكبر! ما أعظمك من قائد يا سيّدي يا رسول الله!.

فتابع الصحابيُّ الجليل:

ـ كما بشّرَنا رسول الله بالنصر، ونحن في أشدّ الأوقات العصيبة، بعدما علمنا بغدر يهود. قال لنا النبيُّ الكريم:

«الله أكبر! أبشروا يا معشر المسلمين».

وأذكر أن فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبد وُدّ، أقبلوا نحو الخندق، فلّما وقفوا عليه قالوا:

«إنّ هذه مكيدةٌ ما كانت العرب تعرفها».

ثم توجّهوا نحو مكان ضيّق من الخندق، فاقتحموه، وجالت بهم خيولهم، ودعوا إلى المبارزة، فخرج البطل العظيم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لعمرو، فاستصغره عمرو واحتقر شأنه، وقال له:

«اذهبْ يا ابن أخي، فإني لا أريد أن أقتلك».

فأجابه الأسد الهصور:

«ولكني والله أريد قتلك».

فحمي عمرو، وهجم على عليّ، ولكنّ الله القويّ قتل عمراً على يَدَيْ عليّ كرّم الله وجهه. وكان عمرو من شجعان العرب وأبطالهم، فلما رآه أصحابه وقد تعفّر بالتراب مضرَّجاً بدمائه، ولّوا هاربين.. انهزموا إلى أصحابهم، وشعار المسلمين في تلك الغزوة: (حم لا يُنْصَرون) يملأ مسامعهم.

كنتُ وصادقة مشدودَين إلى حديث الصحابيّ الجليل، وكانت مشاعرنا مضطربة.. كنا نمتلئ خوفاً على الرسول القائد وصحبه الكرام حيناً، مع أننا نعرف أنّ النبيّ الكريم انتصر وأصحابه على المشركين فيها، ومرة كانت السعادة تغمر نفوسنا، ونحن نسمع أحاديث البطولة والصبر على الجوع والعطش والخوف والتعب، وأردت مخرجاً مما نحن فيه من آلام وأحزان وآمال، فسألتُ الصحابيَّ الجليل عن أجمل ذكرى له في تلك المعركة التاريخية الحاسمة، فابتسم ابتسامة عريضة وقال:

ـ برغم كلّ ما مرّ بنا ومررنا به من آلام وأحزان، فإن الذكريات الأثيرة والحبيبة إلى نفسي كثيرة، ولكنّ أروعها حديث الصّخرة.

واعتدل الشيخ الجليل في جلسته، ومسح على شفتيه ولحيته ثم قال:

ـ خلال حفر الخندق، برزتْ لنا في المكان الذي أحفر فيه صخرة عاتية، حاولت تحطيمها فلم أفلح، فقد كانت أقوى مني وممن يعملون معي في الحفر، فذهبت إلى النبيّ الكريم، وأخبرته بأمر الصّخرة، وما إذا كان من الممكن أن نتركها لنحفر أمامها أو خلفها، ولكنّ الرسول القائد العظيم ترك مكانه الذي يحفر فيه كأيّ فردٍ منا، وذهب معي، فلمّا رأى الصخرة القاسية، رفع معوله بكلتا يديه، وأمرنا أن نبتعد حتى لا نصاب بشظاياها، ثمّ سمَّى الله تعالى، وهوى بمعوله على الصخرة، فتصدّعتْ قليلاً، وبَرَقَ وهجٌ شديد أضاء جوانب المدينة، وهتف الرسول ﷺ مكبّراً:

«الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح فارس، ولقد أضاء لي منها قصور الحِيْرة،

ومدائن كسرى، وإن أمتي ظاهرةٌ عليها».

فصاحت صادقة:

ـ الله أكبر.. وأنتم في خوفكم وشدّتكم والعدوّ يحيط بكم من الداخل والخارج، يبشّركم الرسول القائد بالنصر، وبفتح بلاد فارس، والعراق، وعاصمة كسرى!.

وتابع الصحابيُّ الجليل حديثه:

ـ ثمّ رفع، عليه الصلاة والسلام، المعول ثانية، وهوى به على الصخرة، فصدّعها قليلاً، وبَرَقَ لمعانٌ شديد كالضربة الأولى، أضاء جوانب المدينة، وكبّر الرسول القائد تكبير نصر قائلاً:

«الله أكبر.. أُعطيتُ مفاتيح الروم، ولقد أضاء لي منها قصورها الحمر، وإنّ أمّتي ظاهرة عليها».

فهتفتُ إعجاباً:

ـ هنيئاً لكم هذه البُشْرَيَات من الرسول القائد، في هذا الموقف العصيب يا سيّدي.

وتابع الصحابيُّ الجليل حديثه:

ـ ثمّ ضرب الرسول العظيم ضربته الثالثة، فمزّق الصخرة وفتّتها، وأضاء برقُها الشديد جوانب المدينة مرّةً ثالثة، وكبّر الرسول العظيم وكبّر المسلمون معه، وبشّرنا أنه يبصر الآن قصور الشام وصنعاء وسواها من مدائن الأرض التي ستعلوها راية «لا إله إلا الله».

وأخرج الصحابيّ الجليل منديلاً نظيفاً مسح به عرقه الذي كان يتفصّد من جبينه، وكأنه كان في خندقه يحفر، ثم يراقب رسولَ الله وهو يصدّعُ الصخرة الضخمة، فاهتبلتُ الفرصة وقلت:

ـ هنيئاً لك يا سيّدي، فقد كنت صاحب فكرة الخندق، وكنت

صاحب الصخرة التي تفجّرت منها بعض أسرار الغيب، وكنت ترى بعينيك رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: وهو يهوي بمعوله على تلك الصخرة، وقد رأيتَ مع أصحابك ذلك البريق الوضّاء الذي أضاء جوانب المدينة المنورة، وهو يحمل البشرى للرسول القائد، ثمّ لكم، بفتح بلاد الفرس والروم، وبلاد العراق والشام واليمن.

سلمان: ولقد وصفَ لي رسولُ الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

سلمان: قصرَ كسرى في عاصمته (المدائن) كأنه كان يراه أمامه، وكنتُ أقول له: صدقت، إنّ هذه هي صفة القصر، وأشهد أنك رسول الله.

صادقة: هل كنتَ تعرف قصر كسرى يا سيّدي؟

سلمان: أجلْ يا ابنتي.. فلطالما رأيتُه وتأمّلته.

صادق: ثمّ ماذا يا سيّدي؟

سلمان: ثمّ قال لي الرسول العظيم عليه صلوات الله وسلامه وبركاته:

«هذه فتوح يفتحها الله عليكم بعدي يا سلمان.. لَتَفتحُنَّ الشام، ويهرب هِرَقْلُ إلى أقصى مملكته، وتظهرون على الشام، ولا ينازعكم أحد، ولَتَفتحُنَّ اليمن، ولتفتحنّ هذا المشرق، ويُقْتَل كسرى، فلا يكون كسرى بعده».

صادق: صدق رسول الله ﷺ، فما كان ينطق عن الهوى، إنْ هو إلا وحيٌ يوحى.

صادقة: وماذا تحقق من تلك البشارات في حياتك يا جدّي؟

سلمان: فُتحت الشام، وفُتح العراق، وفُتحت بلاد فارس، وصرتُ

أنا العبدَ الفقير القليل أميراً لمدائن كسرى، وقُتل كسرى، ولم يأت من بعده كسرى آخر، وفُتحت صنعاء وبلاد اليمن، وهرب هرقل قيصر الروم من سورية وهو يقول:

«وداعاً يا سورية وداعاً لا لقاء بعده».

صادق: هل تذكر لنا ـ يا سيدّي ـ حديثاً عن فضل الجهاد في سبيل الله؟

سلمان: اسمعوا ـ إذن ـ هذا الحديث الذي سمعته من النبيّ الكريم.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

سلمان: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«رباطُ يوم وليلة خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامه، وإن مات ـ المرابط في سبيل الله ـ جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجريَ عليه رزقُه، وأَمِنَ الفتّان».

صادق: ماذا تذكر لنا ـ يا سيّدي ـ عن قتالك في سبيل الله تعالى؟

سلمان: قاتلتُ إلى جانب رسول الله ﷺ وتحت لوائه الشريف، وشهدتُ معه المشاهد كلَّها، ما عدا بدراً وأُحُداً، لأنني كنت عبداً رقيقاً، كما قاتلتُ الخزر والترك في بَلَنْجَر وجيلان وجرجان، وكنتُ وإخواني المقاتلين، وقّافين عند تعاليم الإسلام ومبادئه في القتال.

صادق: كيف يا سيّدي؟

صادقة: يعني.. حبّذا لو ضربْتَ لنا مثالاً على ذلك.

سلمان: كنتُ ـ مرة ـ أميراً على جيش من جيوش المسلمين في بلاد فارس، وحاصرْنا حصناً من حصونهم، فقال لي أصحابي:

«يا أبا عبد الله!. ألا ننهد إليهم؟»

صادق: يريدون أن يهاجموهم؟

سلمان: نعمْ. . فقلت لهم:

«دعوني أدعُهم، كما سمعتُ رسول الله ﷺ يدعوهم» ثم ذهبتُ إلى أهل الحصن، وقلت لهم:

«إنما أنا رجلٌ منكم، فارسيّ، ترون العرب يطيعونني، فإن أسلمتم، فلكم مثلُ الذي لنا، وعليكم مثلُ الذي علينا، وإن أبيتم إلا دينكم، تركناكم عليه، وتعطوننا الجزية وأنتم صاغرون، وأنتم غير محمودين، وإن أبيتم نابذناكم على سواء».

صادق: فماذا كان جوابهم؟

صادقة: لا بدّ أنهم استجابوا لك يا جدّي.

سلمان: بل قالوا: ما نحن بالذين نعطي الجزية، ولكنّا نقاتلكم.

صادق: وقاتلتَهم يا سيّدي وانتصرتَ عليهم.

سلمان: كذلك طلب مني أصحابي أن أقاتلهم، وقالوا لي:

«ألا ننهد إليهم يا أبا عبد الله؟».

قلت: لا.

صادق: لماذا يا سيّدي؟

سلمان: لأنني يجب أن أدعوهم وأمهلهم ثلاثة أيام، ولذا دعوتهم ثلاثة أيام إلى الإسلام أو الجزية، فلما لم يستجيبوا قلت لأصحابي:
«انهدوا إليهم»

فنهدْنا إليهم، وفتحْنا ذلك الحصن.

صادقة: هل تذكر لنا، يا جدّي، شيئاً مما سمعتَه من الرسول القائد؟

سلمان: بأبي هو وأمي. . فقد قال مرّة:

«يا سلمان لا تبغضني فتفارقَ دينك».

قلت: يا رسول الله! . كيف أبغضك، وبك هدانا الله؟

قال: «تبغض العربَ فتبغضني».

صادقة: الله أكبر. . الذي يبغض العرب يبغض رسول الله ﷺ؟

صادق: كذلك فعل ويفعل الشعوبيون يا أختي صادقة. . يبغضون العرب، ويسبّونهم، منطلقين من بغضهم لنبيّ الإسلام ﷺ، ولغة القرآن.

سلمان: وقال رسول الله ﷺ:

«إنّ الله خلقَ - يومَ خلقَ السماواتِ والأرضَ - مئةَ رحمة، كلُّ رحمة طِبَاقَ ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحشُ والطيرُ بعضُها على بعض، فإذا كان يوم القيامة، أكملها بهذه الرحمة».

صادقة: على ذكر يوم القيامة. . كيف يُحاسَبُ الناس يوم القيامة يا جدّي؟

سلمان: يُحاسبون كما يُرزَقون.

صادقة: هل من حديث آخر يا جدّي؟

سلمان: عندي لكم الكثير من حديث سيِّدي رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

سلمان: ولكنّي سأذكر لكم حديثاً أو حديثين حول الدّعاء، والدّعاء مُخُّ العبادة كما تعلمان. . قال النبيّ الكريم ﷺ:

«إنّ ربّكم حَييٌ كريم، يستحيي من عبده أن يرفع إليه يديه فيردَّهما صِفراً أو خائبتين».

فرفعتْ صادقة يديها إلى السماء وابتهلتْ:

«اللهمّ رُدَّ إلى جدّي خالي محموداً كما رددتَ يوسف إلى يعقوب».

وأمّنتُ على دعائها، كما أمَّن الصحابيُّ الجليل، دون أن يعلم من أمر خالنا محمود شيئاً، ولم نذكر له نحن أن الطغاة اختطفوه من بيته، قبل أن يتخرج في الجامعة طبيباً بأيام، ولكنَّ الصحابيّ الجليل قرأ في عيوننا الحزن فقال:

ـ وقال النبيُّ الكريم ﷺ:

«لا يردُّ القضاءَ إلا الدّعاءُ، ولا يزيد في العمر إلا البرّ».

فأكثروا من الدّعاء إلى الله في سرِّكم وعَلَنِكم تفلحوا، ويردّ الله قضاءه عنكم، وبرُّوا آباءكم وأمهاتكم، يبارك الله في أعماركم.

وفيما كان الصحابيّ الجليل يدعونا إلى الدّعاء، كانت عيوننا وقلوبنا وأيدينا تبتهل إلى الله الكريم، أن يفكّ أسْر المأسورين المسلمين، ويعيد الغائبين إلى ذويهم، وخاصة خالنا محموداً، وأن ينصر المجاهدين في كلّ مكان، ثم صاحت صادقة:

ـ اللهم دمّر الظالمين والطغاة ودمّر عليهم، ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً.. اللهمّ عليك بالطواغيت وأبنائهم وبناتهم وأصهارهم وجلاوزتهم وكلِّ من يعينهم في ظلمهم، فإنهم لا يعجزونك يا جبّار ويا قهّار ويا قاصم ظهور الجبارين الظالمين.

وأمّنّا أنا والصحابيّ الجليل على دعائها:

ـ آمين آمين آمين يا ربَّ العالمين.

وقال الصحابيّ الجليل: قال رسول الله ﷺ:

ـ «الصلاة مكيال، فمن وَفى وُفيَ له، ومن طفَّف، فقد علمتم ما قال الله في المطفّفين» صدق رسول الله ﷺ.

فعلّقت صادقة:

ـ قرأتُ، يا جدّي، أنّ سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لأحد المسلمين: «ما حبسك عن صلاة العصر؟» فذكر الرجل له عذراً، فقال أمير المؤمنين له: «طفّفت» أي أنقصت.

وقلت أنا :

ـ على ذكر سيّدنا عمر يا سيِّدي، أحبّ أن أعرف شيئاً عن علاقتك بهذا الرجل العظيم، رضي الله عنه وأرضاه.

ولكنْ . . وقبل أن يجيب الصحابيّ الجليل، انبرتْ صادقةُ تقول :

ـ دعنا مع حديث الرسول القائد يا صادق، فلعلّ جدّي يقدّم لنا حديثاً أو أكثر، سمعه من النبيّ الكريم، أو رواه عنه.

ابتسم الصحابيّ الجليل سلمان، وهو يدير ناظريه في وجوهنا، ثم قال :

ـ اسمعوا هذا الحديث الشريف :

قال رسول الله ﷺ :

«لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدّهن من دهنه، أو يمسّ من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرّق بين اثنين، ثم يصلّي ما كُتب له، ثمّ يُنْصت إذا تكلم الإمام، إلا غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى». صدق رسول الله ﷺ.

وعلّقت صادقة :

ـ الرجل في هذا الحديث يشمل الرجال والنساء، والصّغار والكبار من الذّكور والإناث طبعاً يا جدّي. فالإسلام دين النظافة للجميع.

وقلت أنا :

ـ ولهذا يزداد حزني كلما شاهدت قذارةً في مسلم، في جسده أو في ثوبه أو في بيته أو في سيارته أو في قريته، أو في مدينته.

وقال سلمان رضي الله عنه :

ـ سوف أبقى أحدّثكم عن الصلاة، عن عمود الدّين، وأحذّركم من

التكاسل عنها، أو أدائها أداءً صُوريّاً لا روح فيها، ألا وأعلموا أنّ المسلم إذا قام إلى الصلاة، وُضعت خطاياه على رأسه، فلا يفرغ من صلاته حتى تتفرّق عنه كما تتفرّق عُذوق النخلة، تسّاقط يميناً وشمالاً.

ـ ما معنى عذوق النخلة يا سيِّدي؟

ـ عذوق النخلة يا صادق، هي غصونها المتشعّبة.

ثمّ تابع الصحابيُّ الجليل قائلاً:

ـ حافظوا، يا أولادي، على الصلوات الخمس، فإنهنّ كفّارات لهذه الجراحات ما عدا الكبائر، ثمّ إنّ الناس إذا أمسَوْا كانوا على ثلاث منازل:

فمنهم مَنْ له ولا عليه.

ومنهم مَنْ عليه ولا له.

ومنهم مَنْ لا له ولا عليه.

ـ كيف يا جدّي؟

أجاب سلمان رضي الله عنه:

ـ أنا أقول لكم كيف.

أمّا الأول، فرجلٌ اغتنم ظلمة الليل، وغفلة الناس، فقام يصلّي حتى أصبح، فذلك له ولا عليه.

ـ عظيم. والثاني؟

ـ وأمّا الثاني، فرجلٌ اغتنم غفلة الناس، وظلمة الليل، فركب رأسه في المعاصي، فذلك عليه ولا له.

ـ يا لطيف.. نعوذ بالله من شرور هذا الصّنف من الناس.

ـ والثالث؟

أجاب الصحابيّ الجليل:

ـ وأمّا الصِّنف الثالث، فرجلٌ صلَّى العشاء ونام، فذلك لا له ولا عليه.

ثمّ اعتدل الصحابيُّ الجليل في جلسته وقال:

ـ إياكم والحَقْحَقَة، وعليكم بالقصد والدّوام.

سألتُ سيِّدي سلمان عن الحقحقة فقال:

ـ أصلُ الحقحقة: السير السريع، أن يجتهد الراكب في السير، ويلحّ عليه حتى تعطب راحلته أو تقف.

فقالت صادقة:

ـ تريدنا أن نقتصد في العبادة، ولا نوغل فيها كثيراً، لأنّ المنبتّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى.

فظهر السرور في وجه الصحابيّ الجليل، وقال:

ـ أحسنتِ يا ابنتي أحسنتِ.. هذا ما أريده.. قوموا ما تستطيعون من الليل، وصوموا ما تستطيعون.

نهضت صادقة، وأقبلت على الصحابي الجليل ابن الإسلام وقالت له:

ـ أذكرتني شيئاً كنتُ نسيتُه، وأريد أن تحدّثنا عنه يا جدّي.

ـ ماذا تعنين يا بنتي؟

ـ أعني حديثك مع أختك أمّ الدَّرْداء، وأخيك أبي الدَّرْداء يا جدّي.

فابتسم سلمان ابتسامة عريضة حتى بانت نواجذه، ثم قال:

ـ زرتُ بيت أخي أبي الدّرداء، فرأيت أمَّ الدّرداء مُبْتَذِلة، أيّ كانت تلبس ثياباً رثَّة، فسألتُها عن حالها، وعن شأنها، ولماذا هي في هذه الصورة المزرية؟ فقالت:

«إنّ أخاك أبا الدرداء ليست له حاجة في الدنيا، يقوم الليل، ويصوم النهار».

فلمّا جاء أبو الدرداء، رحّبتُ به، ثمّ إنّه قرّب إليّ طعاماً، فقلت له: «كُلْ». فقال أبو الدّرداء: «إني صائم» فقلت له: «أقسمتُ عليك إلا أكلتَ، فما أنا بآكلٍ حتى تأكل».

ـ فأكلَ معك يا جدّي؟

ـ أجلْ. . أكلَ معي. ثمّ إنّي بتُّ عنده تلك الليلة، فلما كان ما كان من الليل، قام أبو الدّرداء ليصلّي قيام الليل، فقلت له: «نمْ» فنام، فلمّا كان من آخر الليل، قلت له: قم الآن. فقام، فصلّينا، ثم قلت له:

«إنّ لنفسك عليك حقاً، وإنَّ لربّك عليك حقاً، وإنّ لضيفك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. صُمْ وأفطرْ، وقمْ ونمْ، وائتِ أهلك.»

فلمّا كانت صلاة الفجر، خرجنا إلى مسجد رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

سلمان: فلمّا صلَّى النبيُّ ﷺ، قام إليه أبو الدرداء، فأخبره بما قلتُ له، وأمرتُه به.

صادق: فماذا كان جواب الرسول القائد يا سيِّدي؟

سلمان: قال له الرسول ﷺ مثلما قلت له.

صادقة: عليك يا سيِّدي يا رسول الله أفضلُ صلوات الله وسلامه.

وساد السكوت لحظة، فقطعتْه صادقة بقولها:

ـ لم تحدّثنا عن زواجك يا جدّي. .

وسكتت صادقة، فقد غلبها حياؤها، واحمرَّ وجهها النقيّ، ويبدو أنّ الصحابيّ الجليل لاحظ هذا، فخفّف من وطأته عليها، ومازحني وإياها، ثم قال:

ـ والآن . . يمكنني أن أحدّثكما عن زواجي، لتحدّثوا به أقرانكم . .

واعتدل الشيخ الجليل في جلسته، ثمّ هبَّ قائماً، ثم جلس وهو يبتسم ويقول:

ـ تزوّجتُ امرأة من (كندة)، فبنيتُ بها في بيتها، فلمّا كانت ليلة البناء (أي الزّفاف) مشى معي أصحابي حتى أتيتُ بيت أمرأتي، فلمّا بلغتُ البيت قلتُ لأصحابي: «ارجعوا آجركم الله».

صادقة: ولم تسمح لهم بالدخول معك يا جدّي؟

سلمان: أجلْ يا ابنتي. . لم أسمح لهم بالدّخول، فذلك فعلُ السّفهاء.

صادقة: ولكنّ الناس في زماننا هذا، يدخلون الرجال على النساء في الأعراس، والنساء ـ ومنهنّ العروس ـ في كامل زينتهنّ.

سلمان: هذا لأنهم غير مسلمين.

صادقة: بل هم مسلمون.

سلمان: ولكنهم لا يفهمون الإسلام، ولا يعرفون ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون من التمسك بأهداب هذا الدين الذي جاء بأرفع أنواع الذوق السليم. . هؤلاء الذين تقولين: إنهم مسلمون، سفهاء، سفهاء. . هل تعرفين ما معنى سفهاء؟

صادقة: نعمْ يا جدّي أعرف.

صادق: فهل تتابع حديث زواجك الميمون يا سيّدي؟

سلمان: فلمّا دخلتُ البيت، رأيته منجّداً. . الستائر على جدرانه. . فسألتُ أصحاب البيت: أمحمومٌ بيتكم، أم تحوّلت الكعبة في (كندة)؟

قالوا: ما بيتُنا بمحموم، ولا تحوّلت الكعبة في (كندة).

قلت: فما بال هذه الستائر؟

قالوا: إنها للزينة. . نزيّن بها الجدران.

فأمرتُهم أن ينزعوها، ولم أدخل البيت حتى نزعوها جميعها غير ستر الباب.

صادقة: الله أكبر.

سلمان: ثمّ لمّا دخلتُ رأيتُ متاعاً كثيراً، فسألتُ: لمن هذا المتاع؟

قالوا: هذا متاعك ومتاع امرأتك.

قلت: ما بهذا أوصاني خليلي ﷺ. أوصاني خليلي أنْ لا يكون متاعي من الدنيا إلا كزاد الراكب.

صادقة: الله أكبر.

سلمان: ورأيتُ خدماً، فقلت: لمن هذا الخدم؟

قالوا: هؤلاء خدمُك وخدمُ امرأتك.

قلت: ما بهذا أوصاني خليلي ﷺ. أوصاني خليلي أنْ لا أمسك إلا ما أحتاج إليه، وليس لي بهؤلاء حاجة. . ثمّ قلت للنسوة اللواتي كنَّ عند امرأتي:

«هل أنتنّ مخلّياتٌ بيني وبين امرأتي؟ ألا تخرجْنَ؟».

فخرجْنَ، فلمّا خلوتُ بزوجتي قلت لها:

«هل تطيعينني في شيء آمرك به؟».

قالت: جلستَ مجلس من يطاع.

قلت: فإنّ خليلي ﷺ أوصاني - إذا اجتمعت إلى أهلي، أن أجتمع على طاعة الله عزّ وجلّ.

ثم قمتُ وقامت امرأتي معي إلى المسجد، فصلّينا ما بدا لنا، ثم عدنا إلى بيتنا.

صادقة: هنيئاً لك يا سيّدي بهذه المرأة الصالحة.

صادق: وأصحابك يا سيّدي؟

سلمان: لمّا أصبحتُ زارني بعض أصحابي، فسألوني: كيف وجدتَ أهلك؟

صادق: فبماذا أجبتَهم يا سيّدي؟ فكذلك الشبّان يسألون صاحبهم بعد أن يتزوج.

سلمان: أعرضتُ عنهم، فأعادوا السؤال، وأعرضتُ عنهم، ثم أعادوا السؤال مرّة ثالثة، فأعرضتُ عنهم، ثم قلت لهم:

«إنما جعل الله تعالى السُّتور والخُدور والأبواب لتواري ما فيها، حسْبُ امرئ منكم أن يسأل عما ظهر له، فأمّا ما غاب عنه، فلا يسألنّ عن ذلك. سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «المتحدّث عن ذلك، كالحمارين يتسافدان في الطريق».

صادق: صدق رسول الله ﷺ.. هل تسمح لي يا سيّدي أن أقول لك: والله إني أحبُّك في الله، وقد أحببتُك قبل أن ألقاك، وعندما لقيتُك ظننتُ أني أعرفك منذ زمن.

ابتسم الرجل الوقور ابتسامة وقارٍ عريضة، ثم قال:

ـ اسمعوا هذه الحادثة التي جرتْ معي.

كنتُ في المدائن، في بعض طرقها، وكنت أرتدي ثياباً بالية.

صادقة: وأنت أميرها؟

سلمان: وهل هذا يضير؟

وكان معي أديم (أي جلدٌ) أحمر أعركه، نظرتُ فرأيت رجلاً حسبْتُني أعرفه، فناديتُه وأنا أومئ إليه بيدي: «مكانك يا عبد الله.» فسأل الرجلُ من كان معه عني، فأخبروه عني، فيما كنت أسرعُ إلى بيتي، فلبستُ ثياباً بيضاً،

ثم أقبلتُ نحوه، وأخذت بيده، وصافحتُه، وسألتُه عن حاله، فقال لي:

«يا عبد الله.. ما رأيتَني فيما مضى ولا رأيتُك، ولا عَرَفْتَني ولا عرفتُك».

قلت: بلى.. والذي نفسي بيده، لقد عَرَفَتْ روحي روحَك حين رأيتُك، ألستَ الحارثَ بن عُميرة؟

قال: بلى. فكيف عَرَفْتَني ولم ترني قبل اليوم؟

قلت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها في الله ائتلف، وما تناكر منها في الله اختلف».

فهتفْنا أنا وصادقة:

ـ صدق رسول الله ﷺ: الأرواح جنود مجنّدة.

ثمّ قالت صادقة:

ـ ما دُمْنا في (المدائن) التي كانت عاصمة كسرى، ثم صارت إلى الإسلام والمسلمين، فهل من ذكرياتٍ أخرى كانت لك فيها؟

أجاب الصحابيُّ الجليل:

ـ الذكريات كثيرة، أذكر منها فيما أذكر.. أذكر منها.. تذكّرتُ..

جاءني الأشعث بن قيس، وجرير بن عبد الله البَجَليّ وأنا في خُصٍّ في ناحية المدائن.

قاطعتُ الصّحابيَّ الجليل وسألتُه عن معنى (الخُصّ) فأفادني بأنّه بيتٌ من قَصَبٍ، ثم تابع يقول:

ـ أتياني فسلّما عليّ، وحيّياني، ثمّ سألاني:

ـ أنت سلمان الفارسيّ؟

قلت :

ـ نعمْ .

قالا :

ـ أنت صاحب رسول الله ﷺ؟

قلت :

ـ لا أدري .

فارتابا (أيْ شكّا) في أمري ، ثم قال أحدهما للآخر :

ـ لعلّه ليس الذي نريد .

فقلت لهما :

ـ أنا صاحبُكما الذي تريدان . قد رأيتُ رسول الله ﷺ ، وجالسْتُه ، وإنّما صاحبُه مَنْ دخل معه الجنّة . فما حاجتُكما؟

قالا :

ـ جئناك من عند أخٍ لك بالشّام .

فسألتُهما : مَنْ هو؟

قالا : أبو الدَّرْداء .

فقلت لهما :

ـ فأين هديّته التي أرسل بها معكما؟

قالا :

ـ ما أرسلَ معنا بهديّة .

قلت :

ـ اتّقيا الله ، وأدّيا الأمانة . ما جاءني أحد من عنده إلا جاء معه بهديّة .

قالا:

- لا ترفعْ علينا هذا. إنّ لنا أموالاً فاحتكمْ فيها.

قلت:

- ما أريد أموالكما، ولكنْ أريد الهديّة التي بعث بها معكما.

قالا:

- لا والله ما بعث معنا بشيء، إلا أنّه قال: «إنّ فيكم رجلاً كان رسول الله ﷺ إذا خلا به، لم يبغ أحداً غيره، فإذا أتيتماه فأقرئاه مني السلام.

قلت:

- فأيَّ هديّة كنتُ أريد منكما غير هذه؟

وأيُّ هديّة أفضل من السلام تحيّةً من عند الله مباركة طيّبة؟

ابتسمنا أنا وصادقة لهذه الحكاية اللطيفة، لما فيها من معنى عظيم، ثمّ قلتُ:

- ما دام الشيء بالشيء يُذْكِر - يا سيّدي - فقد أَذْكَرَتْني حكايتُك الجميلة هذه، حكايةً مثلها، جَرَتْ في زمن أبي، فهل تسمح في أن أقصَّها عليك؟

ابتسم الرجل الجليل وقال:

- ليتك تفعل، فقد تكلمتُ كثيراً أكثر منكما معاً.

قلت:

- حدَّثنا أبي أن الشيخ محمد الحامد - رحمه الله - كان في مدينة حماة من بلاد الشام، وكان ولده محمود يطلب العلم في الكليّة الشرعية، بمدينة حلب، وكان محمود يرسل الرسائل إلى أبيه الشيخ، يطمئنه فيها عن أحواله، ويطلب منه أن يسلّم على أعمامه وأخواله وعمّاته وأقربائه وأصدقائه، وكان

الشيخ محمد عندما يقرأ رسالة ولده، ينهض من فوره، ويذهب إلى بيوت الذين ذكرهم ولده في رسالته، وسلّم عليهم، ليبلّغهم سلام ولده.

فهتفَ الصحابيُّ الجليل:

ـ الله أكبر.. هذه هي أخلاق المسلم. فمن هو هذا الشيخ؟

أجابتْ صادقة:

ـ الشيخ محمد الحامد هو شيخ مدينة حماة، ومن مشايخ سورية المعروفين بدينهم وتقواهم. وكان الشيخ شديد الورع، عالماً عاملاً، ومجاهداً ومرشداً، قلّ نظراؤه في هذه الأيام.

وقلتُ أنا:

ـ وكان الشيخ مريضاً، وكانت عليه أعباء كثيرة، وقد أشفق عليه أولئك الذين كان يأتيهم مع ورود كلّ رسالة من ولده، فأرسلوا إلى ابنه محمود يطلبون منه أن يكفّ عن إرسال سلاماته إليهم، حتى لا يكلّف أباه مشقّة التبليغ، لأنّ الشيخ كان يعدّ تبليغ السلام أمانة في عنقه، عليه أن يؤدّيها سريعاً، قبل أن يوافيه أجله الذي لا يعرف متى يأتيه، وقد يأتيه في أيّ لحظة، فكان لا ينام قبل أن يؤدّي هذه الأمانة إلى أصحابها، وقد عدَدْتَها أنت، يا سيِّدي، هدية طيّبة مباركة.

كان سلمان ـ رضي الله عنه ـ يصغي إلينا في اهتمام، وعندما رآني أتوقّف عن الحديث قال:

ـ كما قلتم: الحديث يُذْكرُ بالحديث.. دخل عليّ ـ مرّةً ـ رجلٌ وأنا أعجن.

فتساءلتْ صادقة:

ـ تعجن؟

ـ أجلْ.

ـ ألم يكن لك خادم وأنت أمير المدائن؟

ـ بلى . . كان لديّ خادم . . ولكنّكِ ، يا ابنتي ، أفسدتِ عليّ حديثي ، فقد سألني ذلك الرجل الذي دخل عليّ وأنا أعجن كما سألتِ ، واستغرب مثلما تستغربين الآن ، وقد قلتُ له :

«بعثْنا الخادم في عمل ، فكرهْنا أن نجمع عليه عملين» .

ـ الله أكبر . . فماذا قال لك الرجل؟

قال : فلان يقرئك السلام .

فسألته : متى قدمْتَ من السَّفَر؟

قال الرجل : منذ كذا وكذا يوماً .

فقلت له : أمَا إنّك لو لم تؤدّها ، كانت أمانة لم تؤدِّها .

صادقة : تعني إقراءك السلامَ يا جدّي؟

سلمان : طبعاً . . فهو أمانة .

صادقة : وماذا قال الرجل عن الخادم؟

سلمان : لم يقل شيئاً . . هكذا علَّمنا الإسلام ، وهكذا رأينا وتعلّمنا من نبيِّ الإسلام ، عليه الصلاة والسلام .

صادق : عليه الصلاة والسلام . . ولكن . . قل لي يا سيِّدي الأمير ، كيف تتفق الإمارة مع بيت من قَصَب؟

سلمان : لا تعارضَ بينهما يا بنيّ . . وانظر سيرة الرسول الكريم

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

سلمان : فهو قدوتنا . . كان يحمل التراب والحجر على عاتقه ، وكان يحفر الخندق ، كأيّ جنديّ من جنوده ، وكان يجمع الحطب لأصحابه ، وكان يبيت هو وأهله جياعاً ، وكان ينام على الحصير فتؤثّر الحصير في جسده الطاهر ، وكان يعين زوجاته ويساعدهنّ في أعمال البيت ، فهل نَقَصَ هذا من

مقامه الشريف يا ابني ويا ابنتي؟

صادقة: معاذ الله يا جدّي.

سلمان: وكذلك كانت سيرة خليفته الصّدّيق أبي بكر، وكذلك كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن صاحبه الصدّيق.. ثمّ إنّ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال لي يوماً:

«يا أبا عبد الله. ألا أبني لك بيتاً؟»

فكرِهْتُ عَرْضَه هذا، لأنني ظننت به ظنَّ السّوء.

صادق: كيف؟

سلمان: ظننتُه يريد بناء بيت لي كبيوت الأمراء، ولكنّ حذيفة فَطِنَ لما يدور في رأسي، فقال:

«رُوَيْدَك حتى أخبرك أني أبني لك بيتاً إذا اضطجعتَ فيه، كان رأسك من هذا الجانب، ورجلان من الجانب الآخر، وإذا قمتَ أصاب رأسَك».

صادقة: فوافقْتَه يا جدّي، وبنى لك ذلك البيت المتواضع.

سلمان: أجلْ يا ابنتي، لأن حذيفة كان في نفسي، يفكّر كما أفكّر.

صادق: رحمكم الله ورضي عنكم يا صحابة الرسول القائد المعلّم القُدْوَة.

صادقة: ثمّ ماذا يا جدّي؟ نريد المزيد من هذا الكلام الطيِّب، لعلّ الذكرى تفيدنا وتفيد مَنْ نعايش من المؤمنين.

سلمان: ذكرتُ لكم قبل قليل، جريرَ بن عبد الله البجلي.. راقَ لي أن أنصحه، كما كنت أفعل مع غيره، لبعض الدّواعي والاعتبارات. قلت له:

«يا جرير. تواضعْ لله، فإنه مَنْ تواضعَ لله تعالى في الدنيا، رفعه يوم القيامة.

يا جرير. هل تدري ما الظُّلُماتُ يوم القيامة؟

قال جرير: لا أدري.

قلت: ظُلْمُ الناس بينهم في الدُّنيا».

صادق: نصيحة رائعة، كأنك تريد أن تنصحنا، أنا وأختي صادقة، بها.

سلمان: أجلْ يا أولادي. هي نصيحتي لكم ولسائر المسلمين، أن يكونوا متواضعين فيما بينهم، وأن لا يتظالموا، فالظلمُ ظلماتٌ يوم القيامة.

صادقة: سنعمل بنصيحتك يا جدّاه، فهل من نصيحة أخرى؟

سلمان: نعمْ.. أقلّوا من الكلام إلا في طاعة الله، فأكثرُ الناس ذنوباً يوم القيامة، أكثرُهم كلاماً في معصية الله عزّ وجلّ.

صادقة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقلْ خيراً أو ليصمتْ. صدق رسولُ الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

سلمان: هذا لأنّ أكثر الناس يكثرون من اللّغو والكلام الباطل، وينصرفون عن الكلام الحقّ، عن القرآن الكريم.

وسكت الصحابيُّ الجليل لحظة سَرَحَ فيها بروحه، ثم عاد إلينا وأقبل علينا وقال:

ـ سمع الناس بالمدائن أنني في المسجد، فأتوني زرافاتٍ ووحداناً، حتى صاروا نحواً من ألف رجل، يريدون سماعَ حديثي فأمرتهم بالجلوس فجلسوا، ثم فتحتُ المصحف الشريف، وانطلق لساني يقرأ سورة يوسف عليه السلام، وإذا هم يتسلّلون من المسجد، حتى لم يبق فيه سوى مئة منهم، فغضبْتُ وقلت لهم:

«الزُّخْرُفَ من القول أردتم؟ فإذا ما قرأت عليكم كتاب الله ذهبتم!».

وقلت:

«لكلّ امرىء جوّانيٌّ وبرّانيّ، فمن يُصْلحْ جوّانيّه، يصلح اللهُ برّانيّه،

ومن يُفْسِدْ جوّانيَّه، يُفْسِدِ اللهُ برانيَّه».

فابتهلْنا أنا وصادقة أن يصلح الله أحوالنا وسرائرنا، وكأنّ الصَّحابيَّ الجليل قرأ في عيوننا رغبتنا في الاستزادة، فعدّل من جلسته، وتنحنح ثم قال:

ـ من الذكريات المفيدة لكم، أننا كنّا ذات مرّة في جيش، فقرأ رجلٌ من المسلمين سورة مريم عليها السلام، فقام رجل وسبَّها وسبَّ ابنها عليهما السلام، فانقضَّ عليه المسلمون، وضربوه حتى أَدْمَوْه، فجاءني الرجل شاكياً كأيّ مظلوم، فنهرْتُه وقلت له: ألم تسمعْ قولَ الله تعالى:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ثمّ قلت لهم.. قلت للضارب والمضروب:

«يا معشر العرب. ألم تكونوا شرَّ الناس ديناً، وشرَّ الناس داراً، وشرَّ الناس عيشاً، فأعزّكم الله وأعطاكم؟

أتريدون أن تأخذوا الناس بعزّة الله؟

والله لَتَنْتَهُنَّ أو ليأخذَنَّ الله عزّ وجلّ ما في أيديكم، فليعطينّه غيركم».

صادقة: الله أكبر.. ثم ماذا يا جدّي؟

سلمان: ثمّ طَفِقْتُ أعلّمهم، فقلت لهم:

«صلُّوا ما بين صلاتي العشاء، فإنّ أحدكم يخفّف عنه من حزنه، ويذهب عنه مَلْغاةَ أول الليل، فإن ملغاة أول الليل مهدمة لآخره».

صادقة: سأشرح ما فهمتُ يا جدّي.. صلُّوا ما بين المغرب والعشاء، فإنّ الصلاة في هذا الوقت، تخفّف من أحزان المسلم، وتمحو اللَّغْوَ من الكلام الذي يتكلم به المسلم في أول الليل، وهذا اللغو إذا بقي ولم تمحه صلاة ولا استغفار، فإنه يهدم ما يكون بعده..

أليس كذلك يا جدّي؟

سلمان: بارك الله فيك يا صادقة.

صادق: ثمّ ماذا عندك من نصائح يا سيِّدي؟ فنصائحك كالدُّرَر.

سلمان: أوصيكم بالحياء، فالحياء من الإيمان، إذا أراد الله بعبد شرّاً، نَزَعَ منه الحياء، فلا تلقاه إلا مَقيتاً مُمَقَّتاً، فإذا كان مقيتاً ممقّتاً، نُزعتْ منه الرحمة، فلم تلقه إلا فظّاً غليظاً، فإذا كان كذلك، نُزعتْ منه الأمانة، فلم تلقه إلا خائناً مخوناً، فإذا كان كذلك، نُزعتْ رِبْقةُ الإسلام من عنقه، فكان لعيناً ملعَّناً.

صادقة: يا سلام! ما أروع هذا الكلام!. زدنا يا جدّي زادك الله حكمة وعقلاً وإيماناً يرفعك مكاناً عَلِيّاً.

سلمان: أنصحكم بإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وبالصلاة في جوف الليل والناس نيام.

صادق: أراك تركّز على الصلاة كثيراً يا سيّدي!.

سلمان: لأنّ الصلاة عمود الدين، ومن تركَها هدم دينه.. ومع ذلك، اسمعوا هذه الطُّرْفة ذات المغزى العميق..

سكت الصحابيّ الجليل هُنَيْهَة، ثم ابتسم في حزن وقال:

ـ ذات يوم قمتُ إلى الصلاة، وانطلقتُ ألتمس مكاناً طاهراً أصلّي فيه، فرأتني امرأة على هذه الحال، فقالت لي:

«التمسْ قلباً طاهراً، وصلِّ حيثُ شئتَ».

صادقة: الله أكبر! ما أعمقَ هذا الكلام!. هذا كلام عالم فقيه.

سلمان: صدقت يا ابنتي.. هذا كلام من فقه الإسلام.

صادق: ذكر لنا أستاذنا الشيخ نايف أنّ رجلاً سأل عالماً من علماء

الإسلام، كان معروفاً بتقواه وغزارة علمه، وعمق فهمه لهذا الإسلام. . سأله الرجل عن فضل الصلاة في الصفّ الأول، فقال له العالم العامل: «أطِبْ كِسْرَتَك ـ أي طعامك ـ ثمّ صلِّ حيث شئت».

سلمان: جميل جداً هذا الفهم، وهو كفهم تلك المرأة التي حدّثتكم عنها. . إنه كلام من فقهَ هذا الدّين. . كلام المؤمن الحقّ.

صادقة: ما مَثَلُ المؤمن عندك يا جدّي في هذه الحياة الدنيا؟

سلمان: إنما مَثَلُ المؤمن في الدنيا، كَمَثَلِ مريض معه طبيبه الذي يعلم داءه ودواءه، فإذا اشتهى ما يضرّه منعه، وقال لا تقربْه، فإنك إن أصبتَه أهلكك. ولا يزال يمنعه حتى يبرأ من وجعه.

وكذلك المؤمن، يشتهي أشياء كثيرة مما فضل به غيره من العيش، فيمنعه الله إياه، ويحجزه عنه، حتى يتوفّاه الله، فيدخله الجنّة.

فرفعتْ صادقة كفّيها وابتهلتْ في خشوع:

ـ اللهمّ أدخلْنا الجنة مع الأبرار، مع جدّي سلمان، وارزقنا صحبة نبيِّك محمد في الفردوس الأعلى يا كريم.

لحظْتُ سيِّدي سلمان ساهماً حزيناً، فسألتُه عمّا به، فقد كان يحدّثنا قبل لحظات في تدفُّق ونشاط، فقال:

أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث:

ضحكتُ من مؤمّل الدّنيا والموتُ يطلبه

وغافلٍ لا يُغْفَل عنه

وضاحكٍ مِلْءَ فيه، لا يدري أمُسْخِطٌ ربّه أم مُرْضِيه؟

وأبكاني ثلاث:

(وقبل أن يتفوّه بواحدة من الثلاث، تسايلت الدُّموع من عينيه).

فِرَاق الأحبّة: محمد وصحبه.

وهَوْلُ المطلع عند غَمَرات الموت .

والوقوفُ بين يَدَيْ ربِّ العالمين، حين لا أدري إلى النار انصرافي أم إلى الجنة .

فبادرتْ صادقة تقول في انفعال :

ـ بل إلى الجنّة يا جدّي . . إلى الجنّة . . إلى الجنّة .

وأردتُ تغيير مجرى الحديث، لأخفّف من انفعالنا نحن الثلاثة، فقلت :

ـ كنّا أرجأنا الحديث عن علاقتك بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، ذلك الرجل الرّبّاني الذي شبّهوك به في الزهد والورع والفطنة، وباشتياق الجنّة لكلٍّ منكما . فماذا تقول يا سيِّدي؟

سلمان : ماذا عساني أن أقول في رجلٍ كعمر؟ لقد كانت صلتي به صلة الأخ الصغير المعجب بأخيه الكبير، ولعلكم تذكرون احتجاجي عليه عندما رأيته يخطب ويأمرنا بالسمع والطاعة .

صادقة : فقلتَ له : لا سمع ولا طاعة، لأنه كان يلبس ثوبين .

سلمان : إذنْ . . أنتم تحفظون الحادثة . .

صادقة : ونريد غيرها من الذكريات الأثيرة لديك مع أعدل حاكم عرفته الأرض يا جدّي العزيز .

سلمان : سألني أميرُ المؤمنين عمر مرّةً : أملكٌ أنا أم خليفة؟

صادقة : فبماذا أجبتَه يا جدّي؟

سلمان : قلت له : إنْ أنت جَبَيْتَ من أرض المسلمين دِرْهماً أو أقلَّ أو أكثر، ووضعْتَه في غير حقِّه، فأنت ملكٌ غير خليفة .

صادق : الله أكبر ! .

صادقة: وماذا كان جواب أمير المؤمنين يا جدّي؟

سلمان: كان البكاء جوابه.. بكى عمر، ولم يكن له جواب سوى البكاء.

صادقة: ما أرقَّك، وما أروعَك، وما أشدَّ خشيتَك لله يا جدّي العظيم يا أمير المؤمنين يا أبا حفص!.

سلمان: وفي السنة الخامسةَ عَشْرةَ للهجرة، فرض عمرُ للمسلمين الفروض، ودوَّنَ الدّواوين، وأعطى العطايا على المسلمين السابقين إلى الإسلام، وألحقني بأهل (بدر) مع الحسن والحسين وأبي ذر، ولم نكن حضرْناها.. خمسةَ آلاف خمسة آلاف.. وكان أهل (بدر) يأتون بعد آل النبيّ الكريم ﷺ.

صادقة: هنيئاً لك، يا جدّي، هذا المقام.. أن تُحْسَبَ في أهل غزوة بدر، وأنت لم تَشْهَدْها.

صادق: لم يَشْهَدْها سيِّدي سلمان، لأنه كان مشغولاً بالرِّقّ، كان عبداً عند ذلك اليهوديّ اللئيم.

صادقة: هذا صحيح، وإلا، كان لجدّي سلمان دَوْرٌ كذلك الذي كان له في غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق.

سلمان: وبعد معركة القادسيّة الهائلة، كتب حذيفة بن اليمان إلى عمر:

«إنّ العرب قد رقَّتْ بطونُها، وجَفَّتْ أعضادُها، وتغيَّرتْ ألونُها»

فكتبَ عمر إلى سعد بن أبي وقاص:

«أخبرْني - يا سعد - ما الذي غيَّر ألوانَ العرب ولحومَهم؟»

فكتب إليه سعد:

«إنّ الذي غيَّرهم وُخُومَةُ البلاد، وإنّ العرب لا يوافقها إلا ما وافقَ إبلَها من البُلدان».

فكتب إليه عمر:

«ابعثْ سلمانَ وحُذَيْفَةَ رائدين، فليرتادا منزلاً برّيّاً بحريّاً ليس بيني وبينكم فيه بحرٌ ولا جسر».

فأرسلنا سعدٌ، فخرجتُ حتى أتيت الأنبار، فسرتُ في غربيّ نهر الفُرات، وأنا لا أرضى شيئاً من الأرض حتى وافَيْتُ الكوفة.

وسار حذيفة في شرقيّ الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة.

صادق: هل كانت الكوفة مبنيّة يا سيِّدي؟

سلمان: الكوفةُ - يا بنيّ - هي كلُّ رملٍ وحَصْباء مختلطين.

صادق: شكراً لك يا سيِّدي، ومعذرةً لقطعي حديثَك.

سلمان: فأتينا - حذيفة وأنا - على تلك الأرض.. الكوفة.. فأعجبتنا البُقْعة، فنزلنا، وصلَّيْنا، ودَعَوْنا الله تعالى أن يجعلها منزل الثبات. ثم رجعْنا إلى سعد، وأخبرناه بما اخترْنا، فارتحل سعدٌ من (المدائن) حتى نزل الكوفة في شهر المحرّم سنة سبع عشرة.

صادق: يعني.. بعد سنة من معركة القادسية.

سلمان: أو أكثر بقليل.. بعد سنة وشهرين تقريباً.

ولمّا نزلها سعد، أعجبتْه، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر:

«إني قد نزلتُ بالكوفة منزلاً فيما بين الحيرة والفرات، وخيَّرتُ المسلمين بينها وبين المدائن، فمن أعجبه المقام في المدائن، تركتُه فيها كالمسلحة».

صادقة: ووافقَ المسلمين جوُّها يا جدّي؟

سلمان: أجلْ يا ابنتي.. لما استقرّ المسلمون فيها، عرفوا أنفسهم، ورجع إليهم ما كانوا فقدوا من قوّتهم.

صادق: معنى هذا، أنك حضرتَ معركة القادسيّة يا سيِّدي.

سلمان: وكنتُ فيها داعية المسلمين ورائدهم والحمد لله.

صادق: هنيئاً لك يا سيِّدي قتالك تحت لواء الرسول القائد ﷺ، وإشارتك عليه بحفر الخندق، وقتالك في سائر الميادين الأخرى.

صادقة: تذكّرتُ الآن ما قاله لنا الشيخ نايف من أنّك - يا جدّي - أشرتَ على الرسول القائد ﷺ باستخدام المنجنيق في حصار الطائف، ثم إنك نَصَبْتَ المنجنيق بيديك.

سلمان: ومع هذا، استمرّ حصارنا للطائف بضعة وعشرين يوماً.

صادقة: وقال لنا الشيخ نايف: إنك أوّل من أطَّمَ الأُطُمَ في بلاد العرب.

صادق: أنا سمعتُ هذا الكلام من الشيخ نايف، ولكني أسفْتُ لأني لم أسأله عن معناه، كما أسفتُ لعدم تسجيلي واستيعابي لكلّ ما حدَّثنا به عنك يا سيِّدي.

صادقة: أنا سألتُ الشيخ نايف عن معنى (أطَّمَ الأُطُمَ) وأجابني، وكنتَ أنت تنظر إليه، ولكن.. يبدو أنّ عقلك لم يكن معك يا صادق.

صادق: كثيراً ما يحدث لي هذا.. فهل تشرحين لي معناها؟

صادقة: بسيطة.. أطّمَ الأطم، يعني علّى البناء ورفعه طبقة فوق طبقة.

صادق: شكراً لك يا أختي.

صادقة: هل أتعبناك يا جدّي؟

سلمان: بل أعدتم إليّ شبابي وحيويّتي بنشاطكم، وإقبالكم على العلم

صادق: إذنْ أمضيتَ أياماً مع البطل العظيم سعد بن أبي وقّاص يا سيّدي؟

سلمان: ويا لها من أيام، ويا له من رجل.

صادق: حدِّثنا عن بعض ذكرياتك معه يا سيِّدي.

سلمان: سأحدّثكم عن أعجب عبور في التاريخ، عبره المسلمون بقيادة سعد، وكنت معه.

صادقة: هاتِ يا جدّي العزيز.

نهض الصحابيّ الجليل فنهضْنا معه، ثم جلس فجلسنا لجلوسه، ثم تنحنح وتحرّك ذات اليمين وذات الشمال كأنه يستعدّ لخوض معركة، ثمّ قال:

ـ بعد معركة القادسية، اقتحم المسلمون (بهرسير) في شهر صفر سنة ستّ عشرة، وطلبْنا السُّفن، فلم نقدر على شيء منها، فقد أخذها الفرس كلَّها إلى شاطئهم، فاضطررنا إلى الإقامة ببهرسير أياماً من شهر صفر، وكان المسلمون يلحّون على سعد بالعبور إلى الفرس، وسعدٌ يأبى عليهم ذلك، حرصاً على حياتهم، حتى جاءه بعض الفرس، ودلُّوه على مخاضة يخوض منها نهر دجلة إلى صلب الوادي، ولكنّ سعداً أبى وتردّد أيضاً.

ثمّ إنّ رجلاً من الفرس جاء سعداً وقال له:

«ما الذي يَحْمِلُك على الإقامة هنا؟ ويَزْدَجِرْدُ ملك الفرس يجمع كنوزه وأمواله، ولن تمضي ثلاثة أيام حتى يهرب بها إلى عُمْق بلاد الفرس».

ونام سعدٌ وهو مشغول البال، يفكّر في أمر عبور نهر دجلة، فرأى رؤيا: أنّ خيول المسلمين تقتحم النهر، وتعبُر دجلة وهو في فيضانٍ عظيم.

وأفاق سعدٌ من نومه، وقد عزم على عبور دجلة، تحقيقاً لرؤياه، فجمع الناس، وخطب فيهم، فحمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على نبيّه عليه الصلاة والسلام، ثم قال:

«إنّ عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ـ يعني نهر دجلة ـ فلا تَخْلُصُون

إليه معه، وهم يَخْلُصُون إليكم إذا شاؤوا، فيناوشونكم في سُفُنهم، وليس وراءكم شيءٌ تخافون أن تُؤْتَوْا منه، فقد كفاكموهم أهل الأيام، وعطّلوا ثغورهم، وأفنَوْا ذادَتَهم.. وقد رأيتُ من الرأي أن تبادروا جهادَ العدوّ بنيّاتكم، قبل أن تحصركم الدنيا. ألا إني قد عزمتُ على قطع هذا البحر إليهم».

صادقة: وفرح المسلمون بهذا القرار الشجاع الذي طال انتظارهم له.

سلمان: وقاد البطل العظيم عاصم بن عمرو التميمي كتيبة الأهوال، وعبَر بها النهر.

صادق: لماذا سُمِّيتْ كتيبة الأهوال يا سيِّدي؟

سلمان: لأنها خاضت الأهوال.. تصوَّروا.. ستّ مئة فارس يخوضون على ظهور خيولهم نهر دجلة، وهو في أوج فيضانه، لينتزعوا مدائن كسرى من المجوس، وهم لا يعرفون شيئاً عمّا يمكن أن يكون العدوُّ قد أعدَّ لهم، دفاعاً عن عاصمتهم وعن ملكهم يزدجرد.

صادق: وعبرْتَ النهر فيمن عبره يا سيِّدي؟

سلمان: أجلْ يا بني.. كنتُ قرينَ سعد.. كنت وسعداً نطوي مياه دجلة.. وأنا أحبُّ سعداً في الله، وكنت وأنا أقطع النهر مع سعد، أتذكر حديث الحبيب محمد ﷺ:

«إنّ المسلم إذا لقي أخاه، فأخذ بيده، تحاتَتْ عنهما ذنوبُهما، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وغفر لهما، ولو كانت ذنوبُهما مثلَ زبَدِ البحر».

صادقة: صدق رسول الله ﷺ.

صادق: هذا ما كنتَ تحدّث به نفسك، فبماذا كان القائد سعدٌ يحدِّث نفسَه؟

سلمان: الله وحده الذي يعلم السرَّ وما هو أخفى من السّرّ، ولكني

سمعتُه يقول، وخيولُنا تَعُوم بنا، قاطعةً لُجَّة النّهر:

«ذلك تقدير العزيز العليم. حسبُنا الله ونِعْمَ الوكيل. واللهِ لينصُرَنَّ الله وليَّه، ولَيُظْهِرَنَّ الله دينَه، وليهزمَنَّ الله عدوّه، إن لم يكن في الجيش بغيٌ أو ذنوبٌ تغلب الحسنات».

صادقة: هل علّقْتَ على كلام سعدٍ يا جدّي؟

سلمان: قلت لسعد، والخيول تسبح بنا، ونحن نتحدّث على ظهورها، ونبتهل إلى الله أن ينصرنا على عدوّنا. قلت أطمئن سعداً على المسلمين:

«الإسلام جديد. وقد ذلّلَ الله البحور للمسلمين، كما ذلَّلَ لهم البرّ. أما والذي نفسُ سلمان بيده، ليخرجُنّ من النهر أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً».

صادق: ثمّ ماذا يا سيّدي؟ لا بدَّ أنّ الله استجاب لكلامك، فنجا المسلمون.

سلمان: ثمّ انتصرنا على حامية الفرس التي كانت تحمي الشواطئ، واقتحمنا عاصمة كسرى، حتى انتهينا إلى إيوان كسرى، دُرّة الدّيار الفارسيّة، ورمز عزّتها، ومركز قوّتها.. وقف سعدٌ أمام الإيوان وقرأ قول الله تعالى:

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ـ٢٨].

وأحاط جيش المسلمين بالقصور، وتقدّمتُ إلى مَنْ بقي فيها من الفرس، فقلت لهم بلغتهم الفارسية:

«إني منكم في الأصل، وأنا أرقُّ لكم، ولكم في ثلاث أدعوكم إليها:

أن تُسْلموا فتكونوا إخواننا، لكم ما لنا، وعليكم ما علينا.

وإلاّ.. فالجزية.

وإلاّ نابذْناكم على سواء، إنّ الله لا يحبّ الخائنين».

وأمهلتُهم ثلاثة أيام، ليتشاوروا فيما بينهم، فلمّا كان اليوم الثالث، رضوا بدفع الجزية، والدُّخول في ذمّة المسلمين وحمايتهم، ثم خرجوا من القصر، ودخله سعد، فصلَّى في الإيوان صلاةَ الفتح.

صادقة: ما معنى صلاة الفتح يا جدّي؟

سلمان: يصلّيها المسلمون فُرادى، لا تُصلَّى جماعة، وهي ثماني ركعات متصلات لا يفصل بينهنّ فاصل.. اتخذ سعدٌ الإيوان مصلًّى، وإن فيه تماثيل من الجصّ للرجال والخيل والصُّوَر المتنوعة.

صادقة: وما أزالها؟

سلمان: أجلْ يا صادقة.. ما أزالها ولا حرّكها من مكانها، بل تركها على حالها، وصلَّى وصلّى المسلمون.

صادقة: ما أروعَ سماحة الإسلام!

سلمان: وأتمَّ سعدٌ صلاته، وصلَّى بالناس صلاة الجمعة، لأنه نوى الإقامة، وكانت أول جمعة في العراق.

صادق: ثمّ ولاّك أميرُ المؤمنين إمارة المدائن يا سيِّدي؟

سلمان: لله درُّ عمر.. فلطالما كنت أفرّ من الإمارة، وأوصي أصحابي بالفرار منها، وعندما كان يستشيرني أحد الرجال في قبول الإمارة، كنتُ أقول له:

«إن استطعتَ أن تأكل من التراب، فكُلْ منه، ولا تكونَنَّ أميراً على اثنين، واتّقِ دعوة المظلوم والمضطرّ، فإنها لا تُحْجَب».

صادقة: كأنك، يا جدّي، تريد أن تربط بين الإمارة وبين دعوة الظلوم والمضطّر، وكأنك تريد أن تقول: كم من المظلومين بين الناس لا تلحظهم عين الإمارة، وكم من المضطرين بين الرعيّة، تُغلق دونهم أبواب الإمارة.

سلمان: هذا لأنّ الإمارة في الدّنيا تَبعاتٌ وملامة، وفي الأخرى حسرة وندامة.

صادق: ولكنّ أمير المؤمنين عمر كان في حاجة إلى والٍ مثلك، يا سيِّدي، لتكون عوناً له في إقامة العدل بين الناس.

سلمان: الذي حصل، أنّ أمير المؤمنين ولاّني إمارة المدائن، فأَبَيْتُ، فأصرّ عمر، وأصررتُ، ثم نزلتُ على رأي الخليفة، فما ينبغي لمثلي أن يعصي مثل عمر، رضي الله عنه وأرضاه من حاكم تقيٍّ ورعٍ عادل.

صادقة: وكان فيما قاله لنا الشيخ نايف، أنك، يا جدّي، ذهبتَ إلى المدائن على ظهر حمارك، فريداً وحيداً، لا يصحبك جند ولا حُرّاس، وكنت تلبس قميصاً قصيراً ضيّقاً، كان قد ارتفع حتى بلغ قريباً من ركبتيك، وكان الصّبيان يسيرون وراءك، فلمّا زجرهم أحد المسلمين، وأمرهم أن يتنحَّوْا عن الأمير، قلتَ له:

«دعهم، فإنما الخيرُ والشرُّ بعد اليوم».

صادق: هل حزنتَ لمفارقة الأرض المقدَّسة، والإقامة في المدائن يا سيِّدي؟

سلمان: أذكَرْتَني شيئاً كنتُ ناسيَه..

أرسل إليّ أخي أبو الدَّرْداء يقول: «هلمَّ إلى الأرض المقدَّسة».

فكتبْتُ إليه:

«إنّ الأرض لا تقدس أحداً، وإنما يقدِّس الإنسانَ عملُه، وقد بلغني أنك قد جُعِلْتَ طبيباً ـ أي قاضياً، وكان عمر عيّنه قاضياً في دمشق ـ فإن كنتَ تُبْرِئ، فنِعِمّا لك، وإن كنتَ متطبِّباً (أي تتعاطى علم الطبّ وأنت لا تعرفه معرفة جيدة) فاحذرْ أن تقتل إنساناً فتدخل النار».

صادقة: الله أكبر، ما أروعَ هذا الكلامَ!.

صادق: ليس أروعَ منه إلا صاحبُه.

صادقة: أراك تكثر من الحديث عن أبي الدَّرْداء يا جدّي، ونحن نحبّ سماعَ المزيد من ذكرياتك معه، فهلاَّ ذكرْتَ لنا بعضها؟

ابتسم الصحابيُّ الجليل ابتسامة عريضة رائعة، ثمّ قال:

- سأروي لكم هذه الطّرْفة، ففيها فائدة.. اسمعوها وافهموها جيّداً..

طلبتُ من أخي أبي الدَّرْداء أن يذهب ليخطب لي امرأةً من بني ليث. فدخل أبو الدرداء إلى أهل المرأة، فذكر لهم فضلي - أستغفر الله، أنا أروي رواية - وذكر سابقتي في الإسلام، وما إلى ذلك، ثمّ قال لهم: إني جئتكم خاطباً ابنتكم له.

صادقة: فرحَّبوا بهذا الخطيب.

سلمان: بل رفضوا تزويجها لي، وقالوا لأبي الدرداء:

«أمّا سلمان فلا نزوّجه، ولكننا نزوّجك أنت يا أبا الدرداء».

صادق: فتزوّجها؟

سلمان: أجلْ يا أولادي.. تزوّجها ثم خرج فقال لي:

«إنه قد كان شيءٌ وأنا أستحيي أن أذكره لك».

قلتُ: وما ذاك؟

فأخبرني الخبر.

صادق: فغضبْتَ يا سيِّدي منه، واتّهمْتَه.

سلمان: أهذا ظنُّك بجدِّك صاحبِ رسول الله ﷺ وتلميذه وابن الإسلام؟.

صادق: أستغفر الله يا جدّي. ولكنْ.. لو حصل مثلُ هذا الأمر معي،

لغضبتُ، وقاطعتُ الذي فعله، حتى لو كان من أحبِّ الناس إليّ، وأقربهم من نفسي وقلبي.

صادقة: هذا تصرُّفُك أنت ابن القرن الخامس عشر، ولن يكون هذا تصرُّفَ تلاميذ الرسول القائد.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: هل تُكْمل لنا الحديث يا سيّدي؟ ماذا تصرّفْتَ مع أخيك أبي الدرداء الذي أرسلتَه ليخطب لك امرأة، فذهب وخطبها لنفسه.

سلمان: إنه لم يخطبها لنفسه، هم خطّبوها له. على أيِّ حال، قلت لأخي أبي الدّرداء الذي كاد يقتله الحياء وهو يروي لي ما حدث:

«أنا أحقُّ أن أستحيي منك أن أخطِبها، وقد قضاها الله لك».

صادق: الله أكبر! خَطَرَ لي كلُّ معنى إلا هذا المعنى الهائل يا سيِّدي.

صادقة: نحن الآن على أبواب شهر الخير والبركات، شهر رمضان المبارك، فهل لك، يا جدّي، أن تنفحنا نصيحة نستفتح بها هذا الشهر العظيم؟

سلمان: اسمعوا يا أولادي.

خَطَبَنا رسولُ الله ﷺ في آخر يوم من شعبانَ قال: «يا أيُّها النّاس!. قد أظلَّكم شهرٌ عظيم مبارك، شهرٌ فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر. شهرٌ جعل الله صيامه فريضة، وقيامَ ليله تطوُّعاً، مَنْ تقرَّبَ فيه بخَصلة من الخير، كان كمنْ أدَّى فريضةً فيما سواه، ومن أدَّى فريضةً فيه، كان كمنْ أدَّى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهرُ الصّبر، والصَّبْرُ ثوابُه الجنّة، وشهرُ المواساة، وشهرٌ يُزاد في رزق المؤمن فيه، مَنْ فطَّرَ فيه صائماً، كان مغفرةً لذنوبه، وعِتْقَ رقبته من النار، وكان له مثلُ أجره، من غير أن يَنْقُصَ من أجره شيء».

قالوا: يا رسول الله!. ليس كلُّنا يجد ما يفطِّر الصّائم.

فقال رسول الله ﷺ:

«يعطي الله هذا الثَّوابَ مَنْ فطَّرَ صائماً على تمرة، أو على شَرْبة ماء، أو مَذْقَة ـ أي شَرْبة ـ لبن. وهو شهرٌ أوّلُه رحمة، وأوسطُه مغفرة، وآخرُه عِتْقٌ من النار. مَنْ خفَّفَ عن مملوكه فيه، غفر الله له، وأعتقه من النار، فاستكثروا فيه من أربع خِصَال: خَصْلتين تُرْضُون بهما ربَّكم، وخصلتين لا غِنى بكم عنهما؛ فأما الخصلتان اللتان تُرْضون بهما ربكم، فشهادةُ أنْ لا إلـه إلا الله، وتستغفرونه. وأمّا الخصلتان اللتان لا غِنى بكم عنهما، فتسألون اللهَ الجنة، وتعُوذُون به من النار. «ومن سقى صائماً سقاه الله من حوضي شَرْبةً لا يظمأ حتى يدخل الجنة».

صادقة: الله أكبر. ما أعظمَ هذا الحديثَ الشريف!. سيكون هذا الحديثُ زادَنا في شهر رمضان إن شاء الله، فشكر اللهُ لك ياجدّي.

صادق: بماذا تنصح أهل الابتلاء والمحن ياسيِّدي؟

سلمان: اسمع يا بنيّ.

إنّ الله تعالى يبتلي عبده المؤمن بالبلاء ثم يعافيه، فيكون كفارة لما مضى، فيستعتب فيما بقي، وإنّ الله عزّ وجلّ يبتلي عبده الفاجر بالبلاء ثم يعافيه، فيكون كالبعير، عَقَلَه أهلُه ثم أطلقوه، فلا يدري فيمَ عَقَلُوه حين عقلوه، ولا فيمَ أطلقوه حين أطلقوه. فما على المؤمن المبتلى إلا أن يصبر، فالصبرُ والاحتساب خيرٌ له عند الله وعند نفسه، لأنّ الصّبر من الإيمان، وهو يرفع المؤمنَ درجات ودرجات.

ثم إنّ رسول الله ﷺ قد تعجّبَ من أمر المؤمن حين قال:

«عجباً لأمر المؤمن، إنّ أمْرَه كلَّه له خير؛ إن إصابتْه سَرّاءُ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرّاءُ صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن».

صادق: الحمد لله على نعمة الإيمان والإسلام.

صادقة: وماذا تقول لأولئك الأغنياء يا جدّي؟

سلمان: أقول لهم: اتّقوا الله في أموالكم، وفي أنفسكم، وفي أهليكم، وفي فقراء المسلمين.. حذارِ من الكسبَ الحرام.. حذارِ من البخل.. حذارِ من منع الفقراء والمساكين والمجاهدين وطلبة العلم من حقِّهم في تلك الأموال.. طهّروا أموالكم بالزكاة والصَّدقات، واعلموا أنّ الإسلام ليس ضدّ الغِنى، ما دام من الكسب الحلال، لأنّ النفس إذا أحرزتْ رزقَها، اطمأنّتْ، وتفرّغتْ للعبادة، وأيسَ منها الوَسْواسُ الخنّاس.

صادقة: والآن.. وبعد أن أطلْنا عليك يا جدّي العزيز، اسمح لي أن أروي لك ما سمعناه ـ أنا وأبي وإخوتي ـ من أستاذنا الشيخ نايف عن وفاتك يا جدّي يا ابن الإسلام.

قال لنا الشيخ نايف: إنك عمّرتَ كثيراً.. منهم من يزعم أنك عشت مئتين وخمسين سنة، ومنهم من يزعم أنك عشت ثلاث مئة وخمسين سنة، وأنك أدركتَ بعض تلاميذ السيّد المسيح عليه السلام.

سلمان: ثم ماذا يا صادقة؟

صادقة: وقال لنا الشيخ نايف: إن أخاك سعد بن أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ دخل عليك في مرض وفاتك.. جاء يَعُودُك، فوجدك تبكي. فقال لك:

«ما يبكيك يا أبا عبد الله، بعد أن علمتَ أنّ رسول الله ﷺ توفي وهو عنك راضٍ؟ وتلقى أصحابك، وتَرِدُ على الحوض؟».

سلمان: فقلتُ له: والله ما أبكي جَزَعاً من الموت، ولا حرصاً على الدّنيا، ولكنّ رسول الله ﷺ عَهِدَ إلينا عهداً فقال:

«لتكنْ بُلْغَةُ أحدكم من الدّنيا مثلَ زادِ الراكب».

وأنتَ ترى حولي هذه الأساود (أي الأفاعي والحيّات).

صادقة: فنظر سعدٌ، فلم يَرَ إلا إكافاً (أيْ بَرْذَعَةَ الحمار) ووِطاءً (أي فراشاً) ومِطْهَرَة، أي أنَّ كلَّ ما تركتَه، يا جدّي، قوَّموه بعشرين درهماً.

صادق: ولكنكم أبنـاء الإسلام، وتلامذة سـيِّد الزاهديـن في هـذه الحياة، تلامذة الرسول القائد المعلّم محمد ﷺ.

صادقة: ثمّ قال لك سعد:

«يا أبا عبد الله! اعهدْ إلينا بعهدٍ، فنأخذ به بعدك».

سلمان: فقلتُ له:

«يا سعد! اذكر الله عند همِّك إذا هممتَ، وعند حُكْمك إذا حكمْتَ، وعند بَذْلك إذا قَسَمْتَ».

ثم قلت لامرأتي:

«ما فعلْتِ بالمسك الذي جئنا به من (بَلَنْجَر)؟»

قالت: هو ذا.

فقلت لها: «ألقيه في الماء، ثم اضربي بعضه ببعض، ثم انضحي الماء حول فراشي، فإنه الآن يأتينا قوم ليسوا بإنسٍ ولا جنّ».

صادقة: ففعلتْ زوجتُك ما أمرْتَها به، وخرج عُوّادك عنك، ثم عادوا إليك، فوجدوك قد قُبضتَ إلى جنات عَدْنٍ يا جدّي، ثم وارَوْا جُثمانك الطاهر في مثواه الأخير في (سلمان باك) التي كانت تُدعى (المدائن) في أيامكم، على نهر دجلة، قُرْبَ مدينة بغداد، وكان ذلك سنة ستٍّ وثلاثين من هجرة سيِّدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

المصادر والمراجع

١ ـ اللؤلؤ والمرجان، لمحمد فؤاد عبد الباقي .

٢ ـ السيرة النبوية، لابن هشام .

٣ ـ السيرة النبوية، لابن كثير .

٤ ـ زاد المعاد، لابن القيم .

٥ ـ المواهب اللدنيّة بالمنح المحمدية، للقسطلاني .

٦ ـ حلية الأولياء، لأبي نعيم .

٧ ـ صفة الصفوة، لابن الجوزي .

٨ ـ العقد الفريد، لابن عبد ربه .

٩ ـ الأعلام، للزركلي .

١٠ ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير .

١١ ـ القادسية، لأحمد عادل كمال .

١٢ ـ سقوط المدائن، لأحمد عادل كمال .

١٣ ـ حياة الصحابة، للكاندهلوي .

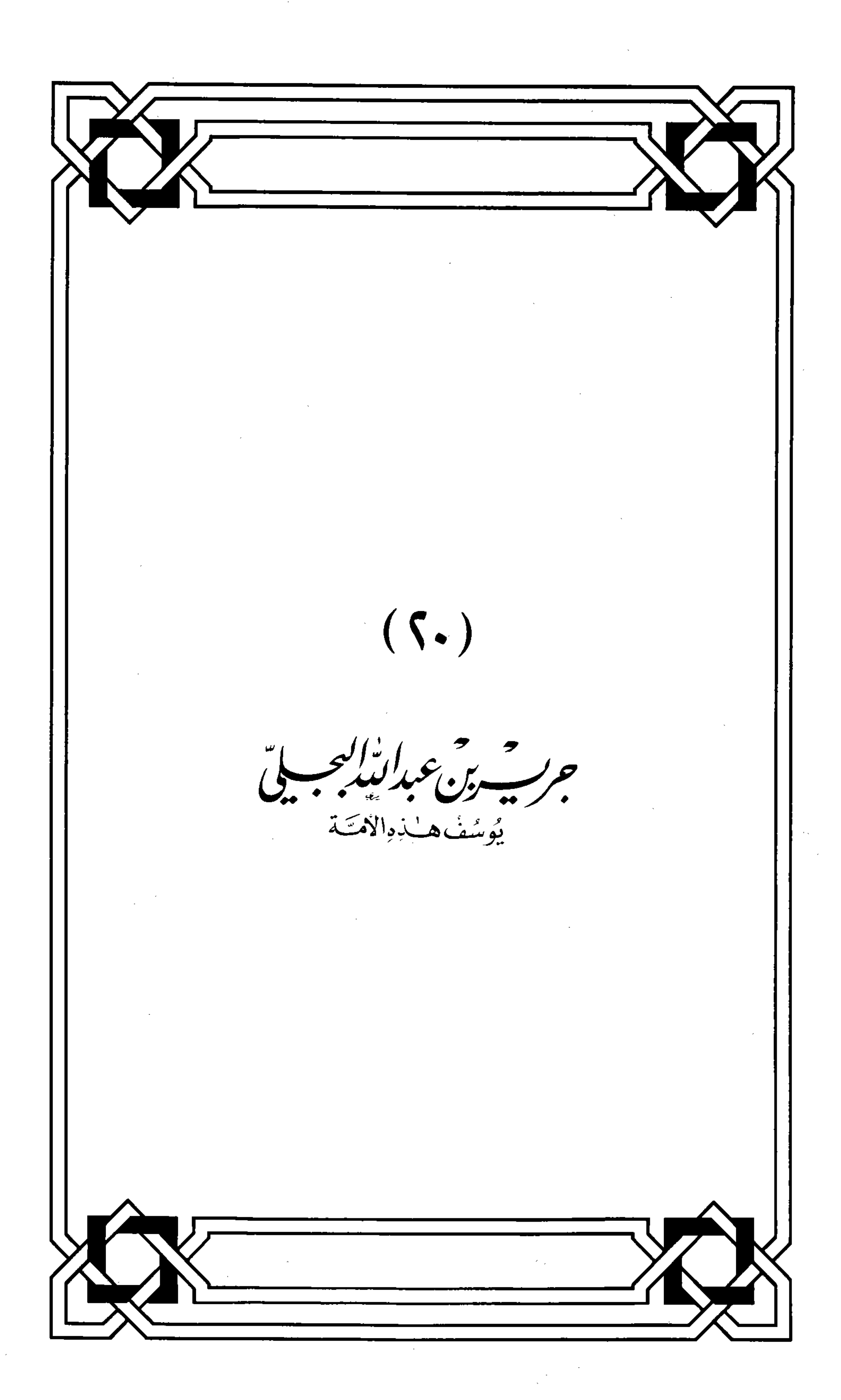
١٤ ـ رجال أنزل الله فيهم قرآناً، لعبد الرحمن عميرة .

١٥ ـ رجال حول الرسول، لخالد محمد خالد .

١٦ ـ الرحيق المختوم، للمباركفوري .

* * *





(٢٠)

جرير بن عبد الله البجلي

يوسف هذه الأمة



بسم الله الرحمن الرحيم

حدَّثنا الفتى صادق أمين قال:

قال لي أبي:

ـ سوف نسهر اليوم عند الحاج محمود.

فقلت في لهفة:

ـ خذني معك يا أبي.

فابتسم أبي ابتسامة الرِّضى التي أعرفها في وجهه وقال:

ـ لو صبرتَ حتى أكمل كلامي، لرأيتني أدعوك لتسهر معي.

أحسستُ بخجل شديد لتسرُّعي ومقاطعتي أبي، ثم قلت معتذراً ومسوِّغاً مقاطعتي إياه:

ـ لا تؤاخذني يا أبي، فلطالما حدّثتَنا عن مجالس الحاج محمود، الحافلة بالعلم والذكر، وخاصّة معرفته لتاريخنا العربيّ الإسلامي، ولقادة المسلمين العظام.

ربَّت والدي على كتفي، وأشرق وجهه بضياء الرّضى، ورضاه عنّي لا أعدل به شيئاً في حياتي، ثمّ قال:

ـ هيّا جهِّزْ نفسَك، ولا تنسَ المسجِّل، وحضِّرْ ما تشاءُ من الأسئلة، لتستفيدَ من السادة العلماء الذين سيسهرون عند الحاج محمود.

خرجتُ إلى غرفتي بسرعة، وهيَّأت نفسي، وأخذت قلمي ودفتري

والمسجِّل، ثم عدت إلى أبي، فهبَّ واقفاً، ثم امتطينا سيارتنا إلى بيت الحاج.

كان عدد من السادة العلماء قد سبقونا إلى السّهرة، وشربوا القهوة العربية، والحبّ والودّ والسرور في عيونهم وعلى ألسنتهم.

نظروا إليّ في حبّ، واستقبلوني بترحاب، وخاصة الحاج محموداً صاحب البيت الذي رحَّب بي بقوله:

- أهلاً بالأستاذ صادق الذي سمعتُ عن جِدّه واجتهاده في مطالعة سِيَرِ رجال هذه الأمّة، وتاريخ أبطالها الميامين.

شعرت بحياء مشوبٍ بالسعادة، وأنا أسمع إطراء العالم الجليل الحاج محمود، ثمّ قلت في شبه تلعثم ما لبث أن زال:

- أنا تلميذك الصّغير يا عمي الجليل، قرأتُ كتبك، وأفدتُ من علمك الغزير، وجئت اليوم، لأملأ عيني وعقلي وقلبي منك يا عمّي الغالي.

سألني أبي عمّا إذا كنتُ حضّرت أسئلة معينة لأستفيد من هذه السّهرة العامرة بالعلماء الأفاضل، فاعتذرتُ عن تقصيري في هذا الأمر.

واتجهت الأنظار إلى الحاج محمود العالم المؤرخ، فابتسم وقال:

- لا عليك يا صادق، ولسوف أختار لك موضوعاً يعجبك.

فأسرعتُ أقول:

- عن شخصية مجاهدة يا عمّي أرجوك.

فقال الحاج محمود الذي بدا كأنه التقط جوهرة ثمينة في ثنايا ذاكرته التي استوعبت ما يقارب الثمانين من السنين الحوافل بالحلو والمرّ، وربما كان المرُّ أضعاف الحلو من التجارب. قال الحاج:

سأحدّثك يا صادق، والكلام للجميع، عن شخصية فذّة، كان يدعو الخليفة الراشد: عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - صاحبها بأنه يوسف هذه الأمّة. فهل عرفتَه أو سمعتَ به يا صادق؟

نفيتُ معرفتي به، وسماعي عنه، ثمّ قلت:

ـ المهمُّ.. أنه مجاهد، وأنه صحابيٌّ أو تابعيٌّ رأى أميرَ المؤمنين عمر.

قال الحاج:

ـ بل هو صحابيٌّ جليل، ومجاهد كبير، وقائد شجاع، خاض غمار الحروب، وأسهم في فتح عدد من بلاد العراق وفارس، وكان من سادات قومه في الجاهلية وفي الإسلام. فهل عرفته يابنيّ؟

أعملتُ ذاكرتي، لعلها تسعفني بمعرفة ذلك الصَّحابيّ المجاهد، ولكنْ.. دون جدوى.

فتدخّل أبي بقوله:

ـ (نشَّفْتَ) ريق الولد يا حاج محمود.

فابتسم الحاج محمود وقال:

ـ أريد أن أختبر معلوماته، بعد الكلام الطويل العريض الذي قلتَه عنه.

الوالد: ما رأيك ياحاج، أني أنا نفسي لم أعرف صاحبك هذا؟

الحاج: وأنت يا أستاذ أحمد؟

الأستاذ: أنا أعرفه.. إنه جرير بن عبد الله البَجَليّ رضي الله عنه.

صادق: أنا لم أسمع إلا بجرير واحد.

الحاج: بالشاعر جرير الخَطَفيّ.. أليس كذلك؟

صادق: هذا ما علّمونا إياه في المدرسة.. الشاعر جرير، وخصمه الشاعر الفرزدق، وخصمه الثاني، الشاعر الأخطل.

قال الحاج محمود في امتعاض:

ـ أنا لست ضدّ الشعراء، ولكنْ.. يعلّمونكم ما هَبَّ ودَبَّ من

الشعراء، ولا يعلّمونكم شيئاً عن عظمائنا في التاريخ؟

فهوّن أبي عليه بقوله:

ـ احمد اللهَ يا حاج أنّهم لم يعلّموهم أسماء المغنّين والمغنّيات، والراقصين والراقصات.

فقال الحاج محمود:

ـ هؤلاء يسمعونهم في كل لحظة في الإذاعة، يشاهدونهم في التلفزيون، ويقرؤون أخبارهم في الصحف والمجلات الفنّيّة. . هؤلاء أكثر من الهمّ وأثقل من الدَّيْن على القلب يا أبا صادق.

فأبديت احتجاجي في أدب وقلت:

ـ أنا لست ممن يتتبّع أخبار أولئك، ولا أستمع لأصواتهم، ولا أقوى على مشاهدة صورهم، لا في الصحف والمجلات، ولا في التلفزيون.

فقال الأستاذ أحمد:

ـ بارك الله فيك يا بنيّ. . هكذا ينبغي أن يكون أبناؤنا قادة المستقبل.

نظر الحاج محمود إلى أبي وقال:

ـ البركة في تربية أبي صادق لأولاده. . إنه يربّيهم أحسن تربية. .

يربّي عقولهم، ويصقل أرواحهم، ويعمر قلوبهم بكلّ نافع ومفيد لهم في دنياهم وأخراهم، ولو أنه اعتمد على المدرسة ومناهجها، وعلى ما تبثّه وسائل الإعلام المختلفة من سفاسف وموبقات، لفسدوا وفسد الجيل كله، وهذا ما يرتِّب علينا مسؤوليات كبيرة تجاه هذا الجيل الذي يسعى من يسعى إلى إفساده، ليكون لقمة سائغة لأعداء هذه الأمّة.

واختنق الحاج محمود بسُعاله، فسكتَ وقد دارت به الأرض، فأمسك رأسه بكفّيه، ورأيته يرفع حاجبيه مرّةً ومرّة، فتألمتُ لحاله، فيما أسرع إليه الأستاذ أحمد، وسقاه جرعة ماء وهو يقول:

ـ أعـداء هذه الأمة، وجهل أبنـائها، وانحراف منـاهج التربيـة في المدارس والجامعات، وفسـاد أجهـزة الإعلام. . كلُّ أولئـك سـاعدوا ويساعدون، وعملوا ويعملون على إجهاض عمليّات النُّهوض الحضاري بهذه الأمة، وهؤلاء الذين ذكرتموهم، وآخرون غيرهم، وكثير منهم ينتمون إلى النُّخْبة المثقفة. . أقول:

هؤلاء وغيرهم، أسافين تُدَقُّ لتعوق تقدُّمَ الأمّة، فكلما كثر المغنّون والراقصون ومن ينتسـبون إلى (الفنّ) الحديث، كثر السـقوط، وتتـالت الكوارث والسَّقَطات والهزائم.

وصحا الحاج محمود، وانقشعت الصُّفرة التي غشَّتْ وجهه، فرفع رأسه وقال:

ـ دعونا من ذكر هؤلاء، وسوف يكون يوسف هذه الأمة، الصحابيُّ الجليل جرير بن عبد الله البَجَليّ، ضيفنا في سهرة اليوم، فهل نبدأ؟

فأمَّنَ الجميع على رأي الحاج، وفتحتُ المسجّل، حتى لا تفوتني شاردة من حديث الحاج، المؤرّخ العسكريّ الكبير.

قال الحاج محمود:

ـ سوف أذكر ما يخطر على البال، والبركة في أسئلة صادق، فهي تذكرني بما نسيت.

وقال الشيخ علي:

ـ وإن كنت حضرت لأستمع، ولكني قد أذكّرك بما نسيتَه، أو أسألك بعض الأسئلة، وأخي الأستاذ ناجي مثلي في هذا.

رحَّبَ الحاج محمود بما قاله الشيخ علي، ثم قال:

ـ اسمُ صاحبنا إذن: جرير بن عبد الله البجلي.

صادق: البَجَليّ؟ نسبة إلى ماذا ياعمّي؟ أو إلى من ينتسب؟

الحاج: البجليّ نسبة إلى بَجِيْلة على وزن (فَعِيلة) وكلُّ ما كان على وزن (فَعِيلة) فالنّسبة إليه (فَعَلي) مثل: عقيدة: عَقَديّ ـ قبيلة: قَبَلي وهكذا. .

صادق: إذن من الخطأ أن نقول: عقائدي، وطبيعي، وبديهي؟

الشيخ: عقائدي خطأ. . غلط به كثير من الكَتَبَة والصّحفيّين، أمّا طبيعيّ وبديهيّ فصحيحتان فصيحتان، جاءتا على خلاف القاعدة.

صادق: يعني. . من الغلط أن نقول: طَبَعيّ وبَدَهيّ؟

الشيخ: القاعدة تقول: طَبَعي وبَدَهيّ، والعرب قالوا: طبيعيّ وبديهيّ، فأيّهما استخدمتَ جاز.

صادق: وما معنى بجيلة ياسيِّدي؟

الشيخ: بجيلة اسم قبيلة في اليمن، وإليها يُنسَبُ صاحبنا جرير رضي الله عنه.

الحاج: أصل بجيلة. . أو بجيلة ـ في الأصل ـ هي أمُّهم التي نُسبوا إليها.

الأستاذ: وهي بجيلة بنت صعب بن علي بن سعد العشيرة.

الحاج: بارك الله فيك ياأستاذ أحمد، فذاكرتُك قويّة والحمد لله.

الأستاذ: بعض ما عندكم ياسيِّدي.

الحاج: وبجيلة قبيلة كبيرة، تفرّعتْ منها عدّة بطون، منها: قسر، وأحمس، ونمير، وزيد. . أكمل ياأستاذ أحمد.

الأستاذ: وهُذْم، وهديم، ووداعة، وغوث، وعبقر، وأشهل، وسواها. .

وكانت بلادهم مع إخوتهم (خَثْعَم) في جبال السروات في اليمن والحجاز إلى (تَبَالة) وكانت دارهم جامعة، وأيديهم واحدة، حتى وقعت حرب بين أحمس وزيد. وعلى أثر ذلك، افترقت بطون بجيلة، وتقطّعوا في

قبائل العرب، يجاورونهم في بلادهم، ومازالوا متفرّقين حتى أذن عمر بن الخطاب لجرير أن يجمعهم ليوجّههم إلى العراق، لحرب الفرس.

الحاج: وكان أكثر بجيلة في العراق، ولم يكن منهم في الشام إلا عدد قليل.

الأستاذ: مع أنّ رغبة البجليين أن يكونوا في الشام، ولكنّ عمر بن الخطاب أغراهم ودفع لهم ربع الخمس من الغنائم، فتوجّهوا نحو العراق.

الحاج: سوف نتحدّث عن هذا في حينه إن شاء الله.

صادق: الحمد لله، وإلا.. ما فهمتُ شيئاً.

الأستاذ: كلُّ شيء بأوانه.

الشيخ: دعوني أشرح الأمر الآن، حتى لا يتكرر.. وصححوا لي إذا غلطت..

أراد جرير أن يجمع أبناء قبيلته المشتتين الموزَّعين في القبائل، وعرض الأمر على رسول الله ﷺ، ولكنّ الرسول الكريم توفّي قبل أن ينجز لجرير ما وعده به.

ونظر الشيخ علي في وجوه الحاضرين، فلمّا رآهم موافقين على كلامه تابع يقول:

ـ وفي خلافة الصدّيق أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ خرج جرير فيمن خرجوا إلى الشام تحت قيادة خالد بن سعيد بن العاص، وعرف جرير حاجة جيش خالد إلى المزيد من الرجال، ليتمكنوا من مواجهة جيوش الروم، فاستأذن قائده، ورجع إلى المدينة المنوَّرة، وكلّم أبا بكر في أمر بجيلة، وذكر له أن النبيَّ الكريم كان وعده بذلك، وأتاه بمن يشهد له بذلك، ولكنّ أبا بكر أبى.

صادق: لماذا يأبى، مادام الرسول القائد قد أذن له أو وعده بذلك؟

الشيخ: لأن أبا بكر كان مشغولاً بالفتوح، ورأى أنّ الوقت غير مناسب.

الحاج : ولذلك قال لجرير في غضب :

«ترى شُغْلنا ومانحن فيه بغوث المسلمين ، ممن بإزائهم من الأسدين :

فارس والروم ، ثمّ أنت تكلّفني التشاغل بما لا يغني عمّا هو أرضى لله ورسوله؟

دعني وسرْ نحو خالد بن الوليد ، حتى أنظر ما يحكم الله في هذين الوجهين» .

صادق : ونفّذ أمر الخليفة؟

الشيخ : طبعاً نفَّذ ، وسار نحو العراق ، والتحق بجيش خالد بن الوليد ، وبقي معه يقاتل ، حتى خرج خالد إلى الشام لنصرة جيش المسلمين ، فذهب جرير معه ، ثم استأذنه في العودة إلى المدينة ، فأذن له ، ولما تولّى الخلافة عمر ، فاتحه جرير في جمع بجيلة ، وطالبه عمر بالبيّنة .

صادق : البيَّنة على ماذا ياسيّدي؟

الشيخ : على أن الرسول الكريم ﷺ وعده بذلك ، ثم لحق بربّه قبل أن ينجز له وعده ، وجاءه جرير بالبيّنة .

صادق : فأنجز له الخليفة ما وعده به الرسول القائد ﷺ!

الشيخ : وكتب عمر إلى عماله على القبائل :

«مَن كان عنده أحد ينسب إلى بجيلة في الجاهلية ، وثبت عليه في الإسلام ، ويُعْرَفُ ذلك ، فأخرجوه إلى جرير» .

صادق : يا سلام! .

الشيخ : وعيَّنَ لهم مكاناً بين العراق والمدينة .

ونظر الشيخ علي في الحاضرين بعينين ضاحكتين وقال :

ـ وهكذا جُمعت بجيلةُ ، وصار جرير شيخاً لها ، بطلبِ من سادتها ، وافقهم عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وعلّق الأستاذ أحمد:

ـ تلخيص رائع، وبعد أن جمعها جرير، أخذتْ بجيلةُ مكانها البارز في معارك الفتح، كوحدة عسكرية مقاتلة ذات بأس، في جيش المسلمين في العراق.

صادق: إذن.. اسمه: جرير بن عبد الله البجليّ، من اليمن.

الحاج: وكنيتُه: أبو عمرو.

صادق: متى أسلم جرير يا عميّ الحاج؟

الحاج: في السنة التاسعة من هجرة الرسول القائد.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الحاج: وهي سنة الوفود التي وفدت على الرسول القائد.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الحاج: وكان حسن الصورة، جميلاً، وسيماً، مليح الشكل إلى الغاية، وكان عملاقاً، طوله ستة أذرع.

صادق: يعني.. كم متراً ياسيّدي؟

الحاج: حوالي ثلاثة أمتار.

صادق: ما شاء الله.

الحاج: ولذلك قال عنه أمير المؤمنين الفاروق:

«جرير يوسف هذه الأمة، وهو سيّد قومه».

الجميع: رضي الله عنه.

الحاج: وكان متواضعاً.. تصوَّروا.. كان يركب بغلته ويُرْكِبُ غلامه خلفه، وهو مَنْ هو مكانةً ورفعة شأن.

صادق: كنتم ذكرتم أن جريراً ـ رضي الله عنه ـ التحق بجيش البطل

خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ في العراق. أيْ أنه كان مقاتلاً، فماذا عن جهاده ياسيّدي الحاج؟

الحاج: إذا كنت تريد الحديث عن جهاد البطل جرير بن عبدالله، فاسمع قصّة جهاده من البداية.

نهض الحاج محمود بقامته المديدة، وتناول صينيّة الشاي، ثم عاد إلينا، فأسرعتُ إليه، وقمتُ بتقديم الضّيافة إلى السادة الحاضرين، وأنا في منتهى السعادة، وكليّ شوق لسماع الكثير عن بطولات صحابيّ جليل.

وتابع الحاج محمود حديثه:

ـ كان الرسول القائد ﷺ يثق بجرير، حتى إن جريراً كان يقول:

«ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ضحك».

الشيخ: عليه الصلاة والسلام.

صادق: هنيئاً له بهذه الثقة الغالية، وبهذه المودّة وبهذا الحبّ. نعم ياسيدّي الحاج.

الحاج: ولذلك أرسله الرسول القائد إلى اليمن داعياً ومقاتلاً.

قال جرير:

«قال لي رسول الله ﷺ:

«ألا تريحني من ذي الخَلَصَة؟»

صادق: ما معنى ذي الخلصة يا سيّدي؟

الحاج: ذو الخلصة صنم أبيض منقوش عليه كهيئة التاج، وكان هذا الصَّنم في (تَبَالة) بين مكَّة واليمن، على مسير سبع ليال من مكة، وكانت قبائل بجيلة وخثعم وأزد السّراة ومَنْ قاربهم من بطون العرب، كانوا يعظّمونه ويُهْدون إليه، وكان ذو الخلصة في بيت يُطْلَقُ عليه في الجاهلية اسم (الكعبة اليمانيّة).

قال جرير لمّا طلبَ منه الرسـول القائد ﷺ أن يذهب إليـه ليهدمه: «يارسول الله. إني رجل لا أثبت على الخيل»

فضرب يـده على صدري، حتَّى رأيـت أثر يده في صدري، فقـال: «اللهم ثَبِّـتْه، واجعله هادياً مهدياً».

فما سقط عن فرس بعد.

صادق: الله أكبر.. الله اكبر.

ناجي: هنيئاً لأصحاب رسـول الله ﷺ، دعـوات رسول الله لهم، وشرف الصُّحبة، والجهاد تحت لوائه الشريف.

صادق: وبعدها ياسيّدي؟

الحاج: فسار جرير إلى ذي الخلصةِ على رأس مئة وخمسين فارساً، فهدم الصَّنم والبيت، وحرّقهما، وعاد سالماً، فدعا له النبيّ ﷺ.

صادق: قلت ياسـيّدي الحاج، إن الرسـول القائد أرسله إلى اليمن داعياً ومقاتلاً.

الحاج: نعم يا صادق.. أرسله الرسول القائد إلى اليمن، ليدعو أهله إلى التوحيد، وليقاتل من لا يستجيب لدعوته.

صادق: وهل استجابوا له؟

الحاج: بعثه النبيُّ إلى ذي الكُلاع بن ناكور، وإلى ذي عمرو، فذهب إليهما، وحاورهما حتى أقنعهما بالإسـلام، فأسـلما، وأسـلمتْ معهما (ضريبة بنت أبرهة)، وكانت زوجةً لذي الكُلاع.

صادق: وماذا يعني إسلام هؤلاء ياسيّدي؟

فانتفض الشيخ عليّ وقال:

ـ ماذا تقول يا ولد؟

في إسلام هؤلاء، إسلام أهل اليمن.

وعلّق الأستاذ ناجي على كلام أخيه الشيخ علي بقوله:

- ولذلك أمره النبيُّ الكريم ﷺ أن يبقى عندهم، ليعلّمهم أمور دينهم، وتعاليم هذا الإسلام العظيم، وبقي هناك حتى أخبره ذو عمرو بوفاة النبيّ الكريم ﷺ، عندها عاد جرير إلى المدينة، يحمل أحزانه لوفاة رسول الله ﷺ، قبل أن يملأ جرير عينيه منه أولاً، ولأنّ أكثر القبائل اليمنيّة ارتدت عن الإسلام بعد أن سمعت بوفاة النبي عليه الصلاة والسلام.

وصعَّد الحاج محمود حسرةً من عمق أعماقه، ثم قال:

- عاد جرير ليخبر الخليفة أبا بكر بارتداد الناس عن الإسلام في اليمن، وبثبات من ثبت على الإسلام منهم، فما كان من الصّدّيق إلا أن يعيد جريراً إلى اليمن، ليضمَّ إليه من ثبت على الإسلام من بجيلة ومن القبائل الأخرى، وأمره أن يشاغل المرتدين بمن معه من المسلمين، حتى يأتيه المَدَدُ.

وتبسّم والدي وهو يقول:

- تذكرت طُرْفةً سمعتها منك يا سيّدي الحاج.

الحاج: هاتها يا أبا صادق.

الوالد: عندما دخل جرير إلى (الكعبة اليمانية) ليهدم الصنم (ذا الخَلَصَة) وجد هناك رجلاً يستقسم بالأزلام، فقال له جرير:

«إنّ رسول الله ﷺ، هاهنا، فإنْ قَدَرَ عليك ضَرَبَ عنقك»

صادق: فخاف وترك الأزلام؟

الوالد: بل استمرّ يضرب بها، عندئذٍ، وقف جرير فوق رأسه، وقال له: «لتكسرنّها، ولتشهدَنَّ أن لا إلـه إلا الله، أو لأضربَنَّ عنقك».

صادق: عندئذٍ كسرها وشهد.

الوالد: أجل يابنيّ.. عندما سمع تهديد جرير، كسر الأزلام، وشهد شهادة الحقّ.

صادق: ثم ماذا فعل جرير مع المرتدّين يا سيّدي؟

الحاج: تمكَّنَ من القضاء على المرتدين الذين صادفهم، ثم جاء المهاجر بن أميّة من عند أبي بكر، وكان آخر من تحرّك لقتال المرتدين، وانضمَّ جرير بمن معه إلى جيش المهاجر، وقاتلوا تحت لوائه، وحقَّقوا انتصاراتٍ باهرة على المرتدين، حتى وصلوا إلى صنعاء.

أحمد: وكان لثبات جرير على إسلامه، بالرغم من ارتداد الكثير من رجال قبيلته (بجيلة)، وكان لعودته السريعة إلى اليمن، وقتاله المرتدين.. كان هذا وذاك وتلك، عوامل مهمّة لتحقيق النصر الساحق على المرتدين، والقضاء على حركة الرِّدَّة في اليمن.

صادق: وهل بقي جرير في اليمن يا سيّدي؟

الحاج: بل عاد ليتابع مسيرته الجهادية في بلاد الشام، تحت لواء القائد خالد بن سعيد بن العاص، ثم وجّهه الخليفة أبو بكر إلى العراق، ليقاتل تحت لواء القائد المغوار خالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين.

صادق: وعندما عاد خالد إلى الشام، وأخذ نصف جيش العراق معه لنجدة المسلمين في اليرموك، اصطحب معه البطل جرير بن عبدالله.

الحاج: وقاتل جرير في كل المعارك التي خاضها خالد وهو في طريقه إلى الشام.

صادق: وشارك في معركة اليرموك؟

الحاج: طبعاً.. وقد اختاره خالد ليكون ضمن الفدائيين الفرسان المئة الذين اختارهم من المهاجرين والأنصار، وكان كلٌّ واحد من هؤلاء المئة، يردّ جيشاً بمفرده.

صادق: ما شاء الله.

أحمد: وكان لأولئك الفرسان المئة تأثير كبير على معنويات الروم قبيل المعركة الحاسمة، كما كانوا أبطالاً صناديد طوال معركة اليرموك، فقد أبلوا فيها بلاءً حسناً..

الحاج: كان الواحد منهم يهدُّ صفوف الرُّوم هدّاً.

صادق: وبعد اليرموك، توغّل مع جيش خالد في بلاد الشام، ليفتحها مدينةً مدينةً.

الحاج: بل عاد إلى المدينة، وجمع قبيلته بجيلة ـ كما قلنا قبل قليل ـ وسار على رأسها إلى العراق، لنجدة المثنَّى البطل.

صادق: إذن.. قاتل جرير تحت لواء المثنَّى؟

الحاج: وأيَّ قتال!.

أحمد: كان المثنى يثق به وبكفايته، ولذلك، حين انسحب المثنَّى من العراق، بعد معركة البويب، ونزل على حدود الصحراء، نشر قواته ما بين القطقطانة شمالاً، إلى غضي بالقرب من البصرة جنوباً، وجعل جريراً على رأس تلك القوات.

الحاج: وفي (البويب) كان جرير على رأس ألفي مقاتل من بجيلة، كانوا في جيش المثنى في معركة البويب، وكان لهم دورهم الفعّال في مطاردة فلول العدوّ المنهزم، وبعد عمليات المطاردة.

صادق: هل كان كل شيخ قبيلة على رأس قبيلته؟

أحمد: نعمْ.. وكانت القبائل تتحرك كوحدات عسكرية مقاتلة.. كلُّ قبيلةٍ تشكّل وحدة حربية في الميدان.

صادق: ذكرتم ـ يا سيّدي ـ معركة البويب، فهل تحدّثنا عنها؟

أحمد: لا بأس.. أنا أحدِّثك عنها يا بنيّ.

فتحرك الشيخ عليّ في مقعده، وطَرَفَ بعينيه المتعبتين عدّة مرات، ثم قال:

ـ حدّثنا جميعاً يا أستاذ أحمد.

فابتسم الأستاذ أحمد ابتسامته المقتضبة وقال للشيخ عليّ:

ـ أنت أستاذنا يا شيخ علي، ومنك نتعلّم، وكلامي في حضرتك جرأةٌ مني لا أُحْسَدُ عليها.

فألقى الشيخ علي نكتة ظريفة تناسب المقام، ثم قال:

ـ هاتِ حدّثنا يا أستاذ أحمد.

قال الأستاذ أحمد:

ـ الامتثال خيرٌ من الأدب، أو خير أنواع الأدب.. سوف أتحدّث، وأرجو منكم أن تصححّوا لي.

فقال الشيخ علي:

ـ نحن لسنا في جلسة تحقيق علميّ.. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، أنت خبير بتاريخنا العسكريّ.. أنت كاتب استراتيجي يا أستاذ أحمد.

فانبرى الحاج محمود يقول في امتعاض:

ـ عرِّبْنا كلمة استراتيجي بكلمة (سَوْقي).. سَوْقي يا شيخ عليّ. فقال الشيخ علي ضاحكاً:

ـ وإن كنت لا أثق بتعريب كثير من الكلمات التي تفضَّل رجال المجامع العلمية واللغوية بتعريبها، فإني لن أقف عند هذه الكلمة، وهات ما عندك يا أستاذ أحمد.

ركز الأستاذ أحمد نظاراته السميكة فوق عينيه المُجْهَدَتين، ثم قال:

ـ خرج القائد الفارسيّ مهران على رأس فرسانه من (المدائن) عاصمة الدولة الفارسيّة، متوجّهاً نحو الحيرة، ولكنَّ تحرُّكه لم يَخْفَ على المثنّى الذي كان يبثّ عيونه (أي جواسيسه) في عمق أرض العدوّ، وقدَّرَ المثنى أنّ حركة جيش مهران ستكون سريعة، فتحرّك على الفور نحو البويب، لأنه قدَّر أن مهران سيتوجّه نحو البويب. وكتب المثنّى إلى جرير يأمره باللحاق به إلى البويب، وبسرعة.

وعندما توقّف الأستاذ أحمد عن الكلام، سألته عن البويب فقال:

ـ البويب كانت قناة تصريف لنهر الفرات قبيل موضع الكوفة، فيصبُّ ـ أيام الفيضان ـ في الجوف.

صادق: نعمْ يا سيّدي.

أحمد: صدق حَدْسُ (أي ظنُّ) المثنى، إذ كان مهران قد صار بحذائهم من وراء نهر الفرات، في مكان اسمه (بسوسيا) وكان مع جيشه ثلاثة أفيال.

صادق: وكم كان جيش المسلمين يا سيّدي؟

أحمد: كان مع المثنّى ثمانية آلاف مقاتل، منهم ألفان من قبيلة بجيلة. عبَرَ مهرانُ نهرَ الفرات، واصطفَّ الفريقان للقتال.

صادق: متى كان هذا يا سيّدي؟

أحمد: في شهر رمضان.

صادق: والناس صيام؟

أحمد: لكنَّ المثنى أمرهم أن يُفْطِروا، ويتقوَّوا على قتال عدوّهم بالطعام.

صادق: فأفطروا؟

أحمد: نعمْ أفطروا.. ثم صفّهم المثنّى صفوفاً كصفوف الصلاة، وخطب فيهم، وحمَّسَهم، وكان يمرّ على حملة الرايات ويقول لهم:

«إني لأرجو ألاّ تُؤتَى العربُ اليومَ من قِبَلكم».

ويقول فيما كان يقول:

«واللهِ ما يسرُّني اليوم لنفسي شيء، إلا وهو يسرُّني لعامّتكم».

وكان المجاهدون يتجاوبون مع ما يقول، ويتحمّسون لقتال العدوّ.

ثم التحم الجيشان، وحمل المثّنى على مهران، فأزاله عن مكانه في قلب الجيش، حتى أدخله في ميمنته، واستمرَّ المثّنى يضغط عليه بقلب جيش المسلمين الذي كان المثّنى يقوده، حتى خالطوا الفرس، واجتمع قلبا الجيشين، وارتفع الغبار، واقتتلت الأجناب بشدّة، والمثّنى يضغط على مهران.

صادق: وصاحبنا جرير؟

أحمد: كان يقاتل مع المثّنى، واستطاع جرير ومعه المنذر بن حسان أن يقتلا مهران، وكان مهران على فرس أحمر مدرَّع، بين عينيه هلال، وعلى ذيله أهلّة من نحاس.

صادق: الله أكبر!.

أحمد: وقُتل من دهاقين الفرس: شهر براز، وكان قائد الفرسان في المعركة.

صادق: الله أكبر!.

أحمد: وتمكَّنَ قلب جيش المسلمين، من إفناء قلب جيش المشركين، وقسموا جيشهم إلى قسمين، وانفصلت ميمنة جيش الفرس عن ميسرته، ثمّ بدأت كلتا الميمنة والميسرة تهتزان تحت ضربات قلب جيش المسلمين، الذي كان يضغط على الأجناب الداخلية لجيش الفرس، حتى أجبروهم على الفرار منهزمين، وخشي المثّنى أن ينجوا بفرارهم من القتل، فسابقهم إلى الجسر الذي سيعبرون عليه، ومنعهم من العبور، وقطع عليهم خطَّ الرجعة، فافترقوا بشاطئ الفرات، يلتمسون مهرباً للنجاة بأرواحهم، فتداولتهم خيول المسلمين، وتبعتْهم إلى الليل، ومن الغد إلى الليل، حتى أبادوهم، فما كانت معركة بين العرب والعجم أبقى رمّةً وأشلاء وجثثاً منهم.

صادق: الله أكبر!.

الشيخ: كم كان عدد القتلى من الفرس يا أستاذ أحمد؟

أحمد: مئة ألف.

الوالد: الله أكبر!.

صادق: والمطاردة؟ ألم تقولوا: إن قبيلة بجيلة طاردت فلولهم؟

أحمد: بلى.. قال المثنّى:

«من يتبع الناس حتى ينتهي إلى المسيّب (على نهر دجلة)؟ فقام جرير في قومه وقال:

«يا معشر بجيلة!.

إنكم، وجميع من شهد هذا اليوم في السابقة والفضيلة والبلاء سواء.. فلا يكوننَّ أحدٌ أسرعَ إلى هذا العدوّ، ولا أشدَّ عليه منكم، فإنما تنتظرون إحدى الحُسْنيين:

الشهادة والجنّة.

أو الغنيمة والجنّة».

فتحمّست بجيلة، وطاردت فلول المنهزمين، وأصابت منهم الكثير.

صادق: الله أكبر!

أحمد: ثم عاد جيش المسلمين إلى الحيرة، ونظّم المثنّى حامياته في أرض السَّواد، وأرسل جريراً إلى ميسان.

ودار نقاشٌ حامٍ بين السادة العلماء حول الفطر في رمضان، إذا كان هناك ما يدعو إليه كالقتال في سبيل الله، وعن الأوضاع القبليّة التي لم يقض عليها الإسلام، ثم استثمرها القادة الأبطال كخالد وجرير، ومنهم من لام جريراً ـ رضي الله عنه ـ لأنّه أصرَّ على جمع قبيلته بجيلة، فردَّ بعضهم على هذا اللوم ردّاً عنيفاً، فالرسول القائد نفسه وعده بذلك، وأمير المؤمنين الحاكم الصّلب الذي لا تأخذه في الله لومة لائم سمح له بذلك، لأنه عرف أن الإسلام ليس ضدَّ القبيلة وتجمُّعها وتكتُّلها، بل هو ضدّ التعصُّب للقبيلة.

وكنت أراقب ذلك الحوار السّاخن، في إعجاب، ثم إنّ أبي نبّهني إلى المسجّل، فأغلقتُه، حتى لا أسجِّل الأصوات المرتفعة، ولذلك، فاتني خيرٌ كثير من الأدلّة التي استشهد بها كلٌّ واحد منهم، تأييداً لرأيه . .

وقال الأستاذ أحمد:

ـ كان البطل الذي لم تلد النساء مثله: خالد بن الوليد، إذا حمي الوطيس، صاح بأعلى صوته: «تمايزوا أيها الناس» والتمايز كان بانحياز أبناء القبيلة الواحدة إلى سيّدها، والقتال تحت لوائه. وقد علمتم أيَّ دور قامت به قبيلة بجيلة في معركة القادسيّة.

فاهتبلتُ الفرصة، وسألت الأستاذ أحمد:

ـ إذن. . قاتلت بجيلة في معركة القادسيّة؟

أحمد: وأبلت بلاءً حسناً، وكادت تفنى وهي تقاتل في اليوم الأول، لولا أن تداركها بنو أسد، وبطلهم الصّنديد: طليحة بن خويلد، بأمر من القائد سعد بن أبي وقّاص.

صادق: وجرير كان معها؟

أحمد: وكان على رأسها، فأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد حشد لهذه المعركة التاريخية الفاصلة حشوداً كثيرة، ولم يترك رئيساً، ولا ذا رأي، ولا ذا شرف في قومه، ولا ذا سطوة، ولا خطيباً، ولا شاعراً، إلا رمى به الفرس. . رماهم عمر بوجوه الناس، وغُرَرهم ودُرَرهم وهو يقول: «والله لأضربنَّ ملوك العجم، بملوك العرب».

صادق: مَنْ مِنَ الشّعراء كان في القادسيّة يا أستاذي الكريم؟

أحمد: كان فيها ـ مثلاً ـ الشاعر البطل المغوار أبو مِحْجَن الثقفي.

فتحرك الشيخ علي في مجلسه حركةً تنمُّ عن استعداده للكلام، فسكت الأستاذ أحمد، وقال الشيخ علي:

ـ دعوا الشاعر والشعراء لشيخكم الأديب، فهو أَعْرَفُ بهم منكم.

وتبسَّم الحاضرون، وقال أبي:

ـ أنت لها ولهم يا سيّدنا الشيخ.

فقال الشيخ عليّ:

ـ أبو محجن الثَّقفيّ هو الشاعر البطل عمرو بن حبيب، وهو أحد الأبطال الشعراء الكرماء في الجاهليّة والإسلام، أسلم في السنة التاسعة للهجرة، وكان مبتلى بشرب النبيذ، فأقام عليه عمرُ الحدّ أكثر من مرّة، ثمّ نفاه أمير المؤمنين عمر إلى جزيرة في البحر، فهرب أبو محجن، ولحق بالقائد سعد بن أبي وقاص في العراق، وكانت معركة القادسيّة، وأبو محجن في الأغلال.

صادق: لماذا في الأغلال يا سيّدي؟

الشيخ: لأنّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كتب إلى سعد يأمره بحبس أبي محجن، فحبسه سعد عنده، واشتدّ القتال بين المسلمين والفرس، وأبو محجن ينظر إلى المسلمين وهم يفرّون ويكرّون، ولا يستطيع فعل شيء للمسلمين.. نادى سعداً ورجاه أن يفكَّ قيوده ليقاتل مع المسلمين، فلم يأبه سعدٌ له ولا لرجائه، فانطلق لسانه ينشد:

كفى حَزَناً أن تُطْرَدَ الخيلُ بالقَنا ... وأُتْرَكَ مشدوداً عليَّ وَثاقيا
إذا قمتُ عنّاني الحديد، وأُغلقتْ ... مصاريعُ مِنْ دوني تُصِمُّ المناديا
وقد كنتُ ذا مالٍ كثير وإخوةٍ ... فقد تركوني واحداً لا أخاليا
أريني سلاحي، لا أبالك، إنني ... أرى الحرب ما تزداد إلا تماديا

إلى آخر القصيدة..

وجاءته سلمى امرأة سعد، فالتمس منها أن تحلّ قيده، وعاهدها أن يعود إلى القيد إن سَلِمَ، فخلَّتْ سلمى سبيله، فقاتل قتالاً عجيباً على فرس سعد.

صادق: وسعد؟

الشيخ: كان مريضاً مصاباً بالدَّمامل، ولا يقوى على القتال، فحطَّمَ أبو محجن جيش الفرس، وكان سعدٌ ينظر من شرفته إلى ساحة المعركة، ويشاهد أبا محجن يصول ويجول ويجندل الأبطال بسيفه تارةً، وبرمحه تارةً أخرى، وكان يراه على فرسه، وأظنّها البلقاء، فكان يقول لنفسه:

«لولا أنّ أبا محجن في حبسه وقيده، لكان ذلك البطل أبا محجن».

وقد قال بعض المؤرخين:

«كان أبو محجن سببَ هزيمة الفُرْس»

وأنا أقول: كان من جملة أسباب هزمت الفُرْسَ.

صادق: ولم يعلم القائد سعد بما كان من أمر أبي محجن؟

الشيخ: بل أعلمته زوجته سلمى بذلك، وطلبت منه أن يفكّ القيود عنه، وأن يخرجه من محبسه، ففعل سعد.. أطلق سراحه، وقال له: «لا ضربتك في الخمر أبداً»

فأجابه أبو محجن:

«كنتُ آنَفُ أن أدع الخمر من أجل جَلْدِكم، أمّا الآن.. فلن أشربها والله أبداً».

الوالد: غفر الله له، ورضي عنه، ما كان أنبله!.

تنحنح الأستاذ أحمد، وقال معلقاً على حديث الشيخ عليّ:

ـ هناك أربع روايات لحبس أبي محجن، ذكر الشيخ علي إحداها، وأنا أستبعد هذه الرواية، فليس من حقّ سعد إطلاق سراح أبي محجن، وقد أمر الخليفة بحبسه، كما ليس من حقّه أن يعطّل حدّاً من حدود الإسلام، وهو حدّ الخمرة.

وقال الحاج محمود:

ـ قال بعض المؤرخين:

سألتْ سلمى أبا محجن الثّقَفي :

«في أيِّ شيء حبسك هذا الرجل؟»

قال أبو محجن :

«أمَا والله ما حبسني بحرامٍ أكلتُه ولا شربتُه، ولكنّي كنتُ صاحب شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدبّ الشعر على لساني، فيبعثه على شفتي أحياناً، فيُساء لذلك ثنائي . . قلت أبياتاً في الخمرة، فحبسني من أجلها، دون أن أشربها» .

فسعدٌ حبس أبا محجن للأبيات التي ذكرها في الخمرة، لا لأنه شربها، وقد وعده سعدٌ بأن لا يحبسه مرة أخرى إذا ذكرها في شعره .

أحمد : أمّا أنا، فلي رأي آخر يخالف آراءكم . . وهو أن سبب حبسه، كان بسبب شغبه على سعد ـ رضي الله عنه ـ لأنه استخلف خالد بن عرفطة، قبيل معركة القادسيّة . . وهذا يقودنا أو يعيدنا إلى جرير بن عبد الله البجلي ـ رضي الله عنه ـ فقد آزر جريرٌ سعداً، وقال للناس المشاغبين : «أمَا إني بايعت رسول الله ﷺ على أن أسمع وأطيع لمن ولّاه الله الأمرَ، وإن كان عبداً حبشيّاً» .

صادق : فهدأ المشاغبون؟

أحمد : وسكنوا، وكانت المعركة الفاصلة التي انتصر فيها المسلمون على الفُرس انتصاراً هائلاً .

صادق : ياليتكم تذكرون لنا بعض مناقب الصحابيّ الجليل جرير .

فتوجّه الشيخ علي نحو أخيه الأستاذ ناجي، كأنه يحثّه على الكلام، فقال الأستاذ ناجي في حياء جمّ، وتواضعٍ ينمُّ عن زُهدٍ في الكلام :

ـ سوف أذكر لكم بعض ما أعرف عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

أولاً : أحبُّ أن أنوّه، أنّ دور جرير وقبيلته بجيلة في فتوح بلاد العراق وفارس عامة، وفي القادسيّة خاصة، كان دوراً كبيراً فعالاً .

ثانياً: سأروي هذه الحادثة التي رواها جرير نفسه فقال:

«إنّ رجلاً كان مع أبي موسى الأشعري، وكان ذا صوتٍ ونكاية في العدوّ، فغنموا مغنماً، فأعطاه أبو موسى بعضَ سهمه (من الغنائم) فأبى أن يقبله إلا جميعاً، فجلده أبو موسى عشرين سوطاً، وحلقه».

صادق: وسكت الرجل؟

ناجي: بل جمع الرّجل شعره، ثم رحل إلى عمر بن الخطاب، حتى دخل عليه، فأخذ شعره، ثمّ ضرب به صدرَ عمر بن الخطاب، ثم قال:

«أمَا والله لولا النار».

فقال عمر:

«صدق والله.. لولا النار».

فقال الرجل:

«يا أمير المؤمنين! إني كنت ذا صوتٍ ونكاية». وأخبره بما كان من أبي موسى الأشعريّ، وقال:

«ضربني أبو موسى عشرين سوطاً، وحلق رأسي».

صادق: يا ويح أبي موسى من عدل عمر!.

ناجي: فقال عمر:

«لأنْ يكون الناس كلُّهم على صرامة هذا، أَحَبَّ إليَّ من جميع ما أفاء اللهُ علينا».

وكتب عمر إلى أبي موسى:

«سلام عليك..

أما بعدُ:

فإنّ فلاناً أخبرني بكذا وكذا، فإن كنت فعلتَ ذاك في ملأ من الناس،

فعزمتُ عليك لمّا قعدتَ له في ملأ من الناس حتى يقتصَّ منك، وإن كنتَ فعلتَ في خلاء من الناس، فاقعدْ له في خلاء من الناس حتّى يقتصّ منك».

صادق: واقتصَّ الرجلُ من القائد أبي موسى؟

ناجي: سلَّمَ الرجل الرسالة إلى أبي موسى، وعَرَفَ المسلمون فحواها، فطلبوا منه أن يعفو عن قائدهم أبي موسى.

فصحت بلا وعي:

ـ لا.. لا تعفُ عنه أيها الرجل!.

فابتسم السادة الأفاضل، وتابع الأستاذ ناجي يقول:

ـ فقال لهم الرجل بقوة:

«لا والله.. لا أدَعُه لأحد من الناس».

فلما قعد أبو موسى ليقتصَّ منه، رفع الرجل رأسه إلى السماء ثم قال:

«اللهمّ إني قد عفوت عنه».

فارتفع صوتي بالتكبير إعجاباً بشهامة الرجل الذي عفا عند المقدرة، بعد أن بيّنَ للناس أنّ لصاحب الحقّ مقالاً وفعالاً، وأنّ الله الذي كرّم بني آدم، يأمرهم بالمحافظة على كرامتهم، وعدم السكوت عن حقّهم، فليس من حقّ أحد مهما علا أن يمتهن كرامة أحد مهما نزلت مكانته.

وعلق السادة العلماء تعليقات إيجابيّة على موقف الرجل، وعلى عدل الإسلام الذي مثّله عمر بن الخطاب خير تمثيل، وأقامه في أرض الله.

ثم قال الشيخ عليّ:

ـ هات حادثة أخرى يا ناجي.

فامتثل الأستاذ ناجي، وقال:

ـ قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه:

قدِمَ ناسٌ من أهل العراق، وكنتُ فيهم، على أمير المؤمنين عمر

رضي الله عنه، فأتاهم بجَفْنَة (قَصْعة) فيها طعام مصنوع من خبز وزيت، وقال لهم: خذوا (أي كُلُوا).

فأخذوا (أكلوا) أخذاً (أي أكلاً) ضعيفاً.

الشيخ: كانوا يظنون أن عمر سيقدّم لهم أفخر طعام، وأطيب شراب.

ناجي: فقال لهم عمر:

«قد أرى ما تفعلون. فأيَّ شيء تريدونه؟ أحلواً وحامضاً وحارّاً وبارداً، ثم قَذْفاً في البطون؟»

الشيخ: لو جاؤوا اليوم، لبهرتهم الموائد التي يُنْفَقُ عليها من المال العامّ.

ثم نظر الشيخ نحو أخيه وتساءل عمّا إذا كان قد انتهى من الحديث عن جرير رضي الله عنه، فقال الأستاذ ناجي:

ـ في الذاكرة أشياء كثيرة، أختار لكم منها هذه.. قال جرير:

«لمّا صالح أبو بكر أهلَ الردّة، صالحهم على حرب مُجْلِيَة، أو سِلْمٍ مُخْزِيَة». فقالوا:

«قد عَرَفْنا الحرب المُجْلية (أي المُخْرِجَة عن الدار والمال) فما السِّلْم المخزية؟»

فقال أبو بكر رضي الله عنه:

«تَشْهَدُون أنّ قتلانا في الجنة.

وأنّ قتلاكم في النار.

وأن تدوا (أي تدفعوا ديات) قتلانا

ولا نَدي (أي لا ندفع ديات) قتلاكم.

وأنّ ما أصبْنا منكم، فهو لنا

وما أصبتم منّا، رددتموه إلى أهله».

فتعالت الصّيحات والتعليقات حول كلام الصّدّيق رضي الله عنه، عن السلم المخزية، كيف كانت في ماضينا، وكيف صارت في حاضرنا. ثم أستأذن أبي صاحب البيت، وعدنا إلى البيت، وأنا أحمل كنزاً ثميناً من المعلومات الرائعة، وخاصّة عن يوسف هذه الأمة، الصحابيّ المجاهد الذي دعا له الرسول القائد ـ ﷺ ـ وقال له، وهو ينظر إلى ماحَبَاه الله من جمال:

«إنك امرؤ قد حسَّنَ اللهُ خَلْقَك، فحسِّنْ خُلُقَك»

وقد حسَّنَ جريرٌ خُلُقَه، كما أراد الرسول القائد ﷺ الذي كان يعجب من عقل جرير، كما يعجب من جماله، رضي الله عنه، ولهذا كان الإمام عليٌّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ يقول عنه:

«جريرٌ منّا ـ أهل البيت ـ ظهراً لبطن».

أويتُ إلى سريري، وفتَحتُ المسجل، لأستعيدَ ما سمعتُه في السهرة، وفيما أنا بين النائم واليقظان، أقبل نحوي رجلٌ وسيم جميل عرفته للوَهْلة الأولى من طوله وجماله.. إنه الصّحابيّ الجليل جرير.

نهضتُ إليه، ورحَّبتُ به ثم قلت له:

ـ أمضيناسهرة اليوم في الحديث عنك يا سيّدي، وقد سجّلتُ ما دار في السَّهرة في هذا الشريط.

وجاءت أختي صادقة، وهي تعرك عينيها، كأنها قامت من نومها في هذه اللحظة، ورحَّبت بجدّها الذي تشعّ الأنوار من وجهه الصَّبيح، ثم قالت له:

ـ أريد أن تحدّثنا عن نفسك يا جدّي العزيز.

وجاء جواب الصحابيّ الجليل كحبّات السُّكّر:

ـ اسمي جرير بن عبد الله، وكنيتي: أبو عمرو، وأنتسب إلى قبيلة بَجيلة، ونحن من قحطان، من عرب اليمن.

صادقة: وماذا عن إسلامك يا سيّدي الفاضل؟

جرير: سمعْنا برسول الله ﷺ، وقرّرنا الدّخول في الإسلام، ثمّ إنني ذهبتُ مع وفد من قبيلتي إلى رسول الله ﷺ، فلمّا دنوتُ من المدينة، أنختُ راحلتي (أي ناقتي) وحلَلْتُ عَيْبَتي (وهي وعاء من جلد فيها متاعي) ولبستُ حُلّتي (أي ثوبي الجيّد) ثمّ دخلتُ المسجد، فإذا برسول الله ﷺ يخطب، فرماني الناس بالحَدَقِ (أي بعيونهم) فقلت لجليسي (الذي بجانبي):

«يا عبد الله. هل ذكر رسولُ الله من أمري شيئاً؟»

قال:

«نعمْ، ذكرك بأحسن الذّكر، بينما هو يخطب، قال:

«يطلع عليكم من هذا الباب رجلٌ من خير ذي يَمَن، على وجهه مِسْحَةُ مَلَكٍ» فحمدت الله على ذلك.

صادقة: صدق رسول الله ﷺ.. على وجهك، يا جديّ، مِسْحَةُ مَلَك.

صادق: كما قال أمير المؤمنين عمر: يوسف هذه الأمة ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١].

جرير: أنا لا أحبُّ الإطراء يا أولادي. ثم.. أين أنا من نبيّ الله يوسف عليه السلام؟

صادقة: معذرةً يا جدّي.. ونحن نصغي إليك.

جرير: أسلمتُ بعد نزول سورة المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح خفّيه في وضوئه.

بعث إليّ رسول الله ﷺ فقال:

«يا جرير، لأي شيء جئتَ؟»

قلت:

لأسلم على يديك، يا رسول الله».

فألقى عليّ كساءً، ثم أقبل على أصحابه فقال :

«إذا أتاكم كريمُ قومه فأكرموه» .

ثم قال لي :

«يا جرير . أدعوك إلى شهادة أنْ لا إلـه إلا الله .

وأني رسول الله

وأن تؤمن بالله

واليوم الآخر

والقَدَرِ خيرِه وشرِّه

وتصلّي الصلاة المكتوبة

وتؤدّي الزكاة المفروضة» .

وقال رسول الله ﷺ :

«بُني الإسلام على خمس :

شهادة أنْ لا إلـه إلا الله

وإقامة الصلاة

وإيتاء الزكاة

وحجّ البيت

وصوم رمضان» .

وقد بايعْنا النبيَّ ﷺ على مثل ما بايع عليه النساء .

صادق : وما بيعة النساء يا سيّدي؟

صادقة : عفواً يا جديّ ، أنا أجيبه ، فأنا أحفظ حديث بيعة النساء .

جرير : هاتيه يا ابنتي .

صادقة : اسمي صادقة يا جدِّي ، واسم أخي هذا : صادق .

فأشرق وجه جرير بابتسامة لم أرَ مثلها ثم قال :

ـ هاتيه يا صادقة .

قالت صادقة :

«عن أمِّ عطية ـ رضي الله عنها ـ قالت :

لمّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة ، جمع نساء الأنصار في بيت ، ثم أرسل إليهنَّ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه ، فقام على الباب فسلَّمَ عليهنّ ، فرَدَدْنَ السلام ، فقال :

أنا رسولُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ إليكنّ .

فقلْنَ :

«مرحباً برسول الله ﷺ ، وبرسول رسولِ الله ﷺ» .

فقال عمر :

تبايعْنَ على أن لا تُشْرِكْنَ بالله شيئاً

ولا تسرقْنَ

ولا تَزْنيْنَ

ولا تَقْتلْنَ أولادكنّ

ولا تأتيْنَ ببُهتانٍ تَفْتَرينَه بين أيديْكُنَّ وأرجُلِكُنَّ

ولا تَعصِيْنَ في معروف» .

قلنَ :

«نعمْ»

جرير : بارك الله فيك يا صادقة . . هذه هي بيعة النساء التي بايعْنا رسول الله عليها ، مَنْ مات منّا ولم يأت شيئاً منهنّ (كالسرقة والزِّنى

وسواهما) ضمنَ الجنّة، ومن مات منّا وقد أتى شيئاً منهنّ، وقد أقيمَ عليه الحدُّ، فهو كفّارة، ومن مات منّا وقد أتى شيئاً منهنّ فستر عليه، فعلى الله حسابُه.

صادقة: بايعتم على ذلك يا جدّي؟

جرير: أجلْ يا ابنتي، ولكنني استدركتُ فقلت: يا رسول الله، فيما استطعت؟

قال: فيما استطعت.

فكانت كلمتي هذه رخصة لسائر المسلمين.

كما بايعتُ رسول الله ﷺ على السَّمْع والطاعة، وأن أنصح لكلّ مسلم.

صادق: ولهذا كنتَ ـ يا سيّدي ـ إذا بعتَ أو اشتريتَ تقول لمن تبيعه أو تشتري منه:

«أما إنّ الذي أخذنا منك أحبُّ إلينا ممّا أعطيناك. فاخترْ».

هذا ما سمعته في السَّهْرة.

صادقة: الله أكبر.. هذه هي النصيحة للمسلمين.

صادق: وسوف أذكرها لأبناء التجّار والموظفين وغيرهم، لعلهم ينبّهون آباءهم، فقد غاب النُّصح للمسلمين في هذه الأيام.

صادقة: هل من مزيد، يا جديّ، من الأحاديث والذكريات مع الرسول القائد.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

جرير: حبّاً وكرامة يا أولادي، فليس أحلى من الحديث عن النبيّ الكريم ﷺ، وإني لأعرف الكثير، فرسول الله ﷺ ما حجبني عنه منذ أسلمتُ، ولا رآني إلا تبسَّم.

صادقة: هنيئاً لك يا جدّي.. وهات أسمعنا.

جرير: كنّا عند النبيّ ﷺ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا، لا تُضامُّون في رؤيته، فإن استطعتم أنْ لا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا».

ثم قال:

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠].

فرفعنا ـ صادقة وأنا ـ أكُفَّنا إلى السماء وابتهلنا في ضراعة وخشوع:

ـ يا رب اجعلنا ممن ينظر إليك!.

ـ يا رب لا تحرمنا من رؤية وجهك العظيم!.

وأمَّنَ الصَّحابيُّ الجليل على دعائنا، ثم قال:

ـ سأروي لكم هذه الحادثة، فافهموها جيّداً..

خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلمّا بَرَزنا من المدينة، إذا راكبٌ يُوْضِعُ (أي يسرع) نحونا، فقال رسول الله ﷺ:

«كأنّ هذا الراكب إياكم يريد».

فانتهى الرَّجلُ إلينا (أي وصل) فسلَّمَ فرَدَدْنا عليه، فقال له النبي ﷺ:

«من أين أقبلتَ؟».

قال: من أهلي وولدي وعشيرتي.

قال النبيُّ الكريم ﷺ: «فأين تريد؟».

قال الرجل: أريد رسول الله ﷺ.

قال النبي الكريم: «فقد أصبْتَه ـ أي وَجَدْتَه ـ».

قال الرجل: يا رسول الله، علّمني. ما الإيمان؟

قال: «تشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وتقيم الصلاة

وتؤتي الزّكاة

وتصوم رمضان

وتحجّ البيت» .

قال الرجل: قد أقررتُ .

وسكتَ الصّحابيُّ الجليل لحظةً ثم تابع يقول:

ـ ثمّ إنّ بعيره (أي جمله) دخلتْ يدُه في شبكة جُرْذان، فهوى بعيرُه وهوى الرجل، فوقع على هامته (أمّ رأسه) فمات، فقال رسول الله ﷺ: «عليّ بالرجل» .

فوثبَ إليه عمّار بن ياسر وحذيفة فأقعداه، فقالا :

«يا رسول الله قُبِضَ الرجل (مات)» .

فأعرضَ عنهما رسول الله ﷺ، ثم قال لهما :

«أما رأيتما إعراضي عن الرجل؟ فإني رأيت ملكين يدسّان في فيه من ثمار الجنة، فعلمتُ أنه مات جائعاً» .

ثم قال رسول الله ﷺ:

«هذا ـ والله ـ من الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] .

ثم قال النبيُّ الكريم ﷺ:

«دونكم أخاكم» .

فاحتملناه إلى الماء فغسّلناه، وحنّطناه، وكفّنّاه، وحملناه إلى القبر، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير (أي حافة) القبر فقال: «ألْحِدُوا ولا تَشُقُّوا، فإنّ اللَّحْدَ لنا، والشَّقَّ لغيرنا» .

كانت الحادثة مؤثّرة، ومع أني لم أفهم معنى «اللحد لنا والشقّ لغيرنا» فإنني لم أسأل عن معناها، وقلت في نفسي: سوف أسأل أهل العلم عنها،

ولا أريد أن أعكّر الأثر الذي تركته الحادثة في نفسي.

كان الصَّحابيُّ المهيب قرأ أثر الحادثة في نفوسنا، فانتقل بنا إلى جوّ آخر، جوٍّ الذَّوق الرفيع، والحبّ والأُلفة وما شئتَ من خُلُقٍ كريم تميّز به الرسول القائد ﷺ، فقال:

ـ اسمعوا هذه الحادثة أيضاً:

جئت إلى النبيّ ﷺ وهوفي بيت مزحوم، فقمت بالباب، فنظر النبيُّ ﷺ يميناً وشمالاً فلم يرَ مكاناً متّسعاً، فأخذ النبي ﷺ رداءه، فلفَّه، ثمَّ رمى به إليّ وقال لي: «اجلسْ عليه» فأخذت الرّداء الكريم فضممتُه ثمّ قبّلتُه، ثمّ رددْتُه على النبيّ ﷺ وقلتُ:

«أكرمك اللهُ يا رسول الله كما أكرمتني». ثم جلست على الأرض.

فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أنّك لا تبغي عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً».

وقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».

فعلّقتْ صادقة:

ـ وأنت يا جدّي، من سادة الكرماء، وحقٌّ علينا أن نكرمك، امتثالاً لأمر الرسول القائد ﷺ، ثم لأنك أهل للإكرام، يايوسف هذه الأمّة.

وكأنَّ الصَّحابيَّ الجليل خشي من امتداحه وإطرائه، فسارع يقول:

ـ اسمعوا هذه الحادثة:

كنّا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ، فجاءه قومٌ عُراةٌ حُفاةٌ يلبسون العباء، وهم يتقلّدون سيوفهم، عامّتُهم من مضر، بل كلُّهم من مُضر، فتمعَّرَ (أي تغيَّرَ) وجه رسول الله ﷺ لما رأى بما بهم من الفاقة (الفقر) فدخل ثمّ خرج، فأمر بلالاً رضي الله عنه فأذّنَ وأقام، فصلّى ثمّ خطب فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر : ١٨]

تصدَّقَ (أي فليتصدَّق) رجلٌ من ديناره، من درْهَمه، من ثوبه، من صاع بُرّه (أي قمحه) من صاع تمره، ولو بشقِّ تمرة».

فجاء رجلٌ من الأنصار بصرّة كادت كفُّه تعجزُ عنها، بل قد عَجَزَتْ، ثمّ تتابع الناسُ، حتى رأيتُ كومين من طعام وثياب، حتى رأيتُ وجهَ رسول الله ﷺ يتهلّل كأنّه مَذْهَبة (أي كأنه مموَّهٌ بالذهب) فقال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة فله أجرُها وأجْرُ من عملَ بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومَنْ سَنَّ في الإسلام سُنّة سيّئة كان عليه وزرُها ووزر مَنْ عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

صدق الرسول القائد عليه الصلاة والسلام، وصدق سيّدي جرير بن عبد الله فيما روى من حديث رسول الله، وقد كانت رواية الحادثة مؤثّرة، أثّرتْ في نفوسنا جميعاً، كما كان أثرها ظاهراً على الوجه الجميل، وعلى اللسان العذب الذي كان يرويها في تأثُّرٍ بالغ . .

ورأى الصحابيُّ الجليل إقبالنا عليه، وتعلقنا بحديثه، فقال:

- وجاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ، فأصابته رعدة من هيبة النبيّ الكريم ﷺ، فقال له النبيُّ ﷺ:

«هَوِّنْ عليك، فإني لستُ بملك، إنمّا أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».

فسألتُ الرجل الصالح عن معنى القديد، فقال:

- هو اللحم المجفَّف، يأكله عامّة الناس الذين لا يستطيعون نَحْرَ الذبائح، وأكْلَ اللحم الطازج.

فعلقت صادقة:

- رحم الله أجدادنا العِظام، كم عانوا من الجوع والفقر، حتى جاء

الإسلام، فأطعمهم الله به من جوع، وآمَنَهم من خوف، وكساهم من عُري . .

وقلت أنا :

ـ لقد أغنى الإسلامُ الناس .

جرير : واحفظوا هذين الحديثين الرائعين . .

قال رسول الله ﷺ :

«مَنْ يُحْرَمِ الرِّفقَ يُحْرَمِ الخيرَ» .

صادقة : الله الله . . ما أعظم هذا الحديث ! .

جرير : وقال عليه الصلاة والسلام :

«مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ، ومَنْ لا يَغْفِرْ لا يُغْفَر له» .

فصاحت صادقة :

ـ الله الله ! . ما أعظمك يا سيّدي يا رسول الله، يا معلِّمَ الناسِ الخيرَ .

جرير : استعملني معاوية بن أبي سفيان على سريّة، فأصابنا بَرْدٌ شديد، فعدتُ بهم، وقَفَلْنا راجعين، فقال لي معاوية :

«لِمَ أقفلْتَهم؟» .

فقلت : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«من لا يَرْحم الناسَ لا يَرْحَمْه الله»

فقال لي معاوية : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟

قلت : نعم .

صادقة : فسكت سيِّدنا معاوية رضي الله عنه، وأقرّك على فعلك، أليس كذلك يا جدّي؟

جرير : بلى .

صادق : ثمّ ماذا عن حديث الرسول القائد ﷺ يا سيّدي؟

جرير : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«ما من رجل يكون في قوم يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي ، يَقْدِرُون على أن يغيّروا عليه فلا يغيّروا ، إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا» .

صادقة : صدق الرسول القائد ﷺ ، ونحن نرى ما نرى من الأمراض والأوجاع والفقر والزلازل وانحباس الأمطار ، وشحّ الآبار . . كلُّ هذا بسبب المعاصي التي يقترفها الناس الذين ابتعدوا عن الدين ، وارتكبوا المحرَّمات ، فظلموا ، وقتلوا ، وسرقوا ، ونهبوا ، واغتصبوا ، وفجروا ، وفسقوا ، وأكلوا الرِّبا ، وزنوا ، وفعلوا المنكرات ، فسلَّط الله علينا جميعاً ألوان العذاب .

جرير : أذكر أني سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة ، فقال : «اصرفْ بصرك» .

صادق : كيف يكون نظر الفجأة يا سيّدي؟

جرير : تمرُّ المرأة ، فيلحظها الرجل ببصره ، والله عزَّ وجلَّ ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] ، فإيّاك يا صادق ، وإيّاكِ يا صادقة من النظر إلى المحرَّمات ، فالله يأمرنا بغضّ أبصارنا ، والنظرة سهم مسموم ، والنظرة الأولى لك ، إذا صرفتَ نظرك عنها ، والثانية عليك .

صادق : سنعمل بوصيّتك يا سيّدي بعون الله .

صادقة : هنيئاً لك يا جدّي صُحْبتُك للرسول القائد عليه الصلاة والسلام .

جرير : بأبي هو وأمّي ، كانت تأتيه وفود العرب ، فيبعث إليّ ، فألبس حُلّتي ، ثم أجيء ، فيباهي بي .

صادقة : عليه الصلاة والسلام .

صادق : ثمّ ماذا يا سيّدي من حديث الرسول القائد؟

جرير : عليه الصلاة والسلام ، قال :

«صيامُ ثلاثة أيام من كلّ شهر ، صيامُ الدهر» .

صادقة: أيَّ أيام يا جدّي؟

جرير: الأيام البيض.. وهي: صبيحة ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة من كل شهر.

صادق: قمري طبعاً.

جرير: وآخر ما أذكره لكم من حديث النبيّ ﷺ يوم حجّة الوداع، فقد أمرني بأن أستنصت الناس، فلمّا أنصتوا قال فيما قال:

«لا ترجعوا بعديَ كفاراً يضرب بعضُكم رقاب بعض».

صادق: يا حسـرة على العباد.. وقع ما حذَّر الرسول القائد ﷺ من وقوعه، وصار المسلمون يقتتلون في كل مكان، فالحرب مستعرة لا يكاد يخبو لها أوار يا سيّدي، وصار بأس المسلمين بينهم شديداً، فأذلَّهم الله، ولم يرعووا عن غيّهم، كأن ألوان الذُّلّ والقهر والتخلف لم تنزل بهم.. كأنّ أرضهم ليست محتلّة، وكأنّ (مسجدهم الأقصى) ليس أسيراً، وكأن نير الاستعمار والعبودية قد رُفِعَ عن أعناقهم!.

صادقة: وماذا عن علاقتك بإخوانك أصحاب الرسول القائد يا جدّي؟

جرير: عليه الصلاة والسلام، ورضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم..

كانت طيّبة ولله الحمد.. أحبُّهم ويحبّونني، وأحترمهم ويحترمونني.

صادقة: نرغب في سماع بعض ذكرياتك معهم.

جرير: كنت مرة في سفر مع الصّحابيّ الجليل أنس بن مالك، وكنت أخدمه وهو ينهاني عن خدمته، ويقول لي: لا تفعل.

صادق: واستجبْتَ له؟

جرير: لا.. لم أستجب لطلبه.

صادق: لماذا؟

جرير: لأني قد رأيت الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ تصنع برسول الله ﷺ

شيئاً. . كانوا يتسابقون لخدمته، فآليت على نفسي ألاّ أصحب أحداً منهم إلا خَدَمْتُه.

صادق: هنيئاً لك يا سيّدي، فقد استجاب الله عزَّ وجلَّ دعوة نبيّه الكريم لك، في أن يحسِّن أخلاقك، كما حسَّنَ خلْقَك.

جرير: النبيُّ الكريم ﷺ أمرني بتحسين أخلاقي لتكون كحُسْن خَلْقي، وقد استجبتُ أنا لأمره، وكنت في سائر أحوالي أعمل بوصيّة الرسول ﷺ وأمره، ولهذا، عندما شغب الناس على سعد بن أبي وقّاص في القادسيّة، هدّأتُهم حتى هدؤوا، وعندما سألني أمير المؤمنين عمر عن سعد، قلت له رأيي فيه:

«أكرمُ الناس مقدرة

وأحسنُهم معذرة

وأقلُّهم قسوة

وهو لهم كالأمِّ البَرَّة

يجمع لهم ما تجمع الذَّرَّة

مع أنه ميمون الأثر

مرزوق الظَّفَر

أشدُّ الناس عند البأس

وأحَبُّ قريش إلى الناس».

صادقة: يا سلام!. ما أروع هذا الوصف!.

صادق: وما أصدقَه!.

جرير: فقال لي عمر:

«فأخبرني عن حال الناس؟».

قلت:

«هم كسهام الجَعْبَة، منهم القائد الرائش، ومنهم العصل الطائش، وابنُ وقّاصٍ ثِقَافُها، يغمز عصلها، ويُقيمُ مَيْلَها، واللهُ أعلمُ بالسّرائر يا عمر»

صادقة: يا سلام يا جدّي، وإن كنت لم أفهم معنى (العصل).

جرير: العصل: الاعوجاج والالتواء.

صادق: ولكن.. هكذا كنتم تخاطبون أمير المؤمنين عمر أعظم حاكم في زمانه وفي غير زمانه؟

فتبسَّمَ جرير ضاحكاً، فأشرقت الأنوار من المُحَيَّا الجميل وقال:

ـ كانت الفُرس وكانت الروم تعظِّم ملوكها وأمراءها إلى درجة التقديس والتأليه، ولم نكن نحن المسلمين نفعل مثل ذلك.. الشعراء وحدهم كانوا يمدحون فيبجّلون ويعظّمون، فأساؤوا إلى ممدوحيهم، وأساؤوا إلى نفوسهم.

فانبرتْ صادقةُ تقول:

ـ فماذا لو سمعت شعراء بني أمية، وشعراء بني العباس، وشعراء الملوك والخلفاء والأمراء والقادة مِنْ بَعْدُ يا جدّي؟

وقلت أنا:

ـ وماذا لو سمعت شعراء زماننا، وكُتَّابه، وصَحَفيِّيه خاصةً، هؤلاء الذين يقلبون الحقائق، ويزيّفون الوقائع، ويمدحون الأبالسة، ويشيدون بأفعال الطواغيت، يزيِّنون لهم سُوْءَ أعمالهم، ويُضْفُون عليهم من الألقاب والصّفات ما لا يمكن أن تكون إلا في الأنبياء والرسل وصحابتهم الكرام.

فتمعَّرَ (تغيَّرَ) وجهُ (يوسف) وقال:

ـ هذا لا يبشّر بخير.. بل هذا نذير شؤم والعياذ بالله تعالى.

وسألتْ صادقة:

ـ هل عاملتَ القائد سعد بن أبي وقّاص حتى وصفْتَه مثل هذا الوصف

الجميل الدقيق يا جدّي؟

جرير: طبعاً عاملْتُه، وعَرَفْتُه عن كَثَبٍ (أيْ قرْب) وكنتُ على ميمنته في معركة القادسيّة.

صادق: إذن.. وصلْنا إلى مربط الفرس.. إلى الجهاد.. إلى حياتك الجهادية يا جدّي.

صادق: سوف أسمعك الشريط الذي سجّلته في السّهرة اليوم عن جهاد سيّدي جرير في اليمن، وفي العراق، والشام وغيرها.

صادقة: ولكني أريد أن أسمع من جدّي حديثاً عن جهاده، وليكن موجزاً مختصراً.

ونظرتْ صادقة إلى جدِّها تستجديه، أو كأنها تستجديه وهو الكريم، فأشرقت أنوار وجهه، ونثرَ الدُّرَرَ من فمه الذي لا أقوى على وصف جماله وكمال خِلْقته، ثم قال:

ـ أوّل عمل جهاديّ قمتُ به، عندما أمرني الرسول القائد ـ كما سمعتكم تصفون النبيَّ ﷺ ـ هو الذهاب إلى الصَّنم (ذي الخلصة) في اليمن، فذهبت إليه على رأس سريّة من المجاهدين، وخرّبْتُ بيته، وأحرقتُه حتى صار كالجمل الأجرب.

صادقة: إذن.. قاتلت تحت لواء الرسول القائد يا جدّي؟

جرير: بل قاتلتُ في سريّة بأمره عليه الصلاة والسلام.

صادقة: يعني.. كأنك قاتلت تحت لوائه الشريف.. ثم ماذا؟

جرير: وعندما ارتدت القبائل العربية عن الإسلام، وجّهني الخليفة أبو بكر رضي الله عنه إلى اليمن، لقتال المرتدين.

صادقة: هل قاتلت المرتدين مع البطل العظيم خالد بن الوليد يا جدّي؟

جرير: قاتلت تحت راية خالد في العراق، فقد سيَّرني أبو بكر إلى

العراق، لأنضمَّ إلى جيش خالد.

صادقة: متى وصلت إلى العراق يا سيّدي؟

جرير: مع فتح (الحِيْرة).. كان خالد قد فتح (الحيرة).

صادقة: إذن.. لم تَشهد أيَّ معركة قبل فتح الحيرة؟.

جرير: كيف؟ قاتلتُ في العراق قبل فتح الحيرة وبعد فتحها.. بلغْتُ الحيرة، فوجدتُ خالداً متوشحاً (أي لابساً وشاحه) قد شدَّ ثوبَه في عنقه، يصليّ وحده صلاة الفتح.

صادق: كيف هي يا سيّدي؟

جرير: صلاة الفتح ثماني ركعات متّصلات لا يسلّم فيهنّ.

ثم انصرف خالد من الصلاة، فقال:

«لقد قاتلتُ يوم (مؤتة) فانقطع في يدي تسعة أسياف، ثم صَبَرَتْ في يدي صفيحة يمانية، فما زالت معي، وما لقِيْتُ قوماً كقومٍ لقيْتُهم من أهل فارس، وما لقيتُ من فارس قوماً كأهل (أُلَّيْس)».

صادقة: يعني.. كان الفرسان أشدّاء؟

جرير: وكانت العرب تخافهم، وما جرّأ العربَ على الفرس إلا (المثَنَّى) البطل العظيم الذي يُشْبه (خالداً) في كثير من مزاياه العسكريّة.

صادقة: وماذا عن خالد يا جدّي؟

جرير: الحديث عن خالد يا ابنتي يستغرق ساعات وأياماً طِوالاً.

صادقة: معنى هذا، أنك تعرفه جيّداً؟!

جرير: ومَنْ مِنَ الأعداء والأصدقاء لا يعرف الكثير عن البطل الصّنديد خالد؟.

وقد كنتُ أحدَ عُمّاله الخمسة على خراج ما فُتِحَ من أرض العراق بعد الحيرة.

صادقة : كيف كنتم تعرفون أنكم قبضتم الخراج من فلان دون فلان؟

جرير : كنّا نكتب لهم براءات .

صادق : يعني إيصالات .

صادقة : وماذا كان في تلك الإيصالات أو البراءات يا جدّي؟

جرير : كنّا نكتب فيها :

«بسم الله الرحمن الرحيم .

براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التي صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد . وقد قبضتُ الذي صالحهم عليه خالد . وخالدٌ والمسلمون لكم يدٌ على مَنْ بدَّلَ صُلْح خالد ما أقررْتم بالجزية ، وكفَفْتُم . أمانُكم أمانٌ ، وصُلْحُكُم صُلحٌ . نحن لكم على الوفاء»

صادقة : يا سلام! ما أجمل هذه البراءة! .

صادق : وكلُّها كانت على صورة واحدة؟

جرير : نعمْ! .

صادقة : ثمّ ماذا عن خالد يا جدّي؟

جرير : لمّا غادر خالد أرض العراق إلى الشام ، تنفيذاً لأمر أبي بكر ، ونجدةً لجيش المسلمين في اليرموك . . صحبني خالدٌ معه ، وقاتلتُ في كلّ المعارك التي قاتل فيها ونحن في طريقنا إلى الشام .

صادقة : وشاركتَ في معركة اليرموك؟ .

جرير : أجل يا ابنتي . . وقد اختارني خالد لأكون من الفدائيين المئة الذين اصطفاهم من المهاجرين والأنصار ، وكان لهؤلاء الفدائيين تأثير كبير على معنويات الروم قبيل معركة اليرموك الحاسمة ، وفي أثنائها .

صادقة : وبعد اليرموك؟

جرير: كلّمت أمير المؤمنين عمر ليأذن لي بجمع أفراد قبيلتي (بجيلة) لأقاتل بهم في سبيل الله، فأذنَ لي، فجمعتُهم، ثم سرتُ بهم إلى العراق، لنجدة البطل العظيم (المثنّى بن حارثة الشيباني).

صادقة: إذن.. قاتلتَ تحت لواء المثنّى يا جدّي؟

جريـر: أجل يا بنيّتي.. قاتلنـا القوات الفارسـيّة الجرّارة في معركة (البويب) التي تُعَدُّ أول معركة حاسمة من معارك المسلمينَ في العراق.

صادقة: وهزمتم الفُرْسَ هزيمة منكرة؟

جرير: وتطوّعت (بجيلـةُ) لمطاردة المنهزمين، وتوغّلنـا في عمق الأرض الفارسيّة، حتى بلغنا مدينة (ساباط) وصارت (المدائن) عاصمة كسرى، على مرأى منّا.

صادقة: الله أكبر!.

جرير: ولمّا انسحب المثنّى إلى (ذي قار) كنتُ على رأس (بجيلة) نحمي قوات المسلمين المنسحبة، حتى لا تغير عليها القوات الفارسيّة.

صادقة: وماذا عن مشاركتك في معركة القادسيّة يا جدّي؟

جرير: لقد شـاركتُ وقبيلتي (بجيلـة) في معركة القادسـية، وأيَّ مشاركة!.. فقد تحمّلتْ (بجيلة) في المعركة، في اليوم الأول..

وتفصَّدَ العرق كاللؤلؤ، وانتشـر على الجبهـة العريضة الوضيئـة، فتحرّك الصحابيُّ القائد المجاهد في مقعده حركات توحي بالضّيق، على الرغم من الجسم العملاق الذي يمتلكه.. سكتَ هنيهةً من الزمن ثم قال:

ـ«كان مع الفرس ستة عشر فيلاً وجَّهوها إلى (بجيلة) ففرّقت الكتائب، وأفزعت الخيول، وكادت (بجيلة) تفنى عن بكرة أبيها، ولكن المشاة ثبتوا في مواقعهم ثبات الجبال، وتداركَنا (سعدٌ) ببني أسد، فهاجموا الأفيال، وحُماتها هجوماً عنيفاً بقيادة البطل المغوار (طُلَيْحَةَ الأسَديّ) وتمكّنوا من

هزيمة الفيلة وحُماتها، وساعدتهم على ذلك أبطال (ربيعة) ولكن هذا كان بعد جهد جهيد.

صادق: وتركتْ (بجيلةُ) كثيراً من الشهداء في ساحة المعركة، ولكنَّ صمودها المدهش أتاح للمسلمين فرصةً اهتبلوها، وتداركوا الموقف الخطير قبل فوات الآوان.

ولمّا رأيت الارتياح في وجه الرجل العملاق، تابعتُ أقول:

ـ «وفي التاريخ ذكرٌ عريضٌ لشجاعة (بجيلة) وقائدها جرير، فقد كان لأبطالها الميامين، وشهدائها الأبرار، دورٌ مؤثّرٌ في سير أحداث القادسيّة، هذه المعركة التاريخية الفاصلة.

ونظرتْ إليَّ صادقةُ نظرة عتاب، لأنها تريد الاستماع من البطل الذي خاض غمرات المـوت دون خوف أو وَجَلٍ، فسكتُّ، وتابع القائد جرير:

ـ وفي اليوم الرابع كان لبجيلةَ صولاتٌ وجولات، حتى إذا ما خيَّمَ الظلام، وكانت ليلـة (الهرير) حملتْ بجيلـة على القوات الفارسيّة حملةً صادقة، وكان معها بعض القبائل الأخرى.. حملْنا على الفرس قبل أن يأذن لنا سعد، ولكنّ القائد الرحيم سعد بن أبي وقّاص اغتفرها لنا، وقال:

«اللهم اغفر لهم، وانصرهم.».

ثم هتفت: «وابجيلتاه!»..

كان الهجوم الكبير بعد صلاة العشاء، فاستقبلنا الليل، وقامت الحرب على قدم وساقٍ حتى الصّباح، واحتدم القتال، واجتلد المقاتلون طوال الليل لا ينطقون، كلامُهم الهرير، كأنّهم يضبحون مثل الخيل.

ـ ولذلك سُمِّيتْ ليلة الهرير يا جدّي؟

ـ نعم يا ابنتي.. كان صليل الحديد فيها كأصوات الحدّادين، أفرغ الله صبره علينا إفراغاً، وبات سعدٌ بليلة لم يبت بمثلها، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قطّ، وانقطعت الأصوات والأخبار عن رستم وسعد، فأقبل

سعدٌ على الدّعاء، حتى إذا كان وجه الصُّبْح، عرف سعدٌ أننا نحن المسلمين الأعلون، وأنّ الغلبة للمسلمين.

وقالت صادقة:

ـ قرأت في كتب التاريخ أنَّ سعداً كان يحملق طَوَال تلك الليلة، في الظلام، يحاول أن يرى شيئاً، ويُصِيْخُ السَّمْعَ، يحاول أن يسمع شيئاً، فكان أوّل شيء سمعه ليلتئذٍ، ممّا يستدلّ به على انتصار المسلمين، صوت القعقاع في النصف الثاني من الليل وهو ينشد:

نحـــن قتلْنـــا معشـــراً وزائـــدا أربعـــة وخمســـة وواحـــدا
نُحْسَـــبُ فـــوق اللِّبِـــد الأســـاودا حتـــى إذا مـــاتـــوا دعـــوتُ جـــاهـــدا
الله ربّي، واحترزْتُ عامدا

جرير: وصوتُ القعقاع بألف بطل. . وقد قضينا في تلك الليلة على عدد ضخم من القوات الفارسيّة المحاربة والمنهزمة.

صادق: ثمّ طاردتموهم يا سيّدي؟

جرير: إلى (ساباط) كما قلت لكم، قريباً من مدائن كسرى.

صادقة: هل شاركت في فتح (المدائن) يا جدّي؟

جرير: طبعاً شاركت أنا وقبيلتي بجيلة في فتح (المدائن) عاصمة كسرى، كما شهدت معركة (جلولاء) تحت قيادة البطل هاشم بن عتبة، ولمّا تمكّنّا من القضاء على القوات الفارسيّة فيها، ضمَّ إليَّ هاشمُ بن عتبة خيلاً كثيفة، لنكون قوة حماية ساترة في جلولاء، نفصل بين الفرس والمسلمين، وقد رأيت الفرصة سانحة للانقضاض على (خانقين) وكانت فيها فلول من القوات الفارسيّة، فقتلنا بعضهم، وفرَّ بعضهم الآخر.

وسكت القائد العملاق، فرجوته أن يتابع حديثه، فنحن عِطَاشٌ إلى مثل هذه الأحاديث، لعلها تثير فينا حميّة الجهاد، فتابع يقول:

ـ عندمـا وجَّهنـا أمير المؤمنيـن إلى العراق، أعطى (بجيلـة) ربـع

ما يغنمون، تشجيعاً لها، لأنّ (بجيلة) كانت تريد الشام والقتال فيها.

ولما انهزم الفرس في (جلولاء) وجيء بالغنائم، وكانت كثيرة جداً، استكثرها علينا سعد، فكتب إلى عمر بشأنها، فكتب إليه أمير المؤمنين:

«إن شاء جريرٌ أن يكون إنما قاتل وقومه على جُعْلٍ كجُعْل المؤلَّفة قلوبهم، فأعطوهم جُعلَهم، وإن كانوا إنما قاتلوا لله، واحتسبوا ما عنده، فهم من المسلمين، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم»

صادقة: فماذا كان موقفك يا جدّي؟

جرير: قلت: صدق أمير المؤمنين وبَرَّ. لا حاجة لنا بالرُّبُع..

ونظر القائد إلى أختي صادقة متبسّماً ثم تابع يقول:

ـ ولكنَّ امرأة واحدة من (بجيلة) اسمُها (أمُّ كُرْز) تمسَّكتْ بحقّها وقالت: «إنّ أبي هَلَكَ (مات) وسَهْمُه ثابتٌ في السَّوَاد (أي أرض العراق) وإني لن أسلم».

صادقة: فماذا كان موقف سعد يا جدّي؟

جرير: بل قولي: ماذا كان موقف أمير المؤمنين منها؟.

قال لها عمر:

«يا أمَّ كُرْز. إنّ قومك قد أجابوا».

قالت:

«ما أنا بمسلمة، أو تحملني على ناقة ذلول، عليها قطيفة حمراء، وتملأ يديّ ذهباً»

صادقة: فاستجاب أمير المؤمنين لطلبها؟

جرير: نعمْ.. واسترضاها.

فصحتُ إعجاباً بعدل أمير المؤمنين عمر:

ـ الله أكبر!. الله أكبر!. هكذا يكون الحاكم المسلم.. هكذا يكون العدل.

وطلبت صادقة من جدّها العظيم أن يستمرّ في حديثه، فتابع يقول:

ـ وأمدّني سعدٌ بثلاثة آلاف مجاهد، وأمرني أن أسير لفتح (حلوان)

صادق: التي في مصر؟

جرير: بل التي في العراق.. فتوجّهتُ نحوها، فلمّا صرتُ قريباً منها، هرب كسرى الفرس (يزدجرد) منها متوجّهاً إلى (أصبهان).

صادق: إذن.. كان ملك الفرس في (حلوان).

جرير: أجل.. جعلها مقراً له بعد هربه من عاصمة ملكه (المدائن).

صادق: ولماذا يهرب؟ ألا يريد الدفاع عن مُلكه ومُلك آبائه وأجداده؟ أم أنه..

جرير: هرب لأن أخبار هزائم جيوشه قد بلغتْه.. هزائم جيوشه في (جلولاء) وسقوط (خانقين) ومقتل قائده (مهران) في (البُوَيب).. بلغته أنباء تلك الهزائم وهو في حلوان، فأدرك أن المسلمين في الطريق إليه، فخرج من حلوان سائراً في الجبال نحو الرّيّ شمالاً، وترك في حلوان حامية وقوّة عسكرية بقيادة قائده (خسروشنوم) لتعوق تقدُّم المسلمين.

صادق: ملك فاشل، وقيادة محكوم عليها بالموت.

جرير: وقد تمكّنتُ من فتح حلوان صُلحاً.. أمَّنتُهم على دمائهم، ولمن أراد الخروج منها فليخرج آمناً.

صادقة: أين (قادة) اليوم منكم، وأين أخلاقهم المنحطّة من أخلاقكم السامية..

إنهم يفعلون اليوم بالمسلمين أخسَّ الأفاعيل.. في أفغانستان.. في البوسنة والهرسك.. في الشيشان.. في آذربيجان.. في فلسطين.. في كلّ مكان عربي أو مسلم يصلون إليه، وينتصرون على العرب والمسلمين.

صادق: نعمْ يا سيِّدي.

جرير: استبقاني القائد هاشمُ بنُ عتبة في حلوان، ثم إني مضيتُ إلى (دِيْنَـوَر) وحاصرْتُها، ولكني لم أتمكن من فتحها، فتركتُها وتوجّهتُ إلى (قرماسين) وفتحتُها صُلحاً. . على مثل صُلح حلوان.

صادقة: وبقيتَ والياً على حلوان؟

جريـر: إلى أن جاءني أمـرُ عمار بن ياسـر بأن أتحرك بقواتـي إلى (خوزستان) حيث قواتُ أبي موسى الأشعري، فتحرّكتُ إلى هناك.

صادق: وسعد؟ أين القائد سعد؟

فتأوه القائد جرير، وصَعَّدَ حسرةً محرقة ثم أجاب:

ـ لقد عزله عمر، وولَّى عمار بن ياسر.

ـ عزل سعداً؟ لماذا؟

جريـر: لأنّ الأوباش تحرّكوا ضدَّ سـعدٍ، واتّهموه اتّهامات كاذبـة ظالمة، واستجاب أمير المؤمنين لطلبهم، فعزل سعداً وهو يعلم أنّ سعداً بريء من كلّ الاتهامات التي وجَّهَها الأوباش إليه.

صادقة: لماذا؟

جرير: حتى لا تكون فتنة.

صادقة: يا حسرةً على العباد. . وهل عمّارٌ أهلٌ لقيادة العراق وبلاد الفرس، وقيادة جيوش الفتح يا جدّي؟

فأجاب جرير السيِّد المهذَّب في امتعاض:

ـ ممّا حفظه الناس عني، قولي:

«الخَرَسُ خيرٌ من الخلابة

والبَكَمُ خيرٌ من البَذاء».

فقلت:

ـ كما قال عنك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

«نِعْمَ السيِّدُ كنتَ في الجاهليّة

ونِعْمَ السيد أنت في الإسلام» .

جرير : ولذلك كنت أصمت ، حتى سألني أمير المؤمنين عن سعد ، وقد ذكرتُ لكم قولي في سعد رضي الله عنه وأرضاه . كما كنتُ سبباً في عزل عمار عن الكوفة .

صادقة : لماذا؟

جرير : لأنه غير أهل لها . . لا علم له بالسياسة ، وليست لديه كفاية . . غير كفء .

أقول قولي هذا وأستغفر الله .

صادق : لا بدَّ أنّ عمّاراً غضب لعزله .

جرير : لا . . لم يغضب ، بل قال :

«ما سرَّني حين استُعْملتُ ، ولقد ساءني حين عُزلتُ»

واكتفى بهذا ، فقال له عمر :

«قد علمتُ ما أنت بصاحب عمل ، ولكنّي تأوّلتُ قول الله تعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] .

وسكتَ عمّار .

صادقة : ما معنى (تأوّلتُ) يا جدّي؟

جرير : ظنَّ أمير المؤمنين أنّ الله عزَّ وجلَّ يريد مثل عمار بن ياسر أن يكون والياً ، وهو الضعيف الذي كان عبداً مستضعفاً .

صادق : هل أثقلْنا عليك يا سيّدي؟ لكأني أراك تقاتل وأنت تتحدّث عن القتال .

جرير: هذا لأنّ حديث الجهاد والاستشهاد، والفتح والنّصر، والطِّراد والمبارزة والحصار والنجدات.. الحديث عن هذه يثيرني ويهزّني هزّاً، فلا عليكم إذا رأيتموني أنفعل وأنا أتحدّث عنها.

صادق: بارك الله فيك يا سيّدي، ولست أدري بأيّ وجه نقابل ربَّنا غداً؟

وبأيٍّ لسان نجيبه إذا سألنا:

هل أنتم مسلمون؟

وإذا كنّا مسلمين، فهل نحن من حَفَدَتِكم؟

وإذا كنّا من حفدتكم، ولم نكن هُجَناء، فلماذا فرّطنا بالأرض التي سقيتموها من دمائكم؟

صادقة: احتلال فلسطين، وتهويد القدس، وأَسْرُ المسجد الأقصى: جراحٌ ناغرة يا جدّي المجاهد، لا تكاد تندمل، حتى ينكأها حديث الفتوح والأمجاد.

فتحرك القائد العملاق حركة نشطة ثم قال:

«لا يا أولادي.. لا.. لا يجوز أن تغيب أيُّ أرض مغتصبة عن عقولكم لحظة واحدة، فكيف إذا كانت تلك الأرض فلسطين؟

لا.. عيشوا مأساتها لحظة لحظة.. وحَذَارِ حَذَارِ أن تكتفوا بالقول وتتركوا العمل.

صادق: ولذلك نُثْقِل عليكم بأسئلتنا، لنتعلم منكم، ونقتدي بكم.

جرير: إذن.. لنعدْ إلى حديث الجهاد والاستشهاد.

صادق: إذا أحببتَ يا سيّدي أن تحدّثنا عن دورك في معركة (نهاوند).

جرير: معركة نهاوند أو فتح الفتوح.. قاتلْنا فيها قتالاً مريراً تحت راية القائد العظيم: النُّعمان بن مقرّن الذي وجَّهه أمير المؤمنين عمر إلى (نهاوند) وقال له:

«إنْ أُصِبْتَ فالأمير حذيفة بن اليمان، فإن أُصيبَ حذيفة، فالأمير جرير بن عبد الله البجلي».

صادق: هذا يـدلّ على المكانة الكبيرة التي كنتَ تحتلُّهـا عند أميـر المؤمنين يا سيّدي.

صادقة: رضي الله عنه وأرضاه.. كان يعرف رجاله معرفة دقيقة، وكان يحيط بالمعارك، ويخطط لها، وهو على بُعْد مئات الأميال عنها.

جرير: إذن.. كنتُ في جند (نهاوند) وشاركتُ في بناء فسطاط أميرنا النعمان بن مقرّن، رضي الله عنه وأرضاه شهيداً في علّيّين.

صادق: كم كان جيش الفرس يا سيّدي؟

جرير: مئة وخمسين ألفاً.

صادق: وفي القادسيّة؟

جرير: كانوا مئة وعشرين ألفاً.

صادق: إذن.. كانت قوات الفرس في (نهاوند) أكثر من قواتهم في القادسيّة.

جرير: نعمْ.

صادقة: وكم كان عددكم يا جدّي؟

جرير: كنا ثلاثين ألفاً.

صادقة: يعني كانوا خمسة أضعافكم.

جرير: وقد نصرنا الله عليهم نصراً مؤزّراً.. قتلنا منهم في المعارك ثلاثين ألفاً، سوى من قتلناهم في المطاردة.. ونحن نطاردهم. أمّا الذين قُتلوا في (اللَّهْب) الذي هَوَوْا فيه، فمئة ألف.

صادقة: الله أكبر.. وحُقّ للمؤرخين ولمن شهدها أن يسمّيها (فتح الفتوح).

جرير: كانت من المعارك التاريخيّة الفاصلة.. الحاسمة..

صادق: هل من ذكرى معيّنة تذكرها لنا عن (فتح الفتوح) يا سيّدي؟

فتبسَّم الصحابيُّ الجليل وقال كالمحدِّث نفسه:

«إنّ لله جنوداً من عسل».

فتساءلنا ـ أنا وصادقة ـ عن معنى هذا المثل الذي نسمع به ولا نعرف قصّته، فازدادت ابتسامته عذوبة ثم قال:

ـ بعد انهيار الجيش الفارسيّ في (نهاوند) انقضّ أبطالنا المغاوير على فلول المنهزمين، يطاردونهم، ويقتلون منهم، وانطلق القعقاع، البطل الذي لا يُشَقُّ له غبار، في أثر (فيرزان) القائد الفارسيّ المهزوم، حتى وصل إلى (ثنية همذان)، وتصادف أن كانت الثنيّة مشحونة بقافلة من البغال والحمير، محمَّلة بالعسل، فحبستْ (فيرزان) عن المرور بجواده الذي كان يطير به، فلمّا رأى (فيرزان) القعقاعَ في أثره، نزل عن حصانه، وركض متسلِّقاً الجبل، لعله ينجو من القعقاع، ولكنّ القعقاع نزل عن جواده أيضاً، وأسرع نحوه، حتى أدركه فقتله، وبذلك سُمِيّت الثنيّةُ ثنيّةَ العسل، وقال المسلمون متفكِّهين:

صادقة: إنّ لله جنوداً من عسل.

صادق: ثم ماذا يا سيّدي؟

جرير: وأرسلني أمير الكوفة: المغيرة بن شُعْبة إلى همذان التي تُعَدُّ من أكبر المدن الفارسيّة وأقدمها، فقاتلتُ أهلها، وأصيبت عيني هذه بسهم، فقلت:

«احتسبتُها عند الله الذي زَيَّنَ بها وجهي، ونوَّرَ لي ما شاء، ثمَّ سَلَبنيها في سبيله».

صادقة: في سبيل الله كلّ ما لقيتم يا جدّي.

جرير: ثمّ فتحْتُها على مثل صُلح (نهاوند) وغَلَبْتُ على أرضها قَسْراً.

صادقة: في أي سنة كان ذلك يا جدّي؟

جرير: سنة ثلاث وعشرين.

صادقة: وماذا عن المُغيرة بن شعبة يا جدّي؟

جرير: كان مجاهداً، وكان من دُهاة السياسيّين، وكان قائداً محنّكاً، اتّهمه خصومه اتهامات باطلة، كما اتّهموا سعداً خال رسول الله ﷺ. تصوّروا.. اتّهموا سعد بن أبي وقّاص بالجبن، وبأنه وضع الحرّاس على بابه يمنعون المظلومين من مقابلته، بل بلغ منهم اللؤم وقلّة العقل والدِّين، أن يتّهموا سعداً بأنه لا يجيد الصلاة.

صادق: ألا لعنة الله على الظالمين.

جرير: ولذا.. عندما توفّي المغيرة، قمتُ فحمدتُ الله عزَّ وجلَّ، وأثنيت عليه، وقلت لمن حضر من المسلمين:

«عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له، وبالوَقَار والسَّكينة حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن».

ثم قلت:

«استعفوا لأميركم، فإنه كان يحبُّ العفو. وربِّ هذا المسجد، إني لناصحٌ لكم»

ثم استغفرتُ ونزلْت.

صادقة: هنيئاً لك يا جدّي هذا الخلق وهذا الوفاء.

صادق: هل كانت صلتك بالخليفة الراشد عثمان بن عفّان جيّدة يا سيّدي؟

فتبسّم الرجل الوسيم وقال:

ـ وهل هذا سؤالٌ يُسأل يا بنيّ؟

أم أنك متأثر بأقوال الكذّابين البَهّاتين المفترين الذين ظلموا صهر رسول الله ﷺ في حياته، وظلموه بعد استشهاده!

عثمان ذو النورين ـ يا أولادي ـ كان فوق الشبهات.. كانت الملائكة تستحيي منه.. كان خليفة ومن أعظم الخلفاء.. وقد ولاّني على (قَرْقيسيا) سنة أربع وثلاثين، وعندما خرج عليه أوباش الناس وخَطَبَنا أبو موسى، وأمرنا بلزوم الجماعة، وطاعة عثمان، كنتُ فيمن أجابه إلى ذلك، وقلنا له: صلِّ بنا.

قال أبو موسى: لا .. إلا على السمع والطاعة لعثمان.

قلنا: نعمْ.

فصلَّى بنا.

أحسستُ بالتّعب، وتذكّرتُ أني لم أحضِّرْ كلَّ واجباتي المدرسيّة، ولكنّي كنت أرغب في الاستمرار مع سيِّدي جرير بن عبد الله البجلي.. كنت في صراع بين رغبتين، ثم وجدتُني أقول له:

ـ أرى أن نكتفي بهذا القدر يا سيِّدي المجاهد، فقد أتعبناك، كما أنّ أعصابنا لم تعد تحتمل، وهي تقارن بين الأمس واليوم، فادعُ اللهَ لنا يا سيِّدي، أن نكون مجاهدين حقاً وصدقاً.

فقال الصحابيُّ الجليل:

ـ قولوا معي يا أولادي:

نَوَيْنا الجهاد في سبيل الله.

فقلنا:

ـ نَوَيْنا الجهاد في سبيل الله.

قال:

ـ نَوَيْنا الشهادة في سبيل الله .

قلنا :

ـ نَوَيْنا الشهادة في سبيل الله .

ثم قال جرير بن عبد الله :

ـ لا تحزنوا يا أولادي، وتذكّروا أنّ جدّكم الذي يحدّثكم، ما كان يثبتُ على صَهْوَة حصانه ، ثمّ غدا مجاهداً في سبيل الله .

* * *

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ السيرة النبوية ، لابن هشام .

٣ ـ العواصم من العواصم ، لابن العربي .

٤ ـ فضائل الصحابة ، لأحمد بن حنبل .

٥ ـ زاد المعاد ، لابن القيّم .

٦ ـ الكامل في التاريخ ، لابن الأثير .

٧ ـ حياة الصحابة ، للكاندهلوي .

٨ ـ سير أعلام النبلاء ، للذهبي .

٩ ـ المسند الجامع .

١٠ ـ طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام ، تحقيق محمود شاكر .

١١ ـ قادة فتح العراق والجزيرة ، لمحمود شيت خطاب .

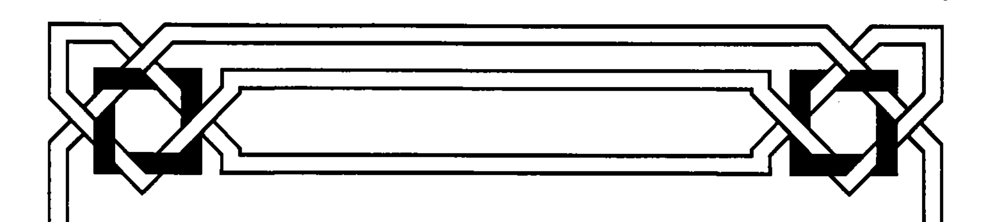
١٢ ـ القادسيّة ، لأحمد عادل كمال .

١٣ ـ الطريق إلى المدائن ، لأحمد عادل كمال .

١٤ ـ سقوط المدائن ، لأحمد عادل كمال .

١٥ ـ الأعلام ، لخير الدين الزركلي .

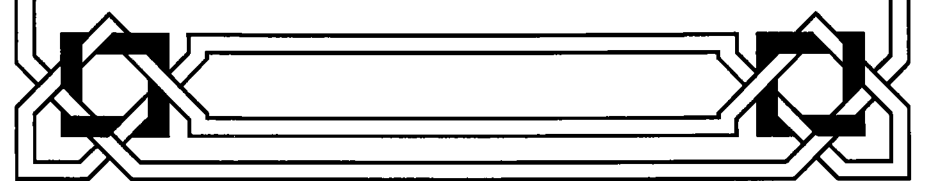




(٢١)

الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله

رجل الدعوة في بلاد الشام





بسم الله الرحمن الرحيم

حدّثنا الفتى صادق أمين قال:

- زارنا الأستاذ بسّام، فرحّب به أبي ترحيباً شديداً، واهتمّ به اهتماماً لافتاً للنظر، ثمّ ناداني ونادى أختي صادقة، وقال لنا:

- هذا عمّكم بسّام، تلميذ الشيخ مصطفى السباعي - رحمه الله رحمة واسعة - صحبه فترة من الزمن، وتعلّم منه الكثير، وعرف بعض جوانب حياته، وكتبها في مجلة (حضارة الإسلام).. المجلة التي أنشأها السباعي العظيم، لتكون أختاً لمجلة (المسلمون) التي تبنّاها السباعي في دمشق، بعد أن هاجرت مع منشئها وصاحبها ورئيس تحريرها المفكر الخطيب الداعية الداهية الدكتور سعيد رمضان، الذي هاجر بها من مصر إلى دمشق، ليجدا الصدر الحاني، والملجأ الآمن، والعرين الرّعيب، والأيدي السّخيّة، والحبّ، والدِّفء، والأخوّة..

ثمّ التفت أبي إلى الأستاذ بسّام، وقال له في وجه مبسام:

- هذا ابني صادق، وهذه ابنتي صادقة.. إنهما مغرمان بالرجال العظام في تاريخنا القديم والحديث.. إنهما يكثران من الأسئلة عنهم، ويحاولان معرفة دقائق حياتهم، فاصبر عليهما، وأرجوك أن تجيب على أسئلتهما، وحاول أن تكون دقيقاً في إجابتك، لأنهما يسجّلان كلَّ كلمة بهذا المسجّل الصغير الذي لا يكاد يفارق يد صادق.

أحاطتْ كلماتُ أبي وجه الأستاذ بسّام بإكليل من البسمات العِذاب، ثمّ قال:

- على الرحب والسعة.. شبلان كريمان يسألان عن أسد هصور، كان

زئيره يتجاوز الحدود، ليخيف أعداء الله في الداخل والخارج.

ولم أشأ تضييع دقيقة واحدة مع هذا الأستاذ الكريم، فأقبلتُ نحوه في ودٍّ، وقلت:

ـ أرجو ألّا نثقل عليك بأسئلتنا يا أستاذ، فنحن من المعجبين جداً جداً بالدكتور مصطفى السباعي، وأول مرة سمعت باسم السباعي عندما كنت مع أبي في دمشق. أخذني إلى قهوة جميلة فوق جبل قاسيون، لا يُقدَّم فيها إلا الشاي والقهوة، وروّادها ـ فيما بدا لي ـ من الرجال المسنين، من العلماء والأدباء والشعراء.. كنت جالساً مع أبي وعمي نمتع أبصارنا بمنظر دمشق في الليل، وهو منظر بديع لا أنساه، وفيما كنا مستغرقين بذلك المنظر الخلّاب، سمعتُ نقاشاً حادّاً بين عدد من الرجال الذين كانوا يجلسون بجانبنا: حول ثلاث مناضد جمعوا بعضها إلى بعضها الآخر. كانوا اثني عشر رجلاً، أصغر واحد فيهم في الستين من العمر.. كانوا يتحاورون حول: من هو أخطب؟ هتلر أم السباعي.

ضحك الأستاذ بسّام بصوت عالٍ، ثم تساءل:

ـ لكن: ما الجامع بين هتلر والسباعي؟ لماذا هذا الحوار بين شخصيتين متباعدتين لا يجمع بينهما جامع؟

قال أبي:

ـ كما قال صادق، كانوا من الجيل الذي سمع هتلر وهو يخطب، ثم سمع السباعي وهو يخطب، فطابت لهم المقارنة بين الرجلين في مجال الخطابة.

سأل الأستاذ:

ـ وهل وصلوا إلى نتيجة؟

قلت:

ـ نعم. كانت النتيجة لصالح الدكتور السباعي، فقد أحصوا له عدّة

نقاط زيادة على النقاط التي أحصوها لهتلر .

علّق الأستاذ بسّام على ما سمع قائلاً :

ـ قد يخطر لي كلُّ خاطر إلا هـذا الخاطر . . هتلـر ألماني ويخطب باللغة الألمانية ، والسباعي عربي ويخطب باللغة العربية . . عجيب .

قال أبي :

ـ لا تعجب يا أستاذ ، فقد كان أولئك معجبين بهتلر وخطابته ، وعندما سـمعوا السباعي تذكّروا ذلك الخطيب البعيد ، وتحاوروا ، وقارنـوا ، ثم خلصوا إلى ما خلصوا إليه .

قال الأستاذ :

ـ يبـدو أنهم مثقفـون ، ويعرفون اللغـة الألمانيـة حتى اسـتطاعوا المقارنة .

وسكت لحظة ثم قال :

ـ ولكن . . أين الثَّرى من الثُّريّـا؟ أين هتلر وأبو هتلـر وجدّ هتلر من الدكتـور السباعي؟ السـباعي خطيب مفوَّه . . خطيـب مصقع . . خطيب لا مثيل له . .

وقال أبي :

ـ هذا صحيح . ولو أن العرب الذين سمعوا سَحْبان بن وائل ، خطيب العرب في الجاهلية والإسلام ـ سمعوا السباعي ، لفضّلوا السباعي عليه بعدّة نقاط .

سألت أبي عن سَحْبان هذا ، فقال :

ـ كان سحبان خطيباً يُضرب به المثل في البيان ، فكانوا يقولون : «أخطب من سحبان» ، و«أفصح من سحبان» . اشتهر في الجاهلية ، وعاش زمناً في الإسلام ، وكان إذا خطب يسيل عرقاً ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقّف ، ولا يقعد حتى يفرغ . أسلم زمن النبيّ ﷺ ، ولـم يجتمع به ، وأقام في دمشق

أيام معاوية رضي الله عنه، وتُوفّي سنة ٥٤هـ.

ولمّا أبديت إعجابي بسحبان الخطيب، انبرت صادقة تقول:

ـ حدثني جدّي عن السباعي فقال:

سمعت ـ في حياتي المديدة ـ عشرات الخطباء، من سياسيين ومشايخ، ولكني لم أسمع خطيباً كالسباعي.. سمعت الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وكان سياسياً وطنياً، وخطيباً مفوَّهاً، وكنت أضرب به المثل في قوّة الخطابة، فلمّا سمعت الدكتور السباعي، رأيت الشهبندر ينسحب إلى الصف الثاني، وبقي السباعي عملاق الخطابة.. وسمعت بعد وفاة السباعي وفي حياته عدداً من الخطباء الأفذاذ.. سمعت سعيد رمضان، رحمه الله، وسمعت عصام العطار، حفظه الله، وهما خطيبان عظيمان، ولكنهما دون السباعي الذي كان يقف ساعة وساعتين وثلاث ساعات، يخطب ويخطب متدفقاً كالسيل العرم، لا يتلجلج، ولا يتردّد، ولا يتوقّف، ولا يتلعثم.. تنثال الكلمات على لسانه، والأفكار على جنانه، كأنما يقرأ في كتاب حفظ كلَّ ما فيه، عرف كل مراميه.. كان يتصبّب عرقاً وهو يخطب الساعات الطوال، ويحاضر مثلها، ويصرخ الصرخات المدوّية، يريدها صرخات حرّة مدوّية، فتشعل بارد الأعصاب، وتحرّك الجلمود، وتدغدغ العواطف، وتعصف بالعقول، وهو هو بقامته المديدة، وبجبينه الذي يتفصّد درراً، وهامته التي تختزن العلوم المختلفة، وقلبه الكبير الذي آمن ووعى معنى الإيمان..

وأذكر أنّ جدّي انطلق يتحدّث بمثل هذه المعاني وبما هو أكبر منها، ساعة من الزمن، وليته كان هنا، لتسمعوا رأيه في السباعي الخطيب رحمه الله تعالى.

قال أبي، وهو ينظر في ساعة يده، ثم وهو يشير إلى الساعة الجدارية:

أخشى أن يفوت الوقت، قبل أن تأخذوا من عمّكم ما تريدون من حياة السباعي.

فقلت:

ـ بل نبدأ فوراً.

وقالت صادقة:

ـ نريد معرفة تفاصيل حياة هذا الرجل العظيم، إذا سمحت يا عمّي.

اعتدل الأستاذ بسّام في جلسته، ثم قال في شبه ابتسام:

ـ حياة أستاذنا وشيخنا الدكتور السباعي، رحمه الله، حافلة بألوان الجهاد المتواصل، وهو الداعية الموهوب، والمرشد المربّي، والقائد المناضل، والفقيه العالم، والأديب الشاعر، والخطيب الثائر، والمفكر الحكيم، والسياسي الصادق، والمؤمن الربّاني. فعن أي رجل من مجموعة الرجال التي اجتمعت في شخصه الحبيب أتحدّث؟

صادقة: عن كل هؤلاء الرجال، وبالتفصيل الدّقيق يا عمي.

بسام: سوف أقدّم عرضاً تاريخياً موجزاً وسريعاً لحياة هذا الرجل العظيم، لتكون لكم أسوة وقدوة، فسجلُّ حياته يشهد بأنه كان الداعية الفذّ الذي وهب دعوته كلَّ ذرّة من جهده وفكره وقلبه وروحه وأعصابه وحياته، كما يشهد بأن إنتاجه خلال عمره القصير الذي لم يتجاوز التاسعة والأربعين، كان عظيماً مثمراً.

صادق: جميل.. فلتبدأ يا سيدي مشكوراً، وأرجو من الله الكريم أن ييسّر لك سبل القول، وأن يصبّرك علينا.

بسام: وُلد الدكتور مصطفى السباعي في مدينة حمص، في سورية الحبيبة، عام ١٩١٥م ـ ١٣٣٣هـ. من أسرة علمية عريقة، فقد كان أبوه الشيخ حسني وأجداده يتولّون الخطابة في الجامع الكبير بحمص منذ زمن طويل.

صادق: حبّذا إلقاء بعض الضوء على حياة أبيه الشيخ حسني ياسيّدي.

بسام: كان الشيخ حسني عالماً عاملاً، وشيخاً مجاهداً، وصاحب

نخوة ومروءة وكرم، يسارع في الخيرات وعمل المبرات، ويقاوم المعتدين الفرنسيين، ويناضل الطغاة المستبدين، ويدافع عن المستضعفين والمظلومين من الفقراء والبائسين، وكان خطيباً مفوّهاً أيضاً.

الأب: يعني.. سترون أنَّ الدكتور مصطفى كان سرَّ أبيه الشيخ حسني، فمن هذا الرجل الفاضل، كان الأسد الهصور مصطفى السباعي.

فقلت وأنا أختلس النظر إلى أبي:

ومن يشابه أَبَهُ فما ظلم.

فابتسم الأستاذ بسام، وقال مشيراً إليَّ وإلى أبي:

ـ وهذا الشبل كان من هذا الأسد.

فضحكت على استحياء ثم قلت:

ـ وكان للشيخ حسني تأثير على ولده مصطفى.

قال الأستاذ بسام:

ـ أجلْ.. فقد توسّم الشيخ حسني في ولده مصطفى خيراً كثيراً، فأكبَّ عليه يعلّمه ويؤدّبه ويهذّبه، ويصحبه معه إلى مجالس الكبار من العلماء والوجهاء، كأنه كان يريده أن يكبر بسرعة، وينضج قبل أوانه.

صادقة: وكان له ما أراد.

الأب: وكان يدرّبه على الخطابة وهو صغير، فكان الطفل أو الصبيّ مصطفى يقف على كرسيّ صغير، ويخطب بأهله.. بأبيه وأمّه وإخوته وأخواته، فيما هم جالسون حول المائدة يتناولون الطعام، أو جالسون يشربون الشاي أو القهوة، يخطب ويخطب ولا يملّ، حتى يصفّقوا له، ويطلبوا منه أن يستريح، بعد أن يروا الإعياء في صوته أو حركاته.

صادقة: يا سلام!.. مثل أخي صادق.

نظرت إلى صادقة في عتاب، ثم قلت، موجهاً كلامي إلى الأستاذ بسام:

ـ عظيم . . ثم ماذا يا سيدي؟

قال الأستاذ بسام :

ـ هذا الطفل صار نسراً . . صار خطيباً مؤثراً ومثيراً، حتى صار ينوب عن أبيه في خطبة الجمعة، في أكبر جامع في مدينة حمص، وهو ابن ثمانية عشر عاماً .

نظرت إلى صادقة وقلت :

ـ أنا ما زلت ابن أربعة عشر عاماً .

بسام : ولكنّ السباعي في مثل عمرك هذا، كان لا يكتفي بالكتب الدراسيّة في المدرسة، بل كان يلتهم ما يقع في يده من كتب، وصحف، حتى حصَّل علماً غزيراً، ووعياً عميقاً لما يجري في بلده سورية، أو في البلدان العربية الأخرى من أحداث .

فقال أبي وهو ينقّل بصره بيني وبين أختي :

ـ أشهد أنّ ولديّ : صادقاً وصادقة يقرآن الكثير من الكتب التي لا يستطيع قراءتها من هم في مثل أسنانهما، وهما على وعي ودراية بما يجري في بلدنا الحبيب، وفي الوطن العربي والعالم الإسلامي أيضاً .

بسام : إذاً . . أنتما تلميذان نجيبان في مدرسة السباعي، وأرجو ألاّ تُعْتقلا كما اعتُقل السباعي أول مرّة، وهو ابن ستة عشر ربيعاً .

قلت في دهشة :

ـ ابن ست عشرة سنة ! كيف؟ ولماذا يعتقله الفرنسيون المتحضّرون؟

كنت أظنّ أن اعتقال الأطفال والفتيان والفتيات في بلادنا نحن سكان العالم الثالث عشر فقط .

فضحك أبي وهو ينظر إلى الأستاذ بسام وقال له :

ـ صادق يقول : نحن نعيش في العالم الثالث عشر . . يعود بنا إلى

الـوراء أو ينزل بنا إلى الحضيض عشـر درجات أخرى . . لم يكفهِ أننـا من العالم الثالث فقط .

قال الأستاذ بسام في حزن :

ـ معه حق .

ثم التفت إليّ وقال :

ـ اعتقله الفرنسيون المتحضّرون سنة ١٩٣١م متهمين إياه بتوزيع منشورات تحتجّ على سياستهم الاستعمارية القمعية في المغرب العربي ، وتندّد بأساليبهم الغاشمة .

صـادق : يهتمّ بالمغرب العربي ، ويوزّع المنشـورات ضدّ المحتليـن الفرنسيين؟

صادقة : لذا ، اسمحوا لي يا سادة ، أن أطلب من عمي الأستاذ بسام أن يحدّثنا عن هذا الرجل العظيم ، دون مقاطعة .

الأب : الحوار أنفع من السَّرد يا بنتي .

صادقة : كما تحبّون . . المهم أن نعرف المزيد عن حياته الخصبة .

بسام : نشأ السباعي ، يا صادقة ويا صادق ، في ظروف صعبة كانت تحيط بسورية من الداخل والخارج . . فالاستعمار الفرنسي كان يعيث فساداً في سورية الحبيبة ، ويذيق الشعب الويلات ، ويفرض عليه سياسة التجهيل والتفقير ، حتى لا يفكر إلا في لقمة عيشه ، بحيث يكفي نفسه وأسرته .

صادقة : إذاً هذه السياسة ليست جديدة ، وليست من ابتكار حاكمينا .

بسام : وكان لهذه الظروف آثارها البعيدة في حياة السباعي السياسي الذي تعرّض مراراً للاعتقال في سورية وخارجها .

صادق : كيف؟

بسام : في عام ١٩٣٢م اعتقله الفرنسيون أيضاً بسبب إحدى خطبه المثيرة ، وفي عام ١٩٣٤م اعتقله الإنكليز في مصر .

صادق: ما الذي أخذه إلى مصر؟

بسام: سافر إلى مصر من أجل الدراسة في الأزهر، وهناك قاد طلاب الأزهر في مظاهرة عارمة ضدّ الاحتلال الإنكليزي الذي اعتقله مرة أخرى عام ١٩٤١م أثناء الحرب العالمية الثانية، لأن السباعي كان يعمل مع المؤيدين لثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضدّ الاستعمار الإنكليزي، اعتقله الإنكليز، ثم أبعدوه إلى فلسطين، واحتجزوه في معتقل (صرفند).

صادق: كم بقي معتقلاً في مصر؟

بسام: ثلاثة أشهر، ثم أفرجوا عنه وعن بعض إخوانه بعد أن تدخل شيخ الجامع الأزهر، أفرجوا عنه، على أن يخرج من مصر، فسلّموه إلى السلطات البريطانية في فلسطين، ووصل إلى غزّة، والدّم ينزف من أنف السباعي من شدّة الحرّ في ذلك اليوم، وسجنوه أربعة أشهر في معتقل (صرفند) ثم أفرجوا عنه وعن بعض إخوانه الذين اعتقلوا معه في مصر، بعد وساطة من بعض أهل فلسطين.

دقَّ جرس الباب، فأسرعت أفتحه، وإذا الأستاذ حسني جاءنا زائراً، ففرح أبي بقدومه، وقال له:

ـ نحن نتحدث عن الأستاذ السباعي رحمه الله، وأنت من محبّيه بل من عشاقه، وتعرف عنه الكثير، فهيّا شاركنا في الحديث عنه.

أبدى الأستاذ أبو معاذ فرحه وقال:

ـ يسعدني أن أضيف إلى معلوماتي معلومات جديدة عن أستاذنا السباعي، وأنت يا أبا صادق من تلاميذه ومن أشدّ المعجبين به، وكذلك الأستاذ بسام، فلعلّكم تضيفون إلى معلوماتي ما يزيدها ثراء، وسوف أشارك عندما أجد مشاركتي مفيدة.

أنا من أشدّ المعجبين بتواضع العمّ حسني، وقد قرأت كلَّ كتبه وأفدت منها الكثير، وكذلك كانت فرحتي كبيرة بحضوره.

قال أبي :

ـ وبعد الإفراج عن السباعي من معتقل (صرفند) يا أبا معاذ؟

قال أبو معاذ :

ذهب السباعي إلى نابلس، وبقي يومين عند أخيه في الله الشيخ مشهور الضامن الذي كان زميله في الأزهر، واعتقل معه، وأبعدوهما مع عدد من الإخوة إلى فلسطين، ثم عاد السباعي إلى الشام، ليعتقله الفرنسيون من جديد.

صادقة : لماذا؟

حسني : خوفاً من أن يثير عليهم الجماهير . . وأخذوا ينقلونه من سجن في حمص، إلى آخر في بيروت، ثم وضعوه في معتقل (الميّة وميّة) وقلعة راشيا بلبنان.

صادقة : وكم استغرق اعتقاله هذه المرة؟

بسام : مدة سنتين ونصف السنة، ذاق خلالها ألواناً من التعذيب والتجويع والأشغال الشاقة، انتقاماً لمواقفه الشجاعة، ولما أشعله في قلوب الجماهير من النقمة على الاستعمار وجرائمه في كل مكان.

وقال أبي :

المستعمر لا يرضى أن يقف أحد في وجهه، ولا يسمح لأحد أن يكشف مخططاته الإجرامية، ويفضح ما تبثّه مدارسه التبشيرية، ولذلك كان للسباعي بالمرصاد.

صادقة : وكان السباعي العظيم له بالمرصاد.

بسام : الحقيقة . . هي أن ظروفاً قاسية مرّت بسورية منذ نشأة السباعي المبكرة، من استعمار وفساد وتخلّف وجهل ومظالم اجتماعية وسياسية . . وبالرغم من صغر سنّه، كان واعياً تلك المظالم والمآسي، ولذلك هبَّ متمرّداً على الواقع السيّئ، ثائراً على المظالم والانحرافات والبدع

والخرافات والاستعمار والتبشير، وكان أول عمل قام به تأليف جمعية سرّية لمقاومة المدارس الأجنبية التبشيرية التي أنشأها الاستعمار الفرنسي وأعوانه وصنائعه، لتنفث سمومها في أولاد الطبقة الغنيّة، وتحبّب إلى طلابها الثقافة الغربية، والأخلاق والعادات الإفرنجية، وتعمل على إبعادهم عن عقيدتهم الإسلامية، وعن ثقافتهم الأصيلة. عمل السباعي على محاربتها، فكان يكتب المنشورات، ويطبعها سرّاً، ويوزّعها ـ مع إخوانه ـ على الناس.

صادق: لذلك اعتقلوه أكثر من مرة.

صادقة: قرأت أن السباعي كان من الإخوان المسلمين، فمتى انتسب إلى هذه الجماعة؟

بسام: سافر السباعي إلى مصر عام ١٩٣٣م لمتابعة دراسته في الجامع الأزهر. وهناك تعرف على الإخوان المسلمين، والتقى الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله. وأُعجب كلٌّ منهما بالآخر، وأحسَّ السباعي أن جماعة الإخوان هي الجماعة التي يبحث عنها، لأنها هي التي يمكنها أن تحمل لواء الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله والعودة إلى تعاليم الإسلام، فانضمّ إليها، وبدأ يعمل ويناضل من خلالها، ويحاضر في مراكزها وفروعها وشُعبها، ويتنقّل بين قراها وبلدانها، يبشّر بأهدافها ومراميها، ويقود المظاهرات باسمها، مندّداً بالاستعمار البريطاني الجاثم على أرض العروبة والإسلام في مصر والعراق وفلسطين والأردن وسواها.

وعندما سكت الأستاذ بسام، تنحنح الأستاذ حسني، ومسح شفتيه بلسانه، ثم قال:

ـ السباعي علم من أعلام الأمّة الإسلامية في العصر الحديث. وأستاذ من أساتذة الحركة الإسلامية الواعية، وداعية من صفوة الدعاة والمرشدين والعلماء، الذين تعالوا على حطام الدنيا، وارتفعوا فوق ترابها وشهواتها.. داعية من أبرز دعاة الإخوان، آمن بالإسلام ديناً ودولة، مصحفاً وسيفاً، منهاجاً وطريقاً وسبيلاً للحياة.. ووقف نفسه وروحه وقلمه وعقله وحياته

وعمره في سبيل الدعوة، والسير على طريق الرسول القائد محمد ﷺ.

وهتفنا جميعاً:

ـ صلى الله عليه وسلم.

رنَّ جرس البيت، فأمرني أبي بإشارة من رأسه وعينيه الواسعتين أن أفتح الباب، فأسرعت أفتحه، وأنا أدعو الله تعالى أن يكون الطارق واحداً من إخوان السباعي ومحبّيه، ليشاركنا فيما نحن فيه، وإذا الأستاذ الكبير أبوهيثم، وماأدراك ما أبو هيثم، فهو ممن مليء علماً وفضلاً.. وما أظنه إلا وعنده من أخبار السباعي الشيء الكثير.

رحّبتُ به، ثم قدتُه إلى حيث يجلس أبي وضيوفه، وأنا أقول:

ـ جئت في الوقت المناسب يا عمي: فنحن نتحدث عن الدكتور السباعي رحمه الله.

فوقف الأستاذ الكبير في الممر، ونظر إليَّ، وقال في فرح:

ـ أحلى حديث، عن أحلى حبيب.

ثم دلفنا إلى الغرفة، فهبَّ من فيها وقوفاً، مرحّبين بمقدم أستاذنا الكريم، رفيق درب السباعي في جهاده الطويل..

شمخ الأستاذ الكبير برأسه، وانطلق لسانه يثني على السباعي خيراً، ثم قال:

ـ أدرك السباعي مبكراً أنّ طبيعة العمل الإسلامي قائمة على التعاون، فعمد إلى تأسيس عدّة جمعيات إسلامية في سورية.. في حمص خاصة. ثم أكّد اهتمامه بهذا الجانب، عندما كان في مصر، واتصل بحركة الإخوان هناك، تحت قيادة الإمام حسن البنا، إذ وجد في تنظيماتها المُحْكمة، المجال الذي يتطلّع إليه، فما لبث أن ارتبط بها، وشارك في أنشطتها الكثيرة، ومن ثَمَّ عمد إلى مدّ هذا النشاط المنظّم إلى سورية، فأنشأ ـ بالتعاون مع إخوانه ـ الجناح السوريّ ـ لجماعة الإخوان المسلمين.

صادق: في أيّ عام كان هذا يا عمي؟

الأستاذ: في عام ١٩٤٥م واختير مراقباً عاماً لها في سورية.

صادقة: ما معنى مراقب عام يا عميّ؟

الأستاذ: رأس التنظيم العام للإخوان في العالم، يسمى: المرشد العام، وكان الإمام البنا هو أول مرشد للإخوان، وكان المرشد الثاني هو الإمام حسن الهضيبي، وكان المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني، والمرشد الرابع هو الأستاذ محمد حامد أبو النصر، والمرشد الخامس والحالي هو الأستاذ مصطفى مشهور.

صادقة: حفظه الله.

الأستاذ: أمّا التنظيمات القُطْرية للإخوان، فيأتي على رأس كل تنظيم (مراقب عام). فهناك مراقب عام لإخوان سورية، ومراقب عام لإخوان الأردن، ومراقب عام لإخوان فلسطين، ومراقب عام لإخوان لبنان، ومراقب عام لإخوان أوروبا، وهكذا.

صادقة: يعني الأمين العام في الأحزاب الأخرى.

الأستاذ: يعني الأمين العام.. صحيح.

صادق: كم مرة التقى الدكتور السباعي الإمام البنا يا عميّ؟

الأستاذ: التقاه كثيراً بلا شكّ، في مصر، وفي سورية أيضاً.

صادق: هل زار الإمام الشهيد سورية يا عمي؟

الأستاذ: نعمْ يا بني.. زارها عام ١٩٤٨م.. جاء إلى قطنا ليتفقد كتائب الإخوان الذين كانوا يتدرّبون في قطنا، قبل خوض المعارك في فلسطين.

صادق: هل أفهم من هذا، أن الإخوان في سورية، كانوا يتعانون مع الإخوان في مصر يا سيدي الأستاذ؟

الأستاذ: لمّا زحفت كتائب الإخوان المسلمين من سائر البلاد العربية لنجدة فلسطين، كان التعاون على أتمّه بين الأصل والفرع.

صادقة: تعني بين الإخوان المصريين، والإخوان السوريين؟

الأستاذ: نعم.. كانوا متعاونين في مجال التدريب، وفي ميادين القتال، وفي سائر الميادين.. وكان الأعداء والخصوم يعرفون هذا التعاون، ويتضايقون منه.

وسكت الأستاذ الكبير لحظة كأنه يتذكر، ثم تابع يقول:

ـ مثلاً.. عندما غدر الملك فاروق بالإخوان، وطعنهم في ظهورهم وهم يجاهدون في فلسطين، وبأمر من الإنكليز والفرنسيين والأمريكان، أمر رئيس وزرائه التافه إبراهيم عبد الهادي باغتيال الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ وأمره أيضاً بتعقّب رفيق جهاده الأستاذ السباعي، وكان حينها في القاهرة، من أجل اغتياله أو اعتقاله، استكمالاً للمخطط الاستعماري المرسوم، من أجل التخلص من جماعة الإخوان، التي تشكل خطراً حقيقياً وكبيراً على إسرائيل، ولكنّ الله شاء غير ما أرادوا، فعجزت أجهزتهم القمعية عن الوصول إليه، ونجّاه الله من بين أيديهم، وعاد إلى دمشق، وانطلق يقود المظاهرات الهائلة في شوارع دمشق، نصرة لإخوان مصر.

صادقة: عفواً يا عمي:.. قلتَ قبل قليل: السباعي رفيق درب الإمام الشهيد، فهل تعني أنّ السباعي كان مثل الإمام الشهيد؟

فانبرى أبي يقول، بعد أن استأذن الأستاذ الكبير:

ـ اسمع يا صادق.. واسمعي يا صادقة هذا الخبر، ثم احكموا أنتم.

نشرت جريدة الإخوان المسلمين في مصر في رأس صفحتها الأولى صورة الإمام البنا، وكتبت تحتها: القائد، ونشرت إلى جانبها صورة الأستاذ السباعي، وكتبت تحتها: الجندي. وعندما رأى الإمام البنا هذا، ثار على من نشر الصورتين والتعليق تحتهما، وقال لهم: أنتم لا تعرفون الرجال.

صادقة: يعني؟

الأب: يعني أبى أن يوصف السباعي بالجندية.. كان الإمام البنا يعتبر السباعي قائداً، وقائداً كبيراً، وليس كسائر القادة.

صادق: هذه الحادثة إن دلّت على شيء، فإنما تدلّ على عظمة الإمام الشهيد، ومدى خبرته بالرجال، ومعرفته بالخصائص القيادية التي كان الأستاذ السباعي -رحمه الله- يتمتع بها.

الأب: لا يعرف قدر الرجال إلا الرجال. ولذلك ضمّه إلى الهيئة التأسيسية لجماعة الإخوان المسلمين بمصر.

صادق: يا ليتنا نسمع منكم شيئاً عن جهاد الدكتور السباعي في فلسطين.

حسني: أنا أحفظ بعض ما كتبه مؤرخ النكبة الأستاذ عارف العارف في كتابه القيّم: (نكبة بيت المقدس) عن جهاد الأستاذ السباعي وإخوانه. قال: «اشترك من الإخوان المسلمين السوريين في حرب فلسطين زهاء أربعمئة أخ.. مئة منهم بقيادة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعي، وهو أستاذ في الجامعة، والباقون انخرطوا في صفوف جيش الإنقاذ، وقد استشهد منهم أحد عشر شخصاً، وجُرح زهاء خمسين.. وجلُّهم، إن لم نقل كلُّهم، من الأسر المرموقة في سورية، ومن حملة الشهادات المثقفين، اشتركوا في معارك الحي القديم، وفي القسطل، والقطمون. وفي الحيّ الأخير هذا استشهد منهم كثيرون».

ولّما سكت الأستاذ أبو معاذ، استحثّه أبي على الحديث، لأنه مؤرخ فلسطين ورجالات فلسطين، وجهاد المجاهدين في فلسطين، كما أنه من عشّاق الأستاذ السباعي، وممن كتبوا عنه، فاستجاب الأستاذ أبو معاذ وقال:

- قال لي المجاهد عدنان الدبس عن دور الأستاذ السباعي في معارك القدس الهائلة:

«كان السباعي قائدنا في جهادنا، وكان مقرّه في الروضة (مركز القيادة في القدس)، وكان يزورنـا باستمرار في مواقعنا التي ندافع عنهـا في أحياء القدس، ويشجعنا على الجهاد والثبات، ويمدّنا بالذخيرة والسلاح، وكان يشترك معنا في كثير من المعارك، وكان في مقدمة المهاجمين الذين احتلّوا الحيّ اليهوديّ. وكان ـ رحمه الله ـ عندما تكون هدنة بيننا وبين اليهود لجمع القتلى والجرحى، ويطلبـون إلينـا إرسال قائدنـا للتفاوض، كنا نرسـل السباعي، لمكانته بيننا، ولقدرته على التفاوض».

فيما كان الأستاذ حسني يتكلم، كان الأستاذ بسّام يقلّب بين يديه صفحات مجلة (حضارة الإسلام) وعندما سكت الأستاذ حسني، قال الأستاذ بسام:

ـ سأقرأ لكم بعض ما كتبه الأستاذ أميل الغوري عن ذكرياته مع الأستاذ السباعي: «شعر المجاهدون بحاجتهم إلى عون المؤمنين المخلصين من أشقائهم العرب، فاستنجدت قيادة (الجهاد المقدس) ببعض المؤسسات والمنظمات والجمعيات الشعبية في البلاد العربية، وكان الشيخ مصطفى السباعي أحد الذين استنجدنا بهم.

«وفي أواخر شهر نيسان ١٩٤٨م وضعت قيادة (الجهاد المقدس) في لواء القدس خُطّة عسكرية لتطهير منطقة القدس من المستعمرات الصهيونية القائمة فيها، وإعادة فرض الحصار على الأحياء اليهودية في مدينة القدس نفسها، واتخذ المجاهدون من قرية (كفر عقب) القريبة من (رام الله) قاعدة للهجوم على مستعمرتي: (عطاروت) و(نفي يعقوب) وتدميرهما، ليصبح طريق القدس ـ رام الله مأموناً للمجاهدين. وعلى الرغم من صعوبة هذه المغامرة، فإنّ المجاهدين كانوا مصممين على القيام بها.

وفي ليلة ٢ أيار ١٩٤٨م، وفيما كانت طلائع المجاهدين تتقدّم نحو المستعمرتين الآنفتي الذكر، فوجئنا بقدوم عدد من الرجال المسلّحين، أكّد لنا الحرس أنهم من العرب، وأنهم يريدون المساهمة في الجهاد، والانقضاض على المستعمرتين. فلما ذهبنا إليهم، وجدنا أنهم (قوّة سورية)

مؤلفة من نحو (١٥٠) رجلاً، جلُّهم من الشبّان، يتحرّقون شوقاً لخوض غمار القتال. وكان على رأس هذه القوة، المرحوم الشيخ مصطفى السباعي في لباس الميدان، متمنطقاً سلاحه للجهاد في سبيل الله. فهلّل المجاهدون وكبّروا، ورحّبوا بإخوان الجهاد أجمل ترحيب».

رفع الأستاذ بسّام رأسه عن المجلة، وطلب منّا أن ننتبه إلى هذه الفقرة.. قال الأستاذ بسام:

ـ ويتابع الأستاذ الغوري رواية هذه الذكرى فيقول:

«وقبيل خوض المعركة الخطيرة، حاولنا إبقاء الشيخ مصطفى السباعي في مقر القيادة، وهو بعيد نسبياً عن أرض المعركة، كما سعيت شخصياً «للاحتيال» على الشيخ مصطفى، وإقناعه بالبقاء في القيادة، للقيام بأعمال خطيرة مهمّة، ولكنّه أبى ورفض، وأصرّ على خوض غمار المعركة، مهما كلّفه الأمر، وقال: إنه لم يحضر من دمشق إلا بغية الاستشهاد في سبيل الله والوطن.

ولمّا لم نستطع ثني الشيخ مصطفى عن عزمه، وافقناه على ما يريد، واخترنا مركزاً يشغله وأترابه، ولكنه لم يقبل ذلك، وصمّم أن يشترك بنفسه في الطليعة، فكان له ما أراد، وخاض الشيخ مصطفى ورفاقه المعركة ببطولة عظيمة، إلى جانب إخوانهم الفلسطينيين، وانتهت المعركة بنصر مؤزّر للعرب».

«وبعد انتهاء المعركة، رجونا الشيخ مصطفى أن يستريح قليلاً فرفض، فعرضت عليه الانتقال إلى القدس للمساهمة في الدفاع عنها، فقال لي: إني لا أقاتل من خلف الأسوار».

وقال الأستاذ بسام، وهو يقلّب صفحات مجلة (حضارة الإسلام):

ـ كانت فلسطين تعيش في عمق أعماق الأستاذ السباعي.. عاشت في ضميره منذ شبابه المبكر، وكان يذكّرنا بها بمناسبة ودون مناسبة.. ما نسيها يوماً في حياته..

ووقف الأستاذ عند صفحة معينة، ورفع رأسه، ولم يرفع عينيه عن المجلة، ثم قال:

ـ كان يعتبرها قضية العروبة والإسلام في هذا العصر، ولذلك أفراد لها باباً خاصاً بها في هذه المجلة الرائعة، أسماه: (الدُّرّة المغتصبة). اسمعوا ماذا يقول، فهو ينادينا.. ما زال يهيب بنا ألاّ ننساها. يقول رحمه الله: «في حياة الأمم، كما في حياة الأفراد، فترات من الشدّة والقسوة، يفرُّ منها ضعفاء الإيمان إلى اليأس، وينهض معها أقوياء الإيمان إلى العمل.. وجراح فلسطين الدامية التي لم تندمل بعدُ في جسم أمّتكم، إن حملت بعضَ القادة والزعماء على إلقاء السلاح، فإنها يجب أن تحملكم على متابعة النضال والكفاح».

ورفع الأستاذ بسام رأسه، دون أن يرفع ناظريه عن الصفحة التي يقرأ منها، ثم قال:

ـ اسمعوا صرخة الحرّ في آذان الأحرار، لتتبيّنوا حقيقة البُغاث:

«هذه فلسطينكم!.. أضاعتها الأطماع الجائعة، والشهوات الظامئة، والغفلة المسترسلة، والأحقاد الصّليبية الكامنة، ولن تكون فلسطين، بعد كلّ هذه المؤامرات، إلا لنا نحن العرب.. نحن المسلمين..

فلسطين لنا:

يوم تُجنّد في سبيلها العزائم والسواعد..

ويوم تُحشد لها الإمكانات والمواهب..

ويوم نحرسها بالسلاح الشاكي، والإيمان اللاهب..

فلسطين لنا:

يوم نعزم أن نرفع رؤوسنا إلى السماء..

ويوم نأبى أن ننهزم، وفي أيدينا اللواء..

ويوم نقول (لا) للطغاة الأعداء . . » .

ورفع الأستاذ بسام رأسه من جديد، ولم يرفع ناظريه عن المجلة، ثم قال:

ـ ثمّ يهيب بنا السباعي العظيم أن نكون كما ينبغي للأحرار أن يكونوا . . اسمعوه يصرخ:

يا شباب! .

لا تيأسوا فاليأس كفرٌ بالله . .

ولا تردّدوا . . فالتردُّد مفتاح الهزيمة . .

ولا تقفوا . . فالوقوف أول الموت . .

يا شباب! .

اذكروا فلسطين . . يقظتكم ومنامكم .

واذكروها . . مَغْداكم ومَراحكم .

واذكروها في عبادتكم ورياضتكم .

واذكروها لأطفالكم وأمّهاتكم .

اذكروها . . فهي قلب وطنكم الكبير الواحد .

اذكروها . . فهي طريق الإسلام إلى عاصمته (مكة) .

اذكروها . . فهي ثغر جزيرتكم التي يربض فيها محمد ﷺ .

ياشباب! . . .

اجعلوا لفلسطين ما تملكون من مال، وما تُرزقون من مواهب، وما تجدون من وقت، وما تفاخرون به من عرض وعقيدة . . .

هذا هو طريقكم الجديد، إلى وطنكم المفقود» .

لم نملك ـ صادقة وأنا ـ ألسنتنا، فانطلقت بالهتاف الخالد: «الله أكبر ولله الحمد».

فردّدت الألسنة الكبيرة خلفنا، والدموع ملء مآقيها: «الله أكبر ولله الحمد».

وقال أبي وهو يمسح دمعاته:

ـ كلما سمعت أستاذنا السباعي، أو قرأت له، تمثّلَ لي جبلاً من شموخ.. جبلاً من كرامة.. ولذلك كان يكرر لفظة الكرامة في كلّ خطبة، وفي كثير من كلماته الخالدات.

فقال الأستاذ بسّام الذي توقّف عن تقليب صفحات المجلة:

ـ اسمعوا مواقف الكرامة في هذه الكلمة الجريئة.. الحرّة.. الكلمة المقاتلة التي تتصدّى لدول الاستعمار والاستكبار، ولعملائهم وصنائعهم والمعجبين بهم من أبناء أمتنا.. ألقاها في المجلس النيابي في الثالث من آب عام ١٩٥١م بمناسبة تحرّش إسرائيل بجيشنا السوري آنئذ.. اسمعوه يفاخر ويقرر:

«إننا شعب مصمم على أن يموت، أو أن ينال حقَّه بيده، فهو قد كفر بكلّ عدالة تأتيه من الخارج.. لقد كفر بكلّ عدالة تأتي من أولئك الذين يتوسّدون أرائك مجلس الأمن، وهيئة الأمم، والذين لا يستوحون ضمائرهم، وإنما يستوحون أنانيتهم.

وبهذه المناسبة أعلن ما كرّرناه من قبل، أننا يجب أن نفكّر في علاقاتنا بالمعسكر الغربي.. إنّ من واجبنا أن نفكّر بعلاقاتنا بهذه الدول.. إننا جديرون بأن نصون كرامتنا إزاء هؤلاء الذين يستهزئون بكرامتنا وبإرادتنا، ولا أدري إلى متى نسير بإرادتهم، ومتى نفكر في الخروج على تلك الإرادة؟.

وقد يقال: إننا ضعفاء، وإننا لا نملك من الأمر شيئاً، ولكنْ.. لأنْ

نموتَ ونحن نلطم الذي يلطمنا، خيرٌ لنا من أن نموت ونحن نقدّم خدَّنا لمن يريد أن يلطمه، ورقابنا لمن يريد أن يتحكم بها . .

حسني : الله أكبر ! .

بسام (متابعاً القراءة) : «من الواجب أن نفكر بعد الآن، كيف ينبغي أن تكون علاقاتنا مع هذه الدول، فلا نجاملها، ولا نجعل مصيرنا مرتبطاً بها، ولئن كانوا يظنّون أنّ في هذا التعدّي ما يرهبنا ويخيفنا، فليعلم العالم، أننا شعب لا يخاف الحروب، وأننا أبناء هذا الجيل، قد ولدتْنا أمّهاتنا على لمعان نيران الحروب، وعلى ضوء مدافعها، وعلى بطاح معاركها، وبريق أسنّتها، ونحن أمّة رضعنا حبَّ الحروب من أثداء أمهاتنا، فلن تخيفنا الحروب، ولن ترهبنا النكبات، ولقد تعرّضنا في تاريخنا الماضي كثيراً لمثل هذه النكبات التي تألّبتْ علينا، واستمرت مئات السنين، ثمّ لم ترهبنا، ولم ترجعنا عن عزائمنا» .

ثمّ يقول عليه رحمات الله ورضوانه في شموخ إيماني :

«إننا قد وطّنّا النفس على أن نردّ العدوان مهما كان شأنه، فلا يطمع بنا الطامعون من الدول الكبرى، وليعلموا أنّهم في إثارتهم لإسرائيل في هذه الظروف علينا، لا يستطيعون أن يحملونا على الصلح، وإنني أعتقد أنني أعبّر عن حقيقة واقعة، وهي أنهم لم يجدوا في هذه البلاد، ولا في أيّ قطر عربيّ آخر، رجلاً واحداً ترضى له كرامته، وترضى له وطنيّته، أن يرى الصلح مع إسرائيل، أو يقبل به، إلا إذا كان معناه الموت، وإلا إذا كان معناه تسليم رقابنا للجزّارين الأشرار. إن الصلح مع إسرائيل خيانة وطنية، فلا يفكرنّ أحد بأن يحملنا عليها» .

تعالت الصيحات والهتافات وكلمات الإعجاب بهذه الجرأة على الدول الكبرى المنحازة لإسرائيل، وعلى صنائعها، ثم قال أبي :

ـ ولذلك حاولوا اغتياله أكثر من مرّة .

الأستاذ: ولكنّ الله ردّ كيدهم في نحرهم، ونجّى الأستاذ من شرورهم .

الأب: يوم كان الساسة والمتزعّمـون يغطّون في نـوم عميق، كان السباعي ساهراً يفكّر ويخطّط وينفّذ . . يأتيه من يأتيه بعد منتصف الليل، وفي مطلع الفجر، ليأخذ منشورات، أو يتلقى تعليمات، ثمّ ينطلق تحت ستار الليل، محفوفاً برعاية الله، تسبقه وتلاحقه وتحيط به دعوات الشيخ: أن يحفظ جنود الدعوة الأبرار، من عيون الأشرار، وغدر الفجّار . .

الأستاذ: ولذلك تآمروا عليه . . وكنت أحسب أنّ ضمائرهم تستيقظ لينصفوا المجاهد السـباعي، فيعترفوا بإساءتهم إليه، وتآمرهم عليـه . . بتزوير الانتخابات، وتدّخل أجهزة القمع فيها، من أجل إنجاح مرشحهم، وإسقاط مرشّح الجماهير، ولكنهم لم يفعلوا، وقد مات بعض هؤلاء، وبعض آخـر يهمـس بهذه المعاني في خجل، ولا يجـرؤ على كتـابتها وإعلانها، تصحيحاً لتاريخ مزوّر، هم مزوّروه.

حسـني: وهل تعتقد أن هؤلاء يتمتعون بجرأة تجعلهم يعترفـون بأخطائهم، وهم الذين دمّروا البلاد، وعذبوا العباد، وما زالوا في ركاب تلك الدول التي تأمرهم فيطيعون ويزورون ويفتئتون؟ .

صادقة: اللهم دمرّهم - إذاً - ودمّرْ عليهم.

قال الأستاذ بسام، وهو يقلّب صفحات المجلة:

- الحقيقة . . هناك بعض الذين ليسوا من أنصار التوجه الإسلاميّ، والحركة الإسلامية، اعترفوا بفضل السباعي، وقالوا كلاماً لم يستطع غيرهم قول مثله.

فسأل الأستاذ حسني عمّن يعنيهم الأستاذ بسام، فقال الأستاذ بسام:

- اسـمع هذه الكلمات، ثم قـل لي: من يمكنـه أن يقولها؟ اسمع يا أستاذ:

«إنّ الشـعور بمرارة الفجيعة، وفداحـة الخطب، يزداد على الزمن عمقه واتساعه وامتداده، كلّما كانت شخصية الفقيد عميقة الالتصاق بجذور

المجتمع، واسعة الاتصال بآفاق الحياة، ممتدّة الجنبات في رحاب المعرفة. . والفقيد الراحل(السباعي) من هذا الطراز الإنسانيّ الرفيع: كلّيّ النظرة، قويّ الإحاطة والشمول، متعدّد الجوانب، متشعّب المواهب، رائد. . في الطليعة من روّاد الإصلاح الديني والاجتماعي والسّياسيّ في العالمين: العربي والإسلامي. . حمل زنده راية الدعوة الإسلامية زهاء ربع قرن، دون أن يهن الزند أو يلتوي، ورفع ساعده راية محمد -ﷺ-، فلم يضعف الساعد، وبقيت راية محمد ﷺ خفّاقة تزحم النجوم. . ودعا لسانه الجريء الحرّ المتدفق إلى الوحدة تحت راية القرآن، فَنَدِيَت العربية بالحقّ على لسانه، واعشوشبت المنابر بالمعين الثّر من بيانه، وكان في ذلك كله عزمةً لا تسعها قدرة، وشعاعاً لا يحصره أفق، وحيوية مؤمنة دافقة، صمدت في وجه الشدّة، حتى خجلت الشدّة ذاتها من الصمود. .

حسني: هذا كلام بديع، وأدب رفيع، وإنصاف ما بعده إنصاف.

بسام: إذاً. . اسمع ما يقوله هذا الأستاذ الكبير أيضاً:

«ثمّ قضى الفقيد الكبير كما يقضي الفارس المُعْلَم في قلب المعركة:

كبرياء النصر في عينيه، ودعوة الحقّ بين شفتيه، ووهج العقيدة المؤمنة يعمر جنبيه، ولواء المعرفة مُشْرَع بين زنديه، وهذا الأمل العريض بمستقبل كتائب الإيمان في الأجيال الصاعدة من بعده يملأ شغاف نفسه، ويأخذ بمجامع لبه. .

الأب: الله أكبر!. ما أروع هذا الوصف!.

بسام: ويتابع الأستاذ الكبير حديثه عن السباعي العظيم فيقول:

«فلا والله ما بقيت ريحانة من رياحين الغوطتين إلا تمنّت أن تكون ضفيرة من ضفائر المجد على جبينه، ولا والله ما بقيت مزنة طيبة عطرة من سحائب رياض الفيحاء إلا رَجَتْ أن يُضمَّخ بها جثمانه، أو يُندَّى بها ضريحه».

صادقة: يا سلام!. ما أروع هذا الكلام، وما أحلاه!.

الأستاذ: كأنه حديث عاشق.

بسام: ويصفه الأستاذ الكبير وصف العارف به عن قرب، الخبير بأدقّ خصائصه العقليّة والروحيّة والنفسيّة فيقول:

«كان السباعي ـ طيّب الله ثراه ـ رقيق الإهاب، متفتح الذهن، يتكلّم فيشعّ عقله في معانيه، ويشيع ذكاؤه في مراميه، ويسيل شعوره الحيُّ على ألفاظه وعباراته، ويحيا القضية التي يعمل لها بكلّ حواسّه ومشاعره.. بديهة حاضرة، وذهنٌ متوقّد نفّاذ، واطلاع شامل، ومنطق مستقيم، ورجولة بعيدة الغور، سنيّة القصد».

صادقة: الله أكبر.. ما أعرف هذا الأستاذ بذاك العملاق.

بسام (يقرأ): «كان ـ نضّر الله مثواه ـ ذكياً إلى درجة الحكمة، مشبوب العزم إلى درجة المغامرة، طموح النفس فلا يحصر أفقه يأس، ولا يحدّ غايته مطلب، بعيد الهمّة، فلا يُضِلُّه كغيره شارد الخيال، ولا يغرّه كغيره خادع الأمل، كبير القلب، فلا يشوب غرضه سوء، ورث شمائل العروبة الأصيلة، ورث حفظ الكرامة ورعاية الحقّ، والاتّصاف بالأريحية والنجدة، فكان عربيّاً بدمه، مسلماً بخلقه وعقيدته».

الأستاذ: إنه يصف الأستاذ السباعي وصفاً دقيقاً لا مزيد عليه.

بسام (يقرأ): «لقد اعتنق السباعي ـ في رأيي، وهذا ما يجعله عظيماً في عيني ـ عقيدة، وظلَّ أميناً لها بلسانه وقلمه حتى آخر نسمة من نسمات حياته.. عقيدته: أنّ دعوة القوميّة العربيّة يجب أن تقوم على أساس من قيم الإسلام الروحيّة، وتعاليمه الأصيلة، وتراثه الحضاريّ الخالد..».

الأب: سمعت هذا الرأي من العالم العامل الشيخ نايف عباس مراراً، وكان يثني على الدكتور السباعي لأنه كان يقرن العروبة بالإسلام في خطبه ومقالاته.

بسام: ويعلّق الدكتور محمد الفاضل الذي قطفت لكم قطوفاً من

كلمته الرائعة في تأبين الدكتور السباعي ـ رحمه الله ـ وكانا زميلين مدرّسين في كلية الحقوق في جامعة دمشق. . فيقول:

«إن الإسلام كان وسيبقى. . ويجب أن يبقى ظئراً للعروبة: حِماها حِماه، وقيمها مشتقة من قيمه، مستلهمة منه، متساوقة، منسجمة معه».

الأب: لو تبنّى القوميون هذا الرأي، لالتقينا معهم في منتصف الطريق. وكم سمعت هذا الرأي من شيخنا الجليل الشيخ نايف ـ تغمدّه الله بفيض رحمه ـ وكان ينصحنا بتبنّي هذه الفكرة التي كان يراها في الفكر السياسيّ للسباعي رحمه الله رحمة واسعة، وفي فكر الإمام البنا الذي كان يدعو إلى الوحدة العربية، وإلى التعاون الإسلامي.

بسام: اسمحوا لي أن أتابع في اقتطاف ما يتيسر من ثمرات زميل السباعي:

«وثمة عقيدة ثانية ما حاد السباعي عنها، في كلّ ما عرفته من حياته، وهي أنّ الإنسان ما خلق إلا ليكون حرّاً، فمن أقدس واجباته أن يجاهد في سبيل حرّيته بغير هوادة ولا ملل، لا سيما حرية الفكر والضمير. . بيد أنّ ـ هذه الحرية في رأي السباعي ـ يجب أن تُمارَسِ في إطار من القيم الخلقية والفضائل الروحيّة، فشرف الكلمة يجب أن يُقَدَّم على حرّيتها. . لنخشع أمام هذه العبارة الفذّة من عبارات السباعي. . قال السباعي:

«إنّ الذين يزعمون أنّ من حقّهم أن يقولوا ما يشاؤون باسم حريّة الكلمة، ينسون أنّ شرف الكلمة قبل حريّتها، ولم أجد أمّة تسمح بالخيانة الوطنية باسم الحريّة، ولكنّ نفراً عندنا، يريدون خيانة الشرف الاجتماعي باسم الحريّة، ولو كان عندنا رأي عام واعٍ، لحاكمهم كما يحاكم خونة الوطن في قضاياه الوطنية».

صادق: الله أكبر! ما أعمق هذا الرأي!.

بسام (يقرأ): «ثمّ إنّ عقيدة ثالثة، تكاد تكون صفوة حياة الفقيد الكبير، بل هي جوهر دعوته الإصلاحية التي تُعتبر ـ في نظري ـ امتداداً لدعوة كبار

المصلحين في العالمين: العربي والإسلامي، وتكاد تسلكه في العقد الثمين الذي من بعض لآلئـه: جمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد عبده».

الأب: العقد الثمين أو السلسـلة الذهبية هي: الأفغاني، ومحمد عبده، ورشـيد رضا، وواسـطة العقد الإمام الشـهيد حسـن البنا، ثم.. السباعي، وسيّد قطب. رحمهم الله وإخوانهم ومن سار على دربهم، رحمة واسعة.

بسام: يتابع الدكتور محمد الفاضل حديثه عن السباعي العظيم فيقول مخاطباً الحاضرين:

«اسمعوا السباعي ـ تغمّده الله برحمته ـ يعرب عن رأيه فيقول:

«الذين يطمسون وجه الشريعة المشرق بجمودهم، أسوأ أثراً من الذين يطمسونه بجحودهم».

ثم اسمعوا من حكمه الغوالي:

«الذين يلبسون لبوس الدين، ثمّ يسـتغلّونه، أشدّ خطراً على الدين ممن يكشفون عن وجوههم فيحاربونه».

ويضيف فقيدنا الكبير ـ السباعي ـ:

«مصيبة الدين في جميع عصوره بفئتين: فئة أسـاءت فهمه، وفئـة أتقنت استغلاله.. وتلك ضلّلت المؤمنين به، وهذه أعطت الجاحدين حجّة عليه».

الأب: يا سلام! ما أعمق هذه النظرات!.. كأنه يعيش بيننا الآن.

الأستاذ: ما نراه الآن ونكتوي بناره، رآه السباعي واكتوى بنيرانه.

بسام (يقرأ): «ويبلغ الفقيد الغالي القمّة في الدعوة إلى فهم الإسلام فهماً صحيحاً، وفي التحرّر ممّا علق بالدين في عهود الانحطاط، وما يبعده عن أصالة الرسالة المحمديّة، فيقول:

«حين تضيع معاني الديـن وتبقى مظاهره، تصبـح العبـادة عـادة، والصلاة حركات، والصّوم جوعاً، والذّكر تمايلاً، والزّهد تحايلاً، والخشوع تماوتاً، والعلم تجمّلاً، والجهاد تفاخراً، والورع سـخفاً، والوقار بلادة، والفرائض مهملة، والسّنن مشغلة . .

وحينئذٍ . . يرى أدعياء الدين عسف الظالمين عدلاً، وباطلهم حقاً، وصراخ المسـتضعفين تمرّداً، ومطالبتهم ظلماً، ودعـوة الإصلاح فتنة، والوقوف في وجه الظالمين شراً.

وحينئذٍ . . تصبح حقوق الناس مهدرة، وأباطيل الظالمين مقدَّسة، وتختلّ الموازين، فالمعروف منكر، والمنكر معروف.

وحينئذٍ . . يكثر اللصوص باسم حماية الضعفاء، وقطّاع الطرق باسم مقاومة الظالمين، والطغاة باسم تحرير الشعب، والدجّالون باسم الهداية والإصلاح، والملحدون بحجة أنّ الدين أفيون الشعوب».

الأستاذ: صدق السباعي في نظراته العميقة هذه، بل إنّ كلَّ ما أنتجه قلمه الصّنـاع، حافل بما يـؤكّد أنّ صاحبه قد درس تـاريخ أمّته، وأوضاع جيله، واستوعب الخطوط الكبرى لواقع العالم المعاصر، ورصد ذلك كلّه من خلال الرؤية الإسلامية التي تنظر إلى الأشياء بنورالله، فهو طبيب من الطراز النادر، يشخّص الداء كما هو، ثم يصف له الدواء كمايجب. ولذلك تعدّدت جوانب جهاده، ومحاولاته الإصلاحية، ووسائله إلى تحقيقها.

طوى الأستاذ بسام مجلة (حضارة الإسلام) والتأثُّر ظاهر عليه، وقبل أن يضعها في محفظته، استأذنه والدي، وتناولها من يده، ثم بدأ يقلب صفحاتها، ثم نظر في فهرسها، مفتّشاً عن موضوع يهمّه، ثم أشرق وجهه الوضيء وقال:

ـ أمّا أنـا، فسـوف أقرأ بعض العبـارات من كلمة الرثاء البليغة التي دبّجتها يراعة أخيه في الله، ورفيق دربه، ومستشاره، وصفيّ روحه، الأستاذ محمد المبارك رحمه الله رحمة واسعة . . وصفه ـ في بدايتها ـ بأنه كان «علماً

من أعلام الإسلام، ومجاهداً بكل معاني الجهاد، في سبيل الذَّود عن الإسلام، ونشر دعوته، وتوطيد أركانه، وردّ كيد الكائدين عنه».

«فلقد قام أخونا الفقيد ـ عليه الرحمة والرضوان ـ مقاماً في الدعوة إلى رسالة الإسلام، لا يشاركه فيه غيره، فلقد هبط دمشق شاباً تتّقد فيه الحيوية، ووراء هدوئه وأنسه وحيائه قوة البراكين المتفجرة، بعد أن نال حظّه من العلم من كليّة الشريعة في الأزهر، واختصاص القضاء الشرعي، وبعد أن أتمّ تمرين النضال في سجون مصر أيام الإنكليز، وفي معتقلات (صرفند) في فلسطين، ويبتدئ هذا الفتى المناضل حياة جديدة، وتأخذ الحركة الإسلامية في بلاد الشام ـ على يديه ـ شكلاً جديداً، وتخرج عن إطار الحلقات الخاصة، والجمعيات الخيرية، والمحاضرات العلمية، إلى نطاق الجماهير، وتقوم الصلة بين الحركة الإسلامية، وجماهير الشعب».

صادقة: ولذلك تآمروا عليه، فاعتقلوه، وعذّبوه، واضطهدوه ونفوه، وزوّروا الانتخابات ليسقطوه، ثم ليشلّوه ويشلّوا حركته.

الأب: ويشرح الأستاذ المبارك هذه النقطة المهمّة فيقول:

«إن من أبرز ما يتميز به فقيد الإسلام الأخ الأستاذ السباعي رحمه الله، من بين دعاة الإسلام، هو أنه استطاع أن يبثَّ الوعي الإسلاميّ في الجماهير الشعبيّة، الوعي لمبادئ الإسلام وتعاليمه، والوعي لمآسي الإسلام في العصر الحديث، ونكباته مع الاستعمار والإلحاد والصهيونية، بعد أن كانت هذه الجماهير موزَّعة بين فئة المتدينين تديُّناً تقليدياً لا يعرف إلا إقامة بعض شعائر الدين الفردية الظاهرة، دون المشاركة في قضايا البلاد العامة، والكفاح في سبيل تحرير البلاد الإسلامية، مما لحق بها من استعمار وظلم وجهل، وفئات أخرى سادرة غافلة، أو منحرفة عن أهداف أمتها، استهوتها المبادئ الضالة لأنواع من الشعوبيات الحديثة التي جاءت تتصيّد هذه الجماهير، مستغلّة ما كان يحيط بها من أجواء الجهل أو الظلم أو الفقر».

صادق: يا سلام!. هذا تحليل بديع لواقع المسلمين في بلاد الشام، قبيل عصر السباعي العظيم، رحمه الله رحمة واسعة.

الأب: ويقول الأستاذ المبارك:

«استطاع فقيدنا ـ رحمه الله ـ أن ينقل الإسلام الحيَّ النابض الفعّال، الإسلام المحرّر في مثاليته ونضاليته إلى هذه الجماهير، وأن ينقل هذه الجماهير إلى جوّ الإسلام. وبذلك جعل للنضال في سبيل الإصلاح، وللنضال ضدَّ الاستعمار، وللنضال للتحرّر من ظلم الظالمين، من المسيطرين، والظالمين من أيّ لون.. جعل لهذا النضال أساساً من العقيدة والدين، فأمدّه ـ بذلك ـ بقوّة عظيمة جداً، فأزال ما كان في الواقع بين الدين والحياة من بُعدٍ وجفاء في واقع هذه الجماهير المسلمة، وشتّان بين أن يكون الدين صفحات تُكتب في كتاب أو مجلة، فلا تُقرأ، ولا يكون لها صدى في نفوس جماهير الشعب، أو أن يكون منحصراً في فئات صغيرة محدودة العدد، لا تصدر عنها إلا الآهات والحسرات، وهي تنظر إلى عجلة الحياة السائرة سيراً سريعاً في غير مصلحة الإسلام والدين.. شتَّان ما بين هذه الحال، وبين ما استطاع أن يحقّقه ذلك الفتى المؤمن الذي هيّأ الله له من أسباب العلم والنباهة والوعي والحيويّة، ما مكنه أن يجعل هذه الجماهير الشعبية المؤمنة تشارك عن طريق دينها، في تسيير هذه العجلة لمصلحتها ومصلحة الإسلام الذي كان في الماضي البعيد، مناط عزّها، وسبب سعادتها».

صادقة: الله أكبر! ما أروع هذا الكلام، وما أعمقه، وما أدقّه! تابع يا أبي فهذا هو الشَّهد.

ابتسم أبي في حنان وإعجاب، ونقَّل ناظريه بيني وبين أختي صادقة، ثم تابع قراءته في كلام الأستاذ المبارك رحمه الله:

«إنّ من أهمّ ما مكَّنَ الفقيد ـ رحمه الله ـ من اجتياز هذه الخطوة، والانتقال بالحركة الإسلامية إلى هذه المرحلة الشعبية الواسعة النطاق، صفة من أبرز صفاته، وهي قدرته الفائقة على التحسُّس بمشكلات الحياة الراهنة، فلقد كان ـ رحمه الله ـ يعيش في حاضره بعقله ولبّه، وبعاطفته

وقلبه، فإنّ من الناس، بل من كرامهم وفضلائهم من يعيشون في الحاضر بأجسامهم، ولكنهم لا يعون مشكلاته، ولا يتحسّسون بأزماته. لذلك استطاع ـ السباعي ـ أن يجعل علمه وثقافته الإسلامية حيّة، وأن يصل بين تعاليم الإسلام ومشكلات الحياة».

صادق: ولذلك احترقت أعصابه، فيما كان الآخرون يعبثون بكلمة هنا، ووليمة هناك، ويتلهَّون بالتوافه، لأنهم كانوا، وما زالوا، يعيشون على هامش الحركة.

الأب: «وكان ـ السباعي ـ يبصر ويشعر بمرارة ما ران على هذا المجتمع منذ عصور، من مظالم اجتماعيّة تتحمّل وطأتَهَا الكثرةُ الكاثرةُ من جماهير الشعب الساذج المؤمن الذي كان واحداً من أفراده، وما كان عليه أكثر حكام العرب والمسلمين من تبعيّة للدول الأجنبية، وائتمار بأمرها، أو على الأقلّ، من طغيان في السلطة، وإهمال لحقوق الشعب، فارتسمت في ذهنه وفي نفسه صورة واضحة لكبرى مشكلاتنا الفكريّة والاجتماعيّة والسياسيّة، فانطلق يعالجها، مزوداً بثقافته الإسلاميّة، العميقة الواسعة، وحُسن فقهه للدين، وبحسه المرهف، وإخلاصه الشديد، وغيرته التي كانت دونها كلُّ عاطفة من عواطفه، أو ميل من ميوله.. انطلق يعالجها بعمله الدائب، ونضاله المستمرّ في الميادين الاجتماعيّة والسياسيّة والفكريّة، في حماسة نادرة، وجرأة لا تعرف حدّاً، وإخلاص شديد، وصدق واضح، وصراحة لا تعرف إلى المجاملة سبيلاً».

صادق: رائع.. رائع..

الأب: «ومن هنا كانت الخصومات الشديدة التي ثارت حوله، سواءٌ أكان مبعثها الجهات التي أزعجتها خُطّتُه وأهدافُه الإصلاحية، لأنّها تحبط مؤامرتها، أو تكشف سوءاتها، أم كان مبعثها الخلاف في وجهة النظر، وفي طريق الإصلاح، وأسلوب العمل، أم نقصان الوعي لمشكلات الحياة الحاضرة، والبعد عن فهمها، والتحسُّس بها».

الأستاذ: هذا شأن العظماء في كل زمان ومكان.

الأب: «لقد استطاع ـ السباعي رحمه الله ـ أن يعمل في مجال الدعوة إلى الإسلام في المجتمع، فشقّ طريقه إلى جمهور الشعب، وفتح لهذا الجمهور الطريق إلى فهم الإسلام ومبادئه، ووصل ما بين مشكلاتهم الحيويّة، ودينهم، وما بين قضاياهم القوميّة وكفاحهم للاستعمار، ورسالة الإسلام الذي آمنوا به دينًا، وعرفوا شعائره وعباداته، فارتفع بالعامة منهم والخاصّة، إلى مستوى الإسلام عقيدة، ورسالة في الحياة، واستطاع في فترة أخرى من مراحل كفاحه، أن يجعل من السياسة خادماً لمصلحة الشعب، ووسيلة لحلّ مشكلاته، وتحريره من المظالم والمفاسد، في إطار من الدعوة، وفي ضوء مبادئ الإسلام».

سكت والدي عن القراءة لحظة أدار فيها عينيه في وجوه الحاضرين، كأنه يريد أن يطالع أثر ما يقرأ في وجوههم، ولمّا رأى الرضا عمّا يقرأ، تابع قراءته:

«لم يستغلَّ الدين في سبيل السياسة، بل جعل السياسة خادماً للدين، محقّقاً لأهدافه السامية، ووسيلة لخدمة الشعب، وتحريره من الشّرور والمفاسد والمظالم.

«ولقد أعان الأستاذَ الفقيدَ ـ رحمه الله ـ في قوّة مواقفه، وجعله في محلّ الكرامة والتقدير، بحيث لا تناله السهام ـ خصلةٌ لا يعرف حقيقتها فيه إلا من عاشرَه عن قُرْب مدّة من الزّمن، وهذه الخلّة، هي زهدُه فيما يطمع فيه أكثر الناس، ولا سيّما أصحاب المواهب، من المال والمناصب.. فكثيراً ما كان يبذل أكثر ماعنده، ولو ركبه ـ في سبيل ذلك ـ الدَّين الثّقيل، وكثيراً مارفض ماعُرض عليه من رياسات ووزارات، كما يعلم من رافقوه في تلك المجالات، وقد أتيح لي أن أشاهد ذلك بنفسي في فترات من عملنا المشترك».

صادق: أنا يا أبي أسمع بالزهد، وأتمنّى أن أرى زاهداً واحداً.

صادقة: لو عشت في زمن السباعي العظيم، لعرفت معنى الزّهد،

ولرأيت واحداً من الزاهدين الذين نقرأ عنهم، ولا نراهم.

نظر إلينا أبي نظرة عتاب وتأنيب، فقلت:

- معذرة يا أبي.. فأنا أسمع عن عدل الخليفة العظيم عمر بن الخطاب، ولا أرى العدل فيمن يستشهد به، واسمع الخطباء والواعظين يتحدّثون عن الزاهدين من سلفنا الصالح، ولا أرى الزّهد في واحد منهم، أسمع كلاماً كثيراً يعجبني، ثمّ أرى نقيضه في أصحاب ذلك الكلام.

وعندما همّ والدي بالكلام لائماً ومؤنّباً، بادر العمُّ أبو معاذ الكلام فقال:

- أنا مع هذين الشبلين الحبيبين.. المشكلة - ياجماعة - عرضها صادق وصادقة بكلّ بساطة وبراءة.. كلام جميل ولا عمل، أو كلام جميل وعمل قبيح.. المشكلة في هذه الهُوّة بين النظرية والتطبيق..

هدأ والدي، ثمّ اندفع مؤيّداً:

- إنّ مصيبتنا بخطبائنا لا تقلّ عن مصيبتنا بقادتنا وأكثر حكّامنا.. ولو رأى الناس ما يسمعونه منهم في واقع الحياة، لتبدّلت أحوال الناس، ولكنّ كلامهم في وادٍ، وأعمالهم في وادٍ سحيق آخر.

فرحتُ بهذه النتيجة، وأردت تغيير الموضوع، فسألتُ أبي:

- هل تحدّث الأستاذ المبارك عن كتب السباعي يا أبي؟.

ابتسم لي أبي في رقّة وقال:

- اسمع، يا صادق، ما قاله الأستاذ المبارك عن كتب السباعي:

«لقد كانت هذه الفترة - يعني فترة مرضه - من حياته هي فترة التأليف، وخرجت أكثر تآليفه في خلال هذه السنين التي أثقله فيها المرض، وبرّحت به الآلام، فقد طبع كتابه: (السُّنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) سنة ١٩٦٠م وهذاالكتاب، وإن يكن هو الرسالة التي نال بها شهادة الأستاذية (الدكتوراه) من الأزهر، إلا أنّ فيه إضافات كثيرة، واقتضى إشرافه على

طبعه، وإعادة النظر فيه، بعد أن مضى على تأليفه سنوات طويلة» جهداً ليس هيّناً.

صادق: في أيّ سنة نال شهادة الدكتوراه يا أبي؟.

الأب: سنة ١٩٤٩م. ويقول الأستاذ المبارك:

«وأخرج كتابه: (من روائع حضارتنا) وهو خلاصة لأجمل ما في تاريخنا من منازع إنسانيّة، وسموّ أخلاقي، ومؤسسات حضارية، في عام ١٩٥٩م، وكتب محاضرته التي كان لها صدىً واسع في العالم العربي والإسلاميّ، وكانت مثاراً لأبحاث علمية كثيرة، وهي (اشتراكية الإسلام) في آذار ١٩٥٩م وكانت في (١١٢) صفحة، ثمّ أعاد طبعها في السّنة نفسها في كتاب بلغت صفحاته (١٧٥) صفحة، ثمّ أعاد طبع الكتاب طبعة ثانية، كانت تأليفاً جديداً، فقد زادت صفحاته على (٤٢٠) صفحة».

صادقة: ولكنْ.. لماذا اختار الأستاذ السباعي هذا العنوان؟

أجاب الأستاذ أبو هيثم:

- اختار له هذا العنوان، اجتذاباً لأذهان الجيل الذي زُيّنت له الاشتراكية، حتى باتت في نظره هي الحلم السعيد، فكلُّ حديث عن عدالة الإسلام وتفوّقه على المحاولات البشرية، لا يجد أذناً مصغية إذا لم يحمل إشارة إلى ذلك الإطار السحريّ.

صادقة: أو السرطان السحريّ يا جدّي العزيز.

ضحكنا جميعاً لتعليق صادقة، بينما تابع الأستاذ الكبير يقول:

- إنّ قارئ كتاب (اشتراكية الإسلام) في رويّة وتجرّد، لا يجد أيَّ صلة بين مضمونه وأيٍّ من المذاهب الاشتراكية المعروفة في العالم، وليس له صلة بالاشتراكية خارج نطاق العنوان الذي كان ضرباً من المشاكلة اللفظيّة.. أما مضمون الكتاب فبحث علمي في الحياة الإنسانيّة، وما يحيط بها من مشكلات للفرد والمجتمع، وما أنزل الله من الحلول لكل معضلة

منها، على الوجـه الضامن للتوازن، المحقّق للمصلحـة والأمن، وعلى صورة من الدقّة لا تحلم ببعضها عقول المفكّرين في سائر العصور، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

صادقة: ولكنْ..

الأستاذ: دعيني أكمل كلامي يا ابنتي.. يا حبيبتي..

يعالج السباعي ـ رحمه الله ـ في كتابه هذا الأوضاع البشريّة على ضوء الشريعة الإسلاميّة بعقلية المجتهد الذي يحاول استنباط الحلّ من منابع الوحي، دون تعصُّب لمذهب بعينه، وينقّب في صفحات التاريخ عن المُثل التطبيقيّة التي برز هذا الحلّ من خلالها. وما أحسب ناقداً بقادر على أن يدلّ على حُكم واحد قال به المؤلف، لا يعتمد فيه على أصل من الكتاب أو السُّنّة، أو التطبيق السليم من عصور السيادة الشرعيّة.

نهض أبي، وغادر الغرفة، ثمّ عاد وفي يده كتاب الشيخ محمد الحامد رحمه الله رحمة واسعة: (نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام) وبعد أن جلس على كرسيّه قال:

ـ أتيتكم بكتاب العالم الربّاني الجليل الشيخ محمد الحامد، تغمده الله بالرحمة والرضوان، وأريد أن أقرأ لكم بعض ما كتبه في مقدمة كتابه هذا، عن السباعي وكتابه آنف الذِّكر. اسمعوا ما قاله الحامد عن السباعي:

«أصدر أخونا الفاضل العليم الدكتور مصطفى السباعي كتاباً سمّاه (اشتراكية الإسلام) نحا فيه نحواً علميّاً يعرض فيه على الناس ما في الإسلام من رحمة عامة، وتكافل اجتماعي، وإغاثة للضعفاء، وبرّ بالفقراء، ووقاية للبؤساء، من غوائل الجوع والحرمان، والجهل والمرض، يعرض هذا كلَّه في دعوة حارّة إلى التزام تعاليم الإسلام فيه، وقصر الأنظار عليها، دون أن تمتدّ ذات اليمين وذات الشمال، إلى نُظُم أخرى ظاهرة الفساد، واضحة البُطلان، وهي في أنفسها متباينة تبايناً فاحشاً، في بعضها إفراط، وفي الآخر التفريط، وإنَّ لنا في شرعنا الإسلامي كفاية وغنى، وإنه تنزيل الله العزيز

الرحيم بخلقه، وقد علم ما يصلحهم فشرعه لهم، وما يفسدهم فحظره عليهم، ولو أنهم عقلوا عنه سبحانه وتعالى ما خالفوا له أمراً.

«كتب الدكتور ما كتب، يقصد الخير، ويتحرَّى الصوّاب، فيمايرى، وقد طالعتُ كتابه، فإذا فيه الكثير الطيّب المعجب الذي يملأ القلب سروراً، والصّدر انشراحاً، بمبانيه البديعة، ومعانيه الرفيعة، وجودة الأداء، ووفرة الاطّلاع، وحُسْن الإقناع، وقد كانت تغمرني أمواج من الفرح حين أستغرق في مطالعة بعض بحوثه، حتى لو أنّه كان أمامي لقمتُ إليه، وقبّلت رأسه، إعجاباً بهذا العلم، وإكباراً لهذا العرض، والتذاذاً بهذا الينبوع الثرّ من البيان العذب».

صادقة: يا سلام! ما أروع هذا الثناء!.

الأب: ويقول الشيخ الحامد:

«ولكن.. أبى اللهُ العصمةَ لكتابٍ غير كتابه المجيد، والجواد قد يكبو، والسيف قد ينبو». ويقول الشيخ الحامد رحمه الله:

«هذا وإني آخذ على فضيلة الدكتور السباعي قبل كلّ شيء، تسمية كتابه باسم (اشتراكية الإسلام)». فما رأيك يا أستاذ؟.

الأستاذ: كلامي السابق عن الأستاذ السباعي وكتابه لا يعني أنّنا ندّعي له العصمة من الخطأ، بل نقول: إنّ كلّ خطأ صدر منه أثناء ذلك، لا يعدو حدود الاجتهاد، الذي يؤجر صاحبه على كلّ حال إن شاء الله. ولعلّ أكبر أخطائه تلك، يتمثل في العنوان الذي وجد فيه المضلّلون كلَّ مسوغات الاستغلال.

كان الأستاذ بسّام يقلب صفحات مجلة الحضارة، وعندما توقّف المتحدثون قال:

ـ اسمعوا ما كتبه الأستاذ المبارك حول كتابي الأستاذين الجليلين: السباعي والحامد، رحمهما الله تعالى:

«وكم رحّب ـ السباعي ـ أحسن الله إليه ـ بالنقد العلميّ البريء، وكم سمعتُه يُثْني الثّناء الجميل على صديقه العالم الجليل الشيخ محمد الحامد، بمناسبة ما كتبه حول موضوع (اشتراكية الإسلام) ويذكر علمه وفقهه، ويشيد بخلقه وورعه، بل إنه قال ـ رحمه الله ـ على أثر ذلك ـ كما سمعتُه منه بنفسي ـ : إنني سأكتب ما يزيل الالتباس الذي حصل عند بعضهم في موضوع اشتراكية الإسلام، وأوضح أنّ الاشتراكيات الحديثة التي نراها، ليست هي الاشتراكية التي وصفتُها، ولا هي من اشتراكية الإسلام في شيء. وكان ـ رحمه الله ـ على وشك كتابة هذا الموضوع حين فاجأه أجله».

حسني: الحقّ أنّ السباعي كان صديقاً للشيخ الحامد، وكانا متحابّين في الله عزّ وجّل، وقد سكنا معاً أيام الدراسة في الأزهر الشريف، وكان للسباعي مسامرات ومحاورات تفيض ذوقاً وعذوبة نفس مع صديقه الصّفيّ الشيخ الحامد. قال له السباعي مرة ـ كما حدّثني أحد تلاميذهما ـ على أثر نكتة ألقاها الحامد:

«يا شيخ محمد، لولا هذه النكات البديعة التي تلقيها، ما كنت تطاق». لما كان عند الشيخ الحامد من شدّة في الحقّ، أو فيما يراه حقّاً، ولكنه في ردّه على السباعي كان في غاية الأدب والرفق، مع قول ماراَه حقاً والدفاع عنه.

صادق: هل نعود إلى كتب السباعي الأخرى يا أبي؟

فتناول أبي مجلة الحضارة، وفتحها وهو يقول:

ـ نعود.. قال الأستاذ المبارك:

«وألَّف ـ السباعي ـ كذلك، وهو تحت وطأة الآلام، كتابه: (المرأة بين الفقه والقانون) وهو يزيد على (٣٣٠) صفحة في أواخر عام ١٩٦٢م وهو كتاب مليء بالأفكار، واسع الأفق، كثير المصادر».

وقال الأستاذ المبارك:

«لقد زوّد فقيدنا ـ السباعي رحمه الله ـ المكتبة الإسلاميّة بثروة

ضخمة، وإنتاج يتميّز من كثير مما يؤلَّف ويُكتَب، فهو عصارة تجريبية لعالم واسع الثقافة، وداعية عَرفَ المجتمع ومشكلاته، وهو نتيجة علم وخبرة وتجربة وتفكير عميق. .

«وقد فتح ـ رحمه الله ـ بهذه المؤلّفات آفاقاً واسعة جديدة، وشقَّ للجيل الإسلاميّ الصاعد طريقاً جديدة».

ونظر أبي في الأساتذة الحاضرين وقال:

ـ اسمحوا لي أن أقرأ عليكم ما ختم الأستاذ المبارك كلمته عن الدكتور السباعي:

«لقد كان الأستاذ السباعي أستاذ جيل، وقائد رعيل، وباعث نهضة، وكان خطيب جماهير، ومصلحاً كبيراً، وعالماً باحثاً، وكاتباً أديباً، ومؤلّفاً منتجاً، وقلّما تجتمع هذه الصفات في رجلٍ واحد، وقد جمعها الله فيه».

ثمّ قلّب أبي بعض الصفحات وهو يقول:

ـ وهذا الكلام يذكّرنا بما قاله فضيلة الشيخ مصطفى الزرقا في الشيخ السباعي رحمه الله. . اسمعوا ما قال:

«لا أريد هنا، بهذه الكلمة القصيرة، أن أشيد بشتّى مآثر فقيدنا العظيم النفس، بل فقيد العالم الإسلامي أجمع، تلك المآثر التي تستند إلى مواهب جمّة، أسبغها الله تعالى عليه، وجمعها فيه، حتى كان بها وحده في قوة جيش من العاملين من مختلف الكفايات والمزايا العلميّة والفكريّة والأدبيّة والنفسيّة والسياسيّة، قلماً، ولساناً، ونشاطاً، وعملاً، وإيماناً، وإخلاصاً لرسالة الإسلام العظمى الخالدة، ومعرفة بالزمن الذي نعيش فيه، وبخصائصه ومقتضياته في أساليب العمل، وبصيرة بالمقدّمات والنتائج، والبدايات والعواقب.

«لا أريد أن أشيد بكل هذه المواهب التي جمع الله فيه منها ما لو فرّقه على كثيرين، لكان لكلّ منهم نصيب يجعل منه شخصيّة لامعة ألمعيّة».

ثمَّ تحدّث الأستاذ الزرقا عن زهد السباعي في حُطام الدنيا، وعن جهوده المبرورة في إنشاء كلية الشريعة بجامعة دمشق، واستلامه عمادتها، مجازفاً بمنصبه في كلية الحقوق، وكيف أن السباعي تقدّم عندما أحجم الآخرون، واعترف الأستاذ الزرقا بشجاعة، أنه ـ أي الزرقا نفسه ـ كان أحد المحجمين، وقد وهب السباعي كلية الشريعة من روحه وحيويّته وعلمه وتوجيهه أثراً لا ينفد، يتوارثه من يتعاقبون عليها أساتذة وطلاباً، دون أن ينال شيئاً على ما يبذل، وهو في أشدّ الحاجة إلى زيادة المرتبة، وعندما قيل له في ذلك أجاب ـ رحمه الله ـ :

«أريد أن أضرب المثل بنفسي، حتّى لا يفكر بالمجيء إلى هذه الكلية إلا من يريد منفعتها، لا منفعة نفسه، وأن أجعل من تضحيتي هذه حاجزاً في وجه من يريدون أن يقفزوا إليها من أجل المراتب التي لا تتيسّر لهم في سواها، أو من يريدون أن يتسلّلوا إليها ليقال إنهم أساتذة جامعيون، وهم ليسوا بذاك».

همستْ صادقة، معلّقة على كلام السباعي:

ـ رحم الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عندما قال لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي دُهش لأمانة المجاهدين الذين جاؤوه بأسلاب كسرى: «عففتَ فعفُّوا، ولو رتعتَ لرتعوا».

الأب: وقال الأستاذ الزرقا في كلمته هذه:

«وهكذا تسلّم الأستاذ السباعي عمادة الكلية في المرحلة العصيبة، فسار بها مع اللجنة، يشقّ لها الطريق في خضمّ الأمواج والأعاصير، بمهارة الرُّبّان الخبير، والقائد الشجاع المخلص الذي يبتغي رضى الله قبل هواه، ويريد بناء منزلته عنده، قبل مرتبته في الجامعة.

«كما كان له في تأسيس مشروع موسوعة الفقه الإسلامي الذي تفرّع من كلية الشريعة أيام عمادته، وكان رئيس لجنة الموسوعة.. كان له فيه نشاطه وجهوده الكبرى التي لن تنسى على مرّ الزمن».

بسام: رحم الله السباعي القائل:

«نحن جيلٌ كُتب عليه أن يأكل من دماغه، ويعيش بأعصابه، ويلبس آلاماً لا يجد لها طبيباً».

الأب: رحمه الله، فقد كان يعني نفسه بهذا القول، فهو الذي كان يأكل من دماغه، ويقتات من أعصابه، ويتجرّع من كؤوس أوجاعه.

وقلّب أبي بعض أوراق مجلة الحضارة، ثم قال:

ـ اسمعوا ما يقوله عنه الأستاذ الكبير محمد عبد الرحمن خليفة:

«ورأيت نفسي واقفاً متهيّباً أمام سيرته ـ رحمه الله ـ الحافلة بوافر الإنتاج، وجليل الأعمال، كالواقف على شواطئ البحر الكبير، تهوله عظمته، وتروعه قوّته، وتبهره لآلئه وكريم أصدافه. ولقد كان السباعي ـ رحمه الله ـ كالبحر، عميقاً في فكرته، غنياً في مكنون جواهره، مهيباً في طلعته، جميلاً رائعاً في منظره، سمحاً كريماً لمن طلب رفده، أو مدّ يده، ليغترف من خيره.. فإذا طمع فيه طامع، ولجَّ في خصامه جهول، كان في موج كالجبال، ولجج كقطع الليل البهيم، يدع من ركب متنه تائهاً مغترّاً برقته، وسماحة طبعه، مكبوباً على وجهه، غائراً تحت قدميه».

صادقة: الله أكبر! ما أروع هذا الوصف، لهذا القائد الرائع.

صادق: هذا لأن الرجال يعرفون قيمة الرجال.

وقالت صادقة، وهي تمسح دمعة ترقرقت في عينها:

ـ ما سمعت اليوم عن جدّي العظيم مصطفى السباعي، يجعلني أرثي لحالنا اليوم. وإلا.. فأين القائد الذي فيه بعضُ بعضِ هذه الصفات؟

وقلت أنا:

ـ كانوا يصفون الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بأنهم مصاحف تمشي على الأرض، وكذلك كان حسن البنا والسباعي رحمهما الله، فهنيئاً لمن رآهما،

وجالسهما، وأخذ عنهما العلم والمعرفة وأساليب الدعوة والجهاد في سبيل الله.

وقال أبي، وهو ينظر إلى الأساتذة الكرام:

ـ اسمحوا لي أن نختم حديثنا عن الأستاذ السباعي، بالكلمة البديعة التي قدَّمها الدكتور يوسف العش ـ رحمه الله ـ عميد كلية الشريعة في جامعة دمشق، آنئذٍ ـ في رثاء السباعي، أول عميد لكلية الشريعة. قال الدكتور العشّ:

«كان ـ السباعي ـ رجلاً.. والرجل قويُّ العزم، يجابه الصّعاب، ولا يأبه للشدائد.

وكان إنساناً رحيماً.. والإنسان الرحيم رقيق القلب، لا يصمد أمام الدَّمع.

وكان خلوقاً.. والخلوق يعاف الشرَّ، ويكره الفساد، ويتجنّب السّوء.

وكان فكِهاً، يحبّ الدُّعابة، ويضحك من المزاح، ويكثر من قصص النوادر.

وكان حاضر البديهة، فلا يغلبه التخلّص من مفاجآت القول.

وكان ذا صوت محبَّب للنفوس، والصوتُ المثير للعواطف إذا تكلّم صاحبُه، تمنّى السامعُ ألاّ يسكت.

وكان ذا وجه مشرق منير، تعلوه الابتسامة، ولا يغادره البشر، إلا أنفة أو غضباً.

وكان دؤوباً على العمل، حتّى لكأنه خُلق للعمل وحده.

كان إنساناً في عقله وروحه وخلقه وعمله.

وكان مع الإنسان الإيمان.

بل كان الإيمان هو الأصل الأصيل عنده .

بلغ الإيمان عنده حدّاً كبيراً يدهش المتأمّل .

إنه إيمان يصعد من الأعماق ، ويحتلُّ كلَّ جارحة في الجسم ، وينتهي إلى العقل ، فيتخلّل كلَّ خليّة منه .

السباعي يستمد من الإيمان قوتّه وعزمه، صبره وجلده، علمه وفهمه ، حياته ومعيشته .

إذا حدَّثتَه عن الله وجدتَه مسروراً . . ووجدته مضطرباً . . ووجدته خاشعاً، ثم ألفيته يتدفّق في الكلام عن خالق الكون ، وكأنه يراه .

ولقد زرتُه مرّة في مستشفى المواساة، فأردتُ أن أواسيه ، فالتفتَ إليّ بوجه مصفرّ من ليلة قضاها في الآلام المضنية وقال :

«أشكرك على حسن مواساتك ، لكنّك لو تعلم كم أنا راضٍ بحالي لما أشفقتَ عليّ شفقتك التي تبدو عليك . إني بخير نعمة من الله» .

«قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة هادئة سكينة ، فبدت الدهشة على وجهي ، فقال» :

«قد تجد قولي غريباً . لكنّي أقول الحقّ ، وسأفسّر ذلك . .

إني مريض أتألم، ليس في ذلك ريب، وإنك لتشاهد الألم على وجهي وعلى يدي ، وفي حركتي . لكن انظر إلى حكمة الله فيّ :

إنّ الله قدير على أن يشلّ حركتي ، وقد شلّ بعض حركتي ، فانظر ماذا شلّ؟

لقد شلَّ طرفي الأيسر ، وأبقى لي الطرف الأيمن ، فما أعظم النعمة التي أبقاها لي ! .

أكنتُ أستطيع أن أخطَّ بالقلم ، لو شلَّ اليمين منّي ؟ .

إنَّ الله قدير على أن يأخذ بصري ، وأنا أحتاج إلى بصري أكثر من أيّ

شيء آخر، لكنّه أبقاه لي، فهل أكثر من هذا لطفاً؟.

إنّ الله قدير على أن يخمد قريحتي، ولكنّه أبقى لي قدرة الفكر والعقل، فما ألطفه بي!.

إنّ الله قدير على أن يشلَّ لساني، فيمنعني عن الكلام، لكنّه أكرمني ببقاء قدرتي على الكلام، أفليس ذلك منّة منه وعفواً؟.

لقد قضى الله عليّ بأن تُشَلَّ حركتي في السياسة، فشلَّها، لكنّه أبدلني بها نعمة خيراً منها.. إنه فتح لي سبيل العلم والعمل للعلم.. أكنتَ تراني كتبتُ وألفتُ ما كتبت، لو أن صحتي بقيت على ما كانت عليه قويّة شديدة؟

فما أعظم لطف الله وكرمه ومنّته ونعمته!.

أفيحق لي بعد ذلك أن أشكو وأن أتذمر؟.

أو لا يجب عليّ أن أشكر الله على نعمائه؟».

كان الخشوع يثير الدموع في عيوننا جميعاً، وقد تهدّج صوت أبي وهو يقرأ ما كتبه الدكتور العش، ثمّ علا نشيجه، وبعد أن هدأ البكاء، تناول الأستاذ بسام مجلة الحضارة، وتابع يقرأ مما كتبه الدكتور العش:

«كانت في نفس السباعي جذوة متّقدة وُلدت معه يوم ولد، وذهبتْ معه يوم ذهب.. جذوة عجيبة كانت تحت إمرته كلَّ حين.. كان يبدو رجلاً عادياً في الساعات التي تكون فيها الجذوة راكنة هادئة، تشعّ على نفسه كالمصباح الذي هدأت شعلته، فما إن يشعر السباعي أنه بحاجة إلى إيقاد تلك الجذوة، حتى يفتح مفتاحها، وإذا هي تعلو ويسري لهبها في كلّ جارحة من جوارحه، فيتغير الرجل، ويبدو على غير ما تعرفه، فإذا هو لهبٌ مشتعل مضطرم.. وبهذه الشعلة المضطرمة يقف أمام الخصم، ويقارع الزمان، ويصبر على الشدائد».

ثمّ طوى الأستاذ بسام مجلة الحضارة وهو يقول:

ـ اسمع يا ولدي يا صادق، واسمعي يا بنتي يا صادقة..

خلاصة القول: هي أن أستاذنا السباعي ـ كما قلت وأقول ـ كان داعية موهوباً، ومرشداً مربيّاً، وقائداً مجاهداً، وعالماً فقيهاً، وأديباً شاعراً، وخطيباً ثائراً، ومفكّراً حكيماً، وسياسيّاً صادقاً، ومؤمناً ربّانيّاً، حياتُه سِفْر عظيم يزخر بالمفاخر والمآثر والبطولات والتضحيات وجلائل الأعمال التي كان لها آثارها في سورية الحبيبة، وفي الوطن العربي، والعالم الإسلامي.

الأب: بل وعالم الاستشراق، وعالم الثقافة، والمجتمعات الجامعية، ولو تذكّرنا رحلاته إلى أوروبا الغربية، وإلى أوروبا الشرقية، واطّلعنا على محاوراته لكبار المستشرقين ورجال الدين المسيحي، ومقارعته المتحيّفين منهم على الإسلام، المفتئتين على رسول الإسلام ﷺ وأحاديثه الشريفة، وإفحامه إياهم بالحجة العلمية، والمنطق والتاريخ.. أقول: لو عرفنا هذا، لعرفنا أثر الرجل الذي كان يترك بصماته على فكر الشخصيّة التي يحاورها في شموخ المسلم، وكرامة العالم، وجرأة الذي لم يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً في يوم من الأيام.

صادقة: ذكر عمي الأستاذ بسام أنّ السباعي كان أديباً شاعراً، فماذا عن شعره؟.

فاتجهت الأنظار إلى الأستاذ الكبير أبي هيثم، فهو الشاعر المبدع، والكاتب القدير.. اعتدل الأستاذ أبو هيثم في جلسته، ثم قال:

ـ معك حقّ يا صادقة.. ما كان لنا أن نغفل الحديث عن شعر السباعي، فله في هذا الفنّ جولات موفّقات، وبخاصة في الجانبين: الديني والسياسي.

الأب: والذاتي.

الأستاذ: وأذكر أنه أسمعني، بعد الإفراج عنه من سجن الشيشكلي، قصيدة طويلة فيها من التوفيق الشيء الكثير، ولكننا لا نعرف الآن من شعره إلا القليل الذي نشره في مجلة الحضارة، وفي كتابه البديع: (هكذا علّمتني الحياة).

والعارفون لأخلاق السباعي، المتتبّعون لمسارح جهاده، وصلابة عزيمته في الحقّ، وما لقيه من العنت والآلام، ومن إساءات الذين كان من أحقّ الناس ببرهم، يدركون أنه كان ينطلق في شعره من تجاربه الذاتية، ومميزاته الخلقيّة، وبخاصة الذي أرسله مع أنفاسه الأخيرة، كقوله في قصيدة يصف فيها أصناف الناس، ومسلكه بينهم:

دعيني وشأني، ليس عذري بشافع ... لديكِ ولا حالي يعنُّ ببالكِ
وهل يلتقي طيران: هذا محلّقٌ ... تروم جناحاه سماءَ ملائكِ
وذاك مُسِفٌّ حائمٌ فوق جيفة ... على الأرض تدنيه لوطء سنابكِ
وكم بين من يمشي بصيراً بدربه ... تضيء له الأقدار وعْرَ مسالكِ
وبين عمٍ لا يهتدي لطريقه ... يحاط بحجب مظلمات حوالكِ
وشتان ما بين الخليّ من الهوى ... وبين محبٍّ، مُدْنَفِ الجسم ناهكِ
وأنّى يداني عاقلاً ذا حصافة ... جهولٌ سفيهٌ هالكٌ وابن هالكِ؟

ويقول - رحمه الله - في قصيدته الطويلة هذه:

دعيني، ففي دنياي همٌّ ومحنةٌ ... وقطعُ طريق في المفاوز شائكِ
وحلٌّ وترحالٌ، وحربٌ وهدنةٌ ... وتعليمُ أستاذ، وعزلةُ ناسكِ
ودنياكِ، ما دنياكِ؟ وهْمٌ وخدعةٌ ... وسعيٌ حثيث نحو شتّى المهالكِ
وفي يُسْرها ضنكٌ، وفي عزّها ضنى ... تثير لأدنى الشيء أقسى المعاركِ
لئن كنتِ عن دنياكِ ترضين إنّني ... سعيدٌ بدنيا الخير لستُ بفاركِ
فإن تسخري منّي، فلستُ بساخرٍ ... وإن تضحكي مني، فلستُ بضاحكِ

إلى أن يقول:

همُ الناسُ بين اثنين: صِيْدٍ تشوقهم ... معاركُ في ساح الهدى، وصعالكِ
دعيني أعيش العمر في غربة الهوى ... ففي الحقّ محرابي، وفيه مناسكي
وفي النُّصح لذّاتي وفي الخير ثروتي ... وفي العلم محراثي، وفيه سبائكي

الأب: وأيّ سبائك.. وأيّ سبائك يا سيدي العالم العظيم.

وانتبهنا إلى صوت نشيج مكبوت مخنوق، وإذا دموع صادقة تغسل خدّيها، فقد كانت ـ مثلنا ـ في قمّة التأثر بهذه الأبيات الرائعة التي علّق عليها أبي بقوله:

هذه القصيدة نفثات مصدور، يعاني من لأواء الحياة ما الله وحده به عليم..

إنه يعاني من أقرب الناس إليه.. ممّن كان أحقّ الناس ببرّهم، كما تفضّل الأستاذ أبو هيثم، ولذلك فاضت قريحته بهذه القصيدة الحزينة.. المغرقة في الحزن، يحاول فيها التخفيف من آلام نفسه التي برَّحتْ بها المواجع.

وقالت صادقة، ودموعها ملء مآقيها:

يا ليتني كنت جارية عندك يا جدّي العظيم، لأتشرّف بخدمتك، وأتقرّب إلى الله بالتخفيف عنك.

الأستاذ: وفي قصيدته الحائية يقول السباعي:

يا سهام الأقدار..

انظروا إلى أمنيات السباعي في مرضه..

يا سهام الأقدار خلّي ثلاثاً ... هي عندي وجهُ الحياة الصحيحُ
اتركي لي عقلي أفكّر فيه ... وعيوني أرنو بها وأروح
ويدي تملأ الصحائف علماً ... وبلاغاً، وبالشجون تبوح

حسني: يا سلام! ما أغلاها من أمنيات.

الأستاذ: وقد استجاب الله رجاءه، فلم يحجب نوره عن بصره ولا عن بصيرته، وأمدّه بالعون، فلم يشلَّ قلمه عن الإنتاج الرشيد المفيد حتى لقي ربَّه الرؤوف الرحيم.

الأب: وفي هذه القصيدة الرائعة يقول:

حسبـــي الله لا أريـــد ســـواه هــو أنســي، وفــي حمــاه أريـحُ
ربِّ لـولاك مـا استطعـتُ ثبـاتـاً في مسيري، ولا سمتْ بيَ روحُ

وروى أبي عن جدّي أنه سمع الأستاذ السباعي ينشد قصيدته الميميّة الرائعة أمام الحجرة النبوية في حجّ عام ١٣٨٤ هـ أذكر منها الأبيات التالية:

يا سائق الظّعن نحو البيت والحرم ونحــو طيبــةَ تبغــي سيِّــد الأمــمِ
إن كـان سعيُـك للمختـار نـافلـةً فسعيُ مثليَ فرضٌ عند ذي الهِممِ
ياسيدي يا حبيب الله جئتُ إلى أعتاب بابك أشكو البَرْح من سقمي
ياسيِّدي قدتمادى السُّقم في جسدي من شدّة السُّقم لم أغفل ولم أنمِ
الأهلُ حوليَ غرقى في رقادهمو أنـا الـوحيـد جفـاه النـومُ مـن ألـمِ
قد عشتُ دهراً مديداً كلُّه عملٌ واليوم لا شيء غيرَ القول والقلمِ
يا سيّدي طال شوقي للجهاد فهل تدعو ليَ الله عوداً عالي العلم؟
تـالله مـا لهفتـي للبُـرء عـن رَغَـبٍ في ذي الحياة، ولا جاهٍ ولا نِعَمِ
وإنمـا طمـعٌ فـي أن يقـال غـداً: لقد هَديتم إلى الإسلام كلَّ عمِ
هيهـات أن تنطـوي للـديـن رايتـه أو يهـزم الكفـرُ دينـاً غيـرَ منهـزمِ
ياربِّ عونَكَ للمرضى ومن نُكبوا يا ربّ أنت ملاذ البائس العدِمِ

حسني: الله الله.. إنه متفائل بانتصار الإسلام، وهو في قمّة الآلام.

الأب: ولاينسى السباعي إخوانه الذين ربّاهم على عينيه، فيدعو لهم:

واحفظ جنودك من سوءٍ يراد بهم لم ينحنـوا لفئـام الغـيِّ من شـمم
تعقَّبـوا الشـرَّ أنَّـى سـار متّجهـاً فـأحبطـوا كيـده دهـراً ولـم يقـم

الأستاذ: آمين يا ربَّ العالمين.. احفظ جنودك الأبرار الأحرار.

الأب:

فـأكـرمُ النـاس مـن كـانـت منيّتـه في حومة الحقّ جَلْداً غير منهزم

وأهونُ الناس من جاءت منيّتُه … خِلْواً من الهمّ أو خِلْواً من الهِمَمِ

واسمعوا صبر أيوب . . شكوى السباعي :

أشكو إلى الله شكوى غير ذي جزع … في شدّة الضُّرِّ وجهي وجهُ مبتسم
يا ربِّ إن طلبتْ نفسي الشفاء، تُرى … أيحمل الخيرُ صفواً غير منصرمِ؟
أم فيه شرٌ يفوق السُّقم من ضررٍ … حتى ترى النفسُ أنّ الخير في السَّقم
ما في قضائك ظلمٌ للعباد ولا … فيه الإساءة، بل محضٌ من الحِكم

الأستاذ : تسليم كامل لقضاء الله وقدره، ورضى تامٌّ ويقينٌ بعدل الله سبحانه .

حسني : نعمْ تسليم مطلق بعدالة الله في قضائه وقدره .

الأب :

وإنما العبد ما ينفكُّ ذا هلع … ولا يطيق دوامَ الضُّرِّ والألم
فاحزمْ متاعك، قد تلقاك ذا سفرٍ … عند الفجاءة، واعبده على قدم
إنّ الشقيين من تلقاهمو غفلاً … عن الحساب بلا خوفٍ ولا ندم

وأخيراً يقول، مسلِّماً بحكمة المقادير التي تغيب عن الناس :

هي المقادير، ما شكٌّ بحكمتها … عندي، ولا أنا منها قطُّ في بَرَمِ

صادقة : الله أكبر . . ما أعمق إيمان السباعي ! .

صادق : متى توفيّ الأستاذ السباعي يا أبي ؟ .

الأب : يوم السبت، في الثالث من شهر تشرين الأول سنة ١٩٦٤ م .

والتفت أبي إلى الأستاذ الكبير، وطلب منه أن يصف لنا وقع نبأ الوفاة عليه، ويصف لنا الجنازة الضخمة التي ضمّت الحشود الهائلة من أبناء دمشق خاصّة، وأبناء المدن السوريّة الأخرى، وأبناء البلاد العربيّة الذين هالهم انطفاء الشعلة المتوقّدة، فسارعوا إلى دمشق لوداع القائد الذي لا يُشقُّ له غبار .

تحرّك الأستاذ الكبير في مقعده، وفرّت الدموع من عينيه، ثم قال:

ـ يا لها من لحظة، تلك التي تلقيت فيها النبأ الهائل! . . إذ دخلتْ عليّ ابنتي، وأنا غارق في قراءة أخبار الصّحابة من فاتحي العراق، وهي واجفة راجفة، تقول في نبرات خائفة:

«هاتف من دمشق يقول: السباعي مات».

غرقت لحية الرجل الكبير بدموعه، وهالني بكاء الرجل، فعلا نشيجي، وبكى كل من كان في المجلس، وخاصة صادقة، كأنَّ النبأ الفاجع جاء الآن ينعى السباعي العظيم . .

وبعد لحظات، استأنف الأستاذ الكبير حديثه:

ولم أعِ ما أفعل، إلا أن أدور في مكتبي على غير هدى، وأنا أبكي وأجأر:

«اللهمّ رحمتك . .».

وسكت الأستاذ الكبير لحظة، مسح فيها بقايا دمعه، ثمّ تابع يقول:

ـ قالوا: كلُّ شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر، إلا المصيبة، فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر. والواقع، أنّ هذا هو الواقع في كلّ شيء، وفي كلّ مصيبة، إلا مصيبة برجل في زمن قلّ فيه الرجال، واشتدّت إليهم حاجة الرجال! . وهذه الأيام والسنون تتابع على النبأ الفاجع، فما يعتور أثره فتور، ولو زعمنا ذلك، لكذّبتنا الدموع التي لا نستطيع نَهْنَهَتَها كلّما خطر في الجنان أبو حسان، أو ذكرَ آثارَه وأعماله لسان.

سافرت إلى دمشق، ووصلت إليها ظهر اليوم التالي للوفاة، ولم أعرف مكان الجثمان إلا من انقطاع حركة المواصلات في شارع مدحة باشا. . وسرعان ما ابتلعني موكب الجنازة العزيزة، كقطرة الماء لامست السَّيْل الهادر الذي ما لبث أن ملأ سوق الحميدية حتى قلب الجامع الأموي! . . وأبتْ دمشقُ الوفيّة المؤمنة أن تحمل السيّارةُ جسد البطل الذي

طالما هزّ منابرها، وأثار عزائمها، وحفز شبابها لاستعادة مكانتها في خدمة الإسلام، وتحرير أرض الإسلام، فإذا هي تتداول نعشه على الراح حتى المقبرة التي ضمّت من قبله أجساد الأباة من صحابة محمد ﷺ وتابعيهم وتابعي تابعيهم من أعلام الهدى.

وتهدّج صوت الأستاذ الكبير، ثم توقّف عن الكلام، وكانت لحظات مهيبة، ران فيها السكون إلا من أزيز البكاء والأنين، ثم تابع الأستاذ الكبير كلامه:

ـ وفي غمرة الأنين والنشيج، وانطلاقات الأصوات المؤمنة بشعارات السماء، التي وقف السباعي حياته الغالية على تركيزها وتحقيقها، والتي بذل في نصرتها آخر أنفاسه.. وجدتُني أتساءل وأتذكر:

أتساءل عن السرّ الذي يحفز هذه السيولَ من الجموع على تحمّل الحرّ والزّحام طوال ساعات، لا تفارق الموكب الحزين، حتى تودع الثرى جثمان الرجل الذي زحفت لتشييعه من أنحاء القطر السوري، ومن كلّ بلد مجاور اتسع وقته وظروفه للمشاركة في هذا التشييع!.

الحقّ هو أنّ هذه الآلاف المؤلّفة إنما زحفتْ وتعبتْ وصبرت تمجيداً للفكرة التي دفع السباعي حياته كلّها ثمناً لها، وأذاب قلبه الكبير وقوداً لاستبقاء وَهَجها، في إخلاص لله لم يَشُبْهُ مطمعٌ دنيوي، وجهاد للحقّ لم يستهدف سوى تحرير الوطن الإسلامي من سلطان الطغيان أيّاً كان مصدره، وتحريراً للفكر العربي الإسلامي من كلّ استعباد، مهمايكن أثره ومؤثره.

وغلبتني الذكرى.. وألفيتُ القلب المنكوب يتفتح عن مشاهد لاتنسى من حياة السباعي الحبيب.

وخنقت العبرات صوت الأستاذ الكبير، فتطلعت العيون إلى الأستاذ بسام تطلب إليه أن يحدّثها عن الوداع الأخير لذلك الرجل العظيم، فاستجاب لطلبها، وقال:

ـ الحقيقة.. أنّ النبأ المفجع بوفاة الدكتور السباعي قد روّع دمشق،

فوجم كلُّ الذين سمعوه حيارى لا يكادون يصدّقون . . ورُوِّعتْ سورية، كما رُوِّع العالمان العربي والإسلامي لهذا الخبر الصاعق . . واهتزّ أثير البرق والهاتف يحمل النبأ الأليم . .

وقد نعى الفقيد الكبيرَ إلى الشعب والعالم الإسلامي، كلٌّ من رابطة العلماء، وجامعة دمشق، وأعضاء الهيئة التدريسية في كليتي الحقوق والشريعة، والهيئات الإسلامية، والشباب المسلم، وآل الفقيد، كما نعتْه الإذاعات العربية والعالمية، مع ذكر نبذة عن حياته وجهاده .

وسُجِّي الجثمان الطاهر بانتظار تشييعه في اليوم التالي، وظهرت الصحف في العالمين : العربي والإسلامي تحمل إلى قرائها الخبر الفاجع . .

وما إن أطلّت شمس اليوم التالي، حتى بدأت الجماهير والوفود التي جاءت من مختلف المحافظات والبلاد المجاورة، تتوافد إلى بيت السباعي، لتلقي النظرة الأخيرة على القائد الراحل، وتودعه الوداع الأخير، ولتشارك في تشييعه إلى مثواه الأخير .

وما إن أزفت الساعة الحادية عشرة من اليوم نفسه، حتى غصّت الشوارع والساحات المحدقة بمنزل الفقيد، بألوف الحاضرين .

وقبل أن يبدأ موكب الجنازة سيره، حيّا الجثمانَ الطاهرَ علماءُ الأمة، وإخوان الفقيد وأصدقاؤه، وألقوا على وجهه المكفَّن بالجلال، نظرة الوداع .

ثمّ بدأ الموكب سيره، تتقدّمه السيارات التي تحمل أكاليل الورود والأزهار بأسماء ممثلي الدول العربيّة والإسلاميّة في دمشق، وبأسماء الجمعيات والهيئات الإسلامية . .

وسار في المقدّمة سفراء الدول العربية والإسلامية، والعلماء، وأساتذة الجامعات، وممثلو الهيئات، وأهل الفكر، والمثقفون، والشباب المؤمن الحزين الذي فقد قائده ورائده . .

وقد ارتفع النعش على أذرع الشباب الذين أثارتهم الفاجعة، فخرجوا

باندفاع على الترتيب المهيّأ لسير الجنازة، وساروا بها في شوارع دمشق الكبرى، بعد أن كان مقرراً أن يكون التشييع بالسيارات إلى مدخل سوق الحميدية، ثم يُحمل من هناك إلى مسجد بني أميّة الكبير، للصلاة عليه . .

وأثناء سير الموكب في شوارع دمشق، فاضت عبرات الجماهير ومشاعرها، وارتفعت أصواتها بالتهليل والتكبير وكلمات الوداع، فكنت تسمع :

«في ذمة الله يا سباعي .

إلى رحاب الله يا سباعي .

لا إلـه إلا الله، والسباعي حبيب الله .

على طريقك يا سباعي موكباً بعد موكب .

نحن على العهد يا رائد الجيل .

اللهمّ إنّا نشهد، وهذه الجموع تشهد، أنّ السباعي أدّى الأمانة، وبلّغ الرسالة، وسار على طريق رسول الله ﷺ، فدعا الأمّة إلى ربّها، اللهمّ ارضَ عنه فإنّا عنه قد رضينا» .

فهتفتُ وصادقة : الله أكبر ولله الحمد .

وسكت كلُّ من في المجلس، وتكلّمت الدموع في خشوع، ثم استأنف الأستاذ بسام كلامه فقال :

ـ وهكذا توالت الصرخات الباكية المؤثرة التي ترتفع بمعاني الإجلال والوفاء والفجيعة، بينما كان الناس في الشوارع، يبدون كأنّ كلاًّ منهم قد ألمّتْ به المصيبة، حتى الذين وقفوا يتابعون الموكب على جنبات الشوارع، كانت عيونهم دامعة، ووجوههم حزينة واجمة . .

وعند وصول الموكب إلى سوق الحميدية، بادر التجّار إلى إقفال متاجرهم، والمشاركة في المسيرة الحافلة، حتى إذا ما وصلت الجنازة إلى مدخل المسجد الأمويّ، انضمت إليها الجماهير التي كانت تنتظر عند

مدخل المسجد، وفي ساحته الكبرى.

وهنا بلغ الانفعال غايته، وغدا الموقف مؤثراً جداً، وفي هذا الجوّ أقيمت للجنازة صلاة لم تشهدها دمشق منذ زمن طويل، فقد غصَّ المسجد الأمويّ على اتساعه، بألوف المصلّين..

وبعد الصلاة على الفقيد، ارتفع نعش الراحل الحبيب على أكفّ الشباب، الذين أحاطوا به من كلّ جانب، ووسط دويّ الصرخات الباكية، وهتافات الدعوة، وصيحات التكبير والتهليل، خرج النعش المحمول على الأكفّ من باب المسجد الأمويّ الكبير، مخترقاً سوق الحميدية، في تظاهرة مهيبة، ومنه إلى سوق الدرويشية، فباب الجابية..

وعندما تجاوز النعش باب الجابية، كان المشيّعون ما يزالون يتدافعون من المسجد الأمويّ.

الجميع: الله أكبر!.

بسام: ولمّا وصل الموكب إلى مقبرة (باب الصغير) التي يرقد فيها صفوة أهل التقوى والإيمان من العلماء والأولياء، وظهرت تلك الحفرة التي ستضمُّ الجسد الطاهر، بلغ الانفعال ذروته، وانسكبت الدموع من العيون المفجوعة، تروّي التراب الذي سيضمّ الراحل الحبيب، وتعالت الأصوات تسأل الله للفقيد أعلى المراتب في جنات الخلد، وأن يجعله حيث كان يتمنّى، مع سيّد المرسلين محمد ﷺ، ومع إخوانه من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.. كما تسأل الله الثبات على العهد، وأن يعوّض الأمّة عنه خير عوض..

الأستاذ: اللهمّ يا مقلّب القلوب، ثبّتْ قلوبنا على دينك.

الجميع: آمين.

بسام: وردّدت أصوات الآلاف من الشباب قَسَمَ العهد بالثبات والوفاء للدعوة التي حمل السباعي القائد لواءها..

فهتفتُ : الله أكبر ولله الحمد .

وردّد الحاضرون : الله أكبر ولله الحمد .

صادق : الله غايتنا .

الجميع : الله غايتنا .

صادق : والرسول قدوتنا .

الجميع : والرسول قدوتنا .

صادق : والقرآن دستورنا .

الجميع : والقرآن دستورنا .

صادق : والجهاد سبيلنا .

الجميع : والجهاد سبيلنا .

صادق : والموت في سبيل الله أسمى أمانينا .

الجميع : والموت في سبيل الله أسمى أمانينا .

بسام : ولم تهدأ الهتافات إلا عندما ارتفع صوت أحد الإخوان من وراء مكبّر الصوت ، يقدّم الخطباء الذين توالوا على المذياع ، يؤبّنون الفقيد الحبيب بكلمات مؤثّرة ، يعدّدون فيها بعض مزاياه وشمائله .

سألتْ صادقة ، وهي تشرق بدمعها :

كم ساعة استغرق تشييع الجنازة؟

بسام : أربع ساعات ، كانت من أشدّ ساعات العمر وطأةً بأحزانها وآلامها وشدّتها على الشباب المؤمن الذي ربّاه القائد السباعي .

الأستاذ : ولكن . . إذا غاب السباعي بجسده عن دنيانا ، فهو في قلوب الشباب المؤمن حيٌّ ما دامت الحياة ـ إن شاء الله ـ .

الأب : وذكراه ستبقى خالدة خلود الزمان ، تتجدّد بتجدّد الدعاة جيلاً بعد جيل ، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

حسني: إن شاء الله. . إن شاء الله.

وقال أبي:

ـ قبل أن يسمعنا أستاذنا الجليل أبو هيثم رثاءه لأستاذنا السباعي، أريد أن أسمعكم بعض ما قاله الأستاذ الجليل عصام العطار بأخيه وأستاذه السباعي:

«توفي الأخ الحبيب الجليل العالم المجاهد الداعية الكاتب الخطيب المِصْقَع، أستاذنا الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله تعالى ـ وهو مكبٌّ على إعداد كتابه: (السُّنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) لطبعة جديدة، فمات مجاهداً في ميدان العلم والفكر، مرابطاً على ثغر من أخطر ثغور الإسلام، يدفع عنه عوادي المبشّرين والمستشرقين، والمشكّكين والملحدين، ويكشف عظمته وعظمة أخلاقه وتشريعه وتراثه للعيون والعقول والقلوب، ويذود عن كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ وسيرته، بالإيمان والإخلاص والعلم والمنطق، والحجة البليغة، والعاطفة المتّقدة، والحماسة الملتهبة. . فقد كان أستاذنا السباعي كاتباً، ومؤلفاً، ومحاضراً، ومتحدثاً، وخطيباً رائعاً نادر المثال. . وقد ضمّ قبره نفساً أسمى من النجّم، وعزماً أمضى من السيف، وتاريخاً واسعاً كالبحر، هادراً كالموج، خاشعاً كالصلاة، حافلاً بالعلم والفكر والعمل والجهاد والتضحيات، والصبر الجميل على كلّ ما نزل به من البلاء. . ».

وتفرّس أبي في وجوه الحاضرين، ليقرأ أثر هذه الكلمات الوضيئة في وجوههم، فطالع فيها إعجاباً ببلاغة الأستاذ عصام، وإعجاباً بوفائه لأستاذه الجليل، وحبّه إياه، وإكباره لمواهبه الفذّة الأصيلة.

ثمّ التفت أبي نحو الأستاذ الكبير أبي هيثم وهو يقول:

ـ وختامه مسك وعبير من شعر أستاذنا وشاعرنا المبدع أبي هيثم.

عدّل الأستاذ الكبير جلسته، وأغمض عينيه في سبحة عاطفية، ثم أنشد:

أبلغُ القول في الرثاء الدموعُ فدعوها تَذُبْ عليه الضلوعُ
ليس كلُّ امرئ يموت أبا حسّان حتى يُلام فيه الجَزوع
رايةٌ من بنود ربّك لولا الجهلُ لم تتخذ سواها الجموع
وحسامٌ قد سلَّه اللهُ فالكفرُ هزيمٌ من هوله وصريع
طُويا فجأة، فمادتْ ديار بجنود الهدى، وجُنَّتْ ربوع
وسألنا، ولم نصدّق.. أحقٌّ؟! فإذا كلُ مَنْ هناك صديع
ولقد طالما ضرعنا إلى الله لدى الحِجْر، والقلوبُ خشوع
ننشد البُرْء للجريح المفدّى بعدما أيأس الأساة فريعوا
واستجيب النداء، فانحسم الداء، وزالت مواجعٌ وصدوع
وأراد الإلٰهُ للفارس المرموق غير الذي أراد الجميع
قد سألنا له الشفاءَ سريعاً فأتى دونه الحِمام السّريع
والمقادير في يد الله غيبٌ ضاع في تيهه الحكيم الضّليع

كان الأستاذ أبو هيثم يلقي قصيدته في تأثر واضح، وكانت الأبيات مؤثرة في الحاضرين، فكانوا يبدون استحسانهم لها، ويستعيدون الشاعر الكبير بعض أبياتها، ثمّ هبَّ الأستاذ أبو هيثم واقفاً كأنه لم يطوِ عقده الثامن، فهبّ الحاضرون وقوفاً ثمّ ودّعونا وانصرفوا، وعدتُ إلى غرفتي، لعلي أنام لأستيقظ مبكراً، وأذهب إلى صلاة العيد، ولكنْ.. ما كلُّ ما يتمنّى المرء يدركه، فقد جفاني النوم، فقمت إلى المسجّل الذي سجّلت فيه أحاديث السهرة العامرة، وأدرت المفتاح، واستلقيت على سريري، أستمع من جديد إلى أحاديث سهرتنا العامرة.

وفيما كنت مستغرقاً في السماع، وأنا مغمض العينين، سمعت من يهمس باسمي. فتحت عينيّ، وإذا أنا أمام رجل عملاق، جميل الوجه، جميل الشكل، آسر البسمات، عذب النظرات.. نهضتُ إليه مرحّباً به، وقبل أن أنادي أختي، قال لي، وقد ظهرت صادقة التي كانت مختبئة خلفه:

ـ لا تصرخ.. هذه هي صادقة، وهي التي قادتني إليك.

وقالت صادقة في سعادة ومرح، وهي تشير إلى الرجل العملاق:

ـ هل عرفتَ جدّنا المجاهد العظيم الدكتور مصطفى السباعي؟

فأكببت عليه، أقبّل يديه، وأتطاول على رؤوس أصابعي لأصل إلى وجنتيه، والرجل العملاق ينظر إليّ نظرات حانية، ويمسح على رأسي بكفٍّ كالمخمل أو الحرير.

وقدّمتْ صادقةُ كرسيّاً مريحاً للرجل العملاق، حتى إذا استقرّ عليه قلت له:

ـ كنت ـ ياسيدي ـ حديث السهرة هذه الليلة.. تحدَّثْنا، أو بالأحرى، تحدّث أبي وأعمامي الأساتذة عن بعض مناقبك.. عن أخلاقك السَّمْحة.. عن جهادك المبرور.. عن علمك الغزير، عن السباعي الخطيب العظيم.. عن أخطب العرب.. عن السياسي المحنّك.. عن الداعية الحصيف الحكيم الذي يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة.. عن الداعية الذي عرف زمانه، واستقامت طريقته..

مدَّ الرجل العملاق ذراعه المديدة، ووضع ظهر كفّه على فمي وهو يقول:

ـ على رسلك يا ولدي، فقد فاجأتني بهذه الكلمات، وبتلك الصفات التي أضفيتَها على شخصي الضعيف.. أم أنك نسيتَ أنني حمصيّ؟.

وضحك العملاق ضحكة أحلى من العسل بشهده، ثم سحب يده من فوق فمي وقال:

ـ أنا هنا لأجيبك وأختك صادقة عمّا يشغل أذهانكم! وعقولكم وقلوبكم.. فاسألوني ما شئتم، وسوف أجيبكم بما أعرف، في صراحة الحماصنة، فلا تؤاخذوني إذا أنكرتم شيئاً من كلامي، وسامحوا جدّكم إذا أخطأ، فكل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون.

قالت صادقة في سعادة غامرة:

ـ هذا التواضع الجمّ، دليل على عظمة صاحبه، فهو خلقٌ قرآنيّ عظيم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقلت أنا:

ـ ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقد سمعنا الكثير عن مواقف الرجولة التي وقفتَها ياسيّدي، في مواجهة الكفرة والملحدين وأعداء الدين،

كان وجهه يشعّ إيماناً، وكان إكليلٌ من البسمات الوقورات يتوّج شفتيه القرمزيتين، وكان محيّاه يطفح بالنور، عندما قالت صادقة:

ـ لدينا أسئلة كثيرة ومتشعّبة، حول كتبك القيّمة، وتجاربك الحياتية الخصبة، وحول ما يشغل الجيل الجديد من الأفكار الوافدة، والأفكار الدّخيلة التي يبثّها ناسٌ يزعمون أنهم عرب، وأنهم مسلمون، ولكنّ عروبتهم وإسلامهم مجرّد شعارات وادعاءات يكذّبها واقعهم، فهل نبدأ؟.

السباعي: تفضّلي يا بنتي على بركة الله تعالى.

فانبريتُ أنا أسأل قبل صادقة:

ـ ما رأيكم، يا سيّدي، في هذا التقدّم المادّي الهائل في الحضارة الغربية؟

السباعي: من الملاحظ أن مظاهر القلق والاضطراب تتزايد كلما أصبحت وسائل الرفاهية ميسّرة للإنسان. فنسبة الأمراض النفسية في البلاد التي يرتفع فيها مستوى المعيشة، أكثر مما في غيرها من البلاد المتأخرة.

والإحصائيات الأمريكية في هذا الشأن واضحة الدلالة على هذا المعنى.

صادق: هل استفادت الحضارة الغربية من الحضارة الإسلامية؟

السباعي: طبعاً. استفادت الكثير، فالحضارة الغربية نشأت من اتصال الغرب بالحضارة الإسلامية، عن طريق المعاهد العربية في الأندلس والأقطار الإسلامية الأخرى.

صادقة: ما أهمُّ صفات الحضارة الغربية؟

السباعي: الحضارة الغربية مطبوعة بطابعين واضحين:

الأول: طابع الفلسفة اليونانية واتجاهها المادي الوثني.

والثاني: طابع العداء للدين، والحقد على رجاله وسلطانه.

فالأساس الذي قامت عليه الحضارة الغربية أساس مادي بعيد عن روحانية الدين، وتأثيره في نفوس الأفراد والجماهير.

صادقة: ولهذا انحسر الدين في المجتمعات الأوروبية؟

السباعي: نعم.. برغم المحاولات والجهود التي يبذلها رجال الدين هناك، لالتقاط الشباب من الجنسين لصالح الكنيسة.

صادقة: كيف؟

السباعي: من الشائع الآن في أوروبا وأمريكا أنَّ كلَّ كنيسةٍ لها نادٍ يجتمع فيه الشباب والفتيات على الرقص والسمر، وفي الرحلات والاحتفالات.

ولا ننسى الأفلام الدينية التي أخرجتها هوليود بكثرةٍ تلفت الأنظار.

صادقة: وهل أفادت هذه النوادي؟

السباعي: الحقيقة هي أنَّ الزمام قد أفلتَ من أيدي رجال الدين وعلماء الأخلاق والاجتماع عندهم، وأنَّ القطار قد فاتهم، وأنَّ الكارثة تستفحل يوماً بعد يوم، حتى تأتي النهاية الطبيعية لهذه الحضارة.

صادق: هل يريدون أن يعودوا إلى الدين، خوفاً من الشيوعية مثلاً؟

السباعي: لكن الدين الذي يدعون إليه بلغ من الضعف والوهن مبلغاً لا يؤهِّله للوقوف في وجه أحد.. لا الشيوعية ولا غيرها.

ثم إنَّ الشيوعية ثمرةٌ من ثمار هذه الحضارة، وبنتٌ من بناتها المنحرفات، وهي قد زادت في أسواء الحضارة الغربية وأخطارها. وقد

جاءت فلسفة ماركس وأنجلز في القرن التاسع عشر، وهما يهوديان ألمانيان، فزادت الأمور سوءاً، عندما باعدت ما بين الإنسان وبين الاستقرار النفسي والروحي بعداً شاسعاً، فانتزعت منه عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر، وأفقدته الثقة بالقيم الأخلاقية، ولم تستطع إنقاذ أبنائها من حالات القلق والمخاوف النفسية والاجتماعية. بل زادت على ذلك مخاوف أخرى، بما فرضته على شعوبها من خوفٍ على مصائرهم، إن هم انتقدوا الحكم الشيوعي وأساليبه، بل إنَّ على عضو الحزب نفسه أن يكون دائماً متحمِّساً لآراء قيادته العليا، مندفعاً إلى تأييدها اندفاعاً أعمى، وإلا فسوف يلقى مصيره المحتوم.

صادق: يعني أنَّ الشيوعية بإنكارها الله والديانات، قضت على آخر سلاحٍ أو ملجأ يعتصم به الإنسان ضد الخوف والقلق والمصائب والأثرة والعدوان.

السباعي: والاستبداد والإرهاب الشيوعيان الدمويان، جعلا الجماهير الواقعة تحت حكم الدولة الشيوعية، قطعاناً من المواشي البشرية المسلوبة الإرادة، المحرومة من المثل العليا التي يتطلَّع إليها كلُّ مجتمعٍ كريم.

صادق: وهكذا تكون الحضارة الغربية بفرعيها: الرأسمالي والشيوعي، أفقدت الإنسان اطمئنانه واستقراره ومُثله الإنسانية الرفيعة، حين جعلت الرفاه هو المثل الأعلى الذي تستحثّ الخطا نحوه، فإن لم يصل إليه طالبه، عاش شقياً..

السباعي: وإن وصل إليه عاش ملولاً لا ينتهي من ملله إلا بالانتحار.

صادقة: ما هي أبرز أخلاق الغربيين؟

السباعي: النفاق والكذب في ادّعاء الرحمة.. إنهم فقدوا جمال الروح، وجمال الذوق الفطري، وجمال الخُلق.. وإنَّ حضارتهم قد فقدت الشرف والجمال.

صادق: ما تعريف الحضارة؟

السباعي: هي نظامٌ اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي.

صادق: جميل.. وما عناصر الحضارة؟

السباعي: تتألف الحضارة من أربعة عناصر رئيسة هي: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخُلقية، ومتابعة العلوم والفنون.

صادق: وما عوامل التقدم الحضاري؟

السباعي: هنالك أسبابٌ وعوامل متعددة، جغرافية واقتصادية ونفسية كالدين واللغة والتربية.

صادق: وما أسباب انهيار الحضارات؟

السباعي: من أهم أسباب انهيارها: الانحلال الخُلقي، والميوعة الفكرية، واضطراب الأنظمة والقوانين، وشيوع الظلم والفقر، وانتشار التشاؤم واللامبالاة، وفقدان الموجِّهين الأكفياء والزعماء المخلصين.

صادقة: معنى هذا أنَّ الحضارة الغربية في طريقها إلى الانهيار، فمن في رأيك البديل؟

السباعي: ليس هنالك من يستطيع القيام بالدور الحضاري المرتقب إلا أمةٌ واحدة هي أمتنا، ولن يستطيع حمل اللواء لحضارة الغد غيرنا.

صادقة: لماذا؟

السباعي: للأسباب التالية:

أولاً ـ لأننا نحمل عقيدةً هي أرقى العقائد التي تسهم في بناء الحضارات، فهي عقيدة توحيد، أصفى أنواع التوحيد، وأكثره إشراقاً وسموّاً وكمالاً، وهي عقيدة علمٍ تحترم العقل، وتدفعه دفعاً حثيثاً وراء المجهول ليصبح معلوماً.

وهي عقيدة خُلقٍ إنساني معتدل كريم، يتجافى عن الإفراط في الرحمة والتفريط في العدالة، وعن الإفراط في الحبّ والتفريط في الواجب.

وهي عقيدة تشريعٍ يهدف إلى اليسر، ويتوخّى المصلحة، مصلحة الفرد ضمن مصلحة المجموع، ومصلحة المجموع غير مفرِّطٍ بمصلحة الفرد، ومصلحة الأمة ضمن الإطار الإنساني العام، ومصلحة الإنسانية كلِّها من غير محوٍ لفضائل الشعوب وخصائص الأمم، وقضاءٍ على كرامتها.

صادقة: وثانياً؟

السباعي: ثانياً ـ أننا أصحاب روحانيةٍ إيجابية بنَّاءة، روحانية إلـٰهية تلازم الجندي في حربه، والعامل في مصنعه، والعالم في درسه، والفيلسوف في بحثه، والقاضي في محكمته، والموظف في وظيفته، والرئيس في رئاسته.. تلازم كلَّ إنسانٍ في جدِّه وهزله وفي سائر أحواله.. إنَّ نماذجنا الروحية في تاريخ حضارتنا، كانوا يخوضون معركة بناء الحياة بكلِّ ما تتطلبه المعركة من عملٍ وجهد وتضحية وفداء.

صادقة: وثالثاً؟

السباعي: ثالثاً ـ أننا أثبتنا في الماضي قدرتنا على إنشاء مثل الحضارة المرتقبة، رحمةً بالناس، وسموّاً في الخُلق، وعدالةً في الحكم، وإشراقاً في الروح، واقتراباً من المثل الأعلى للإنسان في مختلف عصوره وأطواره.

صادقة: وما دمنا قد استطعنا أن نقيم تلك الحضارة الإنسانية الرائعة في عصور التخلف العلمي والفكري، فإننا أقدر على أن نقيم مثل تلك الحضارة في عصور التقدم العلمي، وانكشاف المجهول من الكون شيئاً بعد شيء.

صادق: أليس في هذا شيءٌ من الخيال المفرط في التفاؤل؟

السباعي: لا.. لستُ خيالياً.. فحوادث التاريخ لا تسير سيراً رتيباً، ومن يدري ماذا سيكون غداً؟ فهذا العالم مليء بالمفاجآت، وقد تقع حادثةٌ

في أقصى الأرض، تؤثر على من في الأرض في الطرف الآخر. لكنَّ هذا لا يمنع من أن نطالب بالتفكير في مستقبلنا تفكيراً مستقلاً، وحوادث التاريخ تصنعها يد الله تعالى، بآراء المفكرين، وصيحات الأنبياء والمصلحين.

صادقة: نريد معرفة خصائص حضارتنا الإسلامية.

السباعي: أستطيع أن أسرد لكم أبرز هذه الخصائص التي تميَّزت بها حضارتنا:

أولاً ـ حضارتنا قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة.

ثانياً ـ حضارتنا ذات نزعة إنسانية، أهدافها إنسانية، رسالتها عالمية، آفاقها متراحبة، والذين أقاموها كانوا من شعوبٍ مختلفة، ولكنها تنضوي تحت راية الأمة الإسلامية الواحدة. أقامها عباقرةٌ خالدون اختلفت أصولهم، وتباينت أوطانهم، قدَّمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاجات الفكر الإنساني السليم.

صادقة: وثالثاً؟

السباعي: ثالث خصائص حضارتنا، أنها جعلت للمبادئ الأخلاقية المحلّ الأول في كل نظمها، وسائر ميادين نشاطها، وهي لم تتخلَّ عن هذه المبادئ قطُّ، ولم تجعلها لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد..

صادقة: ورابعاً؟

السباعي: رابعاً ـ حضارتنا تؤمن بالعلم في أصدق أصوله، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها، فهي خاطبت العقل والقلب معاً، وأثارت العاطفة والفكر معاً، وهذه ميزةٌ لم تشاركها فيها حضارةٌ في التاريخ.

إنَّ الحضارة الإسلامية هي الوحيدة التي لم يُفصَل فيها الدين عن الدولة، مع نجاتها من كلِّ مآسي المزج بينهما، كما عرفته أوروبا في القرون الوسطى.. ليس في الإسلام امتيازٌ لرئيسٍ ولا لرجل دين ولا لشريف ولا لغنيّ.. الكلُّ سواسيةٌ متساوون أمام القانون، والتفاضل بالتقوى والخدمة العامة للناس.

صادقة: وخامساً؟

السباعي: وآخر ما أذكره من خصائص حضارتنا، هذا التسامح الديني العجيب الذي لم تعرفه حضارةٌ مثلها قامت على الدين، وشادت قواعدها على مبادئه، ثم كانت من أشدّ ما عرف التاريخ تسامحاً وعدالة ورحمة وإنسانية.. أنصفْنا الناس قويَّهم وضعيفهم، وعرفنا الفضل لأهله شرقيّهم وغربيّهم.

وسكت الشيخ قليلاً ثم رفع رأسه، وزوى ما بين حاجبيه الأشقرين، وسأل:

ـ مَنْ مثلُنا في التاريخ، عدالةَ حكمٍ، ونزاهة قصد، واستقامة ضمير؟

صادق: لكنْ... ألم يخطئ أجدادنا في التسامح مع ناسٍ لا يقيمون وزناً لهدفٍ نبيل، ولا لقيمةٍ أخلاقية كالتسامح؟

ألم يخطئوا في التسامح مع اليهود ومع الصليبيين ومع سواهم، ممن أذاقونا الأمرَّين، والصاب والعلقم، عندما استغلّوا ضعفنا، فحكمونا بالحديد والنار، وقتلوا ونهبوا وفتكوا واغتصبوا الأرض والعرض.

السباعي: لا يا بنيّ.. لم يخطئ أجدادنا، بل الذي أخطأ هم أولئك الأوباش من حفدة النصارى واليهود والمجوس الذين فعلوا بنا فِعل السفلة المنحطّين.

صادق: والفرع يدلّ على الأصل يا سيّدي.

السباعي: هذا صحيح.. ومع ذلك، فإننا نعتزّ بأنَّ حضارتنا الخالدة كانت، وما تزال، ذات نزعةٍ إنسانية تميَّزت بها من سائر الحضارات الأخرى، فنقلت الإنسانية من جِواء الحقد والكراهية، والتفرقة والعصبية، إلى جِواء الحبّ والتسامح والتعاون والتساوي أمام الله، وأمام القانون، وفي كيان المجتمع، تساوياً لا أثر فيه لاستعلاء عرقٍ على عرق أو فئة على فئة، أو شعب على شعب، أو أمة على أمة.

صادقة: وحضارة الآخرين؟

السباعي: الحقُّ أنها قامت على الجريمة.. تصوّروا أنَّ الصليبيين حينما وصلوا ـ في حملتهم الثانية ـ إلى مدينة (معرة النعمان) قرب مدينة حلب في سورية، قتلوا من أطفالها ونسائها وشيوخها وعجزتها مئة ألف، بعد أن كانوا أعطوهم الأمان.

صادقة: أعوذ بالله من هؤلاء الشياطين.

السباعي: ثم تابع الصليبيون زحفهم نحو القدس، وشدّدوا الحصار على أهلها، وعندما يئس أهل القدس من الدفاع عن مدينتهم، طلبوا من قائد الحملة الصليبية واسمه (طنكرد) الأمان على أنفسهم وأموالهم، فأعطاهم رايته يرفعونها على المسجد الأقصى، ويلجؤون إليه آمنين على كلِّ شيء. ثم دخل الصليبيون مدينة القدس بعد ذلك، ويا لهول المجزرة! ويا لقسوة الإجرام!! لجأ سكان القدس إلى المسجد الأقصى الذي رفعوا فوقه راية الأمان، حتى إذا امتلأ بمن فيه من شيوخ ونساء وأطفال، هجم عليهم الصليبيون، وذبحوهم ذبح النعاج، فسالت الدماء في المسجد حتى ارتفعت إلى ركبة الفرس، وكان عدد المذبوحين في المسجد الأقصى وحده سبعين ألفاً، ثم ذبحوا كلَّ من في القدس، حتى كانت شوارعها تعجّ بالجماجم المحطَّمة، والأذرع والأرجل المقطَّعة، والأجسام المشوَّهة..

صادق: أولاد الأبالسة.

صادقة: هؤلاء ليسوا بشراً.. هؤلاء وحوش، بل الوحوش أقلّ وحشيةً منهم.

صادق: أرجوك يا سيدي لا تحدِّثنا عن رحمة صلاح الدين الأيوبي بهم، بعد أن فتح مدينة القدس، وخلَّصها من أولئك المجرمين، لأنَّ أعصابي لا تحتمل (سماحته ونبله ورحمته) بأولئك الأوباش.

السباعي: ولا أنا..

وسكت الشيخ قليلاً، وقد تصبَّب العرق منه كاللآلئ، ثم قال والانفعال ما يزال يأخذ منه مأخذه:

ـ أما والله لولا أني أؤمن بالمُثل العليا وانتصارها، ولو كنت ممن يُخضعون المبادئ للغايات السياسية، كما يفعل ساسة هذا العصر، لقلت: إنَّ قادة جيوشنا بلغوا في التمسُّك بالمبادئ والمثل العليا حدَّ الغفلة والبلاهة، ولكنهم قومٌ مؤمنون يكرهون أن يقولوا ما لا يفعلون.

وقصة صلاح الدين مع الصليبيين تشبه الأساطير.

صادقة: وأنا لا أحبّ الأساطير.

صادق: ولا أنا.

السباعي: تصوّروا أنَّ الصليبيين الأسبان كانوا أعطوا المسلمين من أهل (غرناطة) بضعةً وستّين عهداً باحترام ديانتهم، ومساجدهم، وأموالهم، وأعراضهم، ولكنهم لم يَرعوا عهداً واحداً من تلك العهود ولم يفوا بذمّة، ولم يعفُّوا عن سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وسلب الثروات، فلم يكد يمضي على سقوط غرناطة اثنتان وثلاثون سنة، حتى أصدر البابا أمره عام ١٥٢٤م بتحويل جميع مساجد إسبانيا إلى كنائس، ولم تمرّ بعد ذلك أربع سنوات أخرى حتى لم يبقَ في إسبانيا (الأندلس) كلّها مسلمٌ واحد.. هذا هو وفاؤهم بالعهود والمواثيق التي كانوا يقطعونها على أنفسهم.

صادق: يا لطيف.. ما أحقدَهم!. وما أغبانا.

السباعي: ثم.. لماذا نذهب بعيداً، وهذه أخلاق الأوروبيين المستعمرين في الحربين العالميتين، وآثار قسوتهم فيهما، وهذه هي أخلاقهم في الشرق العربي والإسلامي ناطقةٌ على مدى القسوة التي تتَّصف بها ضمائرهم في حروبهم وحُكمهم، وعلى مدى النفاق الذي بلغوه حين يعلنون في المحافل الدولية إنسانيتهم ورحمتهم، وهم في حروبهم، وفي مستعمراتهم، وفي البلدان الخاضعة لحكمهم، يعلنون وحشيتهم وضراوتهم.

وإذا كان بعض الناس يعتذر عن فظائع الأوربيين في القرون الوسطى، بأنهم كانوا أُناساً لم تهذِّبهم المدنية بعدُ، فما هو عذرهم الآن، وهم أرباب الحضارة، وأساتذة الدنيا في العلوم والفنون والمخترعات؟.

صادق: إذن.. ما السرُّ في رأيكم يا سيدي؟.

السباعي: المسألة في رأيي مسألة طبعٍ أصيل فيهم يغلب كلَّ تطبُّع وتصنُّع، فالأوربيون لا يزالون يحملون في نفوسهم وطباعهم خصائص أجدادهم الذين كانوا عبارةً عن قبائل وثنيّة متوحّشة، ثم اختبأت هذه الطبائع في العصور الوسطى وراء الدين، فحمَّلته أوزار وحشيَّتهم، وهي تختبئ الآن وراء الحضارة، فتحمِّل (السلامَ والاستقرارَ) و(التمدُّنَ والتهذيبَ) أوزارَ قسوتهم.. إنهم هم في كلِّ العصور.

صادق: ونحن.. ماذا تقول عن الحروب التي خاضها أجدادنا يا سيدي؟.

اعتدل الشيخ في جلسته، وأخرج منديلاً أبيض ناصعاً ونظيفاً من جيبه، مسح به عرق جبهته العريضة المنيرة، وخدَّيه الموردين، ثم قال:

- مبادئ حضارتنا تعلن تحريم الحروب للغزو ونهب الأموال، وإذلال كرامة الشعوب.. الحرب المشروعة عندنا إنما تكون لغايتين اثنتين:

١ - الدفاع عن عقيدة الأمة وأخلاقها.

٢ - الدفاع عن حرية الشعب واستقلاله وسلامه.

وليست حرية العقيدة هي المطلوبة للأمة التي تعلن الحرب فحسْب، بل عليها أن تضمن حرية العقائد كلّها، وتحمي أماكن العبادة كلّها.. وأروع ما نادت به حضارتنا، أنَّ الدفاع عن الضعفاء المستذَلِّين في الشعوب الأخرى واجبٌ علينا، كما يجب الدفاع عن حريتنا وكرامتنا.

هذه الحرب التي تعلَن للدفاع عن العقيدة وعن الحرية والسلم، هي

الحرب المشروعة التي توصل إلى الله، وتمنح الجنة لشهدائنا، هي الحرب التي وصفتها حضارتنا بأنها حربٌ في سبيل الله، وما عداها حرب في سبيل الشيطان والفساد والطغيان، وما أروع قول الله تعالى في المقارنة بين هاتين الحربين:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وإذا كانت هذه هي الغاية من حروب حضارتنا، لم يجزْ لها حين تعلن الحرب في سبيل الحق والخير، أن تنقلب إلى أداةٍ تصنع الباطل والشرّ. ومن أجل ذلك، كان من مبادئ حضارتنا في الحرب، أن لا تقاتل إلا من يقاتلها ويعتدي عليها، وإذا قامت الحرب، كان علينا أن لا ننسى مبادئنا، فالحرب الإنسانية الخالصة لله، يجب أن تظلّ إنسانيّةً في وسائلها، وعند اشتداد وطيسها. ومن هنا جاءت الوصايا التي لم يسبق لها في التاريخ مثيل.

صادقة: أيُّ وصايا؟.

السباعي: وصايا الخلفاء والقادة.. اسمعوا مثلاً وصية الخليفة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، لقائده أسامة بن زيد وجنده:

«لا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة. وسوف تمرُّون بأقوامٍ قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له».

صادقة: الله الله!. ما أعظم الإسلام، وما أعظم رجاله!.

السباعي: هذه هي الحرب في سبيل الله، وتلك هي مبادئنا فيها، وأخلاقنا الحربية.. إنها عدلٌ ورحمة ووفاء.. ولكن.. لا يكفي هذا ـ في رأيي ـ للإشادة بروح حضارتنا المسالمة في الحرب، فالمبادئ وحدها ليست دليلاً على سموّ أمةٍ وإنسانيتها، ولطالما رأينا أمماً وأحزاباً تحمل للناس أرفع المبادئ، وهي تعيش معهم في أقساها وأخسّها وأبعدها عن

الإنسانية والرحمة . . ولو أردتُ أن أذكر لكم مئات الشواهد على سموِّنا في حروبنا، وعلى إنسانيتنا لفعلت، ولاحترقت أعصابكم من ذِكر بعضها، كفعل البطل العظيم صلاح الدين.

صادق : لا أريدها يا سيدي.

صادقة : ولا أنا.

صادق : إذن . . دعنا ننتقل إلى سواها . .

السباعي : أختم هذه المفارقة بين حضارتنا الحربية وحضارة الغرب المستعمر القاسي المدمِّر بهذين البيتين المعبّرين عن تلك المفارقة، قال الشاعر العربي :

ملكنا فكان العفوُ مِنَّا سجيَّةً   فلمّا ملكْتُم سالَ بالدمِ أبطحُ
وما عجبٌ هذا التفاوتُ بيننا   فكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ

صادقة : بيتان جميلان لخَّصا القضية كلَّها.

السباعي : دعونا ننتقل إلى (الرفق بالحيوان) فجمعيات الرفق بالحيوان ممّا يفاخر به الغرب القاسي في هذه الأيام، أمّا قبل العصر الحديث فلم يكن الغرب يرى الحيوانَ يستحقّ شيئاً من الرفق أو الرحمة به. ولا تزال بعض الأمم المعاصرة تتلهّى بقتل الحيوان في أعيادها وأفراحها ورياضتها.

صادق : ونحن؟.

السباعي : هنا تبرز حضارتنا في مبادئها وواقعها بثوبٍ من الرحمة والشعور الإنساني المرهف الذي لم تلبسه حضارةٌ من قبلها، ولا أمةٌ من بعدها حتى اليوم. فالرفق بالحيوان والرحمة به ـ في حضارتنا ـ رحمةٌ تلفت النظر، وتدعو إلى العجب والدهشة.

صادقة : نريد شيئاً من التفصيل.

السباعي : أول ما تعلنه مبادئ حضارتنا في مجال الرفق بالحيوان، أن تقرِّر أنَّ عالم الحيوان كعالم الإنسان، له خصائصه وطبائعه وشعوره. يقول

الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]. فله حقُّ الرحمة والرفق كحقِّ الإنسان، بل إنَّ الرحمة بالحيوان قد تُدخل صاحبَها الجنّة، كما أنَّ القسوة على الحيوان تُدخل النار.

صادقة: يا سلام!.

السباعي: والفقهاء المسلمون يقرِّرون من أحكام الرحمة بالحيوان ما لا يخطر بالبال.

صادقة: مثل ماذا مثلاً؟.

السباعي: إنهم يقرِّرون ـ مثلاً ـ أنَّ النفقة على الحيوان واجبةٌ على مالكه، فإن امتنع عن الإنفاق عليه، أُجبر على بيعه أو تسييبه إلى مكانٍ يجد فيه رزقه ومأمنه، أو ذبحه إذا كان مما يؤكل.

بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك.. فقال بعضهم: إذا لجأتْ قطةٌ عمياء إلى بيت شخصٍ، وجبتْ نفقتها عليه، ومنعوا تحميل الحيوان أكثر مما يطيق، وذكروا مقدار ما يستطيع البغل والحمار حمله.. فهل في حضارات الدنيا مثل حضارتنا؟.

صادقة: لا والله!.

السباعي: لقد كان الخلفاء يذيعون البلاغات العامة على أفراد الشعب، يوصونهم فيها بالرفق بالحيوان، ومنع الأذى عنه، والإضرار به. وأقاموا المؤسسات الخاصّة بالرفق بالحيوان، ووقفوا الأوقاف الخاصة بتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقافاً لرعي الحيوانات المسنَّة العاجزة، ترعى فيها إلى أن تموت، وهناك أوقافٌ للقطط تأكل منها وترعى وتنام ولا تتحرّك إلا للرياضة والنزهة.

صادق: يا سلام! ما أروع هذا!.

صادقة: وماذا عن المؤسسات الخيرية الأخرى يا جدي؟.

السباعي: إذا أردتُ أن أفيض في هذا المقام، فسوف أحدِّثكم ساعاتٍ طوالاً، فهل يسمح وقتكما بذلك؟.

نظرتُ إلى أختي صادقة، ثم نظرتُ إلى الشيخ الجليل وقلت:

ـ باختصار يا سيّدي إذا سمحت.

السباعي: أمّتنا بلغت في هذا المجال الذروة التي لم يصل إليها شعبٌ من قبلها على الإطلاق، ولم تلحق بها من بعدها أمةٌ حتى الآن؟.. فالبطل العظيم صلاح الدين الأيوبي أنفق أمواله كلّها على جهات البرّ، وملأ البلاد الشامية والمصرية بالمؤسسات الخيرية، من مساجد ومدارس ورباطات وغيرها، دون أن يسجّل اسمه على واحدةٍ منها، بل كان يسجّل عليها أسماء قوّاده ووزرائه وأعوانه وأصدقائه.

صادق: هذا غاية ما يكون من التجرّد عن حظوظ النفس في أعمال الخير.

السباعي: إننا أقمنا مؤسساتنا الاجتماعية من أجل الخير والتكافل الاجتماعي بشكلٍ يبعث على العجب والدهشة، ويدلّ على أنَّ النزعة الإنسانية في أمتنا كانت أشمل وأصفى وأوسع أفقاً من أيِّ نزعةٍ إنسانية لدى الأمم الأخرى.

فمن مبادئ حضارتنا في هذا الميدان، أنَّ الإسلام ينادي بالدعوة إلى الخير نداءً ينهزم معه ـ في النفس الإنسانية ـ بواعث الشحّ ووسوسة الشيطان في التخويف من الفقر، فيقول القرآن العظيم، بعد الحثّ على الإنفاق:

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ويعمم الدعوة إلى الخير على كلِّ مقتدر، بل على كلِّ إنسان، فقيراً كان أو غنياً، أما الغنيّ، فيفعل الخير بماله وجاهه، وأما الفقير فيفعل الخير بيده وقلبه ولسانه وعمله، ولن تجد في الإسلام إنساناً لا يستطيع أن يجود في ميادين البرّ والخير.

صادق: هذا كلامٌ عظيم يا سيّدي.

السباعي: وانظروا إلى هذه الفكرة الرائعة.. ما دام الإنسان أنانياً يحبُّ نفسه قبل كلِّ شيء، فإنَّ القرآن العظيم بادره بالأسلوب المناسب الذي يؤثِّر في النفس الإنسانية، بحيث يسخو البخيل، ويعطي الشحيح، ويفرِّق المال على النـاس، من حيث يمنعه أولاده وأقربـاؤه، يقول الله تعالى في قرآنـه العظيم:

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ويقول:

﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦].

صادق: صدق الله العظيم.

صادقة: ما أروع هذه الفكرة يا جدي الجليل!. لكن.. ألا تذكر، يا جدي، بعض تلك المؤسسات الخيرية، غير ما ذكرتَ لنا؟.

السباعي: من تلك المؤسسات الخيرية، يا بنيتي ويا ولدي، بناء الخانات والفنادق للمسافرين المقطوعين والفقراء، ومنها التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء للعبادة، ومنها بيوتٌ خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به داراً أو يستأجر، ومنها السقايات، أي تسبيل الماء في الطرقات العامة للناس جميعاً، ومنها المطاعم الشعبية التي كان يفرّق فيها الطعام من خبزٍ ولحم وحساء (شوربة) وحلوى.

ومنها بيوتٌ للحجاج في مكّة المكرّمة ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام. وقد كثرت هذه البيوت حتى عمَّت أرض مكّة كلَّها، وأفتى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحجّ، لأنها كلَّها موقوفةٌ على الحجَّاج.

صادق: الله أكبر.

السباعي: ومنها حفر الآبار في الفلوات لسقي الماشية والزروع

والمسافرين، فقد كانت كثيرةً جداً بين بغداد ومكّة، وبين دمشق والمدينة المنوّرة، وبين عواصم البلاد الإسلامية ومدنها وقراها، حتى لا يتعرَّض المسافرون لخطر العطش.

صادق: الله أكبر.

السباعي: ومنها أمكنة المرابطة على الثُّغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبيّ على البلاد، فقد كانت هنالك مؤسساتٌ خاصة بالمرابطين في سبيل الله، يجد فيها المجاهدون كلَّ ما يحتاجون إليه من سلاحٍ وذخيرة وطعام وشراب.

صادق: لا شكّ، يا سيّدي، أن كان لهذه الرباطات آثارها الكبيرة في صدِّ غزوات المعتدين من الروم والصليبيين.

السباعي: وكان يتبع تلك الرباطات، وقفُ الخيول والسيوف والنّبال، وأدوات الجهاد، على المقاتلين في سبيل الله.

صادق: ولا بدَّ أن يكون لهذه الأوقاف آثارها الكبيرة في رواج الصناعة الحربية.

السباعي: أجل يا بنيّ.. فقد قامت مصانع كبيرة لها في بلادنا، حتى كان الصليبيون في الحروب الصليبية، يأتون إلى بلادنا أيام الهدنة، ليشتروا منّا السلاح.

صادق: ليقاتلونا به؟.

صادقة: وهل كان التجار يبيعونهم؟.

السباعي: التجار أصناف، يا بنيتي، منهم الصالح ومنهم الطالح. الصالحون ما كانوا يسمحون لأنفسهم ببيعهم أيَّ قطعة سلاح، مهما غالوا في ثمنها.

صادق: وأما التجار الطالحون الذين رُكِّب الطمع والجشع وحبّ المال في نفوسهم المريضة، فكانوا يبيعونهم بلا أدنى شكٍّ عندي.

السباعي : ولهذا كان العلماء يفتون بتحريم بيع السلاح للأعداء .

صادق : الغريب ياسيّدي أنَّ الأمر انقلب علينا ، فصرنا نستورد السلاح ونشتريه بأقوات شعبنا ، وبشروطٍ مذلَّة لنا ، من الصليبيين الجدد السائرين في ركاب الصهيونية الخسيسة .

السباعي : وكان هناك أوقافٌ خاصة يعطى ريعها للمجاهدين ، حين تعجز الدولة عن الإنفاق عليهم .

صادق : وبذلك كان الجهاد ميسَّراً لكلٍّ من يريده ليبيع حياته في سبيل الله ، وليشتري بها جنّةً عرضها السماوات والأرض .

السباعي : ومن المؤسسات الاجتماعية ما كانت وقفاً لإصلاح الطرقات والقناطر والجسور ، ومنها ما كانت للمقابر ، يتبرَّع الرجل بالأرض الواسعة لتكون مقبرة . ومنها ما كان لشراء أكفان الموتى الفقراء ، وتجهيزهم ودفنهم .

صادقة : ومؤسسات التكافل الاجتماعي يا جدّي العزيز ؟ .

السباعي : أمّا هذه فكانت عجباً من العجب . .

فهناك مؤسساتٌ للقطاء واليتامى ، ولختانهم ورعايتهم .

وهناك مؤسسات للعميان والمقعدين والعجزة ، يعيشون فيها موفوري الكرامة ، لهم كلُّ ما يحتاجون إليه من سكنٍ وغذاء ولباس وتعليم أيضاً .

وهناك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين ، ورفع مستواهم ، وتغذيتهم بالغذاء الواجب لصيانة صحّتهم ، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم ويخدمهم .

وهناك مؤسسات لتزويج الشبّان والفتيات العزّاب ، ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور .

صادق : الله أكبر ! . ما أروع هذه العاطفة ، وما أحوجنا إليها اليوم .

فابتسم الشيخ الجليل ابتسامةً آسرة ثم قال :

ـ وهناك مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسُّكَّر ، وهي أسبق في الوجود من جمعيـة (نقطة الحليب) عندنا ، مع تمحُّضها للخير الخالص لله عزّ وجلّ . واسمعوا وصدِّقوا ما أقوله لكم :

كان من مبرّات البطل العظيم صلاح الدين الأيوبي أنه جعل في أحد أبواب قلعة دمشق ميزاباً ـ مزراباً ـ يسيل منه الحليب ، وميزاباً آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكَّر ، تأتي إليه الأمهات يومين في كلِّ أسبوع ، ليأخذن لأطفالهنَّ وأولادهنَّ ما يحتجن إليه من الحليب والسكَّر . .

لم أتمالك نفسي وكذلك أختي صادقة ، فهتفنا بصوتٍ واحد :

ـ الله أكبر . . الله أكبر . . ما أعظمك يا صلاح الدين ! .

ـ بل ما أعظم الإسلام الذي أنجب هذا البطل العظيم الذي لن تعرف البشرية له مثيلاً .

وسكت الأستاذ لحظات ، ثم تابع يقول :

ومن أطرف المؤسسات الخيرية ، وقفُ الزَّبادي للأولاد الذين يكسرون الزبادي وهم في طريقهم إلى البيت ، فيأتون إلى هذه المؤسسة ، ليأخذوا زبادي جديدة بدلاً من المكسورة ، ثم يرجعون إلى أهلهم ، وكأنهم لم يكسروا شيئاً .

صادق : يا سلام . . ما هذا الرقيّ يا أستاذي؟ .

السباعي : وآخر ما أذكره لكم من هذه المؤسسات ، المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة ، أو لإطعامها ، أو لرعيها حين عجزها ، كما هو شأن المرج الأخضر الذي صار الملعب البلدي في دمشق .

صادقة : هذا عن المؤسسات الخيرية ، فماذا عن المعاهد العلمية يا جدّي؟ .

السباعي: هذه أيضاً حدّثوا عنها ولا حرج، وحسبُكم أن تعلموا أنه لم تخلُ مدينةٌ ولا قرية في طول العالم الإسلامي وعرضه، من مدارس متعدّدة فيها عشرات من المعلمين والمدرسين.

كانت المعاهد والمدارس العليا، تملأ مدن العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه، ويذكر التاريخ بكثيرٍ من الإعجاب والإكبار نفراً من أمراء المسلمين، كانت لهم اليد الطولى في إنشاء المدارس في مختلف الأمصار، منهم صلاح الدين الأيوبي الذي أنشأ المدارس في جميع المدن التي كانت تحت سلطانه في مصر ودمشق والموصل وبيت المقدس، ومنهم البطل نور الدين الشهيد الذي أنشأ في سورية وحدها خمسة عشر معهداً، منها ستة في دمشق، وأربعة في حلب، واثنان في حماة، واثنان في حمص، وواحد في بعلبك.

ومنهم نظام المُلك، الوزير السلجوقي العظيم الذي ملأ بلاد العراق وخراسان بالمدارس، حتى قيل فيه: إنَّ له في كلِّ مدينةٍ في العراق وخراسان مدرسة، وكان ينشئ المدارس حتى في الأماكن النائية، وكلّما وجد عالماً قد تميَّز وتبحَّر في العلم، بنى له مدرسةً في بلده، ووقف عليها وقفاً، وجعل فيها دار كتب.

صادق: إذن.. كانت للمدارس والمعاهد العليا أوقافٌ يا سيّدي؟.

السباعي: حسبُنا دليلاً على كثرة أوقاف المدارس والمساجد في دمشق خاصة، أنَّ الإمام النووي (المتوفَّى سنة ٦٧٦هـ) لم يكن يأكل من فواكه دمشق طوال حياته، لأنَّ أكثر غوطتها وبساتينها أوقافٌ لتلك المدارس والمعاهد، اعتدى عليها الظالمون.

صادقة: وكيف كان حال المدارس في أوروبا في ذلك الزمان يا جدّي العزيز؟.

السباعي: كان الجهلُ مطبقاً عليهم، والأميّة متفشّية، ولم يكن للعلم مأوى إلا في أديرة الرهبان، وهي مقصورةٌ على رجال الكهنوت فقط.

صادقة: ومدارسنا ومعاهدنا . . ماذا كانت تعلِّم؟ .

السباعي: علوم الدين، من تدريسٍ للقرآن الكريم، وتفسيره، وحفظه وقراءته، وعلوم الحديث الشريف، والفقه بأنواعه، والمنطق وعلوم اللغة العربية، والفلسفة، والطبّ، والصيدلة، وسواها من العلوم التي كانت معروفةً في تلك الأزمنة.

صادقة: وماذا عن المكتبات يا عمّي؟ .

السباعي: حديث المكتبات أيضاً حديثٌ يطول، فقد كانت مدارسَ للتعليم، ومؤسساتٍ ينفق عليها الأمراء والأثرياء والعلماء، لينتشر العلم بين الناس، في ذلك الزمن الذي لم تكن فيه الطباعة موجودة، وكانت الكتب تنسخ على أيدي نسّاخٍ متخصّصين لهذا العمل، فكان ثمن الكتاب باهظاً، لا يستطيع طالب العلم شراءه، وكذلك العالم الفقير.

صادقة: ما هي أشهر المكتبات في تاريخ حضارتنا يا سيّدي؟ .

السباعي: من أشهر المكتبات:

- مكتبة الخلفاء الفاطميين في القاهرة. كان فيها مليونان من الكتب النفيسة والمصاحف.

- ومنها مكتبة دار الحكمة في القاهرة. كان فيها أربعون خزانة، احتوت إحداها على (١٨٠٠٠) ثمانية عشر ألف كتاب.

- ومنها بيت الحكمة في بغداد، أنشأها هارون الرشيد، وبلغت ذروة مجدها في عصر المأمون. كانت أشبه بجامعةٍ فيها كتب.

- ومنها مكتبة الحكم في الأندلس. وكانت غايةً في العظمة والاتساع، وكان فيها أربع مئة ألف مجلد، وكانت لها فهارس غاية في الدقّة والنظام.

- ومنها مكتبة بني عمّار في طرابلس الشام. كانت آيةً من الآيات في العظمة والضخامة. كان فيها مئة وثمانون ناسخاً ينسخون الكتب، ويتبادلون العمل ليلاً ونهاراً بحيث لا ينقطع النسخ، وكانت تحوي مليون كتاب.

صادقة : والمكتبات الخاصة؟ .

السباعي : كانت هناك آلاف المكتبات الخاصة، اشتهر منها مكتبة الفتح بن خاقان، ومكتبة ابن الخشاب، ومكتبة القفطي، ومكتبة بني جرادة بحلب، ومكتبة الموفق بن المطران الدمشقي وغيرها كثير .

صادق : وأين صارت هذه المكتبات يا سيّدي؟ .

ارتعش الجبل ثم قال في نبرة حزنٍ ثائر :

ـ إنَّ الأسى ليملأ قلوبنا حين نتذكر مصائر هذه المكتبات، وما تعرَّضت له من بوارٍ وحرائق لا يمكن أن تقدَّر خسارة العلم فيها أبداً .

صادق : لماذا يا سيّدي؟ .

السباعي : لأنها أصيبت بنكباتٍ وكوارث قضت على ملايين الكتب، وهي من أثمن ما خلَّفه الفكر الإنساني في التاريخ .

صادق : كيف؟ ومتى يا سيدي؟ .

السباعي : عندما اقتحم التتار بغداد، قذفوا ما وجدوا في دور الكتب العامة والخاصة في نهر دجلة، حتى فاض النهر بالكتب الملقاة فيه، فكان الفارس يعبر عليها من ضفّةٍ إلى ضفّة؟ وظلَّ ماء النهر أسود داكناً أشهراً طويلة .

صادقة : وحوش . . همج . . أوباش .

السباعي : والحروب الصليبية أفقدتنا أعزَّ المكتبات التي كانت في طرابلس والمعرة والقدس وغزة وعسقلان وغيرها من المدن التي خرّبها الصليبيون. وقد قدَّر المؤرخون ما أتلفه الصليبيون من الكتب في مدينة طرابلس وحدها بثلاثة ملايين مجلد .

صادق : يا لطيف . .

صادقة : هؤلاء الصليبيون لا يقلّون همجيةً عن التتار المتوحّشين .

السباعي: ونكبة استيلاء الإسبان على الأندلس، أفقدتنا تلك المكتبات العظيمة التي يتحدّث عنها التاريخ بذهول، فقد احترقت كلّها بأيدي أولئك السّفلة، تصوّروا.. أحرقوا في يومٍ واحد في ميدان غرناطة مليون كتاب.

صادقة: كلّهم وحوش.. همج، متوحشون، أعداء العلم والدين والإنسانية.

السباعي: على أيّ حال، ينبغي لنا أن نعلم أنَّ الأمة التي تستحقّ الحياة، تجد غذاءها في العلم قبل كلِّ شيء، وأمتنا يوم كانت تبعث الحياة في الأمم والشعوب، كانت تسلك كلَّ سبيلٍ للتزوُّد من العلم ونشره وإذاعته، بل كان أكثر أبنائها، من الخليفة إلى العالم والتاجر، يتبارون في الاستكثار من أدوات العلم وكتبه وبناء مدارسه، وكانت لا يُتحدَّث فيها إلا بما يزيد في العلم، ويفتح الذهن، ويصقل العقل.

والتقط الشيخ الجليل بعض حبّات الجمان التي كانت تتلألأ على جبينه الناصع، ثم تابع يقول في حماسة:

ـ قصارى القول: إنَّ حضارتنا في عصور ازدهارها، ملأت العالم الإسلاميّ بنور العلم، حتى قال العالم الكبير (غوستاف لوبون):

«إنَّ حبَّ العرب للعلم كان عظيماً، وإنهم بلغوا درجةً رفيعة من الثقافة، بعد أن أتمُّوا فتوحهم بزمنٍ قصير، حتى استطاعوا أن يبدعوا حضارةً أينعت فيها الآداب والعلوم والفنون، وبلغت الذروة».

يبدو أنَّنا لم نشبع من الحديث عن حضارتنا، ولذلك كنا نحاول استذكار ما قد نسيناه، وقد فطنّا للحديث عن المستشفيات والمعاهد الطبيّة، فسألتْ صادقةُ شيخنا الجليل:

ـ وماذا عن المستشفيات والمعاهد الطبية يا سيّدي؟.

فشمَّر الشيخ الجليل عن كلا ساعديه، ثم انطلق يتدفَّق في الحديث

عن المستشفيات في عصور ازدهار حضارتنا، وكان مما قاله:

ـ من المبادئ التي قامت عليها حضارتنا، أنها جمعت بين حاجة الجسم وحاجة الروح، لأنَّ العناية بالجسم ومطالبه ضروريّةٌ لتحقيق سعادة الإنسان وإشراق روحه «إنَّ لبدنِك عليك حقاً».

ومن الملاحظ في عبادات الإسلام تحقيقها أهمَّ غرضٍ من أغراض علم الطبّ، وهو حفظ الصحّة، وتعريف علم الطبّ عند المسلمين، أنه علمٌ يبحث في حفظ الصحة على الأصحّاء، وردّها على المرضى.

صادق: تعريفٌ جميل لعلم الطب.

السباعي: فالصلاة والصيام والحجّ، وما تتطلَّبه هذه العبادات من شروطٍ وأركان، وأعمال كلّها تحفظ للجسم صحَّته ونشاطه وقوَّته. وإذا أضفنا إلى ذلك مقاومة الإسلام للأمراض وانتشارها، وترغيبه في طلب العلاج المكافح لها، علمنا أيَّ أسسٍ قوية قام عليها بناء حضارتنا في ميدان الطبّ، ومبلغ ما أفاده العالم من حضارتنا في إقامة المشافي والمعاهد الطبيّة، وتخريج الأطباء الذين لا تزال الإنسانية تفخر بأياديهم البيض على العلم عامّةً، والطب خاصّة.

صادقة: متى أقيم أول مستشفى في الإسلام يا جدّي؟.

السباعي: في عهد الوليد بن عبد الملك، وهو مستشفى خاصّ بالمجذومين، ثم تتابع إنشاء المشافي، وكانت تسمى (بيمارستانات) أي دور المرضى.

صادق: هل كان لدينا مستشفيات ميدانية؟.

السباعي: طبعاً.. وكان أول مستشفى ميداني ذلك الذي أنشأه النبي العظيم ﷺ في غزوة الخندق، إذ أقام خيمةً للجرحى، وهو أول مستشفى ميداني في الإسلام، ثم توسَّع فيه الخلفاء والملوك من بعد، حتى أصبح المستشفى الميداني المتنقِّل مجهَّزاً بجميع ما يحتاج إليه المرضى، من علاجٍ وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة، وكان يُنقل من قريةٍ إلى قريةٍ في

الأماكن التي لم يكن فيها مستشفياتٌ ثابتة .

صادقة : لكنْ . . يبدو أنها مستشفياتٌ متواضعة .

السباعي : متواضعة؟! . تصوّروا أن بعض المستشفيات المتنقِّلة في أيام السلطان محمود السلجوقي قد بلغت حدّاً من الضخامة ، بحيث كان المستشفى يُحمل على أربعين جملاً .

صادق : الله أكبر . .

صادقة : والمستشفيات الثابتة؟ .

السباعي : كانت كثيرةً جداً تفيض بها العواصم والمدن ، بل لم تخلُ بلدةٌ صغيرة في العالم الإسلامي يومئذٍ من مستشفى فأكثر ، حتى إنَّ مدينة قرطبة وحدها كان فيها خمسون مستشفى .

فصحتُ في انبهار :

ـ خمسون مستشفى؟ وفي مدينةٍ واحدة؟ .

أجاب الدكتور السباعي رحمه الله رحمةً واسعة :

ـ أجل يا صادق . . خمسون مستشفى . . وكان هناك مستشفياتٌ للجيش ، ومستشفيات للمساجين ، عدا عن أطباء الخليفة والأمراء والقوَّاد . بل كان عندنا محطاتٌ للإسعاف كانت تقام بالقرب من الجوامع والأماكن العامة التي يزدحم فيها الناس .

صادقة : الله أكبر! . ما أروع حضارتنا! .

السباعي : وكانت المستشفيات العامة تُقسم إلى قسمين منفصلين عن بعضهما البعض : قسمٌ للذكور ، وقسم للإناث ، ولكلِّ قسمٍ قاعاتٌ متعدِّدة ، كلُّ قاعةٍ لنوعٍ معيَّن من الأمراض ؛ فمنها للأمراض الباطنية ، ومنها لطبِّ العيون ، ومنها للجراحة ، ومنها للكسور والتجبير ، ومنها ما كان للأمراض العقلية .

صادق : الله أكبر . . أنا مندهش مما أسمع .

السباعي: وقسم الأمراض الباطنية أو الداخلية كان مقسَّماً إلى غرفٍ أيضاً، فهناك غرفٌ للإسهال، وغرف للحُمِّيات وغير ذلك.

صادقة: يا سلام!.

السباعي: وكان لكلِّ قسمٍ أطباء وعليهم رئيس، فرئيسٌ للأمراض الباطنية، ورئيس للجراحين، ورئيس للكحّالين (أي أطباء العيون). ولكلِّ الأقسام رئيسٌ عامّ يسمَّى (الساعور) وهو لقبٌ لرئيس الأطباء في المستشفى.

صادقة: وهل كان في المستشفيات تلك قاعاتٌ للمحاضرات ياجدي الجليل؟.

السباعي: طبعاً يا بنيّتي.. بل كانت المستشفيات معاهد طبيّة أيضاً، ففي كلِّ مستشفى قاعةٌ كبيرة للمحاضرات، يجلس فيها كبير الأطباء، ومعه الأطباء والطلاب وبجانبهم الآلات والكتب، فيقعد التلاميذ بين يدي معلِّمهم، بعد أن يتفقَّدوا المرضى، وينتهوا من علاجهم، ثم تجري المباحث الطبية والمناقشات العلمية بين الأستاذ وتلاميذه.

صادق: وهل كان لدينا أطباء لكلِّ تلك المستشفيات؟.

السباعي: في بغداد وحدها كان أكثر من ثماني مئةٍ وستين طبيباً في عام ٣١٩هـ ـ ٩٣١م هؤلاء أطباء المستشفيات العامة، يعني عدا أطباء الخليفة والوزراء والأمراء والقوَّاد.

ولا يفوتني أن أذكر لكما أنه كان يلحق بكلِّ مستشفى مكتبةٌ عامرة بكتب الطبّ وغيرها، وكان في بعضها ما يزيد على مئة ألف مجلد.

صادق: الله أكبر.

السباعي: أمّا نظام الدخول إلى المستشفيات، فقد كان مجّاناً للجميع، لا فرق بين غنيٍّ وفقير، وبعيدٍ وقريب، ونابهٍ وخامل.. كان يُفحص المرضى أولاً في القاعة الخارجية، فمن كان يشكو من مرضٍ خفيف، يُكتب له العلاج، ويُصرف له الدواء من صيدلية المستشفى، ومَن

كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى، كان يُقيَّد اسمه، ويدخل إلى الحمَّام، وتُخلع عنه ثيابه فتوضع في مخزنٍ خاص، ثم يعطى ثياباً خاصة بالمستشفى، ويدخل إلى القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى، ويخصَّص له سريرٌ مفروش بأثاثٍ جيد، ثم يُعطى الدواء الذي يعيِّنه الطبيب، والغذاء الموافق لصحته، بالمقدار المفروض له.

صادق: هذا رائع.. رائع جداً.. ولكنْ.. ما الطعام الذي كانوا يقدِّمونه للمرضى؟.

السباعي: لحوم الأغنام والأبقار والدجاج والطيور، وعلامة الشفاء أن يأكل المريض رغيفاً كاملاً، ودجاجةً كاملة في الوقعة الواحدة، فإذا أصبح المريض في دور النقاهة، أُدخل القاعة المخصَّصة للناقهين، حتى إذا تمَّ شفاؤه، أعطي بدلةً من الثياب جديدة، ومبلغاً من المال يكفيه إلى أن يصير قادراً على العمل.

صادقة: ونظافة المستشفى يا جدّي؟.

السباعي: كانت غرف المستشفى نظيفةً تجري فيها المياه، وكانت قاعاته مفروشةً بأحسن الأثاث، وكان لكلِّ مستشفى موظفون مفتِّشون على النظافة، ومراقبون للقيود المالية، وكثيراً ما كان الخليفة أو الأمير يتفقَّد بنفسه المرضى، ويشرف على حسن معاملتهم.

واسمعوا وتصوَّروا روعة تلك المستشفيات..

وتحرَّك الجبل الأشمّ معدِّلاً من جلسته، ثم قال:

ـ من أروع ما في بعض تلك المستشفيات، أنَّ المرضى المؤرَّقين الذين جافاهم النوم، كانوا يُعزلون في قاعاتٍ خاصة، يشنِّفون فيها آذانهم بسماع الألحان الشجيَّة، أو يتسلّون باستماع القصص التي كان يقصُّها عليهم القصَّاصون، وكان الناقهون منهم تُمثَّل أمامهم الروايات المضحكة، ومشاهد من الرقص البلدي، وكان المؤذِّنون في المسجد الملاصق للمستشفى، يؤذِّنون في السَّحَر قبل ميعاد الفجر بساعتين، وينشدون

الأناشيد بأصواتهم النديَّة العذبة، ليخفِّفوا من آلام المرضى الذين يضجرهم المرض والسهر وطول الوقت.

صادقة: هذا والله سموٌّ إنسانيٌّ عجيب، وفطنةٌ طبيّة لأجدادنا العظام، ما عرفها غيرنا إلا في وقتنا الحاضر.

السباعي: واسمعوا هذا الوقف الغريب في مدينة طرابلس.. رَيْعُ هذا الوقف مخصَّصٌ لتوظيف اثنين يمرَّان بالمستشفيات يومياً، فيتحدَّثان بجانب المرضى حديثاً خافتاً ليسمعه المريض، بما يوحي له بتحسُّن حالته، واحمرار وجهه، وبريق عينيه..

فهتفنا صادقة وأنا إعجاباً بهذا الوقف الذي إنما كان لرفع معنويات المرضى، ولتطبيبهم نفسيّاً، وهو ما لم نسمع بمثله حتى وقتنا الحاضر.

السباعي: إننا في حضارتنا كنَّا أسبق من الأوروبيين إلى تنظيم المستشفيات بتسعة قرون على الأقل.. وإنَّ مستشفياتنا قامت على عاطفةٍ إنسانيّة نبيلة لا مثيل لها في التاريخ، ولا يعرفها الغربيون حتى هذه الأيام، وإننا كنَّا أسبق الأمم إلى معرفة ما للموسيقى والأدب المضحك، والإيحاء الذاتيّ من أثرٍ بالغ في شفاء المرضى.

وإننا بلغنا في تحقيق التكافل الاجتماعي حدّاً لم تبلغه الحضارة الأوروبية حتى اليوم، حين نجعل الطبَّ والعلاج والغذاء والكساء للمرضى بالمجَّان، بل حين كنَّا نعطي الفقير الناقه من المال ما ينفق على نفسه حتى يصير قادراً على العمل.

إنَّ هذه نزعةٌ إنسانية بلغنا فيها الذروة، يوم كنا نحمل لواء الحضارة.. فأين نحن منها اليوم؟ وأين منها أولئك الأوروبيون؟!.

قلت معقِّباً على كلام الأستاذ الجليل:

ـ نحن الآن، كما تعلم يا سيّدي، مُخْبَطون، خاملون، وعندما نحاول النهوض، نفاجأ بالعقبات، وتوضع أمامنا العراقيل، ويقسو علينا أولو الأمر، ومن بيدهم السلطان.. نحن الآن في عصر انحدارٍ يا سيّدي، وفهمُك كفاية.

فانتفض الجبل وقال:

ـ حذارِ من اليأس.. حذارِ من الجبن.. حذار من البخل بالمال والوقت والجهد والدَّم في سبيل نهوض أمتكم.. كونوا التيّار الجارف المصمِّم على النهوض، مهما كان الثَّمن.

وأرادت صادقة أن تغيِّر مجرى الحديث، فسألت الرجل العملاق عن الرسالة المحمديّة، وعن أثرها في العرب وعلى العالم، فتدفَّق الينبوع الصافي بهذه الكلمات الوضيئات:

ـ لا يعرف مدى أثر الرسالة المحمديّة على العرب والعالم، إلا الذين أحاطوا بأحوال العرب والعالم قبيل عصر الرسالة، وأحاطوا بما آل إليه أمر العرب والعالم بعد انتشار نورها، وامتداد سلطانها، وأنا لا أستطيع هنا، وبهذا اللقاء العابر، أن أبْسُطَ القول في آثارها وفضائلها، ومدى تأثيرها في تحويل سير الحضارة، وتغيير مجرى التاريخ؛ إذ كيف نجمع أزهى أسفار الإنسانية وأكملها في جلسة؟ أو في جلسات؟ ولكني أرى أن نربط بين ماضينا وحاضرنا، فما رأيكم؟.

صادق: وهل لنا رأيٌ بعد رأيك يا سيّدي؟.

السباعي: هذا لأنَّ تواريخ الأمم الماضية دروسٌ للأجيال المتلاحقة، ونحن لا نقرأ التاريخ لنعرف ما مضى فحسب، بل لنستفيد من تجارب الآباء، ما يكون عظاتٍ صادقة للأبناء.. وتاريخنا أولى التواريخ بأن نعكف على دراسته، وذكرياتنا أولى الذكريات بأن نستفيد من دروسها، فكيف إذا كان هذا التاريخ هو تاريخ النبيّ الذي غرس أنبل معاني الخير في الأرض، فكان نباتها أكمل أبناء الدنيا خُلقاً، وأخلدهم ذكراً في السماء؟.

وكيف إذا كانت هذه الذكريات عن الرسول العظيم ﷺ الذي ابتدأت برسالته حضارة، وانتهت حضارات؟.

صادق: إذن.. تفضَّل وحدِّثنا عن واقع العرب قبل الرسالة ياسيِّدي.

السباعي: لا بأس.

وتحرَّك الجبل على كرسيّه، ثم قال:

ـ يتلخَّص واقع العرب قبيل الرسالة في أوضاعٍ ثلاثة:

أولاً ـ تفكُّكٌ داخليّ، تتجلَّى مظاهـره في فساد العقيدة، وانحلال الروابط، وانتشار بعض المفاسد الخُلقيـة، وانعدام معنى الأمة والدولة، وضعف الصلة بين الفرد والجماعة.

صادقة: عفواً يا سيدي.. قلتَ: بعض المفاسد الخلقية، وأنا أعتقد أنَّ حياة العرب في الجاهلية كانت فساداً في فساد.

السباعي: لا يا بنتي.. كان عند العرب قيمٌ وأخلاق، كالشجاعة، والكرم، والصدق، والأمانـة، والمروءة، والنجدة، وسـواها من مكارم الأخلاق.

صادق: ولذلك قال الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام:

«إنما بُعثْتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق».

السباعي: أحسنت يا بنيّ.

صادقة: وثانياً؟.

السباعي: ثانياً ـ كانت الجزيرة العربية محاطةً بدولتين قويتين هما: الإمبراطورية الفارسيّة، والإمبراطورية الروميّة، وكانت هاتان الدولتان تستخدمان العرب القاطنين في ربوعهما، أو قريباً منهما، لتحقيق مآربهما.

صادق: يعني.. كان أولئك العرب عملاء للفرس أو الروم؟.

السبـاعـي: يعنـي.. أو أنهـم كـانـوا واقعيـن تحـت سيطـرتهمـا واستعمارهما.

صادق: وأين كان يعيش أولئك العرب؟.

السباعي: في العراق والشام.. كان المناذرة في الحيرة، يعني في العراق، وكان الغساسنة في بلاد الشام.. في بُصْرى الشام وما حولها.

صادقة: ثالثاً؟

السباعي: ثالثاً ـ كان لدى العرب توثُّبٌ نفسيّ، واستعداد فطريّ لتلقِّي الخير، والاندفاع وراء القائد البصير، وما مكارم الأخلاق التي ذكرناها قبل قليل، إلا أسلحةٌ ماضية، أي قاطعة، لو وجدت القائد الذي يحسن استخدامها، لكانت خير معينٍ على بناء المجد، وإصلاح الدنيا، وتهديم عروش الفساد.

صادق: وقد وجدتْ في سيدنا محمد ﷺ ذلك القائد.

السباعي: عليه الصلاة والسلام.. فقد اجتمع للرسول القائد ﷺ ذكاء العقل، وسلامة التفكير، وصفاء الذهن، وبُعْد الهمّة، إلى جانب تأييد الوحي، وتربية السماء، ومدد الألوهية، ورعاية الله الذي شاء أن يختم به الوحي والتشريع، ليكون في عصره الرسول القائد، وليكون في تاريخ الإنسانية الرسول الخالد ﷺ.

صادق: هل لك ـ يا سيّدي ـ أن تلخِّص لنا خطة الرسول القائد ﷺ التي عالج بها واقع العرب؟.

السباعي: ألخِّصها إن شاء الله، لأنها مهمّةٌ جدّاً في حياتكم التي تحيونها، وأنتم تسعون إلى استئناف الحياة الإسلامية بعون الله.

وتحرّك العملاق حركةً سريعة عالج بها جلسته وبعض هندامه الأنيق، ثم قال:

ـ أولاً ـ صحَّح العقيدة، وحرَّرها من خرافات الوثنية، وأباطيل الجاهلية.. وتصحيح العقيدة في كلِّ أمة، هو أول حجرٍ يوضع في بناء نهضتها، واستقرار شؤونها.. أجل.. بقي في مكّة المكرّمة ثلاثة عشر عاماً لا ينزل عليه من القرآن إلا ما كان حرباً على الوثنية ودعاتها وأصنامها، ودعوةً إلى التوحيد.

صادق: ووسيلته في ذلك؟.

السباعي: استعان على ذلك بالعقل الذي دعاه إلى الانطلاق، وحثَّه على التفكير، لمعرفة ما يحيط به من عوالم لا نهاية لها.

صادقة: أنا أحفظ عدّة آياتٍ عن العقل، وضرورة التفكير في خلق الله تعالى.

السباعي: قام بعض العلماء بإحصاء الآيات الكريمة، فوجد أنَّ خُمْس آيات القرآن الكريم، يعني (٢٠٪) من الآيات الكريمة، توجِّه الناس لإعمال النظر والعقل في بدائع الخلائق، في الأرض وفي السماء.

صادقة: الله أكبر.

السباعي: وهكذا حرَّك الإسلامُ العقلَ لينطلق باحثاً مفكِّراً، بعد أن كبَّلتْه الوثنية فجعلته أسيراً خامداً.

وسكت الرجل العملاق لحظة، ثم تابع يقول:

ـ هذا أولاً.. وثانياً ـ أنشأ الفرد الكامل، فسما بروحه إلى آفاق الكمال، وهذَّب من طباعه وأخلاقه، فنفى عنها كلَّ ضعيفٍ وفاسد، وقوَّى فيها كلَّ صالحٍ ونبيل، وعُني بصحَّته ونظافته وتربيته تربيةً رياضية سليمة تبعد عنه الأمراض والعلل، وحرَّم عليه الخمور والفواحش ليصون جسمه من المهلكات، لأنَّ كمال النفس بكمال الجسم.

صادق: صدقتَ يا سيّدي، فالعقل السليم في الجسم السليم.

السباعي: أحسنتَ يا ولدي... وكما عُني الرسول ﷺ القائد بروح الفرد وخُلقه وصحَّته، عُني بتقوية الروح الاجتماعية فيه، ومحاربة القبليّة والعائلية والانعزالية في نفسه. وهذه الأمراض هي أقتل الأخلاق الفردية لروح الجماعة، وكيان الأمة.

صادقة: وماذا عن موقف الرسالة والرسول ﷺ من العلم؟ وماذا عن مرض الجهل؟.

السباعي: إنَّ العلم ـ يا أولادي ـ هو مفتاح الكمال الفردي،

فلا تستقيم مع الجهل فضيلة، ولذا دعا الإسلام إلى العلم، وجعله فريضةً على كلِّ مسلم.

صادقة: ومسلمة؟.

السباعي: ومسلمة.. كلمة مسلم تشمل الذكر والأنثى..

صادق: صحيح..

السباعي: وهكذا بدأ رسول الله ﷺ الإصلاح الداخليّ بإصلاح الفرد، فصحَّح عقيدته، ثم حلَّاه بالعلم والأخلاق والصحَّة وسموّ الرّوح، وقوّة العاطفة الاجتماعية في نفسه، ثم التفت بعد ذلك إلى تنظيم المجتمع، فأقامه على أسسٍ عادلة كاملة أُجملها لكم بالتالي:

أولاً ـ صحَّح الميزان الاقتصادي، وحقَّق العدالة الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء، فليس في الدولة الإسلامية فقيرٌ لا يجد الطعام، ولا متشرِّدٌ لا يجد المأوى، ولا عارٍ لا يجد اللباس والكساء، ولا عاطل عن العمل لا يجد النفقة، ولا عاجز لا يجد المعيل، بل كلُّ هؤلاء في رعاية الدولة، تنفق عليهم من بيت مال المسلمين، وتحفظ لهم كرامتهم في المجتمع، وتقيهم شرَّ السؤال والعَوَز والمرض والجهالة.

صادق: يا سلام! ما أعظم ما جاء به الإسلام!.

السباعي: ثانياً ـ صحَّح العلاقة بين الشعب والدولة، فليست الدولة إلا رقيبةً على تصرّفات الشعب، تمنع منها الضارّ، وتشجِّع المفيد، وليس الحاكم إلا أجيراً للشعب، يسهر على راحته، ويعمل من أجل رفاهيته، وليس الرئيس إلا فرداً من أفراد الشعب، جعله الله أكثر أعباءً وواجبات.

صادق: الله أكبر.. لم أسمع بمثل هذا من قبل.

وقالت صادقة، وهي تصعِّد الحسرات:

ـ يا ليت قومي يعلمون حقيقة هذا الدين، وأيَّ سعادةٍ يجلبها لهم لو تمسَّكوا به.

وسألتُ أنا المفكِّرَ العظيم عن حالنا اليوم، فأجاب:

ـ لو أنعمتم نظركم في واقعكم اليوم، لوجدتموه يشبه ـ إلى حدٍّ كبير ـ واقع العرب قبيل عصر الرسالة؛ فالعرب اليوم يعانون تفكُّكاً داخلياً، واضطراباً خارجياً، ولكننا نلحظ في ثنايا هذا الضعف توثُّباً نفسياً، واستعداداً فطرياً لو هُيِّئ له القائد المُصلح، لكان في يده أقوى سلاح، فعلى القادة:

أولاً ـ أن يستفيدوا من ذينك التوثُّب النفسي، والاستعداد الفطري، لتكون حركة الإصلاح منبثقةً من صميم الأمة، وواقعها الحاضر، وشخصيَّتها التي عُرفت بها بين الأمم، لا أن يلفِّقوا لها ثوباً مرقَّعاً كخيام الغجر، رقعةٌ من هذه الدولة، ورقعة من تلك، فإذا الذي علينا ثوبٌ مهلهل، لا هو بالشرقيّ في روعته وجلاله، ولا هو بالغربيّ في أناقته وجماله.

صادقة: ثانياً؟.

السباعي: ثانياً ـ أن ننظِّم بنياننا الداخليّ، فنصلح العقائد، ونهيئ الفرد الكامل، والمجتمع العادل.

صادقة: وثالثاً؟.

السباعي: ثالثاً ـ أن نحرِّر أجزاء وطننا الرازحة تحت أعباء الجهل والفقر والخوف والاستعمار.

رابعاً ـ ننطلق بعد ذلك لنحمل راية الإنقاذ، ونخلِّص العالم من ويلاته، ومشكلاته، وطواغيته ومستبدِّيه.

خامساً ـ أن نوائم بين الماضي والحاضر، فيكون سيرنا إلى الأمام دائماً، مع نورٍ يضيء لنا الطريق، ويجنِّبنا عثرات الظلام.

صادقة: وسادساً؟.

السباعي: أن نستفيد من كلٍّ ما عند الأمم الأخرى، استفادةَ البصير الناقد، لا الأعمى المقلِّد.. يجب أن نستفيد ولا نحبّ، وننقد ولا نقلِّد،

ولنحذر من الإعجاب، فإنه أول خطوات الحب، والحبُّ أول خطوات الاستعباد.

صادقة: يا سلام! ما أعظم هذا الكلام.

السباعي: والآن.. يطيب لي أن أدعوكم وأدعو معكم شباب هذه الأمة، لتوحِّدوا كلمتكم، وتجمعوا شتاتكم، وتقودوا أمتكم إلى ميادين النصر قيادةً بصيرة متَّزنة، لا يقتلها الجمود، ولا ينهكها التطرُّف، وأن توجِّهوا استعداداتكم لثورةٍ فكرية وأدبية، لا تُبقي على الخرافات، ولا تقبل بالتحلُّل، ولا ترضى بالظلم، ولا تطمئنّ إلى آثار الاستعمار.. ولا تنسوا - أيّها الشباب - أنَّ فلسطين هي مفتاح ثورتكم الكبرى، فزيدوا نارها وقوداً، وغضبتها اتساعاً، واجعلوها مبدأ تحرُّركم من الظلم والظالمين، ومن الطواغيت المستبدِّين.

خشينا أن يكون الرجل العملاق قد ختم حديثه بهذه الكلمات، فبادرت صادقة تقول:

- قرأتُ كتابك يا جدّي: (القلائد من فرائد الفوائد) وأفدتُ منه كثيراً والحمد لله.

ابتسم العملاق الوقور، وأشرق نور العلم بكلماته الوِضاء:

- من عادة طلاب العلم، أن يقيِّدوا ما يجدونه من فوائد متناثرة في بطون الكتب خلال مطالعاتهم، يدوِّنونها في أوراقٍ خاصة، يرجعون إليها عند الحاجة، وكان العلماء يقولون لتلاميذهم: «قيِّدوا العلمَ بالكتاب» وقد عملتُ أنا بهذه النصيحة، فتجمَّع لي من ذلك قدرٌ كبير، ضاع أكثره في سنوات السفر والسجن والمرض، مع شدَّة حرصي عليه.

فقلت:

- يا حسرة على ما ضاع.. لا بدَّ أنه كان نفيساً.

ثم سألتْ صادقة عن الهدف من كتابة تلك النُّقول، ما دامت موجودةً في بطون الكتب، فأجابها الشيخ الجليل:

ـ اسمعي يا بنتي . . أولاً ـ العلم صيد، والكتابة قيد، فقيِّدي صيدَكِ حتى لا يفلت منك . . وأنتِ، وصادق، وأنا، وغيرنا، عندما نقيِّد هذه الشذرات، فحتى لا تغيب عن البال . . حتى نستفيد منها كلَّما رجعنا إليها، نستفيد منها في كتاباتنا المستقبليّة .

صادقة : وثانياً؟ .

السباعي : ثانياً ـ كانت لي عدّة أهداف من وراء نشرها في كتاب . . منها تزويد الشباب المسلم بثقافةٍ إسلامية شاملة، تجعل منه مشاركاً للمختصّين في الدراسات الإسلامية، بالمعلومات الضرورية منها، أو المسائل الطريفة فيها . . ومنها إطلاع الشباب المسلم على روائع الخُلق الإسلاميّ الأصيل . . ومنها التوجيه الروحيّ النبيل من معدنه الصافي، لأجيالنا الصاعدة التي تعيش في بيئاتٍ ابتعدت كثيراً عن النبع النمير لنهرنا المتدفِّق، وفي ظلِّ حضارةٍ ماديّة لا تحفل بالقيم الروحية والإنسانية كثيراً، ممّا جعل شبابَنا يعيشون في جوٍّ نفسيّ متأزِّم، يعرِّضهم لكثيرٍ من الانحرافات في سلوكهم الاجتماعي .

ومنها تقوية الشباب المسلم في لغته العربية مادَّةً وأسلوباً، بحيث يستطيع فهم كتاب الله العزيز، وتذوُّق بلاغته، واحتذاء أسلوبه .

صادق : وهل هذا ضروريٌّ لنا نحن الشباب؟ .

فأجاب السباعي العميق الأغوار :

ـ يقيني أنَّ تغيير النفس المسلمة المعاصرة، وتخليصها من العيوب النفسية والخُلقية والفكرية، لن يتمَّ إلا بأن تعود إلى التأثُّر ببلاغة القرآن الكريم، وأسلوبه الرصين، وكلُّ تقويةٍ للغة العربية الفصيحة في أساليبها البليغة، هو تمهيدٌ لصنع المعجزة الإنسانيّة مرّةً أخرى بالقرآن الكريم، ورسوله العظيم ﷺ .

صادق : جميل .

السباعي : ومن أهدافي أيضاً : الترويح عن النفس ببعض المُلَح

المستطرَفة، ممّا يشبه الهزل وما هو بالهزل، فالنفس تملُّ من الجدّ في التفكير، كما يملُّ الجسم من الجدّ في العمل.

كانت عينا صادقة مفتوحتين على الآخِر، وهي تسمع رأي العالم الوقور عن الدُّعابة والنّكات، فسألتْه أن يشرح أكثر، فهي تعرف أنَّ العلماء متزمِّتون لا يمزحون، ولا يسمحون لأحدٍ بالمزاح في مجالسهم، فألقى إليها السباعي الكبير بنكتة، وضحك وضحكنا معه، ثم قال:

ـ إنَّ التحرُّج من المزاح أو الدعابة المحتشمة، كما يفعل بعض المتظاهرين بالوقار، مرضٌ نفسيّ ينشأ من جفاف الروح، وانحراف المزاج، واعتلال الصحّة، وأعظم الناس تزمُّتاً في المجالس العامّة، لا يستغني عن المرح والدّعابة ورواية المُلَح والطرائف والحكايات المضكحة في مجالسه الخاصّة.

صادقة: كلامٌ رائع.

السباعي: وإني أكره أولئك الذين يرون في التزمُّت وعبوس الوجه دليلَ الجدّ، وعنوان الوقار والكرامة. ولو كان هذا صحيحاً، لكان أجدر الناس به رسول الله ﷺ.

وتذَّكرتُ بعض النكات التي سمعتُها من بعض الأساتذة الذين سمعوها بآذانهم، يتبادلها العالمان الكبيران الوقوران: الشيخ محمد الحامد، والشيخ مصطفى السباعي، فهززتُ رأسي الذي امتلأ إكباراً لهذا العملاق المتواضع، فيما كانت صادقة تقول:

ـ ولكنَّ بعض الناس يزيدونها حبَّتين، وهم يمزحون ويقهقهون.

فقال السباعي العميق الأغوار:

ـ أنا أيضاً لا أحبُّ الذين يُفْرِطون في طلب النّوادر المضحكة، وحكايتها، وقتل أوقاتهم في المزاح والدعابة، والخير وسطٌ بين الأمرين.

صادق: خير الأمور أوساطُها.

صادقـة: لكنني لاحظت أنَّ الفوائـد التي ذكرتَها في كتابـك هذا، يا سيدي الجليل، هي من التراث العربي، ولم تذكر شيئاً من التراث الغربيّ الذي أكرهه بشدّة.

السـباعي: لأنني أحببتُ أن يعلم الذين يجهلـون هذا التـراث من مصـادره الأولى، أيَّ خسـارةٍ فكريـة ونفسـية تلحق بهم من جهلهم به، وإعراضهم عنه، ونحن نخوض اليوم معارك ضارية في سبيل الاحتفاظ بسيادتنا، وشخصيتنا، ومقوِّمات حياتنا. والمعركة الثقافية أخطر هذه المعارك، وأبعدها آثاراً.

وسكت الرجل العملاق لحظةً استردَّ فيها أنفاسه، ثم تابع يقول في حماسته التي لم أرَ لها مثيلاً لدى من قابلتُ من المفكرين والعلماء:

- وإذا كانت الأمم الحيَّة لا تعيش في بيتٍ مقفل يسـدُّ عليها منافـذ الهواء والنور، بل تأخذ من كلِّ الثقافات، وتطَّلع على نتائج العقل الإنساني أنَّى كان، وكيفما كان، فإنها تكون أحرص على معرفة تراثها الإنسانيّ، والتَّزوُّد منه، خاصةً إذا كان ذلك التراث عنواناً لحضارةٍ إنسانية من أسمى الحضارات الإنسانية في التاريخ. فإذا رأيتم أمةً تريد الحياة والبقاء والإسهام في ركب الحضارة الإنسانية، ثمَّ هي تزدري أدبها الرائع، وتحتقر تراثها الفنّي، وتهمل نتاجها الفكريّ الخصيب، فاعلموا أنها أمةٌ هازلة، جاهلـة بأقوى عوامل بقائها، ومقوِّمات وجودها، وهي كالتاجر الذي يريد مزاحمة كبار التجار، وليس له ما يتَّجر به.

وسألت صادقة:

- هل تسـمح لنا يا جدي العزيـز أن ننتقل إلى كتـابك القيّم: (هكذا علَّمتني الحياة)؟.

السباعي: كما تحبّين يا ابنتي.

صادقة: متى ألَّفتَ هذا الكتاب الرائع الذي بثثتَ فيه خلاصة تجاربك وفلسفتك في هذه الحياة يا سيّدي؟.

السباعي: كتابي هذا هو عبارةٌ عن خطراتٍ بدأت تسجيلها وأنا في مستشفى المواساة بدمشق في شهر نيسان من عام ١٩٦٢ وكنت بدأت بتسجيلها لنفسي حين رأيتني في عزلةٍ عن الأهل والولد، وعن التدريس والتأليف، وهذه هي عادتي في السجون والأمراض والأسفار.

صادق: تكتب وأنت مريضٌ راقد في المستشفى يا سيّدي؟.

السباعي: لقد أجمع كلُّ الأطباء الذين أشرفوا على علاجي في بلادنا وفي بلاد الغرب، أنَّ من الواجب أن أركن إلى الراحة التامّة، فلا أقرأ، ولا أكتب، ولا أشغل بالي بمشكلات الحياة وهمومها، حتى يُقَدَّر لي الشفاء من مرضٍ كان سببه الأول في رأيهم إرهاق الأعصاب بما لا تتحمَّله.

صادقة: ولكنَّك، يا سيدي، لم تستجب لنصيحتهم، ولم تنفِّذ تعليماتهم، حتى وقع القضاء.

السباعي: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، و﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

صادق: صدق الله العظيم.

السباعي: والموت ـ يا أولادي ـ حقّ، وهو غاية كلِّ حيّ، ولن تموت نفسٌ حتى تستوفي أجلها.

صادقة: كيف كنت تكتب خواطرك هذه يا جدّي؟.

السباعي: كنت أرى المنظر فيوحي إليَّ بالخاطرة أو بأكثر من خاطرة، فأدوِّنها، ثم أرى منظراً آخر فأدوِّن ما خطر لي تعليقاً عليه، وكنت أحياناً أتذكَّر ما مضى من حياتي مع الناس، فأكتب ما استفدت من تجاربي معهم.. كتبتها منساقاً مع طبيعتي التي تحبّ البساطة في كلِّ شيء، وتكره التعقيد في أيِّ شيء. وأنا فيها لست فيلسوفاً ـ كما قلتِ قبل قليلٍ يا صادقة ـ ولا حكيماً، ولا مفكِّراً بعيد الغور في الوصول إلى الحقائق، ولكنني صاحب تجارب عملية في الحياة، استغرقت من عمري أكثر من ربع قرن.

صادق: أذكر أنك، يا سيّدي، تناولتَ في خواطرك، هذه الفنّ والفنّانين، وقد كثر هؤلاء في زماننا كثرةً مخيفة، وهبط الفن الغنائي هبوطاً مريعاً.

صادقة: كلُّ الفنون هبطت وتراجعت.. الغناء، والتمثيل، والسينما وكلُّ شيءٍ اسمه فنّ.

صادق: فهل نسمع رأيك فيما نحن فيه من هذا الوباء؟.

اعتدل الجبل، واهتمَّ الرأس الكبير، وعبَّر الجبين العريض عمّا يعتمل فيه، ثم قال:

ـ البيت القويّ يحتاج إلى الإسمنت والحديد، أكثر ممّا يحتاج إلى الزينة والزخرفة، وكذلك الأمة الناهضة، تحتاج إلى العباقرة في العلم والصناعة، وليس إلى الرقّاصين والمغنِّين.. وليس صدفةً ولا عن حسن نيّة، أن توجَّه طاقات شبابنا وبناتنا إلى الرقص والغناء والرسم، ويكون ذلك محور التوجيه في الصِّحافة والإذاعة والتلفزيون، ولا تُوجَّه إلى العلم والصناعة والاختراع.. إنها خطّةٌ استعماريّة تُنفَّذ من أموال الشعب على أيدي بعض الأغرار من المراهقين والمراهقات، المتهالكين على هذا الغناء الماجن المنحلّ، وعلى هذا الرقص الفاجر المثير، ويطلقون عليه اسم الفنّ، ويذهبون إلى تمجيده والإشادة به، وتسليط الأضواء على كلِّ ماجنٍ مستهتر، استهواءً لشبابنا وفتياتنا، في وقتٍ نحن أحوج ما نكون فيه إلى استهوائهم بالبطولات في مختلف ميادينها.

صادق: ما نحن فيه من وباء الفنّ أخطر مما تتحدَّث به يا سيّدي، فقد تجاوز الناس سائر الخطوط الحمر في تعاملهم مع هذا الفن الرخيص.. فنّ الغناء والرقص.

السباعي: إذن.. دعوني أذكر لكم بعض ما كتبتُه عن فنَّاني زماني، وسترون القواسم المشتركة بين أولئك الفنانين في كلِّ زمانٍ ومكان.

صادق: هات يا سيّدي.

السباعي: ليس أسهل على نفوس الشباب في أمةٍ حديثة الوعي، من إغرائهم بالشهرة عن طريق الفن والرقص، وهذا هو سرّ استجابتهم لإغراء خرافة الفنّ، واستمتاعهم بلذّته.

صادق: صدقت يا سيّدي.

السباعي: وقلت: هل يريد الذين يشجّعون فينا الفنَّ على حساب العلم، أن ننهزم في الحرب، ونتأخَّر في استكمال وسائل القوة؟.

صادقة: نعم يا جدي.. إنهم يريدون ذلك، ويسعون إليه.

السباعي: أنا لم أسمع عن أمةٍ هزمتْ أمةً أخرى بالفنّ، ولكنَّما هزمتها بالقوة. ومن التضليل أن يُعتبر الفنُّ من وسائل القوة.

صادق: يا ليت قومي يعلمون!.

السباعي: ثمَّ إنَّ إسرائيل لاتُعِدُّ لغزونا فرقاً من الراقصات والمغنّيات، ولكنَّها تعدُّ فرقاً من الفدائيين، وأساطيل في الجوّ والبحر، وقذائف للهلاك والتدمير، فهل يفهم هذا المنحلُّون والببغاوات والمتآمرون والكسالى والوجوديون والمستغربون والمفتونون؟.

صادق: لا يا سيّدي.. لن يفهموا..

صادقة: بعضهم يعرف ويحرف، وبعضهم صمٌّ، بُكْمٌ، عُمْيٌ، فهم لا يعقلون.

السباعي: إذن فليسألوا التاريخ: هل أفَلَ نجمُنا إلا يوم سطعت نجوم المغنّين، وقويت دولة الراقصات في سماء حضارتنا؟.

صادقة: ما سقطت دولة العباسيين، وما انهزمنا وسُحقنا في الأندلس، إلا يوم استنام الناس في أحضان المغنّين والمغنّيات، والراقصين والراقصات.

السباعي: ثمَّ.. أيُّ عاقلٍ مخلص هذا الذي يسعى إلى أن يكون لنا نجومٌ في الرقص والغناء والرسم والتمثيل، قبل أن يكون لنا أبطالٌ في

الحروب، وعلماء في المختبرات، ومخترعون في الصناعات، وأقوياء في الإيمان والأخلاق؟.

فالانصراف إلى الفنّ شغل الذين تمَّ لهم البناء، أمّا الذين لم يبدؤوا بالبناء بعد، أو بدؤوا متأخرين، فمن أكبر الجرائم صرفُهم عن الاهتمام بالبناء، إلى الاهتمام بالرسم والغناء، وعن الاختراع، إلى رقص الإيقاع، وعن صنع الحياة، إلى (رسم الحياة).

صادق: يا ليت قومي يسمعون هذا الكلام.

السباعي: أليس من دواعي الأسى، أن تكون لإسرائيل صواريخها، ومفاعلها النووية، ويكون لنا فِرقٌ للرقص والغناء والتمثيل، وليس لنا صواريخ، ولا أفران ذريّة؟.

صادقة: حالتنا تدعو إلى الرثاء.

السباعي: هاتوا جميع الرسامين، والممثلين والمغنين، والراقصين والراقصات، ثمَّ احشروهم جميعاً، وانظروا: هل يردُّون عنّا خطر قنبلةٍ ذرية، أو صاروخٍ موجَّه؟.

ثم ليقولوا لنا: هل يخافنا العدوّ إذا كنّا نحسن الغناء والرقص، أم إذا كنا نحسن صناعة الموت؟.

ولهذا فإني أقول لكلِّ واحدٍ من أولئك اللاهثين وراء الفن:

خذ من أمتنا مئة رسّام، وأعطها طياراً واحداً.

وخذ منها ألف مغنٍّ ومغنّية، وأعطها مخترعاً واحداً.

وخذ منها كلَّ العابثين واللاهين، وأعطها مُجدّاً واحداً.

صادق: يا ليت قومي يقرؤون ويفهمون، ويتدبَّرون ويعملون!.

السباعي: نحن في حاجةٍ إلى مخترعين ومخترعات، أشدّ من حاجتنا إلى فنّانين وفنّانات، ومع ذلك، فكلُّ الجوائز، وكلُّ الفرص، وكلُّ الأنوار تسلَّط على هؤلاء، ويُحرم منها أولئك.

وسكت الطود الأشمّ لحظة، ثم أقبل علينا يلفظ شُواظاً من لهب:

ـ أريد أن أخاطب أولئك الذين لا يسمعون. أو قولوا لهم عني:

أيّها العابثون المراهقون!

أيّها الفنّانون والمغنّون!

أيّتها الراقصات وأيّها الراقصون!

ستكونون أول المنهزمين في معارك البطولات.

ستكونون أول الفارّين منها، إذا لم تُحْيوا قلوبكم بالإيمان، وتفتحوا عقولكم بالعلم، وتسموا بنفوسكم بالأخلاق، قبل أن تنمُّوا أذواقكم بالفنّ، وتُرضوا شهواتكم بالرقص والغناء.

وإذا كان الفنّ يصقل المواهب، وينمّي الشعور بالجمال، فإنَّ الأمة المحاطة بالأعداء، في حاجةٍ إلى ما يفتل السواعد، ويلهب الإيمان، ويقوّي الأخلاق، ويفتح العقول، ويدفع عن الأمة خطر الإبادة أو الاحتلال.

وفيما كان العملاق يصول بنا ويجول، تناهى إلى مسامعنا أصوات تكبيرات العيد، فأنصت لحظة، ثمّ قال في أسى:

ـ لو كبَّرتْ قلوب المسلمين كما تكبِّر ألسنتهم بالعيد، لغيَّروا وجه التاريخ.

ولو اجتمعوا دائماً كما يجتمعون لصلاة العيد، لهزموا جحافل الأعداء.

ولو تصافحت نفوسهم كما تتصافح أيديهم، لقضوا على عوامل الفرقة.

ولو تبسَّمت أرواحهم كما تتبسَّم شفاههم، لكانوا مع أهل السماء.

ولو ضحَّوا بأنانيَّاتهم كما يضحُّون بأنعامهم، لكانت كلُّ أيامهم أعياداً.

ولو لبسوا أكمل الأخلاق، كما يلبسون أفخر الثياب، لكانوا أجمل أمّةٍ على ظهر الأرض.

فهتفنا.. صادقة وأنا وكبَّرنا وهلَّلنا لهذه المعاني الهائلة التي شعَّتْ بها روح العملاق المفكّر بعمق، المدرك لأمراض المسلمين وأسباب تخلّفهم.. ثمّ سألت صادقة:

- من هم أعداء الإصلاح يا عمّي؟.

أجاب العملاق البعيد الغور:

- أعداء الإصلاح في كلِّ مجتمعٍ ثلاث فئات:

فئةٌ ترى في الإصلاح فواتاً لمصالحها المعنوية، من جاهٍ أو رئاسة.

وفئة ترى في الإصلاح فواتاً لمصالحها المادية، من مالٍ وشهرة.

وفئة تضيق عقولها عن استيعاب بواعث الإصلاح وفوائده.

صادقة: وأخطر هذه الفئات على حركة الإصلاح؟.

السباعي: الفئة الأولى.. فإذا اجتمعت الفئات الثلاث على محاربة الإصلاح، كان الإصلاح عبئاً لا يحمله إلا أولو العزم من الرجال، ومعركةً لا يثبت فيها إلا أولو الشجاعة من الأبطال.

صادق: وماذا عن الدعاة؟.

السباعي: الدعاة إلى الله المخلصون الصادقون، يتهافت أبناء الدنيا على رضاهم، ليزدادوا به جاهاً على جاههم، والدعاة الكذَّابون الدجَّالون يتهافتون على أقدام طواغيت الدنيا، ليكسبوا من جاههم جاهاً.

صادقة: وشتّان بين جاهٍ مستمدٍّ من الله، وجاهٍ مستمدّ من الشيطان!.

السباعي: قلوب الدعاة الصادقين شفّافةٌ تُلمح من صفاء وجوههم، وقلوب الدعاة الدجَّالين صلبةٌ تنعكس أشعتها على نظرات عيونهم.

قالت صادقة في امتعاضٍ وقرف:

ـ ما أسوأ الدعاة الكذَّابين المستغلِّين! . إنهم يثيرون قرفي واشمئزازي .

فعلَّق الداعية العملاق الإعصار :

ـ إنكم تتألَّمون اليوم لاستغلال بعض الناس دعوة الإسلام والأخلاق ، من أجل جرّ المغانم لأنفسهم ، من جاهٍ ومال ، ممّا آذى سمعة الإسلام ، وأضرَّ بالدعوة إلى الأخلاق الإسلامية الصحيحة . . لا تتألَّموا من هذه الظاهرة يا أولادي ، بل قاوموها وافضحوها ، فإنَّ استغلال الدين ، واستغلال ذوي السلطان والقوة للمتظاهرين بالدعوة إلى الله لم ينقطع في كلِّ عصور التاريخ ، وبخاصةٍ في تاريخ الإسلام ، ولعلَّكم قرأتم في تاريخ المصلحين كيف كانوا في كلِّ عصرٍ يُحارَبون ويُقاوَمون في دعوتهم من قبل المستغلِّين للدين ، أكثر من أعدائه المجاهرين بعداوته ، ولعلَّكم تعرفون أنَّ أولئك الذين كانوا يقاومون المصلحين ويحاربونهم ، كانوا أكثر قوةً وأشدَّ نفوذاً في الجماهير ممّن يقاومون دعوتكم اليوم أو يستغلُّونها ، حتى إنكم لتجدونهم أقزاماً بجانب أعداء الإصلاح في الماضي . . وقد ذهب أولئك الدجَّالون والطواغيت جميعاً إلى الجحيم ، وبقي المصلحون وحدهم هم خالدين .

قالت صادقة في حياء :

ـ ولكننا نرى الاستغلال في بعض من كنّا نظنُّهم قدوة .

فثار الإعصار وقال :

ـ يا شباب الإيمان! . ستُفْجَعُون في كثيرٍ ممن تعلِّقون عليهم الآمال ، فلا تيأسوا ، فإنما أنتم في تجربةٍ إثر تجربة ، وحسبكم قلوبكم السليمة ، وإخلاصكم النبيل ، ولا بدَّ أن تتمخَّض الليالي عن أملكم المنشود ، فالله أحنى على دعوته منكم ، وأكرم من أن يردَّ دعواتكم ، وأعلم من أن لا تبلغه خفقات قلوبكم .

يا شباب الإسلام! إنَّ الإسلام لم يدخل في معركته الكبرى بعد ، ولن يدخلها إلا يوم يستوثق من تنظيم صفوفكم ، وكفاءة قيادتكم ، وحُسن

طاعتكم، وجودة أسلحتكم، ومعرفتكم لأهداف معركته مع أعداء أمتكم، وتفضيلكم أن تموتوا في المعركة شهداء ترتعون في رياض الجنّة، على أن ترجعوا منها أحياء يزهيكم النصر، وترتعون في مفاتن الدنيا.

قالت صادقة:

ـ نريد سماع المزيد من هذه الحكم والتجارب أيها الحكيم المجرِّب.

فابتسم العملاق في ودّ، وهو يسمع كلمات صادقة، وهدأ قليلاً ثمّ قال ثائراً:

ـ من طبيعة الظالمين أن ينادوا بالحرية ليئدوها، ويتحدَّثوا باسم الشعب ليستعبدوه، ويدافعوا عن الفقير لئلا يصبح غنياً، ويقاوموا الطغيان، ليفرضوا طغياناً أشدَّ وأقسى.

صادقة: هذا عين ما نراه في أيَّامنا يا عمّي.

السباعي: من طبيعة الإنسان ـ إلا من رحم الله ـ أن يطالب بالحرية والعدالة والكرامة حين يكون ضعيفاً مضطهداً، فإذا قوي وتحكَّم، كان طاغيةً جائراً مذلاً لكرامات الرجال.

صادق: هذا ما شاهدناه في حياتنا القصيرة التي عشناها حتى اليوم.

السباعي: الفرق بين المستعمر والطاغية، أنَّ المستعمر يعمل على استغلالك، ثمّ لا يبالي بسخطك، والطاغية يعمل على إذلالك، ثمّ لا يعجبه إلا أن ترضى وتثني عليه.

صادق: وتهتف وتصفّق له، إمعاناً في إذلال الكرامات.

السباعي: الطاغية متألِّه مغرور، لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً.

صادق: وكثيراً ما يكون الغرور أخطر من الخيانة، يورد الشعب موارد الخطر.

صادقة: وقد شاهدتُ في التلفزيون حاكماً مغروراً، يلبس إفرنجياً مثل رجال الكوبوي، ويضع البرنيطة على رأسه، والسيكار الغليظ في فمه،

وهو يزور قريةً جمعوا له فيها البدو المقيمين حولها . . كان متألِّهاً مغروراً، يتحدَّث عن انتصاراتٍ وهميّة في استكبارٍ واستعلاء على البدو الذين وُلد في قريةٍ من قراهم الفقيرة . . والبدو والفلاحون البائسون الفقراء يصفِّقون له ويهتفون، وهم يتمرَّغون في ليل الظلم والفقر والمرض والعوز والمسكنة .

صادق: يهتفون له بألسنتهم، وقلوبهم تلعنه، لأنهم يرون الجلادين من عبيده يحيطون به، وعيونهم تقدح بالشَّرر تجاه أولئك التاعسين البائسين .

السباعي: لا تعجبوا . . فكلَّما خالت الجماهير البطولةَ في إنسان، انكشف لها عن صنمٍ منفوخ تزري عبادته، وتقتل مودّته . . الطاغية - يا أولادي - إلٰهٌ يعبد الشيطان، والطاغية يتزوج الغرور، فيلد ثلاثة أولاد: الحمق، والحقد، والجريمة .

صادقة: وماذا عن الحرية؟ .

السباعي: كلُّ الذين يتباكون على الحرية، هم أعداؤها، أو سيكونون أعداءها .

صادقة: إي والله يا جدي . . أعداء الحرية اليوم هم الذين رفعوها شعاراً من شعاراتهم بالأمس القريب، وما زالوا ينادون بها شعاراً من شعاراتهم اليوم .

صادق: بل هم أعدى أعداء الحرية .

السباعي: تضحِّي الشعوب كثيراً في سبيل حريتها، فإذا نالتها، سجنها الطغاة باسم حماية حريتها . ومن أكبر الخرافات التي تروج في عصرنا الحاضر، أن تسمَّى دكتاتورية الحكم ديمقراطية، وإفقار الشعب اشتراكية، وانحلال الأخلاق تقدُّميّة، وشرُّ الحقد حقدُ الحاكم على خيار الشعب، ومَن أقام حكمه على الحقد والغدر والخداع والكذب، فقد أقامه على حجرٍ متدحرج . ثمّ . . إنَّ لله سيوفاً تقطع رقاب الظالمين، منها أخطاؤهم وحماقاتهم .

صادقـة: زدنا علماً وفقهاً بالظلم والظالمين، زادك الله علماً وفهماً وعدلاً أيها الإعصار الحكيم.

السـباعي: النظام الدكتاتوري حاكمٌ له مظاهر الألوهيـة، وأفعال الشياطين، وشعبٌ تعداده ملايين الأجسام، وله عقل واحد، وأرضٌ تزرع ملايين الفدادين، يسكنها ظالمٌ واحد، ودولةٌ فيها ملايين العبيد، يحكمها جلّاد واحد، وتاريخٌ كان يكتبه الملايين من الصادقين، فاحتكر كتابته كذّابٌ واحد.

صادقة: هائل!.

السـباعي: الدكتاتوريـة: إلغاء ملاييـن العقول، والاكتفـاء بعقل واحد، والازدراء بملاييـن الآراء، وتمجيد رأي واحد، وإهمال ملاييـن الفعّاليات، واستعمال فعّالية واحدة.

صادقة: عظيم جداً يا جدّي الحكيم.

السباعي: والدكتاتورية أعجب عملية (تقمُّص) في تاريخ العقائد: تتقمَّص الملايين في شخص واحد، فتسافر إن سافر، وتقيم إن أقام، وتبكي إن بكى، وتسخف إن سخف، وتهوي إذا هوى.

صادقة: وتحيا إذا مات.

السباعي: هذا لأنَّ العامّة سفينةٌ شراعية تتّجه مع الريح أنَّى اتَّجهت.. ثمَّ إنَّ كبرياء الطغاة من ذلَّة الشعب، وحياتهم من موته، والجماهير الجاهلة تمكِّن جزَّاريها من رقابها وهي تصفِّق لهم.

صادق: الله أكبر! ما أفظع هذه الحقيقة المُرَّة!.

السباعي: والطاغية يتحدَّى صفات الألوهيّة والنبوّة.

صادق: كيف؟.

السباعي: إنَّ الله حين أراد أن يخلق آدم، أخبر الملائكة.

صادق: صحيح.

السباعي: والرسول القائد ﷺ حين أراد أن يخوض معركة بدر، استشار أصحابه.

صادق: صحيح.

السباعي: والله يرحم عباده، والرسول يشفق عليهم، أمّا الطاغية، فلا يخبر بل يأمر، ولا يستشير بل يشير، ولا يرحم ولا يشفق، بل يظلم ويُعنت.

صادقة: استنتاجٌ هائل.

السباعي: والدكتاتورية أبشع ردّةٍ في عصر الذرَّة، إلى عصر الاسترقاق الجماعيّ في العصر الحجريّ الأول.

صادق: وكلُّ الدكتاتوريين جاؤوا على دبابةٍ ومدفع، في انقلاباتٍ عسكرية.

السباعي: هذا صحيح.. فالانقلاب أن تتكلم البندقية بدلاً من اللسان، ويُقنِع المدفع بدلاً من البرهان، ويجتمع السياسيون في السجن بدلاً من البرلمان، وتتحكَّم الأحذية الغليظة في العقول والأذهان.

صادق: هذا هو الواقع المعيش يا سيّدي.

صادقة: هل من مزيدٍ يا جدي الحكيم؟.

السباعي: هل تعرفان دوابّ الشيطان ومطاياه؟.

وتطلَّع العملاق الحكيم في عيوننا، ثم تابع يقول:

ـ إنَّ للشيطان دوابَّ يمتطيها، ليصل بها إلى ما يريد من فتنة الناس وإيذائهم. منها علماء السُّوء، ومنها جهلة المتصوِّفة وزنادقتهم، ومنها محترفو السياسة، ومنها طالبو الزعامة، ومنها طواغيت الحكم وزبانيتهم، ومنها المنحلُّون والملحدون من الأدباء والشعراء، ومنها المدَّعون للفلسفة

والحكمة، ومنها الفنّانون في الرقص والغناء، ومنها المرتزقون بالصحافة، ومنها الأغبياء في التفكير، ومنها الآكلون باللحى والعمائم.

وسعل العملاق سعلةً خفيفة، واضعاً ظهر كفِّه على فمه، ثم قال:

ـ وأقوى هذه الدوابّ، وأسرعها خطًى: الشيوعيون والاشتراكيون، وأضعفها وأقصرها مدًى: مجرمو الفقر والتشرُّد والجهالة.

وسألتْ صادقة:

ـ من أين يؤتى الحقُّ يا جدّي؟.

السباعي: لا يؤتى الحقُّ إلا من الدُّخلاء في حشوده، والأغرار في قيادته، والنائمين في حراسته، والفساد في أسلحته.

صادق: وماذا عن القادة والقيادة؟.

السباعي: حين تخلو الساحة من الأبطال، يتمنطق بالسلاح كلُّ جبانٍ خوَّار، وحين تخلو من الزعماء، يتصدَّى للقيادة كلُّ سفيهٍ غرير، وحين تخلو من الأمناء، يتظاهر بالوفاء كلُّ خوَّانٍ حقير، وحين تخلو من الحكماء، يدّعي الفلسفةَ كلُّ جاهلٍ مغرور، وحين تخلو من المجاهرين بالحقّ، يصول فيها كلُّ طاغيةٍ لئيم.

صادق: جميل.. رائع..

السباعي: وإذا تصدَّى للزعامة صغار العقول، سفهاء الأحلام، كان ذلك علامةً على طغيان الأهواء، وانحلال الأخلاق، وتفسُّخ المجتمع.

صادق: بديعٌ جداً.

السباعي: قيادة الأغرار تؤدّي إلى الانهيار، وقيادة الموتورين تشعل النار، وتؤدّي إلى الدَّمار.

صادق: الله أكبر!. هذا تلخيصٌ للواقع.

السباعي: أصعب شيءٍ على السياسيّ المستقيم، أن يرى الدجَّالين

في السياسة، يستهوون الغوغاء بكاذب القول، ومعسول الوعود.

صادق: إنهم هم.. هم.. طغاةٌ ودجَّالون.

السباعي: الحقد الشخصيّ يقتل صاحبَه كمداً، والحقد السياسيّ يعوق المجتمع عن سيره الصحيح، وحقد الطاغية يدمِّر الأمة تدميراً.

صادق: الله أكبر.. أنت تتحدَّث - يا سيّدي - عن أحوالنا.. عن طواغيتنا.

السباعي: والطاغية يحقِّق لأعداء الأمة من المكاسب، ما لا يستطيعونه بالانتصار في المعارك.

صادق: إي والله.. هذا ما حصل.. دمَّر الطواغيت أمتنا، وحقَّقوا لأعدائنا ما لم يكونوا يحلمون به في يومٍ من الأيام.

السباعي: الطاغية يذلُّ الأمة، ويعزُّ أعداءها.

صادق: وأيُّ ذلٍّ يا سيدي!. إنهم، وأولادهم، وأقرباءَهم، وأعوانهم، ما تركوا لأمتنا كرامة.. أزهقوا الأرواح البريئة، واغتصبوا أعراض الطاهرات العفيفات، وسلبوا الأموال، وأذلّوا الكرامات، وفعلوا ما لم يفعله أعداؤنا التاريخيون المجاهرون بعداوتنا، ولا المستعمرون، ولا الذين احتلُّوا ديارنا..

السباعي: حسبُ الأمّة شقاءً بالطاغية، أن يميت أحرارها، ويُحْيي أشرارها.

كانت الدموع تغسل خدَّيْ صادقة، وهي تستمع إلى الرجل الحكيم الذي يلخِّص واقعنا المأساوي بدقَّةٍ دقيقة، بينما كان العملاق يقول:

- حكمُ الطغيان يكشف الدَّناءة المستورة، والحقارة المغيَّبة، كما يكشف الرجولة المغمورة، والفضيلة المشهورة، ولولا الطغاة لما عرفنا أدعياء الحرية من شهدائها، ولا أصدقاء الشعب من أعدائه، ولالتبس على كثيرٍ من الناس مَنْ بكى ممَّن تباكى.

صادق: زدنا، يا سيّدي، فأنت تشفي غليل قلوبنا بحديثك هذا عن الطغاة.

السباعي: لا يخاف الطاغية من شيء، كما يخاف من الحقيقة، ولذلك لا يعتمد على شيءٍ كما يعتمد على الكذب والتمويه، ولا يكره شيئاً كما يكره الصدق والصراحة.

صادق: أصلاً.. لا يترك في بطانته وأعوانه صادقاً ولا صريحاً.. بل لا يجرؤ نائبه إبداء أيّ رأيٍ في حضرته، فالقتل مصير من يقرأ في وجهه، أو يلمح في كلماته عدم الرضى عمَّا يفعل أو يأمر بفعله.

السباعي: في الطغاة صغارٌ وكبار، وصغار الطغاة شرٌّ من كبارهم، وقد يحارب الطاغيةَ مَن كان عوناً له بالأمس، فلا يخدعنَّكم حربُه له، فلو استطاع أن يكون طاغيةً مثله، لظلَّ له وفيّاً.

صادق: هذه معرفةٌ عميقة بنفوس الطغاة.

السباعي: كلُّ إنسانٍ راضٍ بعقله الذي خصَّه الله به، إلا الطاغية، فإنه يأبى إلا أن تصنع يده له عقلاً جديداً، ومن عجيب عقوبة الله له: أن يكون عقله المصنوع، أبلدَ من عقله المطبوع.

صادقة: خيبة الله عليهم.

السباعي: والطغاة يصنعون الأوهام في عقول الأمة، لتستسيغ (وَهْمَ) عظمتهم، وما يستسيغها إلا سفهاء الأحلام والسخفاء.

صادقة: ولكننا نرى كثيراً من المثقفين والعلماء يسيرون في ركاب الطغاة.

وهنا تحرَّك الجبل فوق كرسيّه، وهبَّتْ أعاصير الكرامة على لسانه الذي انطلق يقول:

أولاً: إنَّ الله يعاقب على المعصية في الدنيا قبل الآخرة، ومن عقوبة الله للمجتمع الذي تفشو فيه المعاصي والمظالم، أن يسلِّط عليه الأشرار

والظالمين، من الطغاة وأعوانهم من العلماء والمثقَّفين وسواهم، فأكبر عقوبةٍ للأمة المتخاذلة وجود الطغاة بينها.

ثانياً: لا يتهافت على فُتات عهد الطاغية، إلا الذين لا يجدون ما يأكلون في عهود الحرية، ولا يعتزُّ بالسَّير في ركاب الطاغية، إلا الذين تدوسهم مواكب الأحرار، فعبيد الطاغية يدافعون عنه، إبقاءً على حياتهم، لا على حياته.

صادقة: رائع.. ولن يفلتوا جميعهم من العقوبة في الدنيا قبل الآخرة إن شاء الله.

السباعي: ثالثاً: لا تعجبوا من مغمورين سلَّط عليهم الطاغية بعض الأنوار، أن يحرقوا له البخور، ويمشوا بين يديه بالمزمار، فلولاه لظلُّوا في الظلام مغمورين ليس لهم نهار، إذا الأحرار كان لهم نهار.

صادق: جميلٌ جداً.. ثمَّ ماذا يا سيّدي؟.

السباعي: رابعاً: من علامات انحدار الأمة، أن يتمكَّن أشرارها من حكمها، ثمَّ يتسلَّط هؤلاء الأشرار بعضهم على بعض، فيشغلوها بأحقادهم ومطامعهم عن علاج مشكلاتها، ودرء الأخطار المحدقة بها.

صادق: وعن التنمية التي داستها مطامع الأشرار وخصوماتهم، فيما كان العدوّ الصهيونيّ يعمل ليل نهار في تنمية موارده، وفي مفاعلاته الذريَّة، وفي تطوير أسلحته الجهنَّميَّة.

السباعي: أكبر أعوان الطاغية (سكوت) الصالحين، و(كلام) الطالحين.

صادقة: هذا صحيحٌ جداً.

السباعي: ولكنْ.. هل تعرفون أنَّ أكثر الناس ضحكاً على الطاغية في قرارة أنفسهم، هم المنتفعون منه، ويوم يزول، يكونون أكثر الناس لعناً له، إلا أن يكون فيهم ذِماءٌ من الوفاء والحياء.

صادقة: وقلَّ أن يكون عند أعوان الطغاة أثرٌ منهما.

صادق: هل هناك حكمةٌ في التمكين للطغاة؟ .

السباعي: قد يكون من حكمة الله في التمكين للطغاة، أن تقتنع الجماهير أنَّ حكم الشورى أسلمُ طريقٍ بنَّاء للوصول إلى الاستقرار، فلا تُفتن ـ بعد ذلك ـ بمظاهر (البطولة) أبداً.

صادق: هل من أملٍ في أن نرى مصارع الطغاة في حياتنا ياسيِّدي؟ .

السباعي: من لوَّث يده بدم الأخيار، أزال الله عِزَّه بأيدي الأشرار.

وإذا أراد الله أخْذ طاغية، زاده عناداً وغروراً.

وفي أحلاك الظلام التي يدبِّر فيها الطغاة مؤامراتهم، تلاحقهم أعين الحقّ، فتفضحهم بغتةً وهم آمنون.

وأول صوتٍ يرتفع من المضطهَدين، هو بدء نهاية الطغاة والظالمين.

صادق: ولكنَّ الناس معهم.

السباعي: الناس معادن، خيارهم في السرّاء، خيارهم في الضرّاء، وخيارهم في التولية، خيارهم في العزل، وخيارهم في الجاه، خيارهم في الخمول، وخيارهم في القوّة، خيارهم في الضّعف، وخيارهم في الجنديّة، خيارهم في القيادة.

صادقة: ومعهم المال.

السباعي: المال سلاحٌ فتّاك، إن كان بيد المؤمن العامل، فهو سلاحٌ ضدَّ الشرّ والحرمان، وإن كان بيد السفيه الفاجر، فهو سلاحٌ ضدَّ الخير والإحسان، وإن كان بيد الطاغية، فهو سلاحٌ ضدَّ الخُلق والحقّ والحرية والأمان.

صادق: ومعهم الدول الكبرى.

السباعي: مشكلتنا مع هذه الدول الكبرى، أنها تطعمنا ما لا تأكل، وتكسونا ما لا تلبس، وتعطينا ما لا تأخذ، وتحيينا فيما تكره، وتدعم من

أشقيائنا من تشنق أمثالهم في بلادها.

ونفخ جبل الكرامة شُواظاً من نار قلبه، ثم قال:

ـ من عقوبة الله للطاغية، أن يفضحه ويكشف تهريجه مَن كانوا سبباً في فرض طغيانه، ومن عقوبة الله لهم، أن يفضحوا بأنفسهم صمتهم وطاغوتهم.

صادقة: ولكن بعد خراب البصرة.. بعد تدمير الإنسان.. بعد تدمير الأوطان.. بعد ثلاثين سنة يسمحون بنشر الغسيل الوسخ لأولئك الأوغاد.

السباعي: أساس نكبة أمتنا في القديم والحديث: حكّامها الظالمون، وأذكياؤها المنافقون، وعلماؤها الغافلون.. استعمار الأجنبيّ يخلق في الأمة روح الكفاح، وطغيان الحاكم يقضي على هذه الروح.. ولكنْ.. من اطمأنَّ إلى القوة فهو مغلوب، ومن اطمأنَّ إلى الجاه فهو مخلوع، ولا يدوم لطاغيةٍ سلطان.

وتنحنحت صادقة، فالتفت إليها الرجل العملاق، وسألها عمّا بها، فقالت:

ـ الحقّ.. إنَّ قضية المرأة تشغلني كثيراً، وأظنُّها تشغلك أيضاً يا جدّي العزيز.

تحرَّك الرجل العملاق في كرسيِّه، ثم قال:

ـ قضية المرأة، يا بنتي، هي قضية كلِّ أبٍ وكلِّ ابن، وما دام في الدنيا آباءٌ وأبناء، ففي الدنيا احترامٌ عميق لكرامة النساء، فاسألي عنها ما بدا لك، لأنها تهمّني جداً، وموقفي منها هو موقف المدافع عن كرامتها، وحقوقها المشروعة، وكنت أحاول دائماً إبعادها عن مجال الاستغلال لأنوثتها، بما يرهقها، ويؤدّي إلى شقائها، رجاء ألاّ تقع فيما وقعت فيه أختها في الحضارة الغربية، ممّا ضجَّ منه عقلاؤها ومفكِّروها الأحرار.

ـ عظيم..

ـ ثم إنَّ قضيّة المرأة هي قضية كلِّ مجتمع في القديم والحديث،

فالمرأة تشكِّل نصف المجتمع من حيث العدد، وهي أجمل ما في المجتمع من حيث العواطف، وأعقد ما في المجتمع من حيث المشكلات، ومن هنا كان من واجب المفكّرين أن يفكّروا في قضيتها دائماً على أنها قضية المجتمع، أكثر ممّا يفكّر فيها على أنها قضية جنسٍ مبهج.

بدت الحماسة ظاهرةً على صادقة، وهي تسمع هذه الكلمات المشجِّعات، فسألت:

ـ ماذا عن مكانة المرأة وحقوقها قبل الإسلام؟.

فأجاب المفكّر العملاق:

ـ إنَّ المرأة قبل الإسلام، لم تنل مكانتها الاجتماعية، وحقوقها القانونية التي تستحقّها، بما يتّفق مع رسالتها العظيمة التي خُلقت من أجلها، ولا مع مكانتها التي ينبغي أن نعترف بها.

ـ مثلاً؟.

ـ مثلاً.. خذي المرأة عند اليونان.. كانت محرومةً من الثقافة، لا تسهم في الحياة العامة بقليلٍ ولا كثير، وكانت محتقرة، حتى سمَّوها رجساً من عمل الشيطان، أمّا من الوجهة القانونية، فقد كانت المرأة عندهم كسَقَط المتاع، تباع وتُشترى في الأسواق، وهي مسلوبة الحرية والمكانة في كلِّ ما يرجع إلى حقوقها المدنيّة، ولم يعطوها حقاً في الميراث، إلى آخر ما هنالك من المخازي والمظالم التي أنزلوها بها.

ـ أعوذ بالله.

السباعي: وسوف تستعيذين بالله أكثر، عندما تعلمين أنَّ المرأة، في أوج حضارة اليونان، قد تبذَّلت، واختلطت بالرجال في الأندية والمجتمعات، فشاعت الفاحشة، حتى أصبح الزنى غير منكر، وحتى غدت دور البغايا مراكز للسياسة والأدب.

صادق: أعوذ بالله من هذا الاستغلال للمرأة، واللّهاث وراء الشهوات.

السباعي : وفي أيام الرومان كانت حال المرأة كحالها أيام اليونان، بل أسوأ. وفي شريعة حمورابي كانت المرأة تُحسب في عداد الماشية المملوكة، حتى إنَّ من قتل بنتاً لرجل، كان عليه أن يسلِّم بنته إلى وليّ المقتولة، ليقتلها أو يتملَّكها.

صادقة : يا لطيف . . شريعةٌ همجيّة.

السباعي : وعند الهنود، وفي شريعة مانو، تبقى المرأة قاصرةً طوال حياتها، ولم يكن لها حقٌّ في الحياة بعد وفاة زوجها، بل يجب أن تموت يوم موت زوجها، وأن تُحرق معه وهي حيّةٌ على موقدٍ واحد.

صادق : وهل ما يزال هذا الأمر معمولاً به حتى الآن؟.

السباعي : لا . . فقد استمرت هذه العادة حتى القرن السابع عشر، ثم أُلغيت على كرهٍ من رجال الدين الهنود . . وكانت المرأة تُقدَّم قرباناً للآلهة لترضى، أو تأمر بالمطر أو الرزق.

صادق : يا لطيف! . ما هذا التخلُّف؟.

السباعي : وفي بعض مناطق الهند القديمة شجرة، يجب أن يقدِّم لها أهل المنطقة فتاةً في كلِّ سنةٍ لتأكلها.

صادقة : أوباش.

السباعي : وجاء في شرائع الهندوس : «ليس الصبر المقدَّر، والريح، والموت، والجحيم، والسُّمُّ، والأفاعي، والنار، أسوأ من المرأة».

صادقة : أوباش.

السباعي : واليهود يعتبرون المرأة لعنة، لأنها أغوت آدم، وقد جاء في توراتهم : «المرأة أمرُّ من الموت، وإنَّ الصالح أمام الله ينجو منها، رجلاً واحداً بين ألفٍ وجدتُ، أمَّا امرأة، فبين كلِّ أولئك لم أجد».

صادقة : أعوذ بالله من شرورهم.

السباعي: وكانت بعض طوائف اليهود تعتبر البنت في مرتبة الخادم، وكان لأبيها الحقُّ في أن يبيعها قاصرة، وما كانت ترث إلا إذا لم يكن لأبيها أبناء.

صادقة: أوباش.

صادق: وعند النصارى؟.

السباعي: لقد هال رجالَ المسيحية الأوائل ما رأوا في المجتمع الروماني من انتشار الفواحش والمنكرات، وما آل إليه المجتمع من انحلالٍ أخلاقي شنيع، فاعتبروا المرأة مسؤولةً عن هذا كلِّه، وقرَّروا أنَّ الزواج دنسٌ يجب الابتعاد عنه، وأعلنوا أنَّ المرأة باب الشيطان، وأنها يجب أن تستحيي من جمالها، لأنه سلاح إبليس للفتنة والإغراء.

صادقة: ما هذا؟

السباعي: وفي عام ٥٨٦م أي في أيام شباب النبيّ ﷺ، عقد الفرنسيون مؤتمراً للبحث: هل تُعدُّ المرأةُ إنساناً أم غير إنسان؟ وأخيراً قرَّروا أنها إنسانٌ خُلقتْ لخدمة الرجل فحسب.

صادقة: شيءٌ يثير الغثيان.

السباعي: وكان القانون الإنكليزي حتى عام ١٨٠٥م يبيح للرجل أن يبيع زوجته، وقد حُدِّد ثمن الزوجة بستة بنسات (أي نصف شلن = ربع ليرة سورية).

صادقة: أوباش.

السباعي: ولمّا قامت الثورة الفرنسية، في نهاية القرن الثامن عشر، لم تشمل بحنوُّها المرأة، فنصَّ القانون المدني الفرنسي على أنَّ المرأة ليست أهلاً للتعاقد دون رضا وليِّها، وعلى أنَّ القاصرين هم: الصبيّ والمجنون والمرأة.

صادق: وعند العرب؟.

السباعي: كانت المرأة في الجاهلية مهضومةً في كثيرٍ من حقوقها، فليس لها حقُّ الإرث، وليس لها على زوجها أيُّ حقّ، وكانوا يتشاءمون من ولادة الأنثى، وكانت بعض القبائل تئدها خشية العار أو الفقر.. إلى غير ذلك من الأمور المهينة لها.

وانبرت صادقة تقول بحزنٍ وألم:

ـ دعنا، يا جدّي العزيز، من هذه المواقف والتشريعات المخزية، وحدِّثنا عن المرأة في ظلِّ الإسلام العظيم.

ابتسم الرجل العملاق ابتسامته الآسرة، ثم قال:

ـ معكِ كلُّ الحقِّ يا بنتي، فالحديث عن أوضاع المرأة في المجتمعات الجاهلية مؤلمٌ جداً، ولذلك، سأنتقل إلى الحديث عن ذلك الصوت المنطلق من السماء على لسان محمد ﷺ، ليضع الميزان الحقّ لكرامة المرأة، ويعطيها حقوقها كاملةً غير منقوصة، ويرفع عن كاهلها وزر الإهانات التي لحقتْ بها عبر التاريخ، ويعلن إنسانيتها الكاملة، وأهليتها الحقوقيّة التامّة، ويصونها من عبث الشهوات، وفتنة الاستمتاع بها استمتاعاً حيوانياً جنسياً، ويجعلها عنصراً فعَّالاً في نهوض المجتمعات، وتماسكها، وسلامتها.

صادقة: عظيم.. فهل تلخِّص لنا، يا عمَّنا العزيز، المبادئ الإصلاحية التي جاء بها الإسلام، حول المرأة؟.

السباعي: أستطيع تلخيص تلك المبادئ بما يلي:

أولاً ـ المرأة كالرجل في الإنسانية، سواء بسواء.

ثانياً ـ دفعَ الإسلامُ عنها اللعنة التي كان يلصقها بها رجال الديانات السابقة، فلم يجعل عقوبة آدم بالخروج من الجنّة ناشئاً منها وحدها، بل منهما معاً.. من آدم وحواء، عليهما السلام.

ثالثاً ـ جعل المرأة أهلاً للتديُّن والعبادة ودخول الجنّة، إن أحسنتْ،

ومعاقبتها إن أساءت، كالرجل سواء بسواء.

رابعاً ـ حارب التشاؤم بها، والحزن لولادتها.

خامساً ـ حرَّم وأدها، وشنَّع على ذلك أشدَّ تشنيع.

سادساً ـ أمر بإكرامها، بنتاً، وزوجة، وأمّاً، وأختاً..

سابعاً ـ رغَّب في تعليمها كالرجل.

ثامناً ـ أعطاها حقَّ الإرث، أمّاً، وزوجة، وبنتاً، وأختاً، كبيرةً كانت أو صغيرة، أو حملاً في بطن أمِّها.

تاسعاً ـ نظَّم حقوق الزوجين، وجعل لها حقوقاً كحقوق الرجل.

عاشراً ـ نظَّم قضيّة الطلاق بما يمنع تعسُّف الرجل فيه.

حادي عشر ـ حدَّ من تعدُّد الزوجات، فجعله أربعاً، وكان عند العرب وغير العرب غير مقيَّدٍ بعددٍ معيَّن، وشرط العدل بينهنّ، وإلا.. فواحدة.

ثاني عشر ـ جعلها قبل البلوغ تحت وصاية أوليائها، وجعل ولايتهم عليها ولاية رعاية وتأديب وعناية بشؤونها، وتنميةٍ لأموالها، لا ولاية تملُّكٍ واستبداد. وجعلها بعد البلوغ كاملة الأهليّة للالتزامات المالية، كالرجل، سواء بسواء.

وسكت الرجل العملاق لحظات، ثم تابع يقول:

ـ ونتيجةً لهذه المبادئ، يحقُّ للمرأة المسلمة أن تفاخر نساء العالم قاطبة، بسبق تشريعات الإسلام المنصفة وحضارته الإنسانية السامية جميعَ شرائع العالم وحضاراته إلى تقرير حقوقها، والاعتراف بكرامتها، اعترافاً إنسانياً نبيلاً لا يشوبه غرضٌ ولا هوى، ولا يدفع إليه قسرٌ ولا ضرورة.

صادق: يا سلام!. معلوماتٌ رائعة، سوف أحفظها، وأفهمها جيداً، وأفاخر بها زملائي، وأعلِّمهم إياها إن شاء الله.

السباعي: لكَ هذا يا بنيّ، فعلى ضوء هذه المبادئ الإصلاحية

الجذرية التي أعلنها الإسلام، قام في الدنيا لأول مرّة، مجتمعٌ تُحترم فيه المرأة كإنسانٍ كامل الأهلية، وتلقى من المجتمع الاحترام اللائق بها، زوجةً وأمّاً صانعةً للأبطال والعظماء، وتصان سمعتها عن اللّغط والأقاويل السيّئة، بعدم اختلاطها المشبوه بالرجال، إلا في أماكن العبادة، ومجالس العلم، ومعارك التحرير . .

صادقة: ومعنى هذا جواز اختلاط النساء مع الرجال في هذه المواطن! .

السباعي: نعم . . وفي هذه الأماكن كانت لها مجالسها الخاصة بها، ولباسها المحتشم، ووقارها المتديّن، فما كانت تتعلّق بها العيون، ولا تتطلّع إليها النفوس، بل كانت إذا مرّت يغضُّ الرجالُ عنها أبصارَهم حياءً، وإذا جلست تنصرف عنها الوجوه احتراماً، وإذا حاربت، تخفق لها القلوب إكباراً واحتراماً.

صادق: هذا في عصور الازدهار، فهل كان كذلك شأنها في عصور الانحطاط؟ .

السباعي: لا . . فقد أُهملت المرأة في عصور الانحطاط، وعُطِّلتْ عن أداء رسالتها الاجتماعية التي حمَّلها إياها الإسلام، ولكن . . ينبغي أن نلاحظ أنه في تلك العصور المظلمة، بقيت حقيقتان قائمتان:

صادقة: أولاهما؟ .

السباعي: أولاهما: أنَّ حقوقها التي قرّرها الإسلام ظلّت مقررةً في كتب الفقهاء، برغم أنَّ المجتمع لم يكن ينفِّذ منها كثيراً، وهذا لأنها حقوقٌ ثابتة جاء بها تشريعٌ إلـهيّ خالد لا يجوز عليه التغيير والتبديل.

صادق: وثانيتهما؟ .

السباعي: ثانيتهما: يا أولادي، أنَّ عفّتها، وسمعتها العطرة، وقيامها بواجبها في أسرتها، ظلّت مستمرةً خلال هذه العصور، برغم كلِّ

الاضطرابات والانحرافات التي أصابت المجتمع الإسلامي في عصور الانحطاط.

صادقة: وفي هذا القرن العشرين يا جدّي العزيز؟.

السباعي: في هذا القرن بدأ اتصالنا بالحضارة الغربية، فاتجهت أفكار المصلحين الاجتماعيين إلى معالجة قضيّة المرأة عندنا، بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه منذ عصور الانحطاط، من الإهمال، والافتئات على كثيرٍ من حقوقها، حتى غدت عاطلةً عن أيِّ تأثيرٍ فعّال في تطوُّر مجتمعنا، والنهوض بأمتنا.

صادقة: وكيف سلك المصلحون في معالجة قضية المرأة؟.

السباعي: كانوا فريقين مختلفين في كثيرٍ من الآراء الإصلاحية.

فأمّا الفريق الأول: فيتمثَّل في الذين درسوا الإسلام، وعرفوا ما جاء فيه من إصلاحٍ عظيم لشؤون المرأة، والذين آمنوا بوجوب احتفاظ المرأة عندنا بخصائصها العربية الإسلامية.. هؤلاء نادوا بوجوب الاستفادة من تراث الإسلام، وتجارب الأمم، في إصلاح المرأة وإنهاضها.

صادق: والفريق الثاني؟.

السباعي: تمثَّل الفريق الثاني في أولئك الذين بهرتهم الحضارة الغربية، وغرَّتهم مظاهر حياة المرأة الغربية، فانطلقوا ينادون بوجوب اتباع النهج الغربي في رقيّ المرأة عندنا، وإنهاضها من كبوتها.

صادق (على استحياء): ما رأيك، يا سيّدي، في الزواج المبكِّر للشبّان والشابات؟.

تبسَّم الرجل العملاق، وهو يطالع في وجهي الحياء من هذا السؤال الذي ما سألته لنفسي، بل لأعرف رأيَ هذا الرجل الحكيم في هذه المشكلة التي أراها في عشرات الشبّان من أقاربي.. ثم قال السباعي العظيم:

ـ أنا من أنصار الزواج المبكِّر نسبيّاً. . فالزواج المبكِّر أحفظُ لأخلاق الشباب، وأدعى إلى شعورهم بالمسؤولية، وهو أفضل لصحة الزوجين، وللزوجة بصورةٍ خاصة.

ونظر الشيخ الجليل في وجوهنا بحنانٍ ثم تابع يقول:

ـ وأريد، بهذه المناسبة، أن أتحدَّث عن تأخُّر الشباب والشابات، وبخاصةٍ الطلاب والطالبات ـ في الزواج إلى الوقت الذي يضمنون فيه مستقبلهم بعد تخرُّجهم. . وهذه ظاهرةٌ خطيرة أدَّتْ إلى مساوئ اجتماعية كثيرة. .

إنَّ الزواج إذا يُسِّرت وسائله، وقُضي على التقاليد البالية فيه، يصير أمراً عاديّاً جدّاً، فالطالب الذي ينفق عليه أبوه، يستطيع أن يضمَّ إليه زوجةً في الغرفة التي يسكن فيها، دون أن يرهق والده.

فسألت صادقة: وحمرة الخجل تورِّد خدَّيها الصغيرين:

ـ والأولاد؟

وأجاب الشيخ الجليل:

ـ يجب أن نفرِّق بين الزواج وبين إنجاب الأولاد، فقد صار من الممكن علمياً الآن، إيقاف إنجاب الأولاد إلى الوقت الذي يصبح فيه الزوجان قادرين على الإنفاق على الأولاد.

المهمّ أنَّ تبكير شبابنا وشاباتنا في الزواج يعصم أخلاقهم من الانحراف، ويهدِّئ أعصابهم، ويقيهم أخطار الانفعالات النفسية ذات الأثر الضارّ في دراستهم، واتجاههم السلوكي في الحياة.

قرأ الرجل العملاق سؤالاً يدور في خلدي، فسدَّد إليَّ نظرةً أبويّة حانية وقال:

ـ سلْ، يا بنيّ، عمَّا يبدو لك، فنحن في مجلس علم.

فسألتُه، في خجل، عن رأيه في تعدُّد الزوجات، فأفاض إفاضةً

لا مزيد عليها، وكان مما قال:

ـ أنا مع تعدُّد الزوجات، برغم أنني لم أتزوج إلا زوجةً واحدة، ولم أفكِّر في الزواج من أخرى.

صادقة: كيف؟

السباعي: اسمعي يا بنتي.. اسمع يا ابني.. شريعة الله حين أباحت التعدُّد، تركت الباب مفتوحاً لمعالجة الضرورات الفردية والاجتماعية، ولم ترغِّب في ذلك، ولم تنفِّر منه، لأنَّ طبيعة الإنسان تغني عن الترغيب أو التنفير من ذلك.. ففي فطرة كلِّ إنسانٍ ألّا يتحمَّل طائعاً مختاراً إلا زوجةً واحدة، وألّا يهدأ ولا يستقرّ إلا بذلك، ولكنَّ التشريع الخالد هو ما وجد الناسُ جميعاً حاجاتهم فيه، وما وجدتْ فيه الأممُ طلباتها في مختلف ظروفها وأحوالها.

صادق: إذن.. في التعدُّد حلولٌ لبعض المشكلات؟.

السباعي: أجل.. وهذا ما قرَّره كثيرٌ من عقلاء أوروبا وأمريكا ومفكِّريها المنصفين، الذين دعوا مجتمعاتهم إلى الاستفادة من نظام التعدد في الإسلام.

صادق: ولكن دينهم يمنع التعدد.

السباعي: لا.. دينهم لم يمنع التعدد.. بل هم الذين منعوا التعدد، وإذا عدتَ إلى كتابي: (المرأة بين الفقه والقانون) فسوف ترى ذلك جليّاً واضحاً.

صادق: سأعود إليه، وسوف أدرسه بإمعانٍ إن شاء الله.

السباعي: فإذا كانت بعض الأمم تفكِّر في الاستفادة من نظام التعدد عندنا، لمعالجة أخطر مشكلاتها الاجتماعية بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد الحرب الأولى، أفَلسنا نحن معرَّضين لمثل ما تعرَّضت له تلك الأمم؟ ألسنا نتهيَّأ لخوض معارك طاحنة مع إسرائيل؟ ونحن نعلم أننا لن نخوضها مع إسرائيل وحدها، وقد لا نخوضها نحن وحدنا، فالحرب المقبلة ربما

كانت أخطر حروبٍ تخوضها أمتنا في تاريخها الطويل . . إنها ستكون أخطر من معاركنا مع التتار، ومن معاركنا مع الصليبيين، ومن معاركنا مع الفرس والروم، وأنا لا أشكّ أنَّ أمتنا بعد هذه الحروب، أو خلالها، سوف تجد في نظام التعدُّد أكبر عونٍ لها على بقائها صامدةً في المعركة، يمدُّها بقوافل المجاهدين، ويعوِّض بعد الحرب ما أفنته الحرب من شبابٍ ورجال . . وأنا لا أقول هذا خيالاً، بل إنني أرى بوادره منذ الآن، وليس من الحكمة أن نضع أيدينا على عيوننا لئلا نرى الحقائق .

صادق : ما توقَّعتَه حدث يا سيّدي في حرب حزيران سنة ١٩٦٧ وفي حرب رمضان ١٩٧٣ وفي حروب العراق مع إيران، ومع دول التحالف الثلاثيني، والمخبَّأ أعظم، والله أعلم .

السباعي : أنا لا أعرف عمّا تتحدَّث، ولكنني أرى إسرائيل تحاول أن تحشر في الأرض المحتلة بعض الملايين وهي لا تحسب أيَّ حسابٍ لمشكلة معيشة تلك الملايين، وكلُّ همِّها أن تكثر من تعداد سكانها باستقدام من تستطيع من يهود العالم، لأغراضٍ سياسية عدوانية .

صادق : هذا صحيحٌ جداً يا سيّدي .

السباعي : فكيف نستجيز لأنفسنا ـ نحن العرب خاصةً ـ أن نُخدع بالنظريات التي يروِّجها علماء اليهود أنفسهم، حول وجوب تحديد النسل، مع أنَّ أراضينا واسعة، تتَّسع لعشرة أضعاف سكانها الحاليين؟ .

صادق : إذن . . أنت تدعو، يا سيّدي، إلى تعدد الزوجات .

السباعي : أنا لا أدعو إلى أن يعدِّد كلُّ متزوجٍ الآن زوجاته، ولكني أدعو إلى جعل مبدأ التعدُّد مسموحاً به من غير قيود، ما عدا قيد القدرة على الإنفاق، ليستطيع من تُلجئه ظروفه الخاصة إلى التعدد، ولتستطيع الأمة في حالات الحروب والأزمات التي يقلّ فيها الرجال، وتكثر النساء، أن تستفيد من تشريع التعدد، بما يسدُّ به نقص الرجال، وتُكفل به حياة النساء، فيحال بينهنّ وبين التشرُّد والتسكُّع، وبذلك تُحفظ كرامتهنّ، ويصان المجتمع من

كثرة الفواحش وازدياد الأولاد غير الشرعيين، كما يقع الآن في أوروبا.

وتنحنحتْ صادقة كعادتها عندما تريد تغيير الموضوع، فأقبل عليها الشيخ الجليل، يحثُّها على الكلام، فقالت:

ـ أريد أن أعرف رأيك، يا جدّي، في عمل المرأة بالسياسة.

وتحرَّك الجبل في كرسيّه، ثم أجاب:

ـ من المؤكَّد أنَّ المرأة المسلمة لم تشتغل في السياسة، ولم تسهم في الأحداث السياسية التي مرَّت بالمسلمين في كلِّ أدوار التاريخ، مع أنَّ الإسلام رفع مكانتها، وساواها في الأهلية القانونية بالرجل، ورفع عنها الغبن الذي كان لحق بها في مختلف البيئات والشعوب.

صادقة: لماذا؟.

السباعي: لأنَّ الإسلام يرى أنَّ من الخير للمرأة ولأسرتها وللمجتمع، أن تتفرَّغ لشؤون الأسرة، وتهتمّ بها، ولذلك أسقط عنها تكاليف المعيشة، فألزم زوجها بالإنفاق عليها، مع أنها أهلٌ لأن تبيع وتشتري وتزاول كلَّ أعمال الكسب.. كما ألزم أباها بالإنفاق عليها حتى تتزوج، لتكون متمرِّسةً بأعمال البيت تحت إشراف أمِّها، فكأنها، وهي في البيت تحت رعاية أمِّها وأبيها، في مدرسة الفنون النسوية: الأمُّ تعلِّم، والأب ينفق.

صادقة: ولكن.. أليس في هذا امتهانٌ لكرامة المرأة؟.

السباعي: بل قولي: إنَّ الإسلام بهذا الموقف الحكيم، قد صان كرامة المرأة، دون أن يسلبها حقوقها، وصان سعادة الأسرة، فلم يلزم الزوجة بترك البيت لتشتغل بشغلٍ آخر مما يعمل فيه الرجال، من سياسةٍ أو تجارة أو غيرهما..

صادق: كلامٌ جميل.

السباعي: ومن هنا نفهم سرَّ عدم اشتغال المرأة المسلمة بالسياسة في جميع أدوار التاريخ، مع ما نالته من حقوقٍ تمكِّنها من الاشتغال بالسياسة،

ولكنها أدركت واجبها الأول في الحياة، وهي أن تكون أمّاً وربّة بيت.

صادقة: ولكن المرأة الغربية على النقيض من هذا.

السباعي: بل إن موقف المرأة السويسرية يشبه هذا الموقف.. فهي قد نالت حقوقها، وتساوت مع الرجل في حقوقه، ومنها الحقّ السياسي، ومع ذلك لم تستعمل هذا الحقّ، ولا تريد أن تستعمله، لأنّها تفضّل أن تتفرّغ لبيتها وأولادها، على أن تخوض المعارك السياسيّة بخصوماتها ومشكلاتها.

صادقة: ولكنّ المرأة المسلمة اليوم، لم تبق على ما كانت عليه، قابعة في بيت الزوجيّة، بل خرجت إلى الشوارع والمنتديات، ونالت حقوقاً سياسيّة كالرجل، كحقّ الانتخاب وحقّ الترشيح للنيابة في المجالس النيابيّة.

السباعي: لكنّي أريد أن أسجّل هنا للتاريخ والحقيقة، أنّها لم تنل حقّ الانتخاب والترشيح بإرادة الشعب الحرّة، وإنما نالتهما في غيبة الحياة النيابيّة، وقيام الانقلابات العسكريّة، أو الحكم الفرديّ المستبدّ.

صادقة: لكن.. هل تمنع مبادئ الإسلام المرأة أن تكون ناخبة ونائبة؟.

السباعي: لا.. ليس في نصوص الإسلام الصريحة ما يسلب المرأة أهليّتها للعمل النيابيّ، ولكنّنا إذا نظرنا إلى الأمر من ناحية أخرى، نجد مبادئ الإسلام وقواعده تحول بينها وبين استعمالها هذا الحق، لا لانعدام أهليّتها، بل لأمور تتعلّق بالمصلحة الاجتماعيّة.

صادق: هذا صحيح.. فرعاية الأسرة توجب على المرأة أن تتفرّغ لها، ولا تنشغل بشيء عنها.

السباعي: أحسنت يا ولدي.. ثم أضف إلى ذلك أن الإسلام يحرّم اختلاط المرأة بالأجانب، ويحرّم خلوتها بهم.

ويحرّم الإسلام على المرأة كشف غير الوجه والكفّين . .

كما يحرّم سفرها وحدها خارج بلدتها بدون محرم .

وهذه الأمور الأربعة التي تؤكدها نصوص الإسلام، تجعل من العسير، إن لم يكن من المستحيل، على المرأة أن تمارس النيابة في ظلّها .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، نرى الإسلام يجعل للمصلحة العامة الاعتبار الأول في تشريعه، فما كانت تقتضيه المصلحة العامة أباحه، وما لا تقتضيه المصلحة العامة منعه أو حذّر منه . مفهوم؟ .

صادق وصادقة : مفهوم يا سيّدي .

السباعي : وإذا أردنا أن نناقش نيابة المرأة من حيث المصلحة العامة، نرى مضارَّها أكثر من فوائدها .

صادقة : كيف؟ .

السباعي : من مضارّها إهمال البيت وإهمال شؤون الأولاد، وإدخال الخصومات الحزبيّة إلى بيتها وأولادها، واشتغال المرأة بالسياسة من المشكلات التي لا ينكرها منصف، فهي عاطفيّة، وتتأثر بالدعاية إلى حدٍّ كبير .

وسدّد الشيخ الجليل نظراته إلى صادقة وهو يقول :

- ثمّ ماذا نفعل بالأمومة؟ هل نحرم النائبة أن تكون أمّاً؟ أليس في هذا ظلم لفطرتها وغريزتها، وظلمٌ للمجتمع نفسه؟ .

أنا لا أعرف الفائدة التي تجنيها الأمّة من نجاح بعض النساء في النيابة؟؟

هل سيفعلن ما يعجز الرجال أن يفعلوه؟ .

هل سيحللن من المشكلات ما يعجز الرجال عن حلّها؟ .

صادقة : من أجل المطالبة بحقوقهنّ . . من أجل مساواتها بالرجل . . لها مثل حقوقه .

السباعي : إن كانت حقوقاً يقرّها الإسلام ، فكلُّ رجل مطالَب بالدفاع عنها .

صادقة : ومن أجل إثبات كرامة المرأة ، وشعورها بإنسانيتها .

السباعي : هذا ما يروّجه دعاة التغريب . . وإلا . . فهل منع المرأة من استخدام هذا الحقّ دليلٌ على امتهان كرامتها وإنسانيتها؟ .

هل منعُ رجال الجيش من الاشتغال بالسياسة دليل على امتهان كرامتهم وإنسانيتهم؟ أليست قوانيننا تمنع الموظف من الاشتغال بالتجارة؟ فهل هذا يعني أنه ناقص الأهليّة؟ إنّ مصلحة الأمّة قد تقضي بتخصيص فئات منها بعمل لا تزاول غيره ، وليس في ذلك غضٌّ من كرامتها ، وانتقاص من حقوقها ، فلماذا لا يكون عدم السماح للمرأة بالاشتغال بالسياسة هو من قبيل المصالح التي تقتضيها سعادة الأمّة ، كما تقتضي تفرغ الجندي لحراسة الوطن ، دون اشتغاله بالسياسة؟ .

وهل تفرُّغ الأمّ لواجب الأمومة ، أقلُّ خطراً في المجتمع من تفرّغ الجندي لحراسة الوطن ، وتفرّغ الموظف للإدارة دون التجارة؟ .

سكت الرجل العملاق لحظة ، عدّل فيها جلسته ، ثم تابع يقول :

ـ لنكن صريحين في معالجة هذا الموضوع ، فأنا لا يخيفني أن أُتَّهم بالجمود والرجعيّة وعداوة المرأة ، بمقدار ما يهمّني أن أذكر آرائي بكلّ حريّة ، وأن أنبّه أمّتي إلى الأخطاء والأخطار .

لقد وفدت إلينا عدوى اشتغال المرأة بالسياسة من الغرب ، ومع أنّ الغرب لم يعط المرأة هذا الحقّ إلا بعد مئات السنين من نهضته ، نحبُّ أن نتساءل : ماذا كانت نتيجة هذه التجربة عند الغربيين؟ .

إنّ أوّل شيء يبدو للمتتبّع لهذه القضيّة ، تناقص عدد النائبات سنة عن سنة ، ومعنى ذلك ، أن الغربيّ بدأ يشعر بعد التجربة ، أن إعطاء المرأة حقّ الاشتغال بالسياسة لا فائدة منه ، إن لم يكن قد عمل على تفكّك الأسرة ، أو أنّ المرأة نفسها أصبحت عازفة عن الاشتغال بالسياسة والنيابة عن الشعب .

وثاني الملاحظات ـ وقد زرت أوروبا أربع مرات، أقمت في بلادها بضعة شهور ـ أنّي لم أحسَّ بأثر المرأة الغربيّة بالسياسة عندهم بوجه عام، وفي المجالس النيابيّة بوجه خاصّ، ولقد زرت مرّة مجلس العموم البريطاني، وحضرت جلسة طويلة من جلساته، فلم أشاهد نائبة واحدة من نائباته، بل كنّ كلّهنّ غائبات! .

وثالث الملاحظات، أنّ المرأة السويسريّة ما تزال حتى الآن ترفض باختيارها أن تمارس حقّها السياسيَّ، وفي كلِّ مرة تُستفتى في هذا الموضوع، يكون جواب (٩٥٪) منهنّ رفض الاشتغال بالسياسة، هذا مع العلم أنّ سويسرا من أرقى بلاد العالم الحديث، وأنّ نساءها لا يُتّهمن بالجمود والرجعية، والرضا بالقيود والأغلال، كما يحلو لبعض المتمردات عندنا أن يتّهمن زميلاتهنّ اللاتي يعلنّ رفضهنّ الاشتغال بالسياسة.

صادق: يعني؟

السباعي: يعني أني أحبُّ أن أعلن بكلّ صراحة، أنّ اشتغال المرأة بالسياسة، يقف الإسلام منه موقف النفور الشديد، إن لم أقل موقف التحريم. لا لعدم أهليّة المرأة لذلك، بل للأضرار الاجتماعيّة التي تنشأ عنه، وللمخالفات الصريحة لآداب الإسلام وأخلاقه، وللجناية البالغة على سلامة الأسرة وتماسكها، وانصراف المرأة عن معالجة شؤونها بكل هدوء وطمأنينة.

أردت أن أغيّر الموضوع، فلديّ أسئلة كثيرة حول كثير من القضايا، فسألت المصلح الكبير عن تعليم المرأة، وموقف الإسلام منه، فأجاب:

ـ إنّ الإسلام يحثّ على العلم، ويرغّب فيه الرجال والنساء على السواء، وفي تاريخنا مئات العالمات والأديبات والمحدّثات.. وفي العصور الأخيرة كانت المرأة عندنا محرومة من التعليم، وكان لجهلها أثر كبير في تأخر المسلمين، لأن الأمهات الجاهلات، ينجبن أبناء جاهلين خاملين.

صادقة: هل لك ملاحظة على تعليم الفتاة يا عمّي العزيز؟.

السباعي: كلُّ ما ألاحظه على تعليم الفتاة، أنّها تدرس المناهج والدروس نفسها التي يدرسها الفتى، وهذا خطأ بالغ، لأنّ الفتاة تحتاج في حياتها العمليّة بعد التخرّج، إلى ما لا يحتاج إليه الفتى، فهي مهيّأة بفطرتها وخلقتها لتكون زوجة وأمّاً، لذا كان من الواجب أن تتعلم ما يفيدها في حياتها المقبلة.

صادق: وما رأيك ـ يا سيّدي ـ في توظيف المرأة؟.

السباعي: نصَّ الإسلام بصراحة على منع تولّي المرأة رئاسة الدولة، وكلّ ما كان بمعناها في تحمّل المسؤوليات الخطيرة، أمّا سائر الوظائف الأخرى، فليس في الإسلام ما يمنع المرأة من تولّيها، على أن يتمّ ذلك وفق مبادئ الإسلام وأخلاقه.

صادقة: يعني؟.

السباعي: يعني.. لا يصحّ أن تكون الوظيفة معطِّلة لعمل الأمِّ في بيتها، وإشرافها على شؤونه.

ولا يصحّ أن تختلط الموظَّفة بالرجال، وتبدي من جسمها ما لا يجوز كشفه. ولا يجوز أن تكون الموظَّفة في غرفة واحدة مع موظّف أو أكثر من الرجال، لئلا تحدث الخلوة التي يحذّر منها الإسلام أشدَّ تحذير.

صادق: فإذا تحققت هذه الشروط، فليس لديك مانع من توظيف المرأة.

السباعي: أنا تحدّثت عن الناحية الشرعيّة، أمّا من الوجهة الاجتماعيّة، فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشكّ، أنّ توظيف المرأة يزاحم الرجال في ميدان عملهم الطبيعيّ، ومن المشاهد، أنه في الوقت الذي تزدحم فيه دوائر الدولة بالموظفات، نرى الشبّان من حملة الشهادات العليا يتسكّعون في الطرقات، أو يملؤون المقاهي، لأنهم لا يجدون عملاً.

صادقة: يعني؟.

السباعي: يعني أنّ توظيف المرأة بدلاً من الرجل ليس له ما يسوّغه، فلو كنّا نشكو قلّة الأكفياء من الرجال لملء الوظائف، لجاز توظيف المرأة، أمّا أن نخرج المرأة من بيتها، ونأتي بها إلى دواوين الدولة، ثم نطرد الشاب من مكانه الطبيعي فيها، ونردّه إلى البيت، أو إلى المقهى والشارع، فهذا قلبٌ للأوضاع، وإفساد للمجتمع، وسيرٌ بالبلاد إلى الفوضى والأزمات.

صادق: يا لطيف!.

السباعي: وإذا أضفنا إلى ذلك، ما ينشأ من العلاقات العاطفيّة بين الموظَّفة وزميلها الموظَّف الذي يكون معها في غرفة واحدة، وقد يكون متزوّجاً وأباً لعدّة أولاد أيقنّا أنه لا داعي للإكثار من توظيف النساء إلا تقليد الغربيين.

صادقة: هل أفهم من هذا، يا سيّدي، أن المرأة لا تصلح لأيّ وظيفة؟

فابتسم السباعي الجليل، وقال:

لا يا بنتي.. فالمرأة تستطيع أن تفيد كثيراً في بعض المؤسّسات، كالمستشفيات، وروضات الأطفال، والمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية للبنات، وفي مختلف نواحي النشاط الاجتماعي الذي تنجح فيه نجاحاً كبيراً، لأنّ الله الحكيم خصّها بمواهب وخصائص رائعة في هذه المجالات.

صادقة: وما رأيك ـ يا جدّي العزيز ـ بعمل المرأة؟.

السباعي: الإسلام يجيز التصرّفات التجاريّة للمرأة، دون رجوعها إلى وليّ أمرها أو زوجها. والإسلام يجيز لها العمل لتكسب قوتها، إذا لم تجد من يعولها من زوج أو أقرباء، ولم يقم بيت المال بواجبه نحوها.

صادقة: أنت ـ يا جدّي ـ تتكلم عن المرأة التي تضطرها حالتها الماديّة إلى العمل، وهذا جائز كما قلت، وأنا أريد أن تعطينا رأيك في عمل المرأة بوجه عام.

السباعي: فلسفة الإسلام، في أنّ البنت أو المرأة بوجه عام، لا يصحّ أن تكلَّف بالعمل لتنفق على نفسها. بل على أبيها أو زوجها أو أخيها مثلاً، أن يقوم بالإنفاق عليها، لتتفرغ للحياة الزوجية والأمومة، وآثار ذلك واضحة في انتظام شؤون البيت، والإشراف على تربية الأولاد، وصيانة المرأة من عبث الرجال وإغرائهم وكيدهم. لتظلَّ لها سمعتها الكريمة النظيفة في المجتمع.

وأخرج العملاق من جيبه منديلاً نظيفاً ناصع البياض، ومرّره على جبينه العريض الناصع البياض أيضاً، ثم قال:

ـ عندما زرت أوروبا، ما تألمت فيها لشيء كما تألمت لشقاء المرأة الغربيّة وابتذالها في سبيل لقمة العيش، وقد استطاع الرجل الغربيّ أن يستغلّ ضعف المرأة في هذه الناحية، فسخّرها إلى أقصى الحدود في سبيل منافعه المادية، وشهواته الجنسيّة.. وقد تأكّد لي بعد كلّ ما رأيته، أنّ المرأة المسلمة على ما هي عليه اليوم، أسعد حالاً، وأكرم منزلة من المرأة الغربيّة.

صادقة: الحمد لله.

السباعي: وأزيد على ذلك، أنّ الذين يُخدعون بمظاهر حياة المرأة الغربية، كما تبدو في السينما والتلفزيون والمجلات المصوّرة، والحفلات العامة، هم قصار النظر جدّاً، ففي أوروبا كلّها عشرات من النساء يحللن مراكز مرموقة، بينما تعيش عشرات ملايين النساء فيها حياة شقيّة مضنية، تشبه حياة الأرقاء والعبيد، والعياذ بالله.

صادق: هناك حجّة وجيهة يبديها المتحمّسون لعمل المرأة خارج بيتها، هي أن عملها يزيد في الثروة القوميّة للبلاد، وأنّ البلاد تخسر كثيراً عندما يقتصر عملها على الأعمال المنزلية.. يعني.. المسألة اقتصادية.

السباعي: اسمع يا بنيّ.. إنّ اشتغال المرأة يؤثّر على الحياة الاقتصادية تأثيراً سيّئاً، لأنها بعملها تزاحم الرجل في ميدان نشاطه الطبيعي، ممّا يؤدّي إلى نشر البطالة في صفوف الرجال، كما هو حاصل الآن.

وإذا ثبت أنّ عمل المرأة يؤدّي إلى بطالة الرجل، كان من المحتمل أن يكون هذا الرجل الذي زاحمته أباها أو أخاها أو زوجها. فأيُّ ربح اقتصاديّ للأسرة، إذا كان شغل المرأة يؤدّي إلى بطالة المكلَّف بالإنفاق عليها؟.

ثمّ إنّ مصالح الشعوب لا تقاس دائماً بالمقياس المادّي البحت، فلو فرضنا أنّ عمل المرأة يزيد في الثروة القوميّة، إلا أنه من المؤكّد أنّ الأمّة تخسر بذلك خسارة معنوية واجتماعية لا تُقدَّر، تلك هي خسارتها بانسجام الأسرة وتماسكها، فأيُّ الخسارتين أكبر ضرراً في الأمة: الخسارة المادّية أم الخسارة الاجتماعية؟.

صادقة: الخسارة الاجتماعية طبعاً.

السباعي: ثمّ إنّ حياة الناس - أيّ ناس كانوا - ليست كلُّها تُحسب بحساب الربح والخسارة المادية، فالكرم والشهامة والتضحية والوفاء وبذل العون للآخرين.. كلُّ ذلك خسران ماديّ، ولكنّه ربح معنويٌّ عظيم لا يتخلّى عنه الناس الشرفاء الذين يعتزون بكرامتهم الإنسانية.

صادقة: سؤال أخير في هذا المجال.. ما رأيك بأدب الجنس وأدبائه؟

اهتمّ المفكّر الكبير لهذا السؤال اهتماماً خاصاً ظهر في تقطيبة جبينه، ثمّ في تحفّزه وهو يقول:

إنّ أدباء الجنس الذين يحرّضون المرأة - في أدبهم المائع - على الخروج على الآداب الصالحة التي عُرفت بها المرأة المسلمة، ويغرونها بأن تتبع طريق المرأة الغربية، ويعملون على حرمانها من هدوئها وسعادتها.. هؤلاء يحملون أكبر وزر من انجراف المرأة والمجتمع في هذا التيّار الضارّ.. إنهم يحملون بأيديهم معاول التهديم في صرح كياننا الداخلي المتين، وهم لا يريدون بأدبهم هذا مصلحة الأمّة، بل دمارها، وهم يبغون الفساد والإفساد والإثراء الماديّ بنشر هذا الأدب الرخيص المدمّر بين الشباب والفتيات..

إني لا أرى فرقاً بين أثرياء أدب الجنس وأثرياء الحرب، فكلاهما يجد في الأزمات فرصة للربح والكسب، بل إن أثرياء الجنس أشدُّ خطراً، وأسوأ أثراً، فلماذا نتركهم يخربون بيوتنا باسم الحريّة، وما كانت الحريّة الخالصة من الشوائب إلا حريّة بناء لا تهديم، وحريّة تقدُّم حقيقيّ، لا رجوع إلى الوراء آلاف السنين، حين كان الإنسان ينطلق وراء شهواته، لا يبالي بمجتمع، ولا يتقيّد بنظام؟ . .

صادق: هذا صحيح.

السباعي: إنّ أدباء الجنس يقصرون إنتاجهم كلَّه على هذا النوع المؤدّي إلى تفسُّخ الأخلاق، وانحلال الأسرة، وشيوع الميوعة، بينما نعيش أخطر مرحلة في تاريخنا كلّه، مرحلة الكفاح مع إسرائيل، والكفاح يتطلّب أدب الرُّجولة، لا أدب الميوعة، وأدب القوّة، لا أدب الضعف، وأدب التضحية، لا أدب المنفعة، وأدب الحرمان، لا أدب اللذّة وإحياء الغرائز والشهوات.

صادق: الحقّ، يا سيّدي، أنّ أدباء الجنس أعداء ألدّاء لأنفسهم، ولأسرهم، ولمجتمعهم، وللشعوب التي ينتمون إليها ظلماً وعدواناً.

السباعي: كلامك جميل يا صادق، ولكنني أريد أن أسألك شرحاً لما تقول.

صادق: أما أنّهم أعداء لأنفسهم، فلأنهم باعوها للشيطان في سوق الأهوء والشهوات والإثراء غير المشروع بالتلاعب بعواطف المراهقين والمراهقات.

السباعي: جميل . . وبعد؟.

صادق: وأمّا أنهم أعداء لأسرهم، فلأن أبناءهم وبناتهم أول المتأثرين بأدبهم، وهذا مشاهد في حياة أولادهم الذين هم من سفلة الناس سلوكاً وأخلاقاً، فهم قد رُبّوا على الفاحشة، وشاهدوا الفواحش في سلوك آبائهم وأمّهاتهم، كما نبتت أجسادهم من المال الحرام، فكانت النار أولى بها في

الدنيا قبل الآخرة. ولا يغرّنك، يا سيّدي، ما ترى من جمال تلك الأجساد، وما عليها من ثياب، فهي كما قال الشاعر:

جمال الجسم مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوسي

لاحظت ابتسامة عريضة يشرق بها وجه المصلح الكبير، فعرفت أني تماديت في إبداء رأيي في حضرته، فسكتُّ، ولكنّه استحثّني على المتابعة، وقال:

ـ أنا سعيد بما أسمع منك يا بنيّ، فتابع حديثك.

ولكنّ الحياء عقد لساني عندما تذكرت قولي له: (لا يغرّنّك) فلزمت الصمت، فما كان من صادقة إلا أن تقول:

ـ دعه يا سيّدي، فما سيقوله صادق، تعرف أضعافه، بل إنه لم يتعلّم إلا منك ومن كتبك، وكذلك أنا.. فهل تسمح لي بالانتقال إلى موضوع آخر، فالموضوعات التي تهمّنا وتثيرنا كثيرة.

ازدادت ابتسامة الشيخ الجليل إشراقاً، وقال:

ـ اسألي يا بنتي ما شئت، وأثيري من الموضوعات ما تشائين، وأنا جاهز لمدارسة أي موضوع معكم.

توهّج قلبي بالسعادة، وأنا أرى وأسمع هذا العملاق في تواضعه الذي يجعله يتدارس أيَّ موضوع معنا نحن الصغار، وتذكرت شيئاً من سيرته مع من كانوا في مثل أعمارنا، وكيف أنه كان يجالسهم، ويلاطفهم، وينصحهم، ويطالبهم بما كان يطالب به الكبار، لأنه كان يريدهم أن يكبروا بسرعة.. أن تكون عقولهم وتصرّفاتهم أكبر من أعمارهم.. أن يصيروا رجالاً يحملون معه مسؤولية الدعوة إلى الله، والنهوض بالوطن والأمّة.

وسألت صادقة، وهي تركّز نظراتها في الوجه الصَّبُوح، وكأنّها كانت تدرك أنها ستثير البركان الذي لا يكاد يهدأ حتى يثور:

ـ وماذا عن فلسطين يا جدّي؟.

نظر إليها الأستاذ الكبير في حزن، وصعَّد حسرة أحسسنا بلهبها، وعرفنا أنها ستكون مقدّمة لثوران البركان، ثم قال:

- ألم تقرؤوا مذكّراتي التي دوّنتها عمّا شاهدته في معارك فلسطين، بعد قرار التقسيم؟.

فنفيتُ أن تكون له مذكّرات، فما سمعت ولا قرأت في لائحة كتبه مثل تلك المذكرات، فقال في أسى عميق:

- فتّشوا عن تلك الأوراق، ففيها الكثير مما يجب أن تعرفوه... لا تضيّعوها ولا تضيّعوا غيرها من كتبي وأوراقي وخطاباتي وأبحاثي، فقد صرفتُ فيها كلَّ ما وهبني الله من فكر وأدب ودراسة وبحث وعاطفة.. بذلتُ فيها أياماً وليالي من عمري. من جهدي.. من دمي.. من أعصابي..

صادقة: متى بدأ اهتمامك بالقضيّة الفلسطينيّة يا جدّي؟.

السباعي: منذ عام ١٩٤٢م حين التقيت الأخ الشيخ نمر الخطيب في دمشق.. كان قادماً من فلسطين.. وقد حدّثني عن استفادة يهود فلسطين من الحرب العالمية الثانية، فقد شكّلت السلطات البريطانية لهم كتائب تتدرّب على القتال، وأمدّتهم بالأسلحة والذخائر.

وسكت الأستاذ لحظة صعّد فيها الآهات، ثم تابع يقول:

- قال لي الشيخ نمر: إنّ الوضع في فلسطين خطير، ونحن - عرب فلسطين - يحظر علينا حمل أبسط أنواع السلاح، والعرب والمسلمون غافلون عمّا يُبيّت لفلسطين من شرّ بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية. فهل لك أن تعلن صوت النذير والإيقاظ؟.

وأخرج السباعي الرجل منديلاً من جيبه، التقط به بعض دمعاته، ثم تابع يقول، ونحن في دهشة من بكاء الرجل العملاق، فما كنّا نحسب مثله يبكي. قال:

- كان حديث الشيخ نمر مؤثراً للغاية.. كان حديثاً دمعت له عيوننا، وتعاهدنا أمام الله على أن نبدأ العمل.

صادقة: كيف يا جدّي؟.

السباعي: ألقيتُ أول محاضرة عن فلسطين في مقرّ الإخوان ـ وكان اسمهم يومئذٍ (الشبّان المسلمين) في باحة مسجد الدرويشية بدمشق، وانتهت المحاضرة بحماسة من المستمعين، خرجوا على إثرها في مظاهرة كبرى تهتف لفلسطين، وتدعو إلى العمل من أجلها، حتى إذا وصلت المظاهرة أمام مديرية الشرطة العامة على ضفّة بردى، خرج مدير الشرطة، وأبدى دهشته من مثل هذه المظاهرة الليلية، وكانت الأحكام العرفية معلنة، والتجمّعات ممنوعة، بسبب الحرب، وحاول المدير العام للشرطة فضَّ المظاهرة بالحسنى، فأبى جمهور المتظاهرين إلا أن تصل المظاهرة إلى فندق الشرق، حيث كان يقيم رئيس الوزراء، ولمّا وصلت إلى ساحة محطة الحجاز، حيث فندق الشرق، رغب المتظاهرون في إرسال وفد منهم لمقابلة رئيس الوزراء، ليشرحوا له خطورة القضيّة الفلسطينية، فأبى استقبال الوفد، وأرسل المدير العام للشرطة، ليحمّله المتظاهرون مطالبهم، ثمّ تفرّقت المظاهرة.

نفختُ شواظاً من نار ثمّ قلت:

ـ إنّهم هم في كل زمان ومكان في دنيا العرب.

فرمتني صادقة بنظرة حانقة، ثم قالت:

ـ هنيئاً لكم.. كنتم تتظاهرون، وتعبّرون عن آرائكم وتطلعاتكم ومطالبكم، دون أن تتعرّضوا للرصاص، ولا للموت، ولا للسجون... هذا والأحكام العرفية معلنة، فماذا كنتم تفعلون، لو كان الحكم بغير حالة الطوارئ والأحكام العرفيّة؟.

ولم يعلّق الأستاذ الكبير على كلامي وكلام صادقة، بل تابع يقول:

ـ وانتقلت بعد ذلك إلى جميع المدن السّورية لأشرح للجماهير خطورة الوضع، حتى اتّهمني الغافلون عن حقائق الأمور في فلسطين، بأني أبالغ كثيراً فيما أسرد من حقائق.

صادق: هذا أثناء الحرب العالمية الثانية، والبلاد تخضع لقوانين الأحكام العرفية، فماذا فعلتم بعد انتهاء الحرب؟.

السباعي: صرنا ـ نحن الإخوان المسلمين ـ نعمل لفلسطين في ثلاثة ميادين:

الأول ـ على الصّعيد الرسميّ، بتقديم المذكّرات للحكومة، وللجامعة العربية.

صادقة: (في سخرية): وصلنا!.

السباعي: الثاني ـ على الصعيد الشّعبي، بالمحاضرات، والاجتماعات العامة في المدن والقرى.

صادقة: عظيم!.

السباعي: الثالث ـ على الصّعيد العمليّ، إذ أرسل الإخوان بعض شبابهم إلى فلسطين، ليطّلعوا على أحوال اليهود فيها، فزاروا يافا وتل أبيب وحيفا والقدس، وكثيراً من المستعمرات اليهودية.

صادقة: رائع!.

السباعي: فلمّا كانت كارثة التقسيم عام ١٩٤٨م، وهبَّ الشعب في جميع البلاد العربيّة يطالب بالتطوع في القتال لمنع التقسيم، أخذ الإخوان ـ في الاجتماعات العامّة، وفي الصّحافة ـ يبيّنون خطر التقسيم، ووضعوا لذلك ميثاقاً أخذوه على الجماهير، بتشكيل جيش لتحرير فلسطين، يتطوّع فيه كلُّ قادر على القتال، وبرفض التقسيم، والدّفاع عن عروبة فلسطين، وأعلنوا فتح باب التطوع في مراكزهم في جميع أنحاء البلاد.

صادقة: وهل استجاب الشعب لنداءاتكم؟.

السباعي: نعمْ... فقد أقبل الشعب إقبالاً منقطع النظير على تسجيل أسمائهم كمتطوعين في جيش التحرير المرتقب.

صادقة: وتركتكم الحكومة؟.

السباعي : بل فاجأتنا بقرار يمنع أيّة هيئة من تسجيل المتطوّعين .

صادق : وكنتم أنتم المقصودين بهذا القرار ! .

السباعي : طبعاً نحن ، فلم تكن هناك أيُّ هيئة أعلنت قبول المتطوّعين غير الإخوان .

صادقة : ثم ماذا يا جدّي ؟ .

السباعي : ثمّ اتخذت الجامعة العربية قراراً بتأليف جيش الإنقاذ ، وافتتحت الحكومة مراكز للتطوع ، فطلبنا منها أن يكون شبابنا منضمّين في كتائب خاصّة بهم ، تحت قيادة جيش الإنقاذ .

صادقة : فرفضتْ ذلك .

السباعي : عندها لم يجد إخواننا بُدّاً من الاندماج في كتائب المتطوّعين ولكن . ما سارت أفواج المتطوّعين إلى فلسطين ، حتى جاءتنا رسائل الإخوان من كل مكان ، تستغيث من الجوّ الذي يعيشون فيه ، ويطلبون إلينا أن تكون لهم كتائب خاصّة بهم ، ينسجمون فيها مع عقيدتهم وعبادتهم وأخلاقهم .

صادق : لماذا يا سيِّدي ؟ .

فظهر الامتعاض والقرف في الوجه الذي يشعُّ نوراً وعلماً وإيماناً ، ثم أجاب قائلاً :

ـ كانت فكرة المسؤولين قائمة على أنّ المتطوّعين يجب أن يكونوا من العامّة ، ومن ذوي السوابق في الجرائم ، أو من العاطلين عن العمل .

صادقة : وهل يمكن لهؤلاء أن يحاربوا العصابات اليهودية المتعلّمة ، المدرَّبة ؟ .

السباعي : اسمعوا ما قاله لي مسؤول كبير . . . قال لي : إنك تحمّس الشباب المتعلمين للتطوع في حرب فلسطين ، ومن الحرام أن نرسل بهذه الزهرات ليموتوا هناك ، وخيرٌ منهم العاطلون من القبضايات (أي الشُّطّار وأهل الفتـوّة ممن عُرفوا بالجرأة في القتل والضرب) وهـؤلاء بلا عمل ، فلنرسلهم إلى هناك .

صادقة : وهل سكتَّ له يا عمّي؟ .

السباعي : بل قلت له : إنّ معركتنا مع اليهود ليست معركة أجسام وزنود، بقدر ما هي معركة وعي وتضحية وإيمان، وإننا سنقاتل في فلسطين شباباً من اليهود أُعدُّوا فكريّاً وعسكريّاً لهذه المهمّة منذ سنوات .

ونظر إليّ الرجل الكبير وقال :

ـ هذا هو السبب الذي لعله جعلكم تطلبون أن يكون لشبابكم كتائب خاصّة بهم، تحت قيادة جيش الإنقاذ.

صادق : لماذا لم تلحّوا وتصرُّوا على هذا الطلب، وتشرحوا لهم السبب؟ .

السباعي : ألححنا وأصررنا وبيّنّا الأسباب، عندها قالوا لنا :

«إذا أردتم أن تذهبوا في أفواج خاصة بكم، فنحن لا نقدّم لكم سلاحاً، بل يجب أن يكون سلاحكم منكم . . » مع أنّ الجامعة العربية كانت قد رصدت لجيش الإنقاذ أموالاً طائلة، وكلّ المتطوعين عندهم، يقدّمون لهم أسلحتهم وذخائرهم وملابسهم .

صادق : إذن . . . لماذا هذا التصرّف المتعنّت منهم؟ .

السباعي : ليحمّلونا ما لا نقدر عليه، فقد بلغ ثمن البندقية يومئذٍ، ألف ليرة سورية، أي مئة جنيه إسترليني، وأكثر شبابنا المتطوعين من الطلاب والعمال، فكيف نتحمّل نحن ثمن أسلحتهم وذخائرهم؟! .

صادقة : وماذا فعلتم يا جدّي لحلّ هذه المشكلة؟ .

السباعي : عرضناها على الإخوة المتطوعين .

صادقة : فثاروا وسبُّوا وانفضُّوا إلى بيوتهم .

فرماها العملاق بنظرة عتاب حانية، ثم قال :

ـ سامحك الله يا بنتي . . . أهذه هي ثقتك بالمجاهدين؟ .

صادقة: عفواً يا عمّي . . . أنا أقيس المسألة على أهل زماننا.

فأبديت احتجاجي على كلام صادقة، وقلت:

ـ أنت تعرفين حالات شاذّة، في ظروف شاذّة، من بعض الشواذّ الذين لا علاقة لهم بالجهاد والمجاهدين، ولا بالحركة أصلاً، أو ممن أرهقتهم المحنة، فضعفوا . . . أمّا أنا، فأعرف نماذج، وسمعت من أبي عن نماذج في طهر الملائكة، وإيمان الصّحابة، وتضحية أصحاب البذل والعطاء على مدى التاريخ . .

كانت أسارير العملاق تطفح بالبشر، وهو يسمع هذا الحوار بيني وبين أختي، ثم قال، وهو ينظر إلى صادقة:

ـ كان من حماسة الإخوان ما يذهل ويدهش، فمنهم من تبرع بثمن بندقيّة، ومنهم من اشترك مع أخ أو أخوين في شراء بارودة، ولا أستطيع الآن أن أفيض في تسجيل هذه المآثر، وحسبي أن أذكر شيئاً مما تيقّنته بنفسي، فقد رأيت بعضهم، وكان على أهبة الزواج، يبيع إحدى سجّادتين كان اشتراهما لزواجه، ورأيت منهم من باع بعض ثيابه، ورأيت من استدان . . . وهكذا.

فهتفتُ وصادقة في فرح:

ـ الله أكبر ولله الحمد.

فهتف العملاق بصوته الساحر:

ـ الله أكبر ولله الحمد . .

ثم مسح حبّات اللؤلؤ التي زيّنت الجبين العريض الناصع البياض، وقال:

ـ ما أحلاه من هتاف . . . لطالما بُحّتْ حناجرنا وهي تعلو به إلى عنان السماء.

صادق: وهل وجدتم السّلاح يا سيِّدي؟.

السباعي: أخذنا نفتش عنه في كل مكان... كان نادراً وكان غالياً... واضطرني ذلك إلى الإقامة في حلب شهراً كاملاً، نتجول في كل يوم في القرى والبلدات المتاخمة للحدود التركية، لشراء البنادق والمسدّسات.

صادق: سمعت أبي يتحدّث مع ضيف صديق له عن تجوالك يا سيّدي في محافظة حلب، وما لقيتَ من عنت وجهل ولؤم وطمع من بعض الناس.

السباعي: لعله أبو محمد... أعني الشيخ علي كورج!.

صادق: نعمْ يا سيدي... إنه هو... وكان مما سمعته يحدّث أبي، أنّ بعض اللؤماء في بلدة (الباب) باعوك ذخيرة فاسدة بخمسة وعشرين ألف ليرة سورية، واكتشفتم فسادها وأنتم تقاتلون في القدس، فأرسلت الشيخ علياً مع أخ آخر، عادوا إلى ذلك التاجر اللئيم، وعندما قرأ في عيونهم ما أوصيتهم به، اعتذر وهو يرتعد، وأعاد إليهم المبلغ، ومعه خمس بندقيات وآلاف الطلقات، وذهب معهم مودّعاً ومعتذراً حتى غادروا حلب في طريقهم إلى القدس.

السباعي: كان الشيخ علي نشيطاً، وكنت أعتمد عليه في قرى الشمال، وكان يرسل إلينا ما يشتريه، ولا نكلّفه بقتال.. كان من الجنود المستورين.

صادقة: وبعدها يا عمّي؟.

السباعي: حتّى إذا تمَّ لنا تجهيز السلاح لكتيبة كاملة، انتقينا من مئات إخواننا المتطوعين في سائر المحافظات السورية، من نعلم قدرتهم على القتال في فلسطين، واضطررنا إلى الاقتراع بينهم، فغضب لذلك كثيرون، حتى إن بعضهم قدّم استقالته من الإخوان، لأننا حلنا بينه وبين الجهاد في سبيل الله.

فهتفنا أنا وصادقة:

ـ الله أكبر ولله الحمد.

وردّد الرجل الكبير الهتاف بعدنا في حماسة كحماستنا، ثمّ تابع حديثه:

ـ اتفقنا مع المسؤول عن المتطوعين من قبل الجامعة العربية، على أن تذهب كتيبة الإخوان في موعد معيّن إلى معسكر قطنا ـ قرب دمشق ـ للتدريب على أساليب القتال، وكانت قد وصلت قبلنا بيومين كتيبة من كتائب الإخوان في مصر، لتشترك معنا في القتال، في المكان الذي ألحقنا أن نكون فيه، وهو مدينة القدس، وكان القتال فيها خطيراً جداً... كانت تدور فيها معارك حامية تدور من بيت إلى بيت، ولا يفصل بين مواقع المجاهدين وبين مواقع اليهود إلا شارع ضيّق، لا يزيد عرضه عن بضعة أمتار في كثير من الأحيان.

صادقة: سمعت أنك التقيت الإمام الشهيد في قطنا يا جدّي.

السباعي: رحمه الله رحمة واسعة، فقد كان فذّاً بين الرجال، فذّاً بين المجاهدين، فذّاً بين العلماء العاملين، فذّاً بين المفكرين والمخطّطين، فذّاً بين الشجعان، لا يهدأ، ولا ينام ولا ينيم... إنه حركة دائبة، وجهاد متواصل، وعمل دؤوب في شتّى الميادين.. حياته كلّها جهاد في جهاد... تلقاه في أعماق الصعيد، وتلقاه في القاهرة، وتلقاه في سورية، وتلقاه في الحجاز، وتلقاه في فلسطين، يعيش الإسلام ومن أجل الإسلام وأمّة الإسلام، وأرض الإسلام... زار قطنا وتفقّد الإخوان المجاهدين، وزار بطاح فلسطين، واستشهد من أجل فلسطين.. يا حسرة عليه!! ويا حسرة على فلسطين!!

صادق: كيف كانت المعارك بينكم وبين اليهود يا سيّدي؟.

السباعي: كانت في أطراف القدس وداخلها مستمرّة، لا ينقطع فيها أزيز الرصاص والرشاشات والقنابل ساعة واحدة في ليل أو نهار، من خلال نوافذ البيوت، ومنعطفات الطرق، وكانت الهجمات مباغتة، نقوم بها على

مراكزهم، أو يقومون بها على مراكزنا، وكانت النجدات تصل إلينا وتصل إليهم في كل يوم تقريباً، وكان الإنكليز يساعدون اليهود، يقدّمون إليهم كلَّ ما يحتاجون إليه.

صادق: مثل ماذا؟.

السباعي: عندما حوصر اليهود في حيّهم في القدس القديمة مدّة ستة أشهر، كان الإنكليز يجلبون إليهم الطعام والمعدّات وكلّ ما يطلبون.

صادق: وهل استمرّ الحصار إلى ما لا نهاية؟.

السباعي: بل بدأنا المعركة الفاصلة معهم، وكانت من أشدّ المعارك التي خضناها في القدس، أظهر فيها المجاهدون من البطولات ما يعجز عنه الوصف، فقد كانوا يتقدمون لنسفه بيتاً بيتاً، تحت وابل من الرصاص والقنابل التي كان اليهود يقذفونها من نوافذ البيوت، ومن سطوح المنازل.

صادقة: هل كان الحيّ واسع الطرقات؟.

السباعي: بل كانت طرقاته ضيّقة جداً، كشأن سائر الأحياء اليهودية القديمة في كل مكان، وكانت فيه ممرات تحت الأرض، متّصل بعضها ببعض، بحيث يستطيعون العودة في الليل، إلى ما فقدوه في النهار، وكثيراً ما كان المجاهدون يفاجؤون، وهم واقفون على أطلال البيوت المدمَّرة، بقنابل تُلقى عليهم من قرب، كما حدث معي ذات مرّة، ولولا لطف الله لأُصبنا إصابات بالغة.

صادق: والنتيجة؟.

السباعي: اضطرّ اليهود إلى التسليم... استسلموا بعد نفاد ذخيرتهم.

صادق: والإنكليز الملاعين؟.

السباعي: كانوا قد جلوا عن القدس.. ولذلك تمكنّا من اليهود.

صادقة: ولكن القدس الجديدة بقيت في أيدي اليهود.

السباعي: هذا يعود إلى أسباب وجيهة أضاعت القدس الغربية، كما أضاعت شطراً عزيزاً من أرض فلسطين. . واسمعوا هذا الحوار بيني وبين المسؤولين عن حرب فلسطين في دمشق. قال أحدهم:

«دخلنا معركة فلسطين، ونحن لا نعلم حقيقة قوة الأعداء».

فقال المسؤول الآخر مستدركاً:

«بل كنّا نعرف حقيقتهم تماماً، وهذا تقرير صفوت باشا قد تبيّن لنا انطباقه على الواقع».

وهنا قلت لهم:

«إذا كنتم تعلمون حقيقة استعداد اليهود، فكيف أعددتم جيش الإنقاذ لينقذ فلسطين، وهو لا يزيد على أربعة آلاف رجل، وكلُّهم أو أكثرهم غير مدرَّبين تدريباً كافياً، وليست له قوّة جوّية، ولا مدفعيّة إلا مدفعيّة بسيطة جدّاً، مع أنَّ في القدس الحديثة وحدها عشرة آلاف مقاتل يهودي؟».

صادقة: وبماذا أجابك ذلك المسؤول؟.

السباعي: قال: «إننا لم نرسل جيش الإنقاذ ليحارب، بل ليقوم بمهمّات مؤقتة».

صادق: أعوذ بالله من شرور هؤلاء المسؤولين. . وهل قلت له شيئاً يا سيّدي؟.

السباعي: فقلت له: ولهذا كان أكثر جيش الإنقاذ يتنّزه في مناطق عربية بحتة، كنابلس، بينما كانت حيفا ويافا وغيرهما تسقط في أيدي اليهود، وكانت مجازر دير ياسين تقع على سمع هذا الجيش وبصره.

صادق: فخرسوا.

السباعي: نعمْ. . سكتوا كلّهم. . .

صادقة: ثمّ ماذا يا جدي؟.

السباعي: بعد أيام قليلة وقعت الهدنة المشؤومة، وجاءتنا الأوامر من قيادة جيش الإنقاذ بدمشق، تأمرنا بالانسحاب من القدس، وتسليمها إلى الجيش العربي، بحجّة أنهم سوف يرسلوننا إلى الجبهة السوريّة.

صادق: ونفذتم الأوامر العليا.

السباعي: وعُدْنا إلى دمشق، وتسلمتْ قيادةُ جيش الإنقاذ أسلحتَنا، ووعدتْ باستدعائنا عند الحاجة.

صادق: وهم عند وعدهم!!.

السباعي: ووجدت من واجبي أن أكشف الحقائق التي تبيّنتُها بنفسي، وألقيتُ في ذلك عدّة محاضرات في دمشق وحمص وحماة وحلب واللاذقيّة ودير الزور وغيرها من المدن السّوريّة، وذُهل الجمهور لما أبديتُه من حقائق لم تكن معروفة لديهم تماماً، حتى شكَّ بعضُهم فيها، ثمّ اكتشف الأمر، وتبيّن صدقُ ما أدّعي عن العوامل الخفيّة والظاهرة التي كانت تسيّر معركة فلسطين.

صادقة: هل تلخّص لنا المعركة بيننا وبين اليهود في كلمات يا جدي؟

فتحرّك الجبل الأشمّ في حزن، ثمّ قال:

ـ المعركة بيننا وبين اليهود تتخلّص فيما يلي:

إنها معركة بين عقيدة ولا عقيدة.

بين علم وجهل.

بين نظام وفوضى.

قلت:

ـ وأنا أريد معرفة رأيك الصريح يا سيّدي في جيش الإنقاذ.

أجاب الطَّوْد المجرِّب الذي خبر الرجال والسياسة وكواليسها:

ـ أكتفي بتسجيل الملاحظات التالية:

أولاً ـ إن جيش الإنقاذ الذي ألّفتْه الجامعة العربية، ووكلتْ قيادته إلى فوزي القاوقجي، لم يكن إلا تسكيناً لشعور العرب الهائج في كلّ بلد، ولم يكن يُقصد منه جدّيّاً أن يقاتل ويمنع سقوط المدن والقرى العربيّة في أيدي اليهود.

صادقة: أعوذ بالله.

السباعي: ثانياً ـ إن قيادة جيش الإنقاذ لم تخض معركةً جدّية واحدة في فلسطين؛ فالقاوقجي كان مقيماً قرب نابلس، في منطقة عربية بحتة، وصفوت باشا وطه باشا لم يدخلا فلسطين قطّ، ولم يكونا يعرفان حقيقة الأوضاع في فلسطين... كان مقرُّ طه باشا في دمشق، وكان صفوت باشا يتنقّل بين القاهرة ودمشق، وهما المسؤولان عن جيش الإنقاذ.

ثالثاً ـ كانت مهمّة جيش الإنقاذ تحطيم منظمة (الجهاد المقدّس) التي انخرط فيها شباب فلسطين، وأبدوا من البطولات ما سجّله لهم التاريخ بإعجاب وإكبار، وكان قائدها الشهيد البطل عبد القادر الحسيني يحاول أن يحصل من الجامعة العربية على قدرٍ كافٍ من الأسلحة، فخاب مسعاه، حتى إنه حين جاء إلى معسكر قطنا ليأخذ معه الفوج الأول من إخواننا قال:

«طلبتُ منهم مدفعاً واحداً فرفضوا، وأعطوني مئة بندقية لا تصلح إلا لوقود النار. وهذه هي معي في السيّارة».

ونظرنا، فإذا ببنادق من العهد الفيصلي في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وأكثرها معصَّب بعصائب من الحديد.

ثم تابع الحسيني قائلاً:

«إنني ذاهب إلى فلسطين لاسترداد (القسطل) وسأموت، ولن أترك بلادي فلسطين طعمة للأعداء».

صادقة: رحمه الله ورحم شهداء أمّتنا رحمة واسعة.

صادق: على ذكر الشهداء.. هل تذكر لنا أسماء بعضهم؟.

السباعي: إنهم كثر.. أذكر منهم: تيسير طه، وضيف الله مراد، والرقيب هاشم، ومحمد قباني، ومحمد عرنوس، ومحمود الدندشي، ومحمد الصبّاغ، وراشد طالب، ونايف حسن عودة، وراضي الجوهري.. تغمّدهم الله بفيض رحمته ورضوانه، فقد كانوا مجاهدين أبطالاً، جادوا بأرواحهم في سبيل قضية الإسلام الأولى في هذا العصر، قضية فلسطين، أعادها الله إلينا عزيزة كريمة، وعلى أيديكم يا شباب الإسلام.

ثمَّ هبَّ الشُّموخ واقفاً، وتوجَّه نحو القبلة، ورفع يديه إلى السماء، وانطلق لسانه يقطر عسلاً مصفًّى، وهو يناجي ربَّه:

- يا رب!

إنك تعلم أنّ لدعوتك جنوداً كالملائكة طهراً،

وكالصدّيقين إيماناً،

وكالأسود شجاعة،

وكالماء عذوبة،

وكالشمس ضياء،

وكالهواء صفاء،

قد جمعتْهم يدُك على الهدى،

ولملمتْهم دعوتُك على بُعد المدى،

يحاربون من هم أكثر منهم عدداً،

وأقوى سلطاناً،

وأعزُّ جنداً،

وأقوى فتنة،

وأشدُّ إغراء،

ولكنّهم لا يستكثرون بالعدد،

ولا يتقوَّون بالسلطان،

ولا يعتزّون بالجند،

ولا يعبؤون بالفتنة،

ولا يتأثرون بالإغراء،

قوّتُهم بعبادتك،

وعزّتُهم بجبروتك،

وسلاحُهم من شريعتك،

وفتنتُهم بجنّتك،

وغرامُهم بوصالك،

وهيامُهم بجمالك.

هجروا في سبيلك المضاجع،

وفارقوا من أجلك الأوطان،

وتحمّلوا لمرضاتك العذابَ والآلام،

وحُرموا للجهاد فيك قُرْبَ الأهل والولد،

ولذيذَ العيش وطيبَ المقام،

فصُنْهم - يا ربّ - من بطش الظالمين،

وأبعدْ عنهم خُبْثَ المستغلّين،

ودسائسَ المفسدين،

وقيادةَ الجبناء والمغرورين والمراوغين،

ولا تجعلْ لذوي العُقَد النفسيّة عليهم سبيلاً،

ولا لأصحاب العقول الآسنة المتحجرّة عليهم نفوذاً،

ووسِّعْ مداركهم ليفهموا مرامي الشريعة، ومقاصدَها الاجتماعيّة النبيلة، مع دراستهم لمشكلات مجتمعهم دراسةً عميقة، تصل إلى معرفة أسبابها وعلاجها.

واجعلهم ألسنةَ الشعب الناطقة بالصدق،

المطالبة بحقوقه،

المدافعة عن قضاياه،

بروح الهُداةَ المرشدين،

والأطبّاء الناصحين،

حتى يرى فيهم الشعبُ أكرمَ مَنْ حملَ لواءَ الإصلاح،

وأصدقَ مَنْ خدمَ قضايا الجماهير،

وأوعى مَنْ عالجَ مشكلات المجتمعات،

لا يجاملون فئة على حساب فئة،

ولا ينحازون إلى جماعة دون جماعة،

لا كما يفعل بعض المدّعين للعلم،

المتصدّين للتكلّم باسم الإسلام،

وهم يدافعون عن فئة من حقّها أن تحفظ حقوقها،

وليس من حقّها أن تُقرَّ على مطامعها واستئثارها،

ولكنهم يهملون حقوق الجماهير،

وما جاءت الشريعة إلا لرفع مستواها،

وردّ كرامتها إليها.

ولا يرفعون أصواتهم بالدفاع عن حقوقها المهضومة ،

ولا يقضّ مضاجعهم حياتُها البائسة الكئيبة .

ويا ربّ اجعلهم ـ برحمتك ـ دعاة ثـورة بنّـاءة هدّامة ،

تهدم ما في المجتمع من مظاهر التخلف والجهل والظلم ،

وتبني أقوى مجتمع متماسك متحابّ ،

لا تحقد فئة على فئة ،

ولا تعتدي قلّة منه على حقوق الكثـرة الغالبة .

ويا ربّ اجعلهم دعاة ثورة كثورة نبيّهم وصحابته ،

حين حملوا إلى العالم مبادئ الحقّ والخير والسلام ،

فاضطّروا إلى أن يزيحـوا من طريق الشعوب أعداءها المتسـلّطين ،
الذين لا تهمّهم إلا مصالحهم ، ولا تحرّكهم إلا شهواتهم .

اللهمّ اجعل محمداً ﷺ مربّيهم في الآخرين ،

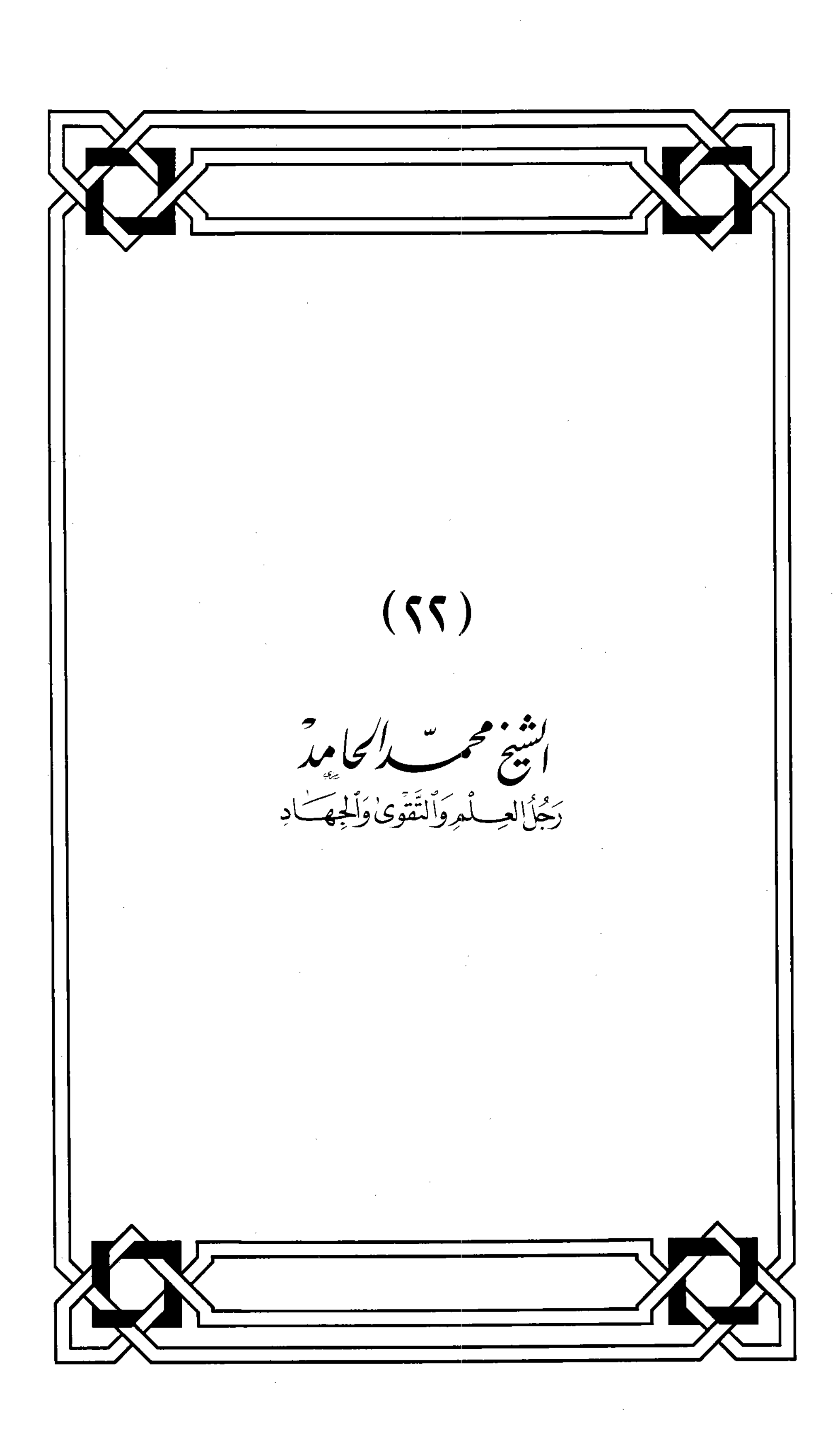
كما جعلتـه مربّي أسلافهم في الأوّلين ،

وسلام على المرسلين ،

والحمد لله رب العالمين .

* * *





(٢٢)

الشيخ محمد الحامد

رَجُلُ العِلْمِ وَالتَّقْوَى وَالْجِهَادِ



بسم الله الرحمن الرحيم

حدّثنا الفتى صادق أمين قال :

صحبتُ أبي في رحلة ممتعة مع بعض أصحابه العلماء، إلى بستان جميل من بساتين مدينة حماة الجميلة، ولم أكن الفتى الوحيد في تلك الرحلة، بل كان معنا عدد من الفتيان، ممن هم في مثل سنّي، أو أكبر أو أصغر مني قليلاً.

عرفتُ من أولئك العلماء : الأستاذ نعسان، والشيخ سعيد، والدكتور أحمد، والأستاذ فارس، والحاج حاتم، والشيخ محمود، ولم أعرف سائرهم إلا بعد أن توغّل هؤلاء الأفاضل في الحديث المتشعّب، فعرفت الشيخ عبد المعزّ، والأستاذ الشاعر محمداً وسواهما.

جلسنا على بساط أخضر من العشب المخمليّ، ثم قمتُ مع أترابي من الفتيان نسعى بين أيدي علمائنا الأفاضل، نخدمهم، وننفّذ أوامرهم، ونسقيهم القهوة والشاي الأحمر والأخضر، ونسعى لراحتهم وإدخال السرور إلى قلوبهم الكبيرة.

كانت أصواتهم تملأ جوَّ البستان في اختلاط عجيب، كاختلاط أصواتنا عندما نكون في رحلة، ولكنّها لم تلبث أن هدأت، وسمعتُ أحدهم يطلب من الشيخ سعيد، أن يحدثهم عن الشيخ محمد الحامد رحمه الله، فأسرعت نحوهم، ووضعت المسجِّل أمام الشيخ سعيد الذي انطلق يقول بصوته الهادئ الدافئ :

ـ كان الشيخ الحامد من أورع خلْق الله فيما أعلم، شهد بذلك كلُّ مَنْ

عرفه، ومن هؤلاء الأفاضل، الأستاذ عصام الذي قال عنه:

«إنّ الشيخ الحامد، رحمه الله، هو شيخ حماة، وشيخ سورية، ولا أعرف ولا أعلم ولم أسمع عن شخص في مشرق الدنيا ومغربها، أورع من الشيخ الحامد».

ابتدأ الشيخ الحامد حياته سلفياً، فقرأ الكثير لابن تيمية، ثمّ استقرّ على مذهبيّة سلفيّة تتمسّك بالنصوص، وعلى تصوّف فقهيّ يتقيّد بالفقه. كان آية في التحقيق العلمي، وكان متشدِّداً في الفتوى، وكان لا يفتي إلا إذا درس ودارس واطمأنّ.

وكان ناصحاً مشفقاً يحسُّ كلُّ مَنْ عرفه بشفقته ورحمته وخلوص نصيحته، لا يقابل السيّئة بمثلها. وكم كان حريصاً على وحدة المسلمين، فهو لا يرى أنّ هناك تناقضاً بين المسلمين يبيح لهم أن يدخل بعضهم في خصومات مع بعضهم الآخر، وينسوا الردّة والمرتدّين.

وكان بحراً في العلوم الشرعية، لا تطرق باباً من أبواب العلم الشرعيّ إلا كان المقدَّم فيه، وكان بحراً في علوم العقيدة والفقه والتصوّف والتفسير والحديث والأصول والتاريخ الإسلامي.

وكان أديباً وكاتباً وشاعراً وخطيباً فصيحاً.

وكان عارفاً بعصره، عارفاً بأنواع الضلال فيه.

وكان حسّاس النفس، كريمها، عفَّ اللسان، متأدّباً مع العلماء.

صادق: عفواً يا عمي.. هل كان الشيخ الحامد كما وصفت مع الدكتور الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله؟

سعيد: طبعاً كان كذلك يا ابني.. اقرأ كتابه: (نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام) للسباعي.. فإنك لا تجد أروع من ذلك.. يردُّ وهو في أعلى درجات الحب. وكم أرجو أن يأخذ كلُّ مسلم من ذلك درساً.

وكان الشيخ الحامد ـ رحمه الله ـ يخشى على عقائد المسلمين،

وسلوكهم، فإذا رأى فكرة خاطئة لم ينم حتى يطمئن أنه قام بواجبه نحو الله فيها.

صادق: كيف؟

سعيد: إذا قرأ جريدة أو مجلة، فرأى خطأً، أو جاءته رسالة تُشْعره بخطأ، أو عرف أنّ هناك خطأ ينتشر ـ صال وجال، حتى كادت بعض مواقفه تودي بحياته أو بوظيفته التي يعتاش منها، وكم من مفاهيم صحّحها، وضلالات في الاعتقاد والسلوك دفنها.

صادق: وكان الناس يستجيبون له؟

سعيد: أجل يا ولدي.. كان الناس يثقون به ثقة لاحدود لها، فإذا قال للإخوان المسلمين شيئاً، قالوا: سمعاً وطاعة، وإذا قال للصّوفيين شيئاً، أخذوا به، وتركوا ما ينبههم إليه، وإذا قال للسلفيين شيئاً، قبلوه منه؛ لأنه كان يأتي مع الكلمة بدليلها. وكان لا يسكت على مخطئ يقول أمامه كلمة، بل كان ينصح ويصحّح. فكم صحّح لغة، وكم صحّح بيت شعر فيه غلوٌّ أو خطأ يقوله منشد.

محمود: كان الداعي لوالدي ـ رحمه الله تعالى ـ في كلّ كتاباته، هو الردّ على ما يرى من الانحرافات عن شرع الله جلّ وعلا، والحضّ على الاستقامة على صراط الله القويم، ونقض الأباطيل التي تظهر على أيدي الزائغين.

وسكت الشيخ محمود لحظات كأنه كان يتذكر شيئاً، أو يتردّد في رواية أمر، فاستحثّه والدي على الكلام، فرفع رأسه، وشرد بعينيه. ثم قال:

ـ كان والدي ـ رحمه الله تعالى ـ يروي لنا رؤيا لطيفة حصلتْ له في مطلع شبابه، تشير إلى ما فطره الله تعالى عليه من الاستقامة على شرع الله تعالى ومقاومة الباطل.

رأى نفسه في المنام، أنه عند قبر الرسول ﷺ، يزيل أشياء غير لائقة وجدها عند المقام الشريف. فقصَّ رؤياه هذه على أحد مشايخه، فقال له:

«إنك ستذبُّ عن هذا لإسلام أشياء ليست منه».

وبالفعل.. كان هذا دأبه ـ رحمه الله ـ في حياته، حتى أرهق نفسه.

صادق: لماذا أرهق نفسه يا عمّي؟.

محمود: لأن الصحف والمجلات كانت، وما تزال، مليئة بالأباطيل والجهالات والأسواء التي ينعق بها دعاة على أبواب جهنم، وهي من الكثرة والتتابع بحيث يضيق عنها وبها جمعٌ غفير من العلماء، إلا أن يكتب الله لهم عونه وتأييده، فضلاً عن أن يقوم بها شخص بمفرده. لكنّ فضل الله تعالى على بعض عباده ممن يختارهم لنصرة دينه على مرّ الأزمان، فوق الحسابات والتقديرات. وكثيراً ما كان والدي ـ رحمه الله تعالى ـ يروي لنا في هذا المقام، الحديث الشريف:

«يحمل هذا العلمَ من كلّ خَلَفٍ عُدُولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المُبْطلين».

والتفتُّ إلى الشيخ سعيد، وسألته عن عبادة الشيخ الحامد وعن ورعه وتقواه فقال:

حدِّث عنهما ولا حرج.. فقد كان دائم التلاوة لكتاب الله، مداوماً على الذِّكر اليوميّ، مقيماً لحلقات الذّكر، مع تحرير ذلك كلِّه ممّا يقرُّه أهل العلم. وهو ـ مع هذا ـ غزير الدَّمعة، كثير البكاء، ولم أر بين علماء المسلمين ممن رأيت وقابلت، ممن ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ [مريم: ٥٨]، إلا شيخنا الحامد، وشيخنا الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة.

ما شاء الله! ما شاء الله!.

وتابع الشيخ سعيد قائلاً:

ـ كان رحمه الله مستوعباً لمذاهب أهل السنّة والجماعة في العقائد والفقه والسلوك.

وتنحنح الدكتور أحمد، إيذاناً بالكلام، ثم قال:

ـ ونظرة إلى كتاب: (ردود على أباطيل، وحقائق علميّة) تجد أن الشيخ يجيب السائل بما يروي الغليل، ويشفي العليل، سائقاً على إجابته الأدلة، دليلاً تلو دليل، حتى تتبدّد الحيرة، ويتضح السبيل، ملتزماً بالكتاب والسنة. ومذاهب الأئمة، ومقتضيات العصر، دون التعدّي لحدود الله، وكان يكثر من القول: «أجرؤكم على الفتيا، أجرؤكم على النار».

محمود: هذا حديث شريف.

أحمد: نعْم. وكان الشيخ يقول: «من أفتى بغير علم فقد ضلَّ وأضلَّ».

ولذلك، كان الشيخ يوجّه بعض من يسأله الفتيا إلى غيره من العلماء المختصين بالمذاهب، عندما يدرك أن قضيّة السائل، جوابُها في مذهب غير مذهب الشيخ، وهو المذهب الحنفي.

صادق: لماذا؟ ألم تقولوا: إنه عالم بالمذاهب كلّها؟.

أحمد: كان منهج الشيخ الأخذ بالأحوط، كما كان يأخذ نفسَه بالعزائم، بينما يرى التيسير فيما يختصّ بغيره، مع حرصه على مبدأ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه».

والتفتُّ إلى الشيخ سعيد أستزيده، فقال وهو يبتسم ابتسامته العذبة:

ـ كان الشيخ الحامد مستوعباً لعقائد الفرق الضالة، عارفاً حقائقها، وكان درّاكاً لضلالات العصر، عارفاً ببدع الاستغراب، عارفاً بوجهات المستشرقين والمستغربين، ولذلك كان كثير التصويب لمن يسمع لهم. ومن هنا، كان لا يستغرب من عايشه أن يصحّح له الكثير في الجلسة الواحدة. حتى إن الشيخ الحامد سجَّل على محاضرة من محاضرات الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ إحدى عشرة ملاحظة.

صادق: وفاتح بها الأستاذ الإمام الشهيد البنا؟

سعيد: طبعاً فاتحه بها، وسلّمه إياها.

صادق: وماذا كانت ردّة فعل الأستاذ الإمام البنا؟

سعيد: أخذ الملاحظات، وفي المحاضرة التالية ـ وكانت محاضرته هذه هي من أحاديث الثلاثاء ـ أقول: في المحاضرة التالية، أعلن الأستاذ البنا لجماهير الحاضرين، أنّ الشيخ الحمويّ لاحظ عليه كيت وكيت، وأن الحق معه في كيت وكيت.

صادق: من حدّثكم، يا سيدي، بهذه الواقعة؟

سعيد: الشيخ الحامد نفسه.. وقد رواها لنا مزكّياً الأستاذ البنا الذي كان ـ على عظمته ـ لا يستنكف أن يعلن أمام الملأ أجمع، أنه أخطأ، إذا كان فعلاً قد وقع في الخطأ.

صادق: هل هذا كان رأي الشيخ الحامد بالأستاذ البنا؟

سعيد: وكان يرى أن حسن البنا مجدّد قرون، وليس مجدّداً لهذا القرن فحسب، وقد واطأه على هذا الأستاذ أبو الحسن الندوي.

فارس: هل كلام الشيخ الحامد، ينفي وجود مجدّدين في القرون الخالية يا شيخ سعيد؟

سعيد: لا.. بل نوعية التجديد كانت من السّعة في دعوة الأستاذ البنا، بحيث شملت جوانب، واستهدفت أهدافاً لم تتطرق إليها دعوات التجديد في بعض القرون السالفة.

صادق: هل كان الشيخ الحامد من الإخوان المسلمين!.

سعيد: لا.. لم ينتسب إلى الإخوان المسلمين، مع أن الشيخ رحمه الله. كان أفتاني وأفتى عدداً من الإخوة بوجوب العمل مع الإخوان، بل افترض علينا فرضاً عينياً أن نعمل مع الإخوان.

صادق: إذاً.. كيف يأمركم بشيء ولا يفعله؟.

سعيد: لضرورة المصلحة الإسلامية.. حتى لا يحمّل الجماعة مسؤولية بعض الفروض الكفائية، وهو يتحمّلها بنفسه، وكان الشيخ يقول:

«أنا أحبُّ الإخوان، وأحرص عليهم، وأوالي نُصْحَهم. ولكنَّ عملي مع الإخوان يَحُوْل دون تحقيق بعض الفروض الكفائيّة».

فابتسم والدي وقال:

ـ هذا الموقف من الشيخ الحامد ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ يذكّرني بحادثة الأستاذ أحمد قنبر الذي كان يشغل منصب وزير الداخلية في حكومة حزب الشعب.

فارس: اذكرها لنا، فقد أنستنا الأيام تاريخ بلادنا.

الوالد: أراد الأستاذ أحمد قنبر أن يوجّه انتقاداً شديد اللهجة لبعض قادة الجيش، فحضر جلسة مجلس النواب، ثم طلب الكلام، وقام خطيباً في النواب، فأعلن أولاً انسحابه من حزبه (حزب الشعب) وأنه هو وحده يتحمل مسؤولية الكلام والآراء التي سيدلي بها، ثم هاجم قادة الجيش هجوماً صاعقاً، فذكر تقصيرهم، وبذخهم وإسرافهم، وسوء تصرُّفهم بالمال العامّ، إلى آخر ما هنالك من انتقادات تحمَّلَ هو مسؤوليتها، ولم يحمّلها حزبه. وكذلك فعل الشيخ الحامد رحمه الله.

فارس: مع الفارق الكبير بين الرجلين، وبين الحزب والجماعة.

صادق: هل يعرف أعمامي ـ يا أبي ـ أني فضوليٌّ، وأحبّ أن أعرف كلَّ شيء؟.

الوالد: بل يعرفون عنك ـ يا ولدي ـ أنك فتى مثقّف، وصاحب دين، وتحبُّ أن تعرف الكثير عن نجوم الإسلام، منذ عهد الصحابة البررة، إلى أيامنا هذه. فسَلْ أعمامك العلماء هؤلاء ما تريد، وسوف تلقى منهم كلَّ ترحيب.

أحمد: تفضّلْ يا صادق، واسألْ عمّا تريد، فنحن كما قال أبوك الفاضل.

صادق: أريد أن تحدّثونا عن الشيخ الحامد.. عن حياته.. عن

تعليمه . . عن كلّ شيء في حياته .

فاتّجهت الأنظارُ إلى ولديه الشيخ محمود والشيخ عبد المعزّ ، فبادر الشيخ عبد المعزّ يطلب من أخيه الشيخ محمود أن يتحدث، فاستجاب الشيخ محمود في حياء جمّ، وتواضع عجيب، وقال :

ـ لي تعليق بسيط على ما قاله الشيخ سعيد، بشأن انتساب والدي إلى جماعة الإخوان المسلمين . .

في أثناء وجود الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ في مصر للدراسة ، تعرّف إلى الإمام الشهيد حسن البنا ـ رحمه الله تعالى ـ واستمرّ معه أربع سنوات ، كان يحضر محاضراته ، أو ما استطاع الحضور منها ، وخاصة أحاديث الثلاثاء ، وقد تعرَّف الوالد على جماعة الإخوان المسلمين . وصار فرداً من أفرادها ، وصديقاً حميماً لمرشدها ، وله مع الإمام البنا مساجلات كثيرة ، يضيق الوقت عن ذكرها في هذا المقام .

فانبرى الدكتور أحمد يقول بحماسته المعهودة :

ـ وأحبُّ أن أضيف أنّ الشيخ الحامد ـ رحمه الله تعالى ـ شارك في تأسيس أول مركز لجماعة الإخوان المسلمين خارج القطر المصري . .

أسسه في مدينة حماة سنة ١٩٣٨م مع كل من الشيخ الشهيد عبد الله الحلاق، والشيخ منير لطفي، والشيخ منير الحوراني، والأستاذ عبد الغني الحامد، والأستاذ عبد الغني الساعاتي ـ رحمهم الله جميعاً، وراحوا يعرّفون الناس على مبادئ الدعـوة، ويشرحون أهدافها، ويمهّدون السبيل أمام المسلمين ليستردّوا حرية أوطانهم، وتخليصها من الغاصبين الأوروبيين المسـتعبدين، ولتطبيق الشـريعة الإسلامية، لتنعم الأمة بالوحدة والأمن والحرية والعدل والسلام؛ فالإسلام ليس تلك الشعائر التعبّديّة فحسب، بل هـو روحٌ يسري في قلب هذه الأمة، فيحييها بـالقرآن، ونـورٌ يبدّد ظـلام المادّة، ونظامٌ شاملٌ ينظم شؤون الحياة جميعاً؛ فهو دين ودولة، ومصحف وسيف، وعقيدة ووطن، وعبادة وجنسية، وعمل وروحانية .

لقد بيّنوا لنا ولأبناء حماة المجاهدة ملامح دعوتهم فقالوا :

ـ إنها دعوة سلفية ، وطريقة سنيّة ، وحقيقة صوفيّة ، وهيئة سياسيّة ، وجماعة رياضيّة ، ورابطة علميّـة ، ذات أهداف ثقافية ، وشـركة اقتصادية ، وفكرة اجتماعية .

وقالوا لنا :

من أخصِّ خصائصها : البعد عن مواطن الخلاف ، والنأي بالجماعة عن هيمنـة الأعيان والكبراء ، والبعد عن الأحزاب الوضعيّـة والهيئـات الفئوية ، والعناية بتكوين الفرد المسلم ، والتدرّج في الخطوات ، وإيثار الجوانب والنواحي العملية الإنتاجية ، على الدّعاية والإعلان والكلام .

وأعلنوا على الناس مبادئها الخمسة : «الله غايتنا ، والرسول زعيمنا ، والقرآن دستورنا ، والجهاد سبيلنا ، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا» .

صادق : هل كانت دعوة الإخوان المسلمين محصورة ضمن مدينة حماة؟

أحمد : نعمْ . . إلى أن التقت مع الجماعات والجمعيات الإسلامية في حمص وحلب ودمشـق ودير الـزور واللاذقيـة على مبـادئ الجماعـة وأهدافها ، ثم كانت البيعة للمرشد العام الأستاذ البنا ، وكان تكليف الدكتور الشيخ مصطفى السباعي أول مراقب عام للإخوان في سورية عام ١٩٤٥م .

فارس : بل عام ١٩٤٤م .

أحمد : فهل تستطيع أن نقول : إن الشيخ الحامد ـ رحمه الله ـ لم يكن من الجماعة؟ إنه كان شيخها ، وإن كان يظهر أمام الناس بأنه مجرّد صديق لها ولقادتها ولأبنائها .

صادق : عفواً يا سادتي وأعمامي الكرام . . هل نستطيع أو هل يستطيع أحدكم تلخيص حياة الشيخ الحامد في هذه الجلسة المباركة؟

ابتسم أعمامي الفضلاء ، وأشار بعضهم إلى الشيخ محمود الذي كان

كأنه يخشى من أن يُكلَّف من جديد، بالحديث عن والده الشيخ الحامد، فقلت أستحثّه:

- أريد أن أسمع منك يا عمي الشيخ محمود، فهل تلبّي طلب ابن أخيك؟

- كما تريد يا بني، وإن كان أعمامك هؤلاء يعرفون مثلما أعرف، وربما أكثر مما أعرف عن الشيخ الوالد رحمه الله تعالى.

كان الشيخ محمود يجلس طوال الوقت جلوس التشهُّد في الصلاة، ويبدو أنه تعب من هذه الجلسة، فتحرك في جلسته، وركز وضع قبعته فوق رأسه، ثم شرع يقول:

- كانت ولادة الشيخ الوالد في مدينة حماة بين العيدين: الفطر والأضحى عام ١٣٢٨هـ - الموافق ١٩١٠م لأبٍ تقيّ صالح عالم، أوتي حظاً من العلم والطريق هو الشيخ محمود الحامد - رحمه الله تعالى - ثمّ ما لبث الشيخ محمود أن توفي في جوائح البؤس والمرض والفقر.. التي عمّت بلاد الشام، إبّان الحرب العالمية الأولى، ففقد والدي بوفاته أعزّ مستمسك له في نعومة صباه. ثم توفيت بعد ذلك أمُّه السيّدة كوكب الجابي بفترة يسيرة، فعاش يتيم الأبوين، مع أخيه الأصغر عبد الغني، يرعاهما أخوهما الأكبر بدر الدين، الذي كان في الخامسة عشرة من عمره عند وفاة أبويهم، فكان لهما نعْمَ الأب والمربّي والمهذّب. وما زال والدي يذكر فضل أخيه بدر الدين عليه حتى فارق الحياة.

صادق: رحمهم الله جميعاً.. ولكن.. كم كان كان عمر الوالد الشيخ عندما توفّي أبوه؟.

محمود: ست سنين.. وقد قاسى الكثير من بؤس اليتم، وشظف العيش، وقد حدَّثنا من صور معاناته في طفولته وصباه الشيء الكثير، مما تذرف له الدموع، وتنفطر من ذكره القلوب.

صادق: ولهذا أوصى الرسول القائد - عليه الصلاة والسلام - باليتيم.

محمود: نشأ في مبدأ حياته خياطاً، ثم دخل دار العلوم الشرعية في حماة، فكانت بداية التحول الخطير في حياته، إذ سلك سبيل العلم الشرعي، وبعد أن تخرج فيها، انتقل إلى المدرسة الخسروية (الكلية الشرعية الآن) في حلب، وكانت هذه المدرسة، كما وصفها والدي رحمه الله تعالى، تعدل الأزهر في مصر، ثم تخرّج فيها وهو في السادسة والعشرين.

صادق: إذاً.. كم كانت سنّه عندما درس في الأزهر؟.

محمود: التحق بالأزهر وهو ابن تسع وعشرين سنة.

صادق: وكم سنة درس في الأزهر؟.

محمود: ست سنين.. في السنوات الأربع الأولى نال الشهادة العالية في الشريعة، ثم تخصص في القضاء الشرعي سنتين.

صادق: إذاً.. عاد إلى حماة وهو في الخامسة والثلاثين؟.

محمود: نعمْ.. وتزوّج بعدها بفترة يسيرة، من بنت عالم حماة الشيخ الزاهد والعالم العامل أحمد المراد الذي كان يحسبه الناس من أولياء الله تعالى المعروفين الذين جمعوا بين العلم والطريق.

صادق: يعني.. تزوج سنة ١٩٤٥م.

محمود: بل سنة ١٩٤٤م، ثم استلم التدريس والخطابة في جامع السلطان في حماة، كما استلم بعد رجوعه من مصر، تدريس مادة التربية الإسلامية في مدرسة التجهيز الأولى التي صار اسمها - فيما بعد - ثانوية ابن رشد.

أحمد: ولكنّ الشيخ - رحمه الله - كان يتصدق بما يأخذه من الأوقاف عن وظيفتي التدريس والخطابة في جامع السلطان، مكتفياً براتبه من وزارة المعارف عن تدريسه مادة الديانة.

صادق: عظيم.. هذا العمل رائع، ويدُلّ على زهد حقيقيّ.

فارس: الحقيقة.. أنّ حياة الشيخ ـ رحمه الله ـ بدأت بعد عودته من مصر.

محمود: بل نستطيع أن نقول: إن الفترة الذهبية في حياته، كانت منذ عودته من مصر، حتى وفاته.

سعيد: هذا صحيح، ولكن.. لماذا؟.

محمود: لأنها تميّزت بالجهاد الدائب، والعمل المتواصل، وامتازت بثلاثة مظاهر، أولاً: ثباته في مواجهة مظاهر الإلحاد.

صادق: كيف؟.

محمود: لم يخرج المستعمر حتى خلّف وراءه مَنْ يرثه في فكره وعاداته وأسلوب حياته، وكان من هؤلاء ملاحدة جاهروا بعدائهم للإسلام بشكل لم يكن المستعمر يجرؤ عليه، وتشكلت أحزاب علمانية مزّقت الأمّة، فتصدَّى الشيخ لهم، وخاصة الاشتراكيين الحورانيين منهم.

صادق: وكان وحده؟.

محمود: كانت جماعة الإخوان معه، تؤازره وتقف إلى جانبه.

صادق: والعلماء؟ أين كان المشايخ؟.

محمود: الصادقون المخلصون منهم كانوا معه، والسائرون في ركاب السلطة، كانوا ضدّه، وكان الشيخ يدعوهم ويسمّيهم مشايخ السلطان.

صادق: وأنا وإخواني ندعوهم: مشايخ الشيطان.

سعيد: لماذا يا بنيّ؟.

صادق: لأنهم عرفوا الحقَّ وحادُوا عنه.. تركوا زميلهم الشيخ الذي يصدع بالحقّ، وساروا مع التيّار المنحرف.

سعيد: بارك الله فيك يا بنيّ.

محمود: كلامك صحيح يا صادق، فقد كان أولئك المشايخ من

أصحاب الوجاهة الدينيّة، وكان ضررهم كبيراً، فقد اغترَّ بهم العامّة. . اغترَّت العامّة بمواقفهم الذّميمة منذ عهد الاستقلال وحتى الستّينيّات، عندما أفاق الناس على رذائل الأنظمة البعيدة عن دين الله تعالى، بعد أن اكتوَوْا بنارها، فعاد الشيخ ليكتسح الساحة بفضل الله تعالى، ثم بفضل إخلاصه وثباته، وحرارة صدقه، وتوهُّج إيمانه، وتوقُّد عاطفته، ودفء حنانه، حتى تكوّن له جيل من التلاميذ المخلصين، الأوفياء لدينهم، كأعمامك هؤلاء، وغيرهم كثير، وقفوا إلى جانب شيخهم في سائر الأحوال.

سعيد: هذا أولاً . . وثانياً؟.

محمود: ثانياً: كتاباته ومؤلَّفاته التي كانت تظهر حسب تداعيات الظروف والأحوال.

صادق: كيف؟.

أحمد: اسمحْ لي يا شيخ محمود لأريحك قليلاً.

محمود: تفضّلْ يا دكتور.

أحمد: لم يلتفت الشيخ ـ رحمه الله ـ إلى التأليف وإصدار الكتب وطباعتها وتسويقها، ولم يُعِرْ ذلك اهتماماً، مع توفر الإمكانات العلميّة، والقدرات الكتابية، ليكون مؤلفاً مُكثراً يبزُّ الأقران، ويسابق المفكرين، إنما كانت عنايته واهتمامه في تربية الشباب، ونشر العلم بين مريدي الحقّ وطلّاب الحقيقة، وفي تنبيه الناس إلى ضرورة العمل لإعادة عزّ المسلمين الضائع، ورَجْعِ الخلافة، ووحدة المسلمين. . كان الشيخ ـ رحمه الله ـ لا يترك فرصة تسنح دون أن يُلقي بثقله في هذا الموضوع، . إلى جانب تصحيح المفاهيم الإسلامية التي يحاول الغرب قبل الاحتلال وفي أثنائه وبعده ـ طمسها وإزالة معالمها على أيدي أذنابه.

اضف إلى ذلك، أن الشيخ ما كان ليترك واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في كل الظروف والأحوال، ومهما ترتَّب على ذلك من نتائج. فانحصر إنتاجه العلميّ في الردّ على الأسئلة والفتاوى التي ترد إليه

من أقطار بعيدة، وبلدان شتّى، وكذلك في الردّ على مقالات فيها أخطاء شرعية، أو تحامل على الإسلام، أو على فتاوى زائغة لم تستند إلى علم، أو كان صاحبها يروّج فيها لأفكار هدّامة، أو للخروج عن الجادّة. وكلُّ ذلك بأسلوب علميّ رفيع مقرون بالأدلّة، وبأدب جمّ، وإخلاص فريد، متوخّياً الوصول إلى الحقّ، دون أن ينال من شخص بعينه، بل يراعي قلب السائل أو الكاتب، دون المساس بشخصه أو بعلمه، ممّا يمهّد السبيل لقبول التصحيح، وإزالة المنكر، من غير أن يترتب عليه منكر أعظم منه.

سعيد: يا سلام: بارك الله فيك يا دكتور أحمد، فما كان الشيخ الزاهد ليدع كلَّ هذه المعاني، ويلتفت إلى التأليف.

أحمد: ومع ذلك، ألَّف بعض الكتب والرسائل أذكر منها:

١ ـ (ردود على أباطيل، وتحقيقات علمية)، طُبِعَ منه جزءان.

عبد المعز: والثالث على الطريق بإذن الله.

أحمد: ٢ ـ (نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام). ردّ فيه على الدكتور السباعي، رحمه الله.

فارس: ولكنه ردٌّ حسن. قال لي الشيخ الحامد رحمه الله:

«الشيخ مصطفى السباعي لا يُشكُّ في علمه، ولا في قصده».

وقد كلَّفني الشيخ أن أحضر له ردَّ الدكتور السباعي رحمه الله على كتابه (كتاب الشيخ آنف الذكر)، فقال لي السباعي: «إن شاء الشيخ أن أنشره له في مجلة الحضارة» لكنّ الشيخ الحامد أبى ذلك، إلا أن ينشر في كتاب منفصل مستقل.

نعسان: روى لي الدكتور محمود تلميذ السباعي قال:

«كنت في زيارة لأستاذنا الدكتور السباعي رحمه الله، وزاره أستاذنا الشيخ محمد الحامد، وذكر له أنه يخالفه في بعض ما ذكره في كتابه (اشتراكية الإسلام) وأنه كتب ردّاً عليه، فقال له الدكتور السباعي: «أنا فخور بأنك قرأت

كتابي، وأتشرّف بردّك عليه، ولن يطبع الردَّ إلا أنا» فقال له الشيخ الحامد: «والله إني أحبُّك، لكنَّ الحقّ أحبُّ إليّ منك».

أحمد: ما أعظم الرجلين: السباعي والحامد رحمهما الله رحمة واسعة.

محمود: كانا أخوين حميمين، لم يفرّق بينهما إلا الموت.

أحمد: ٣ ـ (حُكم نكاح المتعة في الإسلام) بيَّن فيه حرمة هذا النكاح، وأنه الزّنى بعينه.

٤ ـ مجموعة رسائل هي:

أ ـ (حكم الإسلام في الغناء).

ب ـ (رحمة الإسلام للنساء).

جـ ـ (حكم الإسلام في مصافحة المرأة الأجنبية).

فارس: سمعت الشيخ يقول: إن هذه الرسالة قد كلفته من الجهد أكثر مما كلّفه كتاب: (نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام) وكان يقول: إن وراء هذه القضية مؤسسة تريد أن تشيعها بين المسلمين، وليست من جهد فرد واحد.

أحمد: د ـ (حكم اللحية في الإسلام).

هـ ـ (القول في المسكرات).

و ـ (لزوم اتباع مذاهب الأئمة).

محمود: كتب والدي كتابه (رحمة الإسلام للنساء) ردّاً على دعاوى المستغربين، الذين دَعَوْا إلى ما أسموه (تحرير المرأة) وهو ـ في حقيقته ـ إفساد لنظام الحياة الطبيعية.

صادق: لماذا؟.

محمود: لأنه إطلاق للمرأة، وتحويل لحياتها بما يشبه حياة الرجل،

بما فيها من اختلاط يدعو إلى الفساد والتّهتّك.

فارس: هنـاك كتيّب نفيـس للشيخ لم يذكره الدكتور أحمد، وهو بعنوان: (آدم عليه السلام لم يؤمر باطناً بالأكل من الشجرة).

كان الأستاذ محمد يستمع إلى الإخوة المتحدّثين في اهتمام، ولكنّه لم ينبس ببنت شفة، وكان الأستاذ نعسان يسترق النظر إليه، ثمّ استفزّه للحديث، إذ قال له:

ـ مالك يا عميّ لا تبدي رأيك بالشيخ الحامد، وكأنك لا تعرفه؟.

فابتسم الأستاذ محمد ابتسامة عريضة، ثمّ قال:

ـ ومَنْ من أرباب العلم والقلم والدعوة لا يعرف الشيخ الحامد؟.

وسكت لحظة ثمّ تابع يقول:

ـ حياة الشيخ الحامد جهاد متواصل؛ فهو منذ عاد إلى حماة، استأنف نشاطه في الخطابة المسجدية، وفي الدروس العامة التي قد بدأها من قبل، وأقبل عليه طلبة العلم الشرعي يتلقفون معلوماته، ويقتبسون عنه مبادئ السلوك والأخلاق.. ومالبث إلا قليلاً حتى أحرز مودّة الجميع، وتقدير الكافّة، سواءٌ في ذلك علماؤهم وشبابهم ونساؤهم وعامتهم.

نعسان: يا سلام!.

محمد: وقد ضاعف من أثره، ومن تقدير الكافة له، ذلك الدأب الذي تميّز به في خدمة العلم؛ فدروسه لم تنقطع قطُّ، سواءٌ في المدرسة أو المسجد أو البيت، لا يكاد يفرغ من جانب، حتى ينتقل إلى الآخر، ولا يشغله عن ذلك شاغل، إلا الأحوال الملزمة، كالنوم والطعام والمرض، فإذا ما وجد فسحة بين هذه الأعمال، لجأ إلى القلم ينشئ ردّاً، أو يجيب على استفتاء، أو يدبّج رسالة، أو يراجع كتاباً.

صادق: يا سلام!. تلخيص بديع لحياة الشيخ رحمه الله. ولكن لي سؤالاً يا فضيلة الأستاذ.

محمد: تفضّل يا بني. اسأل.

صادق: أظنُّ ـ وبعض الظنِّ إثمٌ وليس كلُّ الظنِّ إثماً ـ

ضحك أعمامي الأفاضل من هذا الفتى الذي يتفلسف أمامهم، وهم العلماء الأفاضل، حتى لجمني ضحكهم هذا، ولولا أنّ فضيلة الأستاذ محمد استدرك الأمر بدعابة لطيفة، لولَّيْتُ هارباً، ولخسرتُ هذه الجلسة التي يتمنّاها كلُّ متتبِّع لحياة عظماء هذه الأمة. قلت:

ـ أظنُّ أنّ انشغال الشيخ على هذه الصورة، كان على حساب أهله.

فقال الأستاذ محمد:

ـ لا يا بنيّ، لم يكن على حساب أهله، وهذا من جملة ما امتاز به على الكثيرين من المشايخ والعاملين في خدمة الدعوة.. الشيخ لم يقصر عطاءه على الناس ويهمل آله، بل جمع بين الحسنيين، فكان له من تلاميذه الكثر أحسن الغراس التي شرعت تؤتي أكلها تحت عينيه، وكان له من أبنائه السبعة خير وارث لعلمه واجتهاده وفضائله، حتى امرأته لم يدَّخر وسعاً في تزويدها بكلِّ ما ينفع النسوة المؤمنات من العلم النافع، فكان مجلسها لا يخلو من توجيه إلى خير، وإجابة على سؤال.

أحمد: كلامك سليم جدّاً يا أستاذي.

محمد: وقد زاد مكانه رسوخاً في قلوب الحمويين ما يعرفونه من زهده، وإخلاصه، وصدق لهجته، وصلابته في كل ما يعتقد أنّه الحق، ثمّ مشاركته إياهم في مكافحة الاستعمار، وإلهابه المشاعر بحبّ الجهاد، لتطهير البلاد من أرجاس المحتلين، وإيثار الشهادة مع العزّة، على الحياة الخانعة الذليلة.

صادق: تعني الاستعمار الفرنسي يا سيِّدي؟.

محمد: نعمْ يا بنيّ، وعند أعمامك الحمويين هؤلاء الخبر اليقين.

أحمد: نعمْ يا صادق.. فقد ساهم الشيخ ـ رحمه الله ـ في بثِّ روح

الجهاد والثورة على المستعمر الفرنسي عام ١٩٤٥م ما دفع أهل حماة إلى الثورة المسلّحة ضدَّ الفرنسيين، شاركتْ فيها شرائح الشعب المختلفة، بما فيها رجال الأمن والدرك السوري (يعني الشرطة) ممّا اضطرّ المستعمر الغاشم إلى الانسحاب من سورية، بعد أن زرع مجاهدو حماة الأشاوس، مدخل المدينة الجنوبي بأشلاء جنوده، وحطام دباباته ومدرّعاته، ونالت سورية استقلالها.

صادق: الله أكبر!!.

أحمد: وكان الشيخ رحمه الله، من أوائل مَنْ وصل إلى ثُكنة الجيش الفرنسيِّ المتمركز في (الشُّرفة) غربي حماة، ورفع الأذان من أعلى مكان فيها.

صادق: الله أكبر.. الله أكبر.

وشاركني أعمامي في التكبير والتهليل، إعجاباً بالشيخ المجاهد، ثم قال الأستاذ فارس:

حدِّثوه عن مشاركة الشيخ في حملة التعبئة من أجل فلسطين.

فتوجه الجميع نحو الشيخ محمود، ولكنّ الشيخ محمود طلب من الأستاذ محمد أن يتابع حديثه عن الشيخ، واستجاب فضيلة الأستاذ محمد، وعدَّل من جلسته، ثم قال:

ـ لمّا نفّذت الصّليبية الجديدة مؤامراتها بتقسيم فلسطين، كان الشيخ الحامد في مقدمة العلماء والزعماء المثيرين للهمم، الشاحذين للعزائم. وقد وطَّنَ نفسه على مرافقة أخيه الدكتور مصطفى السباعي لخوض غمرات الجهاد، لولا تشدُّدُ إخوانه في منعه من مغادرة حماة، يقيناً منهم، أنَّ بقاءه في قلب الجمهور، أنفع للقضية من مشاركته في القتال.

وعندما سكت الأستاذ محمد عن الكلام، انطلق الدكتور أحمد يقول:

ـ لكنّ الشيخ ـ رحمه الله ـ سار على رأس المتطوّعين إلى مكان تجمُّع المجاهدين في (قطنا)، والتقى الإمام البنا . .

وقال أبي :

ـ على الرغم من أني لست حموياً، ولكني أعرف أنّ الشيخ ـ رحمه الله ـ استجاب لطلب العلماء والوجهاء والعامة، ولم يذهب إلى فلسطين، ولم يشارك المجاهدين في قتال أعداء الله والإنسانية، ولكنه لم يجلس مكتوف اليدين، بل انضمَّ إلى اللِّجان المشكَّلة لمساعدة اللاجئين الذين حلَّتْ بهم النكبة، ومواساتهم، والتخفيف عنهم، وجمع المعونات المادية لهم . . وكان يطوف على اللاجئين بنفسه لمساعدتهم، والإسهام في حلِّ مشكلاتهم، وكان يخطب في الناس، ويحثّهم على التسلُّح والتدريب، وكان يوصي الشباب، ويحضّهم على الانتساب إلى الجيش، ليكونوا ضباطاً وجنوداً في صفوفه، يحمون البلاد، ويدافعون عنها، ويسعون لتحرير فلسطين، وكان يقول : مشكلة فلسطين لا تحلُّها ولا تنهيها إلا القوة .

وقال الأستاذ نعسان :

ـ وكان الناس يستجيبون له، ويقدمون ما يطلبه منهم الشيخ . . بعضه أو كلّه أو كثيراً منه .

وقال الدكتور أحمد :

ـ وكان الناس يفزعون إليه إذا نزلت بهم نازلة، أو ألمَّت بهم ملمَّة (مصيبة) فالناس له أبناء، وهو لهم أب، يفيض عليهم رأفة ورحمة، يسرُّه ما يسرُّهم، ويحزنهُ ويؤلمه ما يحزنهم ويؤلمهم . . بل اسمحوا لي أن أزعم أنّ رحمة الشيخ التي فُطر عليها ـ تجاوزت كلَّ الخلق، حتى الحيوان، وكان يقول : «البَرُّ لا يقتل حتى الذّرّ» أي صغار النّمل .

نظر والدي نحوي، فوجدني أتململ، فعرف أنّي أريد شيئاً ما، فسألني عمّا بي، فقلتُ :

ـ شوّقتموني يا أعمامي وأساتذتي ومشايخي، إلى معرفة صورة الشيخ، فهل عندكم صورة له؟ .

فضحك السّادة العلماء من سؤالي، ثم قال الأستاذ نعسان:

ـ عندما ذهب الشيخ على رأس المتطوعين إلى (قطنا)، والتقى هناك الإمام الشهيد، أراد بعض الإخوة أخذَ صورة تذكارية للشيخين الجليلين: البنا والحامد، وعندما انتبه الشيخ إلى الأخ الذي يحمل الكاميرا ليصوّرهما، صاح فيه، وغطى وجهه بكفّه، والإمام البنا يبتسم، ولكنّ الأخ صوَّرهما معاً.

صادق: هذه صورة فريدة، فهل عندكم يا سادتي؟.

فضحك السادة العلماء من جديد، وقال الأستاذ نعسان:

ـ احترق الفلم، ولم تظهر فيه أي صورة.

صادق: لا حول ولا قوة إلا بالله.

نعسان: ولكن.. إذا أحببتَ وصفناه لك، أو وصفه الدكتور أحمد.

صادق: يا ليت.

أحمد: كان الشيخ ـ رحمه الله ـ معتدل القامة، وإلى الطول أقرب، وكان عريض المنكبين، واسع العينين، واسع الفم، واسع الجبين، أقنى الأنف، أبيض البشرة، كأنّ لحيته سلاسل الفضّة، تشعّ من ثناياها الأنوار.

وكان له صوت جهوريّ متميّز يساعده على الخطابة، له نغمة حلوة في قراءته القرآن، وخاصّة في الصّلاة، تأخذ بالألباب، وتحلّق بك في ملكوت الله، وتفتح مصاريع القلوب، لتستقبل الأحوال والأنوار.

صادق: وصفٌ جميل.. ولباسُه؟.

أحمد: كانت ثيابه متواضعة، ولكنها نظيفة، تعبق منها رائحة زكية، وكان يلبس الأبيض من الثياب، وجُبَّتُهُ يغلب عليها اللون الرمادي، وله عمامة بيضاء كالتاج. وباختصار.. كان الزهد يغلب عليه في الملبس كما في المأكل وحطام الدنيا.. وعندما بنى منزله المتواضع في حي الفراية، كانت شروطه قاسية ودقيقة، بأنْ لا يكون على أرض وقف، أو أن تكون الأرض لها علاقة بإرث أو بحقّ من حقوق العباد.

صادق: الله أكبر!.

أحمد: ولو دخلتَ منزله لاعتصرْتَ عينيك إذا دقّقتَ بأثاثه ومفروشاته، ومازلت أذكر أنّ مكتبته بدون دهان، وكراسيّه يغوص الجالس فيها إلى الأذقان.

صادق: الله أكبر! ما أروع وما أزهد هذا الشيخ!.

أحمد: يشدِّد على نفسه بالنسبة إلى حقوق الآخرين، ويبالغ بالتسامح فيما يختصّ بمصلحته.

صادق: الله أكبر.

أحمد: وكان ـ رحمه الله ـ كثير صدقة السِّر، فكم من أرامل وأيتام يأتيهم رزقهم عن طريقه، دون أن يعلم به أحد إلا الله تعالى.

صادق: يا سلام!.

أحمد: وكان يرفض القيام بتوزيع الزكوات أو صدقات المحسنين على الفقراء.

صادق: لماذا؟.

أحمد: استبعاداً لأي شبهة.. ونادراً ما يقبل الهدية.

الوالد: حدِّثنا ـ يا دكتور أحمد ـ عن الوزير مصطفى طلاس مع الشيخ.

أحمد: والله هذه حادثة تُرْوى..

وعدَّل الدكتور أحمد من جلسته، ثم ركّز نظارته فوق عينيه وقال:

ـ حدّثني من أثق به، عن العماد مصطفى طلاس ـ وزير الدفاع ـ قال:

«رجلان كُلِّفتُ بمهمة ذات طبيعة واحدة إليهما، من قِبَلِ رئيس الدولة.

أما أحدهما، فقد كان في نظري جبلاً، فما خرجت من عنده إلا وهو في عيني أصغر من العصفور. والثاني دخلتُ عليه، وأنا أظنّ أنّي أمامه

جبل، فما خرجت من عنده إلا وأنا في عين نفسي كالعصفور.

أما الأول، فلا ضرورة لذكر اسمه، وقد أفضى إلى ماعمل، وأما الثاني فهو الشيخ محمد الحامد رحمه الله».

يقول طلاس:

«لمّا مرض الشيخ الحامد، وبلغ خبرُ مرضه إلى الدكتور نور الدين الأتاسي، وكان يومها رئيساً للدولة.. كلّفني أن أذهب إلى حماة، وأعود الشيخ، وأنقل إليه تحيات رئيس الدولة، وتمنّياته بالشفاء، وأن أعرض عليه العلاج في الخارج، وأن يُمنح شيكاً مفتوحاً يغطي كلَّ ما يلزمه من المال، قمتُ بمهمتي، وزرت الشيخ ـ وهو طريح الفراش ـ وأبلغته ما حُمِّلتُ من تحيات رئيس الدولة، ورغبته، وقلت له: ما عليكم ـ يا فضيلة الشيخ ـ إلا أن تختاروا الدولة التي ترغبون في العلاج فيها، والدولة في خدمتكم؛ فإن ماضيكم المجيد، ومواقفكم الوطنية، وتربيتكم للأجيال، تستدعي أن يعرف هذا الوطن حقّكم، وأن يوفيكم بعض الذي عليه».

قال طلاس:

«فأبى الشيخ هذا العرض إباء شديداً، وأصر على موقفه هذا بعناد، وقال لي:

«إنني غنيٌّ والحمد لله، ولا أحتاج إلى مساعدة أحد، وإن اضطررت إلى المال، فعندي بيتي، يسدِّد كلَّ النفقات إذا بعتُـه».

وسكت الشيخ الحامد لحظة ثم قال:

«ثمّ إنكم أحوج مني إلى هذا المال، كي توزّعوه على مستحقيه من الفقراء والمحتاجين».

يقول طلاس:

«فألححتُ عليه كثيراً وهو يرفض، ثم خرجت من عنده وأنا ـ والله ـ في نظر نفسي كالعصفور أمام جبلٍ أشْمَّ عظيم».

الحق أنني امتلأت إعجاباً بهذا الموقف الرائع من الشيخ أمام الحكام الذين كانوا سيستغلون موافقة الشيخ على العلاج في الخارج، ومع ذلك، أكبرتُ ـ في نفسي ـ مثل هذا العرض من رئيس الدولة آنئذٍ.

وتنحنح الحاج حاتم لأوّل مرة منذ جلسنا على ذلك البساط الأخضر، فتوجّهتْ إليه الأنظار، فقال:

ـ اسمحوا لي أن أروي لكم هذه الحادثة التي أذكرني بها حديث الدكتور أحمد عن عفّة الشيخ، وعدم قبوله الهديّة إلا نادراً.

فقال الأستاذ نعسان:

ـ هات ما عندك يا أبا الهماهم.

قال الحاج حاتم الذي يتميّز ـ فيما بدا لي ـ بحياء وأدب إسلامي رفيع:

ـ جاء واحد من خواصّ طلاب الشيخ ومحبّيه، وهو غير مسرور من موقف حصل بينه وبين الشيخ رحمه الله.. قال لي ذلك الطالب:

«أنا ـ كما تعلم ـ أدْرُسُ في جامعة دمشق، وقبل أن أغادر الشام إلى حماة، اشتريت هدّية لفضيلة الشيخ، وجئته بها إلى بيته، فقبلها الشيخ مني، وشكرني عليها، ففرحتُ، ولكنّ فرحتي لم تطل، فقد سألني الشيخ: «بكم اشتريتها؟».

حاولتُ عدم الإجابة، لكنَّ الشيخ أصرَّ على معرفة ثمنها، وأمام إصراره، ضعفتُ وذكرت له ثمنها، فأخرج الشيخ المبلغ من جيبه، ودفعه إليّ، شاكراً وداعياً لي، وموصياً إياي ألاّ أكلّف نفسي مرة أخرى بمثل هذا.

قال الحاج حاتم: سمعت القصّة من الطالب، وتأثّرت لتأثّره، وبعد أن افترقنا، بادرت إلى شراء هدّية للشيخ، وقدّمتها له، فاعتذر عن قبولها.. رجوته فاعتذر.. ولكنّه ما لبث أن قبلها أمام إلحاحي، ولكنْ على كُرهٍ منه، ودعا لي بخير، وانصرفتُ.

وتابع الحاج حاتم يحكي تجربته مع الشيخ الحامد:

ـ في اليوم التالي سألتُ الشيخ عن السبب الذي جعله يدفع ثمن الهدية لذلك الطالب، ولا يدفع إليّ ثمن هديتي؟ مع أنّ ذلك الطالب كان أقرب مني إلى الشيخ وأحبّ، لأنه كان قد سبقني إلى التشرف بالتتلمذ على فضيلة الشيخ.

ـ فبماذا أجاب يا عمي؟

قال الحاج حاتم:

ـ قال لي الشيخ رحمه الله:

«ذاك طالب يدفع له أهله مصروفه ليتعلَّم، لا ليقدم لشيخه الهدايا، فقبلت الهديّة منه جبراً لخاطره، أما أنت، فتكسب.. تعمل وتجني ولا يصرف عليك أحد، ولك أن تهدي من كسبك ماتشاء لمن تشاء».

فهَمْهَمَ الحاضرون إعجاباً بهذا الفهم للشيخ الحامد، فيما تابع الحاج حاتم يقول ـ وقد رأى استحسان الحاضرين لكلامه ـ:

ـ وجئته مرة ببعض الفاكهة، فسألني:

«ما هذا؟».

فقلت ـ على عادة الناس ـ: هذه لسالم (ولده الصغير الذي صار مجاهداً واستشهد فيما بعد. رحمه الله وإخوانه رحمة واسعة).

فقال الشيخ:

«إذاً.. لا يجوز لأحد من أهل البيت أن يذوقها، لأنها مُلْك صبيٍّ صغير».

صادق: وماذا فعلت يا عمي؟.

حاتم: أقسمتُ له إني ما قلت ذلك إلا ليقبلها مني، وهي لأهل البيت جميعاً.

صادق: الله أكبر! ما أعظم هذا الرجل.

نعسان: هل انتهيتَ مما عندك يا دكتور أحمد؟.

أحمد: إن شئتم حدّثتكم عن الشيخ أياماً، ولكني سوف أوجز، فالطعام ينتظركم وأنتم تنتظرونه.

صادق: أمّاأنا، فجوعان جداً جداً لهذه الأحاديث الشهيّة عن ذلك الشيخ الفاضل الذي يذكّرني بأجدادنا الكرام، من الصّحابة والتابعين، والعلماء العاملين.

قرأت السرور في وجوه أعمامي العلماء الفضلاء. ثم رأيتهم يتوجّهون تُجاه الدكتور أحمد الذي انبرى يقول:

ـ كان الشيخ ـ رحمه الله ـ غزير الدمعة، وكثيراً ما يعتريه البكاء شوقاً إلى الحبيب محمد ﷺ، أو خوفاً من الله، وفزعاً من النار وذكر جهنم، والعياذ بالله، أو رقّةً لقصة أرملة أو يتيم، أو لحال المسلمين، وما آلت إليه من ذلّ وتشرّد وضياع، أو لذكر الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله، فقد كان الشيخ يكثر من ذكره.

ـ الله الله!.

وقد يبكي الشيخ عند تجليات الحقّ على قلبه، فيشاركه إخوانه وجلساؤه في البكاء.

صادق: كيف؟

أحمد: قد يطرقه حالٌ يتدفّق على قلبه وروحه، فيصرخ باسم الذات الإلـٰهية مرة، ويضطرب أخرى. وعندما كان يُسأل عن ذلك كان يجيب:

«إذا طرقَ الحالُ القلبَ بكى، وإذا طرقَ الرُّوحَ صاح».

وكان يستشهد بقول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

كان التأثر قد بلغ مبلغه من نفوس السادة العلماء، وربما كنت أشدَّ منهم تـأثُّراً بما أسمع، وكانت عدّة تسـاؤلات تتلجلج في الصَّدر، وكان يمنعني الحياء من الإفضاء بكلِّ مافي نفسي، غير أنّ والدي لمحَ أو أحسَّ ما يجول في نفسي، فقال:

ـ إذا كان في نفسك شيء يا ولدي فأخرجه، واستفد من أعمامك.

شعرت بسخونة في خدّي، ولكنّي تشجّعت وقلت:

ـ الحقيقة، كما يقول الناس، في نفسي تراكمات، أريد أن أفرّغ بعضها

ـ قـل يا ولدي، فهؤلاء أعمامك، وهم جميعاً من تـلاميذ الشـيخ الحامد، ما عدا الأستاذ محمداً. فهو من زملائه وأصدقائه، وهو مثلُه، عالم وأديب وكاتب وشاعر.

فرحت كثيراً بما سمعت، ثم قلت:

ـ أريد ـ أولاً ـ أن أعرف شيئاً عن علم الشيخ.

ثانياً: عن أدبه وشعره.

ثالثاً: عن ورعه وتقواه.

رابعاً: عن علاقته بالحكام.

خامساً: عن إرشاده وتربيته لتلاميذه.

سادساً: هل كان الشيخ متزمّتاً؟

فقاطعني الدكتور أحمد بقوله:

ـ سأبدأ من (سادساً)..

الشيخ رحمه الله كان أديباً فكِهاً، لا تكاد دعابته الحلوة الظريفة تفارقه حتى في أضيق الأوقات وأحرج المواقف، ولم يكن متزمّتاً قط، وربما جمع في مجلسه بين الدُّعابة والبكاء.

فقال لي الأستاذ محمد:

ـ سأروي لكم حادثة تناسب المقام . .

كنّا ـ ذات ليلة ـ في ضيافة أحد أصدقاء الشيخ ، ومعنا الشاعر الحموي الدكتور وجيه البارودي . وعلى عادة الدكتور في إرسال النكات ، أطلق بعضها ممّا لم يرق للشيخ ، فظهر الإنكار في وجهه ، ثم انسحب من المجلس ، مضحّياً بكل ما يحدق بـه من روائع الأزاهير ، ونفحات العبيـر . . وهي من أحب الأشياء إليه .

صادق : لماذا تصرّف الشيخ هذا التصرّف ، مع حبِّه للدُّعابة يا سيدي ؟

محمد : لأن الشيخ رحمه الله كان شديد الحرص على كرامة العلم ، فلا يتساهل بحقّه حتّى في مثل هذه المواقف ، مع ظرف الشيخ ، وميله إلى الدعابة ، ولكن ، ضمن حدود الأصول التي لا تجرح الوقار .

سعيد : والشيخ رحمه الله كان قمّة في العلم ، ووارث النبوّة منهاجاً وطريقاً وتحققاً .

صادق : إذن . . انتقلنا إلى علم الشيخ رحمه الله .

أحمد : أنا ألخص لك ثقافة الشيخ التي كوّنت شخصيته العلميّة . .

الشيخ رحمه الله خرّيج الأزهر الشريف . . درس فيه ست سنين كما ذكرنا قبل قليل ، وهو قبل أن يذهب إلى الأزهر ، كان عالماً ، وعندما اختبره علماء الأزهر ، قال أحدهم عنه :

«هذا بحر علم لا تنزحه الدِّلاء» .

وقال عالم آخر :

«هذا رجلٌ امتلأ علماً ، جاء ليحصل على شهادة» .

صادق : يا سلام ! .

أحمد : نعمْ يا بني . . فالشيخ ما كان يقتصر على ما يتلقّاه من علم في المدرسة الشرعية أو في الأزهر ، بل كان يميل إلى المطالعة الحرّة ، ويكفي

أن تعلم أنه قرأ مكتبة أخيه الشاعر بدر الدين، وهي مكتبة حافلة زاخرة بمئات الكتب والمجلدات، قبل أن يبلغ العشرين من العمر.

صادق: الله أكبر!.

أحمد: على أيّ حال.. أستطيع أن أقول: إنّ ثقافة الشيخ تشكّلت من مجموع الكتب التي قرأها، في الأدب والشعر وعلوم اللغة العربية المختلفة، من نحو وصرف وبلاغة وعروض، وسواها، كما قرأ كتب الحديث الشريف، فلم يدع كتاباً وصلت إليه يده، إلا قرأه في الحديث وعلومه وشروحه، وقل مثل هذا في كتب التفسير.

صادق: عفواً سيِّدي. هل كان الشيخ يحفظ كتاب الله تعالى؟.

أحمد: حفظ القرآن الكريم وهو في الثانية والثلاثين من العمر. وقرأ الشيخ كتب الفقه للأئمة الأربعة، وإن كان قد تخصص في الفقه الحنفي.

صادق: لأنّ مذهب الشيخ حنفي؟.

أحمد: نعمْ.. كان حنفيَّ المذهب.. ثم إنّ الشيخ قرأ الكثير من كتب التاريخ وتراجم الرجال، وقرأ كتب التصوّف والتربية الرُّوحيّة، وخاصة كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي رحمه الله.

فارس: لكنّ الشيخ ما كان ينصح بقراءة بعض الكتب الصوفية، إلا لمن كان على جانب من العلم بالكتاب والسنّة وعلم التوحيد.

صادق: لماذا؟.

فارس: لتقيه من مطبّات الشَّطحات، لأنّ الشيخ ـ رحمه الله ـ كان يشدّد النكير على كل عبارة تُشْتَمُّ منها رائحة الحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود.

صادق: لم أفهم شيئاً مما قلته يا عمي.

الوالد: خيرٌ لك ألاّ تفهم مثل هذا الكلام.. الآن على الأقل.

صادق: لماذا يا أبي؟.

سعيد: هذه مصطلحات فلسفية من الصعب أن تدرك معانيها الآن، ولكنك ستفهمها عندما تكبر إن شاء الله.

محمد: لكنْ.. لا باس من الدّردشة حول تصوُّف الشيخ، وسوف يفهم صادق ما نقول، لأنّ التصوّف جزء لا يتجزأ من حياة الشيخ.

صادق: إن شاء الله. وسأصغي جيّداً لعلّي أفهم ما تقول يا عمي العزيز.

محمد: تلقّى الشيخ بوادر الصُّوفيّة الأولى منذ نشأته في ذلك البيت الذي كان الزهد والقناعة وسيلته إلى مجابهة الضَّنْك الذي ينيخ عليه بكلاكله. وطبيعيٌ أنّ التصوُّف القائم على الرِّضى بالمقسوم، ومعالجة الحرمان بالأذكار الواصلة بين الليل والنهار، أنجع الأسباب في التخفيف من أعباء الواقع، فكيف إذا كان ربُّ هذا البيت من شيوخ الصّوفيّة الذين يتأسّى بهم السالكون؟.

وسكت الأستاذ محمد لحظات تنفّس خلالها كمن يتنفّس الصُّعَداء، ثمّ تابع يقول:

ـ فالصوفيّة الذاكرة الزاهدة الصابرة، إذاً هي أول المؤثرات التي واجهها أهل ذلك البيت، فلا غرابة أن تطبع نفس هذا الفتى الملتهب المشاعر، الفائض الذّكاء، بصبغتها العميقة، فلا تكاد تزايله يوماً كاملاً من حياته.

وسرح الأستاذ محمد بخياله، كأنه يستدعي ذكريات مهمةً، ثم قال:

ـ وهنا نتذكر شيئاً آخر يتصل بهذا الجانب من حياة الناس في حماة، ولا بدّ أن نتساءل عن أثره في نفس ذلك الفتى أيضاً.. أعني تلك الدّعوة السلفية التي بدأت تتحرك لمواجهة الصوفية التي كادت تحتوي مجموع العامّة، لا في حماة وحدها، بل في البلاد المجاورة أيضاً، ولا سيّما حمص التي هي مقر المرشد الأكبر للصوفية النقشبندية آنئذٍ: الشيخ أبي النصر خلف الجندي.

الجميع : رحمه الله .

محمد : وكما تأثرت النشأة الأولى للشيخ الحامد بالنزعة الصوفية ، حدث أن تأثر الشيخ بنقيضتها السّلفيّة التي كان داعيتها خاله العّلامة الصالح الشيخ سعيد الجابي رحمه الله .

الجميع : رحمه الله .

محمد : ثمّ تحوَّل الشيخ الحامد إلى الصُّوفية من جديد، عندما كان يدرس في حلب. والظاهر أنّه كان تحوُّلاً جذرياً عميقاً قطعه عن إخوانه السلفيين، الذين آلمتهم عودتُه إلى الصوفيّة ، فانطلقوا يضايقونه . وقد شدّد من التزامه طريقَ الصوفيّة ، اتصاله بشيخ النقشبندية الحمصي الشيخ أبي النصر الذي استهواه بشخصيته القوية ، فاتخذه مرشداً، يستمدّ رأيه في كلّ مشكلة تواجهه ، والشيخ أبو النصر ينصحه ويوجّهه ويرشده إلى ما ينبغي عمله .

صادق : إذاً . . كان الشيخ الحامد صوفياً .

محمد : لكنه لم يفارق ـ قطُّ ـ منهج العلم ، وموجبات الكتاب والسنّة .

صادق : شكراً لكم يا سيِّدي . . يكفيني هذا . .

حاتم : ما دمنا في صدد الحديث عن علم الشيخ ، أريد أن أروي لكم هذه الحادثة .

فاتجهت الأنظار نحو الحاج حاتم الذي بدا لي أحد التلامذة المحبّين المخلصين للشيخ الحامد رحمه الله . قال الحاج حاتم :

ـ جئتُ إلى الشيخ في يوم جمعة لآخذه بسيارتي إلى مسجد المرابط ـ أيام مرضه ـ ليصلّي فيه .

فسألت عمّي الحاج عن سبب عدم خطابته ، ونسيت أو سهوتُ عن قوله :

«أيام مرضه» . ثم تابع الحاج حاتم حديثه :

ـ عندما ركبنا السيارة، شاهدت ولده محموداً ـ وأشار إلى الشيخ محمود الذي يجلس أمامه ـ كان الشيخ محمود قاصداً جامع النُّوري ليخطب الجمعة فيه، فاستأذنت الشيخ في إيصال الشيخ محمود إلى جامع النُّوري، فأذن لي. وبعد أن سرت قليلاً قلت للشيخ:

«ما رأيك يا سيدي في أن نحضر خطبة الشيخ محمود، ونصلي عنده؟»

فلم يوافق الشيخ على هذا الرأي.

ونزل الشيخ محمود عند باب المسجد، وتابعنا المسير، فقال الشيخ رحمه الله: «ارجعْ إلى جامع النُّوري لنصلي مع الشيخ محمود. لكن.. ادخلْ أنت أولاً، وانظر أين يصلي الشيخ محمود الآن صلاة السنَّة».

فدخلت ثم عدت لأخبر الشيخ بأن ولده الشيخ محموداً يصلي أمام المنبر.

فدخل الشيخ من باب جانبي، من جهة الشرق، وجلس بحيث لا يراه الخطيب، أي الشيخ محمود.

بدأ الشيخ محمود يخطب، فكانت خطبته حول قول الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وأورد الشيخ محمود ما قاله المفسّرون، ثم أتبعه بأقوال علماء الطبيعة والفلك المُحْدَثين، وما صدر عنهم من نظريات وأقوال حول خلق السماوات والأرض، ومادّة كلٍّ منهما. ثم أنهى خطبته ونزل للصلاة.

عندها أمرني فضيلة الشيخ أن أصلّي الفريضة خلف الإمام، وأنادي بالناس ألا يخرجوا من المسجد، حتى يسمعوا تعليقاً على الخطبة من الشيخ محمد الحامد.

ـ ونفَّذتَ الأمر؟.

ـ وهل أستطيع تجاهُلَ أمر الشيخ، حتى لو كان كهذا الأمر الذي وقع

عليّ وقوع الصاعقة . . لكن، لا مناص من التنفيذ والطاعة .

ناديت بعد انتهاء الصلاة بما أمرني به الشيخ الذي جاء ووقف أمام المنبر ليتكلَّم، ولكنّ الناس ألحُّوا عليه أن يصعد إلى المنبر، فصعد الشيخ، وعلَّق تعليقاً شديد اللهجة، أنكر فيه على ولده محمود أن يأتي بنظريات علمية يذكرها أصحابها اليوم، لينقضوها أو يغيّروا ويبدلوا فيها غداً .

صادق: أنا مع فضيلة الشيخ الحامد فيما ذهب إليه، وأنا أضحك يومياً من أعماقي وأنا أرى المذيع يتحدث عن أعمار بعض العظام بمئات الملايين من السنين . . كلام فارغ لا قيمة له . ولكن . . ماذا كان موقف الشيخ محمود؟ .

لم أنتبه إلى لهجتي التي جعلت أعمامي العلماء يحبسون ضحكاتهم، لولا أني التفتُّ إلى عمي الحاج حاتم لأسمع جوابه، فاعتذرتُ عما بَدَرَ منّي من كلام سخيف، وإلا . . فمن أكون أنا حتى أبدي رأيي أمام هؤلاء العلماء الأفاضل؟ .

ومع ذلك . . أجابني الحاج حاتم بقوله :

ـ في اليوم التالي اعتذرت للشيخ محمود عمّا حصل، فقال لي :

«لا داعي للاعتذار، فقد شاء الله أن يكشف تجرُّد الوالد لله تعالى، وأنه لا يمنعه من قول الحق الذي يعتقده أيُّ مانع» .

وقال الحاج حاتم :

ـ واسمعوا هذه النكتة التي تأتي في باب عمق الشيخ . . عمق فهمه لما عَلِمَ . . نُمي إلى عِلْم الشيخ ـ رحمه الله ـ أن بعض المشايخ في حماة يترددون على المحافظ راغبين في تسلُّم وظيفة الإفتاء . فغضب ـ رحمه الله ـ صيانةً للعلم، وإكراماً للعلماء أن يطرقوا أبواب الحكام، ولم يذكر الشيخ واحداً منهم باسمه أو صفته .

فقلت : لا حول ولا قوّة إلا بالله .

فقطع الشيخ حديثه وقال:

«الحَوْقلة في أثناء الغيبة غيبة».

فارس: أراد الشيخ أن يعلّمك ويوجهك إلى حُكْم شرعي يغيب عنا كثيراً يا حاج حاتم.

سعيد: بل كثير منا لا يدركه، وهذا دليل على الفهم العميق عند شيخنا رحمه الله.

أحمد: والحديث عن ثقافة الشيخ وعلمه، لا بدَّ أن تقودنا إلى دروسه ومحاضراته وخطبه.

فارس: كان الشيخ يحضّرها تحضيراً جيّداً، بالرجوع إلى عدد من المراجع العلميّة.

أحمد: كان للشيخ ـ رحمه الله ـ ستة دروس مسائية في جامع السلطان، يبدأ الدرس بعد صلاة المغرب، وينتهي بعد صلاة العشاء.

صادق: ماذا كان يدرِّس الشيخ يا عمي؟.

أحمد: التفسير، والفقه، والحديث، والسيرة. كما كانت له دروسه الصباحية في جامع الجديد من قبيل طلوع الشمس حتى يحين الدوام الرسمي في المدارس، هذا في الشتاء، أما في العطلة الصيفية، فقد يمتدّ أكثر من ساعتين، حسب طاقة الحاضرين.

صادق: أيضاً ستة أيام في الأسبوع؟.

أحمد: نعمْ ياصادق، فقد نذر الشيخ نفسه للعلم، فكلُّ أوقاته مملوءة بالبحث والدرس والتعليم، وكان يحثُّنا على العلم ويقول:

«نحن في حاجة إلى العلم أكثر من حاجتنا إلى الذكر، ولَعَالمٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابد».

وقال والدي:

ـ ألا تحدّثوننا عن زهد الشيخ يا تلاميذ الشيخ؟ .

فانبرى الحاج حاتم يقول :

ـ أنا سأبدأ الحديث، ومن مشاهداتي . .

توفِّي مفتي حماة الشيخ سعيد النعساني رحمه الله، وشغر منصب الإفتاء فترة طويلة، كانت المشاورات ـ خلالها ـ على قدم وساق من أجل إيجاد البديل الصالح لهذا المنصب . وكان الذين يتقدمون لشغل هذا المنصب لا يوازون شيخنا الحامد، لا في علمه ولا في زهده وورعه وتقواه . ومع أن شيخنا الحامد كان هو المفتي الحقيقي للبلد في هذه الفترة، يستقبل المستفتين والسائلين من داخل سورية ومن خارجها، ويردُّ على استفتاءاتهم مشافهة أو كتابة وبوساطة البريد ـ فإن الشيخ كان يأبى أن يتقدم لشغل هذا المنصب .

بعث إليه وزيرُ الأوقاف عن طريق المحافظ ليقبل منصب الإفتاء بشكل رسمي، فأبى، وكان للمفتي بعض المزايا المادية، من سكنٍ وسيارة وراتب لا يستهان به، ولكنَّ الشيخ كان فوق الإغراء والترغيب في هذا الحطام . . وتوسَّط بعض العلماء لدى الشيخ، يرجونه أن يقبل، فأبى وقال لهم :

«أنا أفتي الناس جميعاً في المسجد، وفي البيت، وفي الشارع، وفي المدرسة، فما حاجتي إلى منصب الإفتاء؟» .

وذات ليلة، دعا محافظُ حماة جمعيةَ العلماء إلى سهرة في بيته، لبحث بعض الأمور المهمة، وكان الشيخ من بين المدعوّين .

حملتُ الشيخ بسيارتي إلى منزل المحافظ . وبدأ الحديث عامّاً، ثمّ دخل المحافظ في صُلب الموضوع الذي كانت الدعوة والسهرة من أجله، وقال :

«إن سيادة الوزير اتّصل بي مؤكداً أن نأخذ موافقة الشيخ محمد الحامد على قبول منصب الإفتاء» .

ثمّ توجّه إلى الشيخ قائلاً :

«وأنا أرجوك ـ يا فضيلة الشيخ ـ أن تقبل، فأنت أولى الناس بها، وأخشى أن يستلم هذا المنصب من ليس له أهل فتأثم».

وتكلّم عددٌ من العلماء، وخوّفوا الشيخ بالله تعالى، وحمّلوه المسؤولية، وختم الشيخ توفيق الصباغ ـ رحمه الله ـ الحديث بقوله:

«يا ابني يا محمد، الله يرضى عليك، أطع إخوانك».

فقال الشيخ رحمه الله:

«دعوني حتى أستأمر ربّي».

والتفت إلى المحافظ وقال:

«إذا وافقت على ذلك، فإني أشترط أن لا أستقبل أحداً، ولا أودّع أحداً، ولا أحضر الاحتفالات، ولا ولا ولا . . ».

صادق: جميل . . فماذا كان جواب المحافظ؟.

حاتم: قال له المحافظ: «أتعهد لك بأن لا ألزمك بشيء من ذلك».

صادق: عظيم!.

حاتم: ولكّن الشيخ قال للمحافظ: «افرضْ أنك نُقلتَ من مكانك، وجاء بعدك من لا يعترف على تعهُّدك لي».

وسكت الشيخ لحظة ثم قال:

«على كلٍّ . . دعوني حتى أستخير الله تعالى . . أريد أن أستأمر ربّي».

صادق: ثم ماذا؟

حاتم: ثم انصرفنا من بيت المحافظ، وفي اليوم التالي أبلغه الشيخُ رفْض المنصب.

أردتُ أن أعلّق على هذه الحادثة التي فيها من الزهد مافيها، وكان رأيي على عكس رأي الشيخ رحمه الله تعالى، ولكني خشيت أن يضحك

عليّ السادة العلماء، فمن أنا حتى أبدي رأيي في مثل هذا الأمر الخطير؟ ثم شرح الله صدري لما شرح له صدر الشيخ رحمه الله.

وقال الأستاذ نعسان:

ـ الحقيقة.. موقف الشيخ هذا نابعٌ من موقفه من الحكّام.

فتحفّز الدكتور أحمد للكلام بعدّة حركات، ثم قال:

ـ موقف الشيخ من الحكام واضح.. لا يزورهم إلا اضطراراً، كأن تنزل بالمدينة نازلة، أو تصيب الناس مصيبة.. عندها كان يزور المحافظ أو سواه، ناصحاً، أو آمراً بمعروف، أو ناهياً عن منكر، من غير مداهنة أو نفاق والعياذ بالله، وكان الشيخ يقول:

«بئس العلماء في أبواب الأمراء.

ونعْمَ الأمراء في أبواب العلماء».

صادق: هل تضرب لنا مثالاً ـ يا عمي الفاضل ـ عن تدخُّل الشيخ لدى الحكّام؟

أحمد: خذ مثلاً أحداث عام ١٩٦٤م أعني أحداث جامع السلطان في حماة، عندما اعتصم جمعٌ من الشباب في جامع السلطان، فطوَّقت السُّلطة الجامع، ونشرت عناصرها المسلّحة في شوارع المدينة، وصبَّت حُممها على المسجد لتهدمه ولتقتل مَنْ فيه، وهدّمت مئذنته.

صادق: عفواً عمّي لم أنتبه للتاريخ.. فمتى حصل هذا؟

احمد: في الخامس عشر من نيسان ١٩٦٤ صباح يوم الأربعاء..

كنت صبيحة ذلك اليوم أزور الشيخ في بيته، فأصعدني إلى سطح المنزل المطلّ على المدينة، وقال لي:

«ماذا يجري في حارتكم»؟

وأشار إلى الدبابات وقذائف المدافع والراجمات وهي تنهال على

جامع السلطان، ثم قال والألم يعتصر قلبه وعينيه:

«يا ولدي. المسجد مسجدي، والشباب تلاميذي، والأفكار أفكاري، ولكنّي لم أقل لهم: افعلوا هذا» مشيراً إلى طلبه أن يخرج الشبان المعتصمون من المسجد، فلم يخرجوا تلك الليلة.

فارس: والحقيقة؟

أحمد: الحقيقة.. علمتُ أنّ المعتصمين عزموا على فضِّ الاعتصام في صباح ذلك اليوم بعد صلاة الفجر، فعاجلتهم السُّلطةُ بالضرب وهم نيام.

صادق: لا حول ولا قوة إلا بالله.

أحمد: واجه الشيخ هذه الأحداث الأليمة برجولة وشجاعة، وحاور السلطةَ بصراحة وحكمة، واستجاب المسؤولون لمطلب الشيخ بإلغاء أحكام الإعدام التي صدرت بحقٍّ عدد من تلاميذه وبإطلاق سراح المعتقلين، وإعادة بناء جامع السلطان من جديد.

كان الصمت مهيمناً على الجميع، وذرفت بعض العيون، فيما كان الدكتور أحمد يتابع حديثه بتأثر شديد:

ـ كانت تلك الأيام شديدة على الشيخ رحمه الله، مرّتْ ببطء وكأنها سنوات، وكنتُ لا أراه فيها إلا حزيناً، باكياً، متألماً، يتنقل من مكان إلى مكان، إلى أنْ كلّل الله جهوده بالنجاح، إلا أنّ هذا كان على حساب صحّته وحياته، فقد قال لي مرّة:

«أخشى أن أقع في مرضٍ عُضَالٍ لا أشفى منه».

الجميع: وقد كان.

أحمد: أصيب في كبده، وصار طريح الفراش، وأُجريتْ له عملية جراحية يائسة في مستشفى المقاصد الإسلامية في بيروت، ولكن دون جدوى، ثم وافتْه منيّته في منزله بحماة في الخامس من أيار ١٩٦٩م عليه رحمة الله ورضوانه.

صادق: والسلطة لم تتعرض له بأذى؟

أحمد: لقد أحاطت العناية الإلـهية بالشيخ، وحفظه الله من أن تمتدّ أيدي الظلمة إليه بالإيذاء أو الضرر، لما وضع الله من المهابة فيه.

صادق: رحمه الله رحمة واسعة.

أحمد: لقد حمل الشيخ من هموم المسلمين ما تنوء منه الجبال، وركبته الأحزان والآلام على ما آلت إليه أحوالهم، وخاصّة بعد أن امتدّ الأخطبوط الصّهيوني إلى الأراضي المقدَّسة، وعجز العرب والمسلمون عن مقاومته، وكنّا نسمعه يقول في أنين:

«هموم المسلمين فتّتَتْ كبدي».

وسكت الدكتور أحمد لحظات كان الحزن فيها مخيِّماً على الجوّ، وكأن الشيخ ماثلٌ أمامنا، يعاني ما يعاني من آلام وأحزان، ثم تابع يقول:

ـ كان الشيخ يرى أنه في رباط على ثغر من ثغور الإسلام في حماة، ولهذا ما كان يجد لنفسه رخصة في مغادرتها إلا مضطراً، ولذلك لم يحجَّ إلا حجّ الفريضة فقط. وعندما اشتاق لحجّة أخرى، وقيل له في ذلك، قال:

«لمن نترك البلد، وأكثر علمائها وشيوخها يحجون كلَّ عام؟

أخشى من الوقوع في الإثم، إذا لم يجد الناس من يستفتونه في شؤون دينهم».

صادق: الله أكبر! . ما أعظم فهْمَ هذا العالم للإسلام! .

وانتبهتُ ـ أخيراً ـ إلى أني أقول كلاماً فيه تعريضٌ بوالدي الذي حجَّ أكثر من مرّة، وربّما حجَّ غيره من العلماء الموجودين أكثر من مرّة أيضاً، خاصّةً أني فاتحته أكثر من مرّة، ورجوته أن ينفق على الفقراء من أهل مدينتنا ومن أسر زملائي الطلبة، ما سوف ينفقه في حجه هو وأمّي، فقد حجّوا ثماني حجّات. . واسترقتُ النظر إلى أبي، فوجدته ما يزال في أحزان حديث الدكتور أحمد، وحمدتُ الله على ذلك، لأنني كنت سأموت همّاً

وغمّاً لو ظنَّ أنني أعرّض به .

نظرت إلى عمّي الحاج حاتم، لعله يحدّثنا من ذكرياته اللطيفة مع الشيخ، وكأنه أدرك ما بنفسي، فتنحنح واعتدل في جلسته ثم قال :

ـ سأحدثكم عن ورع الشيخ رحمه الله .

فاشرأبّت الأعناق نحوه، وانطلق لسانه الذي اعتاد على قول الخير يقول :

ـ قَفَلْنا راجعين من دمشق : الشيخ الحامد، وولده الشيخ محمود، والأهل، وأنا. توقفنا في بلدة النبك، ودخل الشيخ المسجد ليجدّد وضوءه، ودخلت مع الشيخ محمود أحد المطاعم، واشترى لنا الشيخ محمود عدّة سندويشات، وفيما كنا نأكل، جاء الشيخ الحامد، وسأل ولدَه الشيخ محموداً :

«من أين أحضرتم هذا الطعام»؟

فأشار الشيخ محمود إلى المطعم الذي اشتراه منه. فغضب الشيخ غضباً شديداً، وانهال بكلمات التعنيف على الشيخ محمود الذي بقي صامتاً مطرقاً رأسه، لا يرفع نظره في وجه أبيه الشيخ .

ركبنا السيارة، وتابعنا المسير، دون أن أفهم سبب غضب الشيخ الذي بقي متعكّر المزاج حتى وصلنا إلى حماة .

وفي المساء رجعتُ إلى الشيخ لإيصاله إلى مسجده، ولحضور درسه اليومي فيه. . سألت الشيخ عن سبب غضبه صباح اليوم في النبك، فغضب مرّة أخرى وقال :

«كيف تبيحون لأنفسكم شراء طعام من إنسان يبيع الخمور والمحرَّمات»؟

قلت : معاذ الله أن يكون لديه خمر .

قال : فماذا كان في تلك القناني التي يعرضها في واجهة محلّه؟

قلت: هذه عصير ومرطبات وأشربة غازية.

قال: أمتأكّد أنت؟.

قلت: طبعاً متأكد.

وفي اليوم التالي كان الشيخ يعتذر لولده الشيخ محمود ويقول له:

«سامحني يا ولدي محمود، فقد علمت من حاتم أن القناني ليس فيهاشيء محرَّم».

يبدو أنّ هذه الحادثة لم تثر إعجاب السادة العلماء، ولذلك قال الحاج حاتم:

-اسمعوا هذه الحادثة التي رأيتها بأمّ عيني، وكنتُ طرفاً فيها:

كنا في دمشق مع الشيخ الحامد - رحمه الله - من أجل مراجعة طبيبه هناك..

خرجنا في نزهة إلى الغوطة الغربية، وكنّا كلما وجدنا مكاناً مناسباً، كان الشيخ ينزل من السيارة، ثم يعود إليها مسرعاً ويقول: هناك أسرة، أو النساء، أو.. أو.. ويخشى أن تقع أنظارنا عليهنّ.

وما زلنا نتقدم حتى وصلنا إلى نبع بردى. وعلى غير العادة، وجدنا شاطئاً جميلاً جدّاً، فيه أشجار وارفة الظلال، وهو خالٍ من المصطافين، ولم نكن نعلم أنّ خلوَّ هذا المكان من المصطافين، سببُه أنه ملك خاص، وأنّ مالكه سيأتي بعد قليل.

تركنا الشيخ ونزل إلى بردى ليتوضأ، وفيما نحن ننتظر عودة الشيخ للصلاة، رأينا رجلاً يقترب منا، والغضب في وجهه، أسرعنا إليه، وتلقّيناه قبل أن يصل إلى الشيخ، فقال في غضب:

«ما الذي أجلسكم هنا؟ هذه أرضي.. اخرجوا فوراً».

صرنا نرجوه أن يخفض صوته، وأن يطلب ما شاء أجرة إقامتنا في

أرضه وهو يرفض. وفيما كنا نحاوره ونرجوه ونمشي معه مبتعدين عن الشـيخ، إذا الشـيخ يلحق بنا، وفي يده عودٌ صغير من شجرة وهو يقول: «اذهبوا إلى صاحب الأرض، وادفعوا له ثمن هذا العود الذي كسرته وأنا أعلّق عليه جبّـتي».

كان صاحب الأرض يسمع، والشيخ لا يعرفه، ولا يعرف أنه صاحب الأرض... سمع الرجل كلام الشيخ، فانبسطت أساريره، وتحوّل إلى الهدوء واللطف وقال:

«تفضّلوا استريحوا على الرَّحْب والسَّعَة، وهذا البيت ـ وأشار إلى بيت كالقصـر في أعلى الهضبـة ـ بيتي، وهو على حسـابكم، وأي شـيء تحتاجونه فأنا هناك تحت أمركم».

ثمّ التفت إلى الشيخ وقال له:

«لا أريد ثمن شيء.. أريد دعوة صالحة».

وودّعنا وانصرف، جزاه الله خير الجزاء.

الحقّ... أنّ القصّة كانت مؤثرة، وهي تدلُّ على ورع عجيب عند الشيخ الحامد، كما تدلُّ على طيبة أبناء الشعب الذين يُؤخذون بمثل هذه الحالات النادرة في هذه الحياة المليئة بالشّرور.

نعسان: هات يا حاج حاتم هات من هذه الدّرر.

حاتم: في الذاكرة أشياء كثيرة، وسأوجز لكم ذكريين جميلتين:

الأولى: كان الشيخ يخطب الجمعة في جامع السلطان، وكنت في وسط المسجد أؤدي صلاة السُّنّة القَبْليّة، وبعد الصلاة جئته مسلّماً عليه، فقال لي: «عند الرَّفع من الركوع، يجب عدم تحريك اليدين إلى الأمام والخلف، كما رأيتك تفعل وأنت تصلّي السّنّة».

صادق: ما شاء الله... قوة ملاحظة رائعة.

حاتم: لم تشغله الخطبة عن ملاحظة هفوات المصلّين.

نعسان: والذكرى الثانية؟.

حاتم: عُدْتُـه ـ رحمه الله ـ وهو مريض في شـهر شـباط، فقلت له مؤانساً:

«غداً تشفى بإذن الله تعالى، ونذهب في نزهة، وقد جاء شهر شباط هذا العام هادئاً، لا كما يقال: شباط لبّاط».

فقاطعني ـ رحمه الله ـ قائلاً:

«لا أثر للشهور في الأحوال، بل الله سبحانه وتعالى هو المؤثِّر، وهو الخالق، فلا تنسب شيئاً للشهر».

ثم استغفر ونطق بالشهادتين، ففعلتُ مثله، رحمه الله رحمة واسعة.

صادق: من خلال ما سمعتُ اليوم منكم يا أعمامي الكرام، استقرَّ في ذهني أنّ الشيخ رحمه الله، كان يحبّ النزهة والمتنزّهات.

فارس: تصوُّرُك صحيح يا صادق، فقد كان شيخنا ـ رحمه الله ـ يحبّ الطبيعة، ويعشق جمالها الفتّان، وكان للطبيعة الجميلة في حماة، بما فيها من بساتين وأشجار وظلال، ونهر العاصي، والنواعير... كان لكلّ هذا أثرٌ واضح في نفسه، خاصة إذا علمنا أنّ الشيخ شاعر وشاعر مُجيد.

فتحرّك الأستاذ محمد في مجلسه، وقال:

ـ الآن.. جاء دوري ودور الشعر.. فاسمعني جيّداً يا صادق..

كان للشعر نصيبٌ وافر في مجالس الشيخ، لا يقلّ عن نصيب الفقه الذي اشتهر به، وكثيراً ما أسمعني من نظمه المُعْجبَ والمُطْرب، وبخاصّة من رقائقه الروحيّة، ثم من دعاباته اللطيفة التي راسل بها بعض أحبابه من شيوخه وطلابه.. وهو في كلا الفنّين ذو طبيعة شاعرية، تحسُّ وأنت تتلمّسها من خلال نفحاته، أنها كانت جديرة بأن تجعل منه واحداً من كبار شعراء الشام، لا ينزل عن مرتبة أخيه الأستاذ بدر الدين الحامد، الذي عُرف بلقب (شاعر العاصي)، لو أطلق لها مجال القول، ولولا أنه آثر أن يحبسها

وراء دراساته الفقهية التي غلبتْ عليه، فجعلتْه واحداً من كبار علماء الحنفية، لا في الشام، بل في العالم العربيّ والإسلاميّ بأجمعه.

صادق: هل تُسْمعنا شيئاً من شعره يا سيِّدي؟.

محمد: لا مانع.. بل هذا يسعدني، ويُدْخل السُّرور إلى نفسي.

اسمع بل اسمعوا جميعكم هذه القصيدة التي وصف فيها شوقه إلى مدينته (حماة) بعد ما غادرها لطلب العلم في حلب عام ١٩٢٨ وهي من بواكير شعره، وكان عمره آنذاك.

صادق: ثمانية عشر عاماً.

محمد: أحسنت. قال الشاب محمد الحامد قبل أن يصير شيخاً:

آهاً على وادي حماة إذا نسيمُ الصُّبْح هبّا
آهاً على تلك الرّبوع وأهلها بُعْداً وقُرْبا
النهر يخترق الرِّياض وقد جرى حُلْواً وعذبا
دولابُه يبكي ويسقي الدَّمعَ فاكهةً وأبّا
يا مَنْ بقلبي وُدُّهم وبحقِّهم لم أجن ذنبا
لا تقطعوني إنني قد كنتُ واللهِ المحبّا

ونظر إليّ الأستاذ محمد وقال:

- ما رأيك في هذا الشعر يا أستاذ صادق؟

فاحمَّر خدّاي من شدّة الحياء لهذا النداء المفاجئ (يا أستاذ صادق).

وأراد الأستاذ محمد أن يُسرِّي عن خجلي فقال:

- سوف أسمعك قصيدة أخرى نظمها عام ١٩٣٣م بعد انتهاء الامتحان في المدرسة الخسروية (الكلية الشرعية) بحلب، وبعد عودته إلى حماة، وفيها يحنّ إلى حلب وإخوانه الطلبة فيها:

يا رياح الشّمال هُبّي عليّا واملئيني من نفح طيبك ريّا

آهِ لــو دُمْــتِ لــي ودام زمــانٌ   كنــتُ فيـه عــن اللُّغــوب قصيّــا
يـا أخـلاّئي ؛ هـل معـادٌ إليكـم؟   يـرجـع العهـدَ عهـدَنـا الـذّهبيّـا
مُـذْ بَعُـدْتـمْ أعقبتمـونـيَ حـزنـاً   كنـتُ منـه وقـتَ التّـدانـي خليّـا
إذ سـروري بكـم عظيـمٌ وعيشـي   يـا أحبّـائـي كـان عيشـاً هنيّـا
إيهِ يا صَحبُ هل شجاكم بعادي؟   فلقــد سيقــت الكــروب إليَّــا!!

كانت صرخات الاستحسان تتجاوب مع الإلقاء البديع، لهذا الشعر الصادق العاطفة، البديع النَّظْم، فطلبتُ المزيـد من هذا الشـعر الرائع، واستجاب الأستاذ محمد لطلبي، وقال:

ـ ونظم الشيخ هذه القصيدة الحلوة سنة ١٩٣١م:

يمِّــمْ حِمــى وادي حمــاهْ   واقــضِ اللُّبــانــة مــن هــواه
وتنقَّلَــنَّ بــأرضــه   بيــن الأزاهــر والميــاه
يــا قلــبُ ويحــك كــم تئــنُّ   بليلــك السّــاجــي دُجــاه!
تتــذكّــر الإلْــفَ الجميــل   وطيــبَ عيــشٍ فــي حِمــاه
أوّاهُ مــا أحلــى أويـ   ـقــاتٍ مضــتْ أوّاه.. آه!!.
عيــشٌ لــذيــذٌ نــاعــمٌ   وزمــانُنــا بــالأنــس زاه
البُعــد قــد سحــق الفــؤا   د فصــار ميْتــاً فــي حشــاه
ليــت التــدانــي عــائــدٌ   فنــذوقَ مــن شهــدٍ جَنــاهْ!

كان الأستاذ محمد يتفرّس في وجوه الحاضرين، وهو يلقي قصيدة الشيخ في شبابه، ثم نظر إلى الشيخ عبد المعزّ وقال:

ـ هات أسمعْنا مما تحفظ من شعر الوالد يا عبد المعزّ.

وأكدّ الأستاذ نعسان على طلب عمّه، فاستجاب الشيخ عبد المعزّ لهذا الطلب في حياءٍ جمّ، وأنشد:

ـ قال الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ في دمشق وغوطتها:

إن رُمـتَ تنظـر جنّـة الـدنيـا ففـي   مغنـى دمشـق يُسَـرُّ طَرْفُ النـاظرِ

وإذا أردتَ محاسناً قد جُمّعتْ فاشرغْ إلى بحر الجمال الزَّاخر
فهي الخَرِيدةُ تَزدَهي في حُسنها وتَتِيْهُ إذ تُجْلَى بوجهٍ زاهرِ

فهتف السادة العلماء :

ـ الله الله . . . طيّبَ الله الأنفاس يا شيخ عبد المعزّ . . الله يرحمك يا شيخنا الشاعر المجيد .

وقال الأستاذ محمد :

ـ ألا تحفظ شيئاً من غزليات الشيخ يا ولدي ؟

أجاب الشيخ عبد المعزّ ، وقد زاده الحياء بهاءً :

ـ بلى يا عمي أحفظ .

ـ هاتِ أسمعْنا إذن .

فأنشد عبد المعزّ من شعر والده الشيخ هذه الأبيات البديعة :

جَذَبتَ يدي إليك فسِرْتُ أسعى وقلبي قائل : سمعاً وطاعهْ
لعمرُكَ ما المحبُّ أخا امتناع إذا ناداه من يهوى أطاعهْ
حبيبُ الرُّوح إمّا شاء أمراً رآه المُدنَفُ المُضْنى متاعهْ
لدى هذا الحبيب دمي وروحي فيا ويلاه إن شاء الإضاعهْ

تعالت الصيحات والآهات ، فسكتَ عبد المعز ، وكانت ابتسامة الشيخ سعيد تضيء وجهه ، وترقص شعرات لحيته الشقراء التي ما فتئ يعبث بها طوال فترة الإنشاد ، ثم قال الشيخ سعيد :

ـ أسمعنا ، يا شيخ عبد المعزّ ، من رقائق شعر الوالد .

واستجاب عبد المعزّ فوراً ، وقال من محفوظاته من شعر الشيخ :

يا أرحم الرُّحماء مالي حيلةٌ إلا الرُّجوعُ إليك يا ربّاهُ
أنا قد أسأتُ ، وأنت ربٌّ غافرٌ غوثاه مما قد عرا ، غوثاهُ!
يا سيِّدي ، يا من إليه شكايتي أوَّاه ممّا نابني ، أوَّاه

أدركْ بلطفك نادماً ذا حسرة مستغفراً ممّا جنته يداهُ
ما للضّعيف إذا ألمّتْ كربةٌ إلاَّ الدُّعا: أللهُ يا أللهُ!
يا ربِّ نفِّسْ عن عُبَيْدك كربةً وأرحه ممّا قد عنا ودهاه

صارت الصّيحات صُراخاً وبكاء ونحيباً، واغتسلت اللِّحى الطاهرة بدموع الخوف والوجد، وتحرّكت المواجع تأوّهات وتهليلات وتكبيرات، وطلب المزيد من هذا الشعر الرقيق، فأنشد الشيخ عبد المعزِّ لوالده الشيخ:

يا ربِّ إنَّ الذّنب أثقل كاهلي وغدوتُ محسوباً من الأشرار
بدِّلْ بفضلك حالتي وإساءتي حتى أُضافَ لُزْمرة الأخيار

سعيد: الله الله! . . .

عبد المعزّ:

يا قلبُ حُلَّ عزيمة الإصرار والجأ إلى الرَّبِّ الكريم الباري

سعيد:

يا قلبُ حُلَّ عزيمة الإصرار والجأ إلى الربّ الكريم الباري

عبد المعز:

فعساه يرحم مُثقَلاً بقيوده ويُحِلُّه أمْناً وحُسْنَ جِوارِ

محمود: الله الله يا سيِّدي الوالد.

وتسايلت الدموع غزاراً، فيما استمرّ عبد المعزّ في التغريد من شعر والده:

هي الرُّوحُ تَسري في الهوى حيثما يَسْري
وتصعد في نجد، وتهبط في غَوْرِ

سعيد: الله الله يا شيخ محمد!.

عبد المعز:

وكـلُّ مُنـاهـا أن يكـون أليفهـا	بمشهدها، والبُعْدُ من أنكرِ النُّكـرِ

سعيد: يا سلام يا سلام ما أروع هذا الكلام!

وكـلُّ مُنـاهـا أن يكـون أليفهـا	بمشهدها، والبعد من أنكر النُّكرِ

عبد المعز:

وأنْكَـرُ منـه أن يكـون متيَّـمٌ	قصيّاً، ومَرْميّاً بشيء من الهَجْرِ
فـذاك أسىً فـوق الأسى ومـرارةٌ	بجانبهـا يحلـو الزُّعـاقُ مـن المرِّ

سعيد: فذاك أسى فوق الأسى. . هات يا شيخ عبد المعزّ هات.

عبد المعز:

ولـولا لـه الآمـالُ بـالقـرب واللّقـا	قضى حَزَناً، أو غاص في أبحر الضُّرِّ
ولكنّهـا تبـدو فيغـدو بفـرحـة	ويسكن مرتاحاً، ويأمُلُ باليُسْرِ

وأخرج الشيخ عبد المعزّ منديلاً ناصع البياض من جيبه، ومسح عرقه الذي بدا كحبّات اللؤلؤ على جبينه العريض، وإذا الشيخ سعيد يقول له:

- أسمعنا، يا شيخ عبد المعزّ، بعض أبيات القصيدة الحائيّة، في مدح سيّد البريّة، عليه أفضل الصلاة والسلام.

فهبّتْ عاصفة تهتف: صلّى الله عليه وسلم.

فاستجمع الشيخ عبد المعزّ ذاكرته، ثم شرع يغرّد:

يا حبيبَ الرحمن، يا صفوة الخلق	ويـا مُنيتـي وراحـةَ روحـي
يـا وليِّـي وسيِّـدي وإمـامـي	أنـت لـي خيـرُ مُشفـقٍ ونصيـح
لا أبي، ولا أخي، ولا صدرُ أمي	لا ولا ذو الإخـاء خِـدْنُ الـروح
بلغـوا شـأوك العلـيَّ ببـرٍّ	أو وفـاءٍ أو فـي الحنـان الصحيـح

أحمد: الله الله. . . لا أحد يبلغ شأوك يا رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

عبد المعز: حبُّ هذا النبيِّ.

فصاح الحاضرون إلا الأستاذ محمداً: الله الله.. الله الله...

عبد المعزّ:

حبُّ هذا النبيِّ سرُّ انقيادي وأخو الحبّ ما به من جموح
والمحبّون طائرون قلوباً وبباب الحبيب كم من طريح!
مَلَك الحبُّ أمرهم فاستكانوا لهواه أسرى إسارٍ مريح
ويخافون أن يكون انفكاكٌ أو براحٌ يريح من تبريح

سعيد: الله.. الله يخافون من الانفكاك..

عبد المعز:

حبّذا العيش والرِّضا عيشُ قومٍ في غرامٍ كم فيه من مستريح

بعد أن هدأت النفوس التي هاجت وماجت وهي تستمع لهذا الشّعر الجميل، نظر الأستاذ محمد في ساعة يده، وقال:

هيّا بنا إلى الصّلاة.

أوقفتُ المسجّل، ثمّ قمنا إلى صلاة الظهر، وسمعت بكاء وأنا أصلّي، فلمّا سلّمتُ عن يميني وشمالي، شاهدت دموعاً تخطُّ خطوطاً على الخدود وفوق اللّحى، وعجبتُ لحالي، كيف لم أتأثّر كما تأثّر هؤلاء العلماء الأفاضل، ثمّ عزوتُ هذا إلى جهلي، وضعف إيماني، وانعدام تجاربي، وقسوة قلبي، وبُعْدي عن هذه الأجواء الرُّوحانيّة.

وكان الدُّعاء للشيخ محمود مزيجاً بين الآخرة والأولى، دعا دعاء حاراً للوالد، وترحّم على الشهداء، ولعن الظالمين، واستنزل غضب الله عليهم، وختمه برقائق الدُّعاء، وكم تمنّيتُ لو سجّلتُ ذلك الدّعاء.

ثم قمنا إلى الغداء، وكان غداء شهيّاً، وشاهدت عمّي الشيخ سعيداً يأكل وهو يهزّ رأسه ويتبسم، ثم قال:

ـ هذا الغداء الشهيُّ في حاجة إلى دعابات الشيخ رحمه الله، وإلى شعره.

فقال الأستاذ فارس:

ـ أنا أروي لكم نكتة من نكات الشيخ رحمه الله..

كان الشيخ الحامد والشيخ السباعي ومجموعة من الإخوة يتسامرون، وحكى الشيخ الحامد بعض النِّكات عن أهل حمص، فما كان من الدكتور السباعي رحمه الله تعالى إلا أن يقول للشيخ الحامد:

«اسمعْ يا شيخ محمد.. إمّا أن تسكت عن الحماصنة، وإمّا أن نقطع عليكم نهر العاصي».

فأجابه الشيخ الحامد على الفور:

«حمصي.. والله بيعملها».

وضحكنا من هذه النكتة، حتى اغرورقتْ عيناي أنا بالدموع.

وقال الدكتور أحمد:

ـ من منكم يحفظ قصيدة الشيخ في الفول؟

فتوجّهت الأنظار إلى الشيخ عبد المعز، فأسرعتُ إلى المسجِّل، وفتحتُه، قبل أن يتحفنا الشيخ عبد المعز بقصيدة الفول.

قال عبد المعز:

ـ هذه القصيدة الفريدة في بابها، نظمها الوالد رحمه الله ـ في مصر سنة ١٩٤٠م وذاعتْ واشتهرتْ وسارتْ بها الرُّكبان، كما يقولون:

ألا يا محبَّ الفول أصغِ لِقَوْلتي ... فقد عاد هذا الفول موضعَ فتنتي
يسيل لُعابي إن شممتُ عبيره ... ويخذلني صبري، وتضعف قوّتي
وعينيَ قرَّتْ مُذْ رأتنيَ مُقبلاً ... عليه بقلبٍ صادقٍ وبهمّةِ

* * *

ألا يـا محبَّ الفول خذني مربّيـاً | وكن سامعاً قولي، مُجلاًّ نصيحتي
فَفُوْلٌ فؤولٌ فاحترسْ من تشاؤمٍ | فإن اسمه يقضي بحُسْن المظنّةِ
وإنــك إن تــأكلــه كــلَّ صبيحــةٍ | ترَ الخيرَ سَحّاً في الضُّحى والعشيّةِ
فكُلْــه بليْمــونٍ وزيــتٍ طحينــةٍ | وثـوم وفجـلٍ، واصطحبْـه بشطَّـةِ
ولا تزهدَنْ في هذه فهي عنصرٌ | له الفضلُ في تحصيل طيبٍ ولذّةِ

* * *

ألا يـا محـبَّ الفـول! إنّـا لمَعْشَـرٌ | بلغنـا بـأكـل الفـول حـدَّ البطـولـةِ
فكن راشداً واقبلْ نصيحة وامقٍ | وعن حُبِّ هذا الفول لا تتلفّتِ
ألا ليت شعري هل أدوم مصاحباً | له، إن بُعدي عنه يسْفِكُ عَبْرتي
وإن غـرامـي فيـه غيـرُ مفـارقـي | وذاك لعمرُ الفول أصلُ بليّتي!!
حلفـتُ بحـقّ الفـائحـات بعطـره | لـه القلب مرعى في منـام ويقظـةِ
وقـد علـمَ الأقـوامُ أنّـي مُـدْنَـفٌ | عُرِفتُ بحبّ الفـول بين عشـيرتي

سعيد: يا سلام. . .

عبد المعز:

أهيــبُ بقــومــي أن يهبّــوا لأكلــه | وإنــي لأرجـو أن يـدينـوا بنحلتـي
ألم يعلموا ما فيه من طيب مطعم؟ | ومن حُسْن لون قد تجلّى بشقرة!!
عسـى قِـدرةُ الفـوّال يعْبـق ريحُهـا | فيظهرَ فضلُ الفول في كلِّ بقعة
وأنتـم، أُهَيْـلَ الفـول أزكـى تحيـةٍ | لكـم، مـن فـؤادٍ عـامـرٍ بـالمحبّـة

الوالد: يا سلام. كلُّ هذا الشعر الجميل في الفول، فكيف لو ذاق شيخنا رحمه الله هذه الأطايبَ من اللحوم؟.

أحمد: الفول في مصر سيِّد الطعام.

عبد المعز: ولذلك نظم الوالد قصيدة أخرى في الفول الذي يأكله الناس جميعاً في مصر. قال الوالد رحمه الله تعالى:

يا عُصبةَ الفول دمتم لي ودمتُ لكم ... ودام مَرْبَعُكم بالفول مزدانا
عشقتم الفولَ أشياخاً وشبّانا ... وقد أقمتم لهذا العشق برهانا
هذي قدورُكمُ بالفول زاخرة ... أزيزُها مَلأَ الأكوانَ ألحانا
وريحها عطَّرَ الأرجاء قاطبةً ... حتى غدا كلُّ قلبٍ فيه وَلْهانا
وقد أحبَّكمُ من ليس يعرفكم ... (والأذنُ تعشق قبل العين أحيانا)
ياعِتْرتي، يا أُهَيْلَ الفول مجدُكمو ... سامٍ، وحاسدُكم قد بات حيرانا
أكلتمُ الفوفل حتى جلَّ قدْرُكمو ... ونلتمُ بهواه في الملا شانا

أحمد:

يا ويلي مَنْ لا له في جمعنا صِلَةٌ ... حقٌّ له أن يذوق الجوعِ ألوانا
فالفولُ من رغبتْ عنه سريرتُه ... كان الجزاء قِلًى والحظ حِرمانا
ومن يكن راغباً فيه على شغفٍ ... نال القبولَ وأوليناه إحسانا

نعسان: يا سلام ما أروع هذا الشيخ . . .

حاتم: كثيراً ما أكلنا الفول معه . .

سعيد: أحفظ أبياتاً للشيخ ـ رحمه الله ـ في الفول رائعة . . منها:

رجعتْ بيَ الذكرى إلى عهد مضى بين الغصونْ
حيث الرياضُ، وحيث بحرُ النِّيل قد ملأ العُيونْ
والرّيحُ تسحب ذيلها، لا عَصْفَ فيها أو سكونْ
وعبير قِدْرِ الفول يحمل بُشْرياتٍ للبطونْ
وأزيزُها يُملي على الأسماع أنواعَ اللُّحُونْ

فعلَّق الأستاذ محمد بقوله:

ـ هذا شعر.

وقلت أنا:

ـ ولكنْ . . يا ليته كان في غير الفول.

فقال والدي :

ـ لكلِّ مقام مقال يا بنيّ . . ولا بدَّ من ترويح القلوب ساعة بعد ساعة، حتى لا تمَلَّ، لأنَّ القلوب إذا ملَّتْ عميتْ .

وقال الأستاذ محمد :

ـ هكذا شأننا نحن الشعراء. ولذلك انصرف الشيخ عن الشعر إلى الفقه والعلوم الشرعية، لأنه كان يعدُّ الشعر من لغو الحديث .

وعلّق الشيخ عبد المعزّ بقوله :

ـ ولذلك كان شعره الذي بين أيدينا، هو الذي قاله في شبابه . . فيما بين ١٩٢٨ ـ ١٩٤١م، ولهذا لم يجمع شعره، فضاع كثير منه .

وبعد الغداء، وبعد أن شربنا الشاي، عاد السادة العلماء إلى الحديث عن الشيخ الحامد، ولا حديث لهم غيره، وهذا ما حبّبني فيهم وفيه؛ فيهم لهذا الوفاء لشيخهم، والحنين إلى ذكرياتهم معه، وفيه، لما في الشيخ من صفات نادرة، ما كنت أحسبني أراها في رجل من أبناء هذا الزمان .

قلت لأعمامي العلماء الأفاضل :

ـ هل كان الشيخ الحامد يعتني بالشباب؟ أم أنه كان منفّراً لهم، كبعض المشايخ عندنا؟ .

فعاتبني أبي بلطف وقال :

ـ يا بنيّ لا تعرِّض بأحد، وخاصة المشايخ، فهم مظلومون .

اعتذرتُ لأبي ولأعمامي عما بدر مني، ثم قال الدكتور أحمد :

ـ الشيخ، رحمه الله، مرشد الشباب، وقد التفّ الشباب حوله، ينهلون من معينه العلميّ الثرّ، ويتسابقون لتلقّي توجيهاته الروحية السامية بكل أدب وامتثال، ويبادرون لسماع نصائحه الغالية، ليطبّقوها على أنفسهم، ويلتزموها في سلوكهم. كان الشباب حريصين على حضور خطبه

ودروسه، ومجالسه، وكان الشيخ لهم الأب والأستاذ والمرشد، يحبّهم ويحبّونه، ويمارسون نشاطهم الدَّعويّ تحت مظلّته الوارفة، ويبسط الشيخ جناحيه ليضمَّهم إلى دفء قلبه، مدافعاً عنهم، مشفقاً عليهم مما قد يترتّب على نشاطهم من تبعات أمام الخصوم، فتارةً يقول بأعلى صوته:

«نحن دعاة حقّ وسلام نؤمن به وندعو إليه . .

نحن طريقُنا العلمُ والذِّكرُ والحرص على الصّالح العامّ . .

نحن نرفض الفوضى والتشويش . . » .

صادق: ما معنى هذا؟

أحمد: كان الشيخ يصف للخصوم والأعداء المتربّصين بأولئك الشباب حقيقةَ إخوانه وتلاميذه الذين يعجّ بهم المسجد، وأنه لن يصدر عنهم إلا الخير والسَّهر على مصلحة الأمة والمجتمع . . . يريد أن يحميهم من كيد الكائدين.

محمود: كان الوالد يقول هذا من باب السياسة الشرعية . . السياسة المرحلية وللتمويه على العدوّ، وإلا، فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، وهو ممتزج بروح الشيخ رحمه الله تعالى، وبعظمه ولحمه.

أحمد: سأله أحد الإخوة الشباب عن التوجّه إلى الخدمة الإلزامية بقوله:

«ألن نقاتل تحت راية عميّة جاهلية؟» .

فأجابه الشيخ بحزم:

«لا تكونوا سُبّة على التاريخ وأمام الأجيال» .

وقد فهم الشباب ما أراده الشيخ من هذه العبارة، وما فيها من دلالات وإشارات للالتحاق بالمؤسسة العسكريّة، وقد سمعتُه يقول مرّة في الجامع الجديد:

«إنّ الزمن الذي كانت تُحَلُّ فيه الأمور من فوق المنابر ذهب وولَّى،

وإن استخدام القوّة خير وسيلة لإحقاق الحقّ، وإبطال الباطل».

وكان يعيب على أولئك الذين يستشيرونه للتهرّب من الخدمة الإلزامية.

صادق: هل كان للشيخ نظريّة معيّنة في تكوين الشباب؟.

أحمد: كان الشيخ يرى أنّ المسجد هو الأساس في تكوين الجيل، وإعادة بناء كيان الأمة المنهار.. ففي المسجد يتلقّى الشباب العقيدة الصحيحة، ويتعلمون أحكام الدّين الحنيف، ويتربّون على الأخلاق الحميدة، ويتعودون على الفتوّة والمروءات.

وكان الشيخ يؤكّد على تسليح الشباب بالفكر السليم، والعلم الصحيح المستمدّ من كتاب الله وسنّة نبيه.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

أحمد: ولا يرضى بالانتماء العاطفيّ المجرّد، وكان يقول:

«العاطفة تهدمها عاطفة مثلها، أمّا العلم فإنه يستعصي على الهدم».

وكان يحثّ الشباب على مداومة الذّكر، وتنقية السّرّ، ويقول:

«طريقنا يعتمد على التخلية قبل التحلية».

مستدلاًّ بقول الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وكان يحضّ الشباب على حفظ كتاب الله تعالى، ويحذّرهم من نسيان ما حفظوه، ويشجّعهم على الإكثار من رواية الحديث الشريف، والسيرة النبويّة المطهّرة، وسِيَر الصّحابة الكرام، وتراجم التابعين وتابع التابعين، وأيام المسلمين ومعاركهم.

وكان يحثّهم على دراسة العلوم الشّرعيّة، ويشير على الآباء أن يدفعوا بالأذكياء من أولادهم إلى المدارس الشرعية، كما لابدّ من النهوض بالفروض الكفائية التي إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين، كالتخصص بالعلوم

العصرية، والتقنيات الحديثة التي تحتاجها الأمة، وتستغني بها عن الدول الأجنبية.

وكان يمنع الشباب من السفر إلى الدول الأجنبية، إلا لتحصيل اختصاص نادر يؤدّي به الشاب فرضاً كفائياً، ويشترط أن يكون الطالب مزوّداً بالإيمان العميق، والعلم الصحيح، والخلق الفاضل، وأن لا يكون هذا الاختصاص في الدول العربية والإسلامية.

صادق: هذا رائع.. رائع جداً.

أحمد: وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ يحثّ الشباب على الصُّحبة الصالحة ويقول:

«الصاحب مناسب.. الصاحب ساحب».

وكان يقول:

«لا تصحبْ إلا من يُنهضك حالُه، ويدلُّك على الله مقالُه».

وكان يدعو الشباب إلى الانتماء والالتحاق بركب الحركة الإسلامية، بالتصريح تارةً، وبالتلميح تارة أخرى.

صادق: كيف؟

أحمد: حدّثني أخ من حمص قال:

زرتُ الشيخ في مرضه مع مجموعة من الشباب المسلم المنتمي لمجالس العلماء، وتحدّث الشيخ الحامد رحمه الله عن الإمام الشهيد حسن البنا وعن حركة الإخوان المسلمين حديثاً أخذ بألبابهم، ومجامع قلوبهم، ثم توجّه إليهم بهذا السؤال:

«ألستم من الإخوان يا شباب؟».

فأجابوا جميعاً: بلى.

وكانوا كذلك.

صادق: هنيئاً لهم.

أحمد: وعندما زار الشيخ الحامد مع مجموعة من تلاميذه، الشيخَ حسن حبنَّكه ـ رحمه الله ـ في دمشق، وتحدّث الشيخ حبنَّكه عن الحفاوة التي لقيها في دمشق بمناسبة قدومه من الحجّ، قال له الشيخ الحامد:

«إنّ الحكومات والدول الأجنبية لا يخيفها العلماء والمشايخ بعمائمهم، ولا الجمعيات الخيرية بنشاطاتها، ولا الطرق الصوفية بأذكارها، ولا العامة بتظاهراتها، إنما تخاف من هؤلاء الشباب» وأشار إلى من معه.

فتساءل الشيخ حبنكة:

«ومن يكون هؤلاء الشباب؟».

أجاب الشيخ الحامد:

«الإخوان المسلمون».

فصار الشيخ حسن حبنكة ـ رحمه الله ـ يداعب بيديه لحى أولئك الشباب.

سعيد: ولذلك.. كان شيخنا ـ رحمه الله ـ قلقاً من تقصير العلماء، وتقاعسهم، وبُعْدهم عن الحياة العامة، ودوران بعضهم حول مصالحه الشخصيّة.

أحمد: كان الشيخ ـ رحمه الله ـ يرى أن أولى مسؤوليات العلماء، هي نقْلُ الإسلام كاملاً غير منقوص إلى أبناء جلدتهم، وهي مهمّة شاقة في زمن كثرت فيه الفتن، وازدحمت المبادئ والنِّحل، وصار الإسلام في داره وبين أهله غريباً. وكان يقول:

«خذوا هذا الإسلام حرّاً صافياً، وانقلوه كما أخذتموه».

وكان الشيخ يلحّ على العلماء أن يكونوا قدوة صالحة، ومثلاً أعلى في التقوى والزهد في حطام هذه الدنيا، وعدم الحرص على الزعامات،

وبمواجهة الأحداث بجرأة وشجاعة، وأن يكونوا رجال المهمّات الصعبة، يتقدّمون الصفوف في المخاطر، ويتعفَّفون عند المغانم، وأن يكونوا مع الأجيال الصاعدة كالآباء مع الأبناء، وأن يكون الرابط بينهم: الحبّ والاحترام.

محمود: ولذلك كان أبي رحمه الله تعالى يهتف بقوّة:

«يا مدرّسي التربية الإسلامية، اجتهدوا في طلب العلم، فإنّ الناس بعد وفاة العلماء، سيميلون عليكم، ويسألونكم، ولن يجدوا غيركم».

نعسان: كأنّ الشيخ ينعى العلماء قبل أن يموتوا.

محمود: الحقّ.. أنه كان ينعى المرشد الكامل.

أحمد: وقد قال لنا مراراً وتكراراً:

«يا إخواني: إذا فُقِدَ المرشد الكامل آخر الزمان، فعليكم بالصلاة والسلام على سيّدنا رسول الله ﷺ كلَّ يوم أكثر من ألف مرّة، مع الالتزام الدقيق بالسنة الشريفة، والإخلاص لله تعالى، فإنّ ذلك يقوم مقام المرشد الكامل».

واتجهت الأنظار نحو الشيخ محمود، كأنها تستوثق من صحة هذه المقولة، فأكّدها الشيخ محمود بقوله:

- سمعت أبي - رحمه الله - يقول:

«الصلاة على النبيِّ - ﷺ - والإكثار منها، تقوم مقام المرشد الكامل».

فتسامعت عرائس الرِّياض تسبيح السادة العلماء، وصلواتهم على الرسول القائد محمد ﷺ، ثمّ قال الشيخ سعيد:

- هذه خلاصة ما انتهى إليه شيخنا الذي بدأ حياته سلفياً يعبُّ ما تصل إليه يده، وتقع عليه عينه من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ثم استقرَّ على مذهبيّة سلفيّة تتمسّك بالنصوص، وعلى تصوّف فقهي يتقيّد بالفقه، ويتعمق في التحقيق العلمي، ويتشدّد في الفتوى. وقد أفتانا وأفتى

الأجيال القادمة بما انتهى إليه علمه وفقهه وفهمه من أجل الوصول إلى المرشد الكامل الذي عزَّ وجوده في زماننا هذا . .

وأكد الدكتور أحمد والأستاذ فارس على ما ذكره الشيخ سعيد، ثم قال الدكتور أحمد:

ـ ثم إنّ شيخنا ـ رحمه الله ـ كان يحثّ الأجيال القادمة على حمل الأمانة بقوّة . . هل تسمعني يا صادق؟ هل تسمعونني يا أصحاب صادق؟ فأنتم الأجيال التي كان يخاطبها الشيخ رحمه الله، وكان يأمرنا، ونحن نأمركم بما كان يأمرنا به، يأمرنا بنقل ما أخذناه من الإسلام الصحيح إلى من يلينا من الأجيال وأن نتحلّى وتتحلّوا بالصّبر والعزيمة في عملية الأخذ والعطاء.

وقال الأستاذ محمد:

ـ الحقّ . . أنّ الشيخ الحامد كان يهتمّ بالشباب، ويحرص على تعليمهم وتوجيههم، فهم قادة الأمة في المستقبل القريب. واسمعوه يخاطب الآباء:

«أولادكم يا مسلمون فيهم استعدادٌ طيِّب، فهلاّ تسعون إلى استثمار هذا الاستعداد؟ .

أشفقوا أن تُلْقُوا أفلاذ أكبادكم في النار، بترك الغوائل تغتالهم . . . » .

أحسستُ بانتشاء وقشعريرة معاً، وأنا أستمع إلى كلمات الشيخ، ينطق بها زميله وتلميذه وولده، ونظرت إلى شريط المسجِّل فوجدته قد شارف على الانتهاء، فتشجّعت وقلت:

ـ يا أعمامي الأفاضل. شارف الشريط على الانتهاء، فهل تختمون حديثكم ببعض كلماته القيّمة؟ .

فقال الأستاذ محمد:

ـ قل لمسجِّلك يسجِّلْ هذه الكلمات الرائعات التي جاءت في ثنايا خطبة عصماء للشيخ، دعا المسلمين فيها إلى الجهاد. قال الشيخ داعياً إلى

الثورة على الاستعمار الفرنسي، من فوق منبر جامع السلطان:

«أيّها المسلمون!.

أعدّوا أنفسكم للجهاد.. وطّنوها على الموت.. موتٌ شريف خيرٌ من حياة تعيسة.. ضربة بسيف في عزٍّ، خيرٌ من صفعة بيدٍ في ذلّ.. طعنة برمح في شرف، أحبُّ إلى القلب الكبير من نظرة شزراء في مهانة.. ركوب الصّعاب والأهوال في ارتفاع، أجلُّ بكثير من الرّاحة والدَّعَة في استخذاء».

«أيها الإخوان!.

إن العالم يرقبكم، وينظر من قُرْبٍ ومن بُعدٍ إلى هذا الصّراع بين الحقّ والباطل، بل إن رسول الله ﷺ وأصحابه ينظرون ما أنتم فاعلون، بما خلّفوا لكم من تراث مجيد عجنوه بدمائهم الزكيّة، فهل ـ يا ترى ـ تختلط دماؤكم بدمائهم في هذه الأرض، أم تضنّون بها، فلا يكون لكم حظٌّ من هذا السّخاء الشريف؟».

قلت في إعجاب:

ـ إذن.. كان الشيخ ثائراً بكل معنى الكلمة!.

فصاح عبد المعزّ:

ـ بل كان مجاهداً.. قل كان الشيخ مجاهداً بكل معنى الكلمة.. كان لا يهاب الموت.. تصوّرْ ـ يا صادق ـ أنه لم ينقطع عن خطبة الجمعة في أشدّ ساعات الخطر.. خطب وطائراتُ الاستعمار الفرنسيّ تضرب حماة، وتلقي قنابلها على المساجد.

وقال الشيخ محمود:

ـ سجّلْ عني هذه الكلمات التي قالها والدي رحمه الله تعالى:

«أشتهي وأتمنّى أن أكون مستشاراً لحاكم مسلم يحكم بما أنزل الله».

صادق: يا سلام! هذا رائع، ولكن.. أين ذلك الحاكم؟.

محمود: وقال:

«لو قامت دولة إسلامية في زماننا، فإنّ مذهباً من المذاهب الأربعة لا يسعها، بل يحتاج الإمام (أي الحاكم) أن يأخذ من المذاهب الأربعة».

محمد: ليته قال: من الكتاب والسُّنَّة.

محمود: وقال:
«طالب العلم ينبغي أن يجتهد كلَّ الاجتهاد في طلب العلم، ومن لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة، والعلم لا يعطيك بعضه، حتى تعطيه كلَّك».

نعسان: وعنّا لصادق وإخوانه الطلاب.

محمود: «المنابر.. لم تعد في زماننا تحلُّ مشاكل المسلمين».

الجميع: هذا صحيح.

محمود: وقال أيضاً:

«ردُّ الكتاب ـ أي الرسالة ـ واجب كردّ السلام».

سعيد: يا ليت قومي يعلمون!.

وتوقَّف المسجِّل عن التسجيل لانتهاء الشريط، فانقطع الحديث الذي تناثر كالدّرر.

* * *

وفي المساء عدنا إلى البيت، وكنت في غاية السعادة والسرور، وأسرعت إلى غرفتي، وفتحتُ المسجِّل من جديد، لأستمع إلى تلك الأحاديث الرائعة عن فضيلة الشيخ الحامد، وجاءت أختي صادقة تستمع معي إلى الشريط، وفيما نحن كذلك، إذا الشيخ الحامد واقف بقامته الحلوة، وعينيه الواسعتين، ولحيته الظريفة.

نهضْنا إليه، وسلّمنا عليه، فرحَّبَ بنا وهو يغضُّ من بصره، فلم أستغرب هذا من الشيخ الذي يتمتع بقسط وافر من التقوى والورع، وتذكرت كلام أحد تلامذته في الرحلة عندما قال:

«كان الشيخ في الصفّ لا ينظر في وجوهنا نحن الطلاب المُرْد ـ أي الذين لم تنبت لحاهم بعدُ ـ وكان ينظر في وجه طالب له لحية» .

اهتبلت الفرصة ، وقلت له ، بعد أن جلس واستراح :

ـ سوف أسألك ، يا شيخي عن أشياء كثيرة ، كثيرة ، فأرجو أن تحتمل غلاظتي .

فابتسم الشيخ ابتسامة عريضة ملأتْ وجهَه ، وأضاءتْ نفسي ثم قال :

ـ وهل أنت غليظ ، يا بنيّ ، حتى أحتمل غلاظتك؟ .

فأجابت صادقة :

ـ أخي صادق ، وأنا أخته صادقة ، نحبّ العلماء العاملين ، وخاصة الأتقياء منهم ، وإذا جمعنا مجلسٌ مع واحد منهم ، فإننا نغتنم الفرصة ، وننهال عليه بالأسئلة ؛ مني سؤال شرعيّ ، ومن أخي سؤال حول مسألة علمية أو أدبية ، وهكذا نثقل بأسئلتنا على سادتنا العلماء .

شاهدت الشيخ يشيح بوجهه عن أختي ، مع أنها طفلة صغيرة ، ولكنها ذات عقل كبير ، ولسان يعرف كيف يعبّر عما يحتويه رأسها الصغير ، وقلبها الذكيّ ، ففرحتُ بأنني سوف أحظى بالقسط الأوفر من نظرات سيّدي الشيخ ، لأنّ العين مغرفة الكلام ـ كما يقولون ـ ثم تذكّرتُ طبيعة الشيخ ، وتصرُّفه في الصفّ مع التلاميذ المُردان ، فكيف معي ، وأنا أصغر من أكثر تلاميذه؟ .

وسمعت الشيخ يتساءل :

ـ كيف تحضرون مجالس العلماء أنت وأختك؟ هل تحضر أختُك مجالس الرجال؟ .

فتقدمتْ صادقة من جهة وجهه ، وقالت :

ـ مع أبينا الذي يحبُّك ويحترمك ويكثر من ذكرك .

وقلت أنا :

ـ إنّ أبانا يحضرنا مجالس العلماء منذ صغرنا أنا وصادقة .

فابتسم الشيخ الذي ما زال يهرب منا بوجهه ونظراته ، ثم قال :

ـ وهل كبرتما؟ .

فأسرعت صادقة تقول :

ـ نعمْ . . صرْنا نعي كلَّ كلمة نسمعها .

وقلت أنا :

ـ أمضينا اليوم في رحلة رائعة مع عدد من تلاميذك العلماء يا سيّدي ، وكنتَ مدار أحاديثهم طوال اليوم ، وأريد الآن أن أستكمل ما عندي من تساؤلات .

رحَّب الشيخ بأيّ سؤال أوجّهه إليه أنا أو أختي صادقة ، على أن يقفنا عند حدِّنا إذا تجاوزنا ، أو أثقلنا عليه ، وكدت أطير من الفرح بهذا اللقاء .

قلت لفضيلة الشيخ الجليل :

ـ هناك عادة لدى استقبال الحُجَّاج ، هي أنّ الناس الذين يحتفلون بقدوم الحاج ، يعمدون إلى أغصان الأشجار ، فيقتطعونها من الحدائق العامة ، أو من الأشجار في الشوارع ، ليزيّنوا بها بيت الحاج .

فقاطعني الشيخ قائلاً :

ـ فهمتُ . . فهمت . . إنهم يفعلون ذلك ، ظناً منهم أن عملهم هذا مشروع أو مباح لا إثم فيه ولا حساب عليه . . والعكس هو الصحيح . . وقد نبّهت إلى هذا في خطبة الجمعة وقلت فيما قلت :

«إنه ليس يملك أحد هذا التصرف السيّئ ، حتى ولا حرس الحدائق والمشاتل ، لأن الشجر ليس لهم ، بل هو للأمة ، وهم مؤتمنون عليه ، وليس يسوغ منهم التفريط في حفظه ، وعلى الدولة ، وفّقها الله ، أن تشدّد عليهم الأمر في الحراسة الواقية ، لئلا يذهب ما تنفقه كلَّ عام على الغرس في

مناسبة عيد الشجرة أدراج الرياح، ألا فليعلم الجاهلون أن الإسلام يدعو إلى تكثير الغرس لفوائدها الكثيرة، فهي ثروة عامة تكسب الأرض جمالاً، والهواء نقاء، والجوّ عبيراً بأرواح الأزاهير، والثمر كثرة، فننعم بما خلقه الله لنا منه، وهو القائل سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يٓس: ٣٣-٣٦].

وقلت في تلك الخطبة:

«وفي الحديث النّبويّ الشريف: «ما من مسلم يزرع زرعاً، أو يغرس غرساً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة» وفي الحديث أيضاً: «ما من رجل يغرس غرساً إلا كتب له الله من الأجر قدْر ما يخرج من ثمر ذلك الغرس». وقال النبيّ الكريم عليه وآله الصلاة والسلام: «ما من امرئ يُحيي أرضاً، فيشرب منها ذو كبد حرَّى، أو تصيب منه عافية، - أي بهيمة أو طائر - إلا كتب الله بها أجراً». وقال أيضاً: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة - أي شجيرة - فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها». وهذا من البلاغة والمبالغة بمكان رفيع. وقال أيضاً: «النخل والشجر بركة على أهله وعلى عقِبهم بعدهم، إذا كانوا لله شاكرين».

ثمّ قلت في تلك الخطبة:

«يا أبناء هذه البلاد!.

بلادكم من أحسن بلاد الدنيا، وأعدلها جوّاً، وطيب مناخ، فازرعوا ولا تقطعوا، ووفّروا ثرواتكم لأمتكم، فلا تذهب أثماناً للخشب المستورد من البلاد التي يحرص أهلوها على تنمية الأحراج، وتكثيف الأشجار، ليكسبوا أرضهم مالاً وجمالاً ونقاء هواء، وطيب مناخ».

وعندما سكت الشيخ الجليل، اقتربتْ صادقة مني، والتقمتْ أذني،

وهمستْ فيها كلاماً لأسأل الشيخ عنه، فسألتُه :

ـ عفواً سيِّدي الشيخ . هل تجوز السرقة من مال الدولة؟

فبدا الغضب في سحنة الشيخ، ثم ما لبث أنْ سكتَ عنه غضبُه قليلاً، ليقول :

ـ لا تجوز هذه السرقة .

ـ لماذا؟ ما دامت الدولة كما قد عَرَفْتَ؟ .

فأجاب فضيلة الشيخ :

ـ لأنّ الأموال التي في خزانتها يُنفق منها على المصالح العامة التي ينتفع بها المسلمون، ولهم الكثرة الغالبة في البلاد، فهم الشعب، كما ينتفع بها المواطنون الآخرون من غير المسلمين. والإسلام يأمرنا بتوفيتهم حقوقهم كاملة غير منقوصة، وأن يعيشوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وخصوصياتهم .

ـ هل يستوي في هذا الموظف وغير الموظف؟

ـ السارق إن كان من الموظفين المكلّفين برعاية هذه الأموال وحفظها، كان ذنبه أكبر، وإثمه أكثر، وإنه لمن الخائنين؛ فإنّ حفظ الأمانة من واجبات الإسلام، ولاتحلّ الخيانة مطلقاً، والحديث النبوي الشريف يقول: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» .

وإذا كان ذلك كذلك، كان هذا السارق مجرماً ومجترحاً للسيّئ من العمل، وعلى مَنْ علم به أن يكشف عن حاله، ويرفع أمره للمراجع الإيجابية كي تكفّ يده الخائنة عن العمل، وتلحق به من الجزاء والنّكال ما يليق بإثمه وجرمه، والسترُ عليه يُعتبر في الإسلام مشاركة له في معصيته، يستحق بها الساتر العقاب، كما يستحقه السّارق. وقد قال النبيّ الكريم عليه وآله الصلاة والسلام: «من يكتُمْ غالاًّ فإنه مثله» .

ـ ما معنى الغالّ يا سيّدي؟ .

أجاب الشيخ الجليل :

ـ الغُلول هو السرقة من المغانم قبل قسمتها ، ومثله في المعنى ، مالُ الخزينة العامة .

صادقة : هل يسوِّغ هذه السرقة ، احتجاجُ بعض الموظفين بضآلة راتبه ، وأنه يريد أن يعيش كما يعيش سائر الناس يا شيخنا الجليل ؟ .

الشيخ : هذا الاحتجاج مردود عليهم ، من حيث إن الرواتب فيها كفاية لأربابها ، في غالب الأحوال .

صادقة : لنفترض أنّ الراتب لا يكفي صاحبه الموظف ، فهل يجوز له أن يسرق ؟ .

الشيخ : معاذ الله . . ثمّ . . لنفرضْ أنّ بعض الموظفين لا تكفيهم رواتبهم ، ففي إمكانهم استرحام الدولة لمنحهم زيادة تناسبهم ليرتفقوا بها ، وإن الموظف له كفايته في بيت المال . وإن لم يُجابوا إلى طلبهم هذا ، فما عليهم إلا أن يسلكوا سبيل العمل الحرّ الذي يكون المرء به أمير نفسه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥١ ـ ٥٨] ، ثمّ لينظر هؤلاء إلى من هم دونهم في العيش والرزق ، حتى لا يزدروا نعمة الله عليهم .

صادق : هل يجوز للموظف أن يستعمل الخطوط الهاتفية الداخلية أو الخارجية ، في مكالمات خاصة دون دفع الأجرة المقدّرة لتلك المكالمات ؟ .

الشيخ : لا يجوز هذا ، فهو أكلُ المال العام بالباطل ، وعلى الموظفين حراسة هذه الخطوط من السرقة والعبث ، وعلى كلّ موظف أن يعلم أنه مؤتمن على ما في يده من آلات وأمتعة ، وليس يسوغ له استخدامها في أموره الشخصية ، كاستعمال الهاتف والسيارات الرسمية في مصالحه الخاصة ، وكتكليف آذن الدائرة بخدمة بيته وأولاده .

صادق : هل تذكر لنا أمثلة من تاريخنا الإسلاميّ يوضّح هذا يا سيدّي ؟

الشيخ : هناك أمثلة كثيرة ، أذكر لكم منها هذه الحادثة :

دسّتْ زوجة أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه في البريد هدية من عطر العرب إلى ملكة الرُّوم، وردّتْ ملكةُ الرُّوم بالمثل، فأرسلتْ هديةً إليها. ولمّا علم عمر بهذا، أبى إلا أن يجعل في بيت مال المسلمين ما زاد من هدية ملكة الرُّوم، على ما بعثتْه زوجتُه إليها، وردَّ على زوجته قدْرَ هديتها.

صادقة: لماذا يا جدّي؟.

الشيخ: لأنّ البريد الذي حمل الهدّيتين ذاهباً وآيباً، هو بريد المسلمين، وليس بريد زوجة أمير المؤمنين.

صادق: يا سلام.. ما أروع هذا! هل هناك مثال آخر يا سيِّدي؟.

الشيخ: كان لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ قمقمٌ يتوضأ من مائه المسخّن في مطبخ المسلمين وهو لا يعلم، ولمّا علم، أمر بأن يُحسب مقدار ما يسخن به من الحطب طوال تلك المدة، ليشتري به حطباً من ماله الخاص، فيجعله في مطبخ المسلمين.

صادق: الله أكبر.. ما أورعك يا عمر يا حفيد عمر.

الشيخ: وجاءه ـ رضي الله عنه ـ رسولٌ ليلاً من بعض البلاد، فدخل وأوقد له عمر بن عبد العزيز شمعة غليظة، ثم سأله عما ينبغي السؤال عنه من أمر الرعيّة، وكان الرجل يجيبه، ثمّ قال له الرجل: كيف حالك، يا أمير المؤمنين؟ وكيف عيالك؟ فأطفأ عمر الشمعة الكبيرة، وأشعل فتيلة صغيرة، وأجابه عما سأله عنه من خصوصياته.

فعجب الرجل من تصرّف عمر وقال له:

يا أمير المؤمنين، رأيتك فعلتَ أمراً ما رأيتُك فعلتَ مثله.

فسأله عمر: وما هو؟

قال الرجل: إطفاؤك الشمعة عند سؤالي إياك عن حالك وشأنك.

قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز:

«يا عبد الله! إنّ الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين، وكنت أسألك عن حوائجهم وعن أمورهم، فكانت تلك الشمعة تَقِدُ بين يديّ فيما يصلحهم، وهي لهم، فلمّا صرتَ تسألني عن أمر عيالي ونفسي، أطفأت نار المسلمين».

صادق: الله أكبر.. ما أعظمك يا سيِّدي يا أمير المؤمنين!.

الشيخ: قولوا هذا للموظفين والأمراء والحكام، لعلهم يقتدون، أولعلّهم يتشبّهون بأولئك الأجداد العظام الذين تربَّوا في أحضان الإسلام.

صادق: وما قولك في الرشوة يا جدّي؟.

الشيخ: أعوذ بالله.. إنها خيانة، وقد جاء في الحديث النبويّ الشريف: «لعن اللهُ الراشي والمرتشي والرائش الذي يمشي بينهما».

صادق: هل يجوز للموظف أن يقبل هدية مَن له علاقة بوظيفته؟.

الشيخ: لا يجوز.. لأنّ المُهْدي لا يُهْديه مجّاناً، إنه يريد أن يقبض ثمن هديته مساعدة منه له على حساب المصلحة العامة. والنبيّ الكريم.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: يقول: «من استعملناه على عمل، فرزقناه رزقاً، فما أخذه بعد ذلك فهو غلول» أي سرقة من مال المسلمين.

صادق: يا لطيف.. أنا أسمع الكثير من زملائي وأصدقائي عن آبائهم الذين يستغلّون وظائفهم، ويأخذون الهدايا من المراجعين، ولا يعدّونها رشاوى.

الشيخ: هذا من الجهل مرة، ومن الفساد الذي يعمّ الأجهزة والدواوين الرسمية مرات. روى البخاري رحمه الله تعالى عن أبي حُميد الساعدي قال:

استعمل النبيُّ.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: رجلاً من بني أسد، يقال له: ابن الأتبية، على صدقة ـ أي على جمع الزكاة ـ فلمّا قدِمَ قال: هذا لكم، وهذا أُهديَ إليّ. فقام النبيُّ.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«ما بالُ العامل نبعثه فيأتي فيقول: هذا أُهديَ إليّ؟ فهلاّ جلس في بيت أبيه وأمّه فينظر: أيُهدى إليه أم لا؟. والذي نفسي بيده، لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تَيْعَر» ثمّ رفع يديه حتى رأينا عَفرَتَيْ إبطيه ـ أي بياض إبطيه ـ وقال: «ألا هل بلّغت؟ ألا هل بلّغت؟ ألا هل بلّغت؟».

صادق: ما معنى (تَيْعَر) يا سيِّدي؟.

صادقة: أنا أجيبه يا جدّي إذا سمحت.

الشيخ: هاتي يا صادقة.

صادقة: الرُّغاء: صوت الجمل، والخُوار: صوت البقرة، واليَعَار: صوت الشاة.

صادق: شكراً لك يا أختي.

الشيخ: ولعلكم تذكرون قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

صادق: صدق الله العظيم. لديّ بعض الأسئلة حول سلوك بعض الموظفين، فحلْمَك عليّ يا سيِّدي.

الشيخ: تفضّلْ يا بنيّ. اسألْ عمّا تريد.

صادق: هل يحلّ للموظف أن يأخذ شيئاً من الأسلاك أو الأخشاب أو سواها من أدوات بعض المؤسسات؟.

الشيخ: لا يجوز هذا مطلقاً، وهو داخلٌ في عموم ما ذكرنا من التحريم.

صادق: عظيم.. وهل تجوز السرقة من الدوام الرسميّ؟ فقد تصل سرقة بعض الموظفين إلى ثلث الدوام أو أكثر، وقد لا يحضر أحدهم مطلقاً، ثم يسجّل حضوره في سجلّ الدوام.

الشيخ: هذا حرام أيضاً.

صادقة: لماذا يا جدّي؟.

الشيخ: لأنّ الراتب الذي يتقاضاه، هو مقابلٌ بالعمل الذي يعمله.. الراتب مقابل الدوام الذي ينبغي أن يشغله بالعمل الجادّ، فإذا أخلّ بدوامه أو بعمله، كان آخذاً للمال بغير مقابل، فالنسبتان متقابلتان تمام التقابل.

صادقة: أريد أن أخرج من دائرة الموظفين إلى دائرة أخرى، فهل تسمح يا جدّي؟.

الشيخ: تفضّلي يا ابنتي.. سلي ما شئت.

صادقة: ما رأيكم فيما نشره فلان الفلاني في المجلة الفلانية، وتحدَّى الشريعة الإسلامية، وزعم أنّ في الحضارة الحديثة بدائل عنها؟.

الشيخ: من رأى منهجاً أتمَّ وأكمل مما أتى به سيّدنا محمد ﷺ عن ربّه سبحانه وتعالى، فقد برئ من الإسلام، وبرئ الإسلام منه. قال الله تعالى:

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [المائدة: ٣].

وقال سبحانه:

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾؟ [المائدة: ٥٠].

وقال أيضاً:

﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨ ﴾ [البقرة: ١٣٨].

فالإسلام أتمُّ نظام وأكملُه، وعقيدته لا يعتريها ضعف في أنفس

أصحابها، لأنها منقولة ومعقولة، تحرسها البراهين، وتدعمها الأدلة، وما تزداد على الأيام إلا جدّةً وشدّة ومتانة فيمن شرح الله صدره للإسلام. وقد قال المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام، مخبراً عن هذا الواقع الحقّ والشريف معاً:

«. . . ولن تزال طائفة من أمّتي على الحقّ، ظاهرين، لا يضرّهم من خالفهم، حتى يأتي أمرُ الله» أي حتى تقوم القيامة وتأتي الساعة.

وكلام ذلك الكاتب منبعث عن ملقٍ ونفاق وتزلّف يأباه الإسلام، ويمقته الإيمان، ويحكم الدّين على من يتقبّله بالردّة والمروق، لأنه مكذِّب بالآيات التي تلوناها قبل قليل، بزعمه الذي زعمه زوراً وبهتاناً.

صادقة: بارك الله فيك يا جدّي العالم الجليل. والآن. . ما رأيكم في خروج المرأة إلى الجهاد في سبيل الله؟.

الشيخ: خروج النساء للجهاد، ومشاركة الرجال فيه، مسموح به، بل مفروض فرضاً عينياً إن وطئ العدوّ جانباً من أرض الإسلام، إذ يجب على أهلها عموماً، النفير العام، فيخرج العبد بلا إذن سيّده، والولد بلا إذن والده، والمدين بغير إذن دائنه وكفيله، والمرأة بغير إذن زوجها، بشرط أن يأمن الفتى والمرأة على أعراضهما أن تُهتك. ففي تلك الحال تتساقط كلُّ الحقوق الخاصّة تلقاء هذا الأمر، لدفع ضرر استيلاء العدوّ الذي يعقب أسوأ العواقب، ويفضي إلى أوخم النتائج.

صادقة: هذا في حال الدفاع.

الشيخ: أمّا إذا أريدَ قتال العدوّ في عُقْر داره، فإن كان الجيش الإسلاميّ قليل العدد، حرم إخراج النساء فيه، إذ قد يُنكب بهزيمته، فيتعرّضن للسّباء وهتك الأعراض، وهو سُبّة على الأمّة، وثلمٌ لشرفها، ودرءُ المفاسد مقدّم على جلب المصالح.

صادق: وماذا عن حياة الشهداء يا سيّدي؟.

الشيخ: حياة الشهداء يا بنيّ، لا تدركها العقول البشرية، لأنّ عالم

الملكوت لا يقاس على عالم الملك . . وقد رُوي عن النبيّ الكريم .

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

الشيخ : أنّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ، تَرِدُ أنهار الجنّة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظلّ العرش . فالشهيد يتمتع بالحياة الكاملة ، ولكننا لا نعرف كيفيتها ، والموتى وإن كانوا كلّهم أحياء لاتصال أرواحهم بأجسامهم ، لكنّ الشهداء أكمل حياة من غيرهم ، والأنبياء أكمل حياة من الشهداء ، وهي ثابتة للذات والروح جميعاً ، فهي حياة حقيقية ، ولا يلزم من كونها حقيقية ، أن تكون الأبدان معها ، كما كانت في الدنيا من الاحتياج للطعام والشراب وغيرهما من صفات الأجسام التي نشاهدها في الدنيا ، بل يكون لها حكمٌ آخر ، فأكلُهم وشربُهم للتلذذ لا للاحتياج . أرواح الشهداء متصلة بأجسامهم اتصالاً قوياً ، وإن كان مقرّها حواصل الطيور . وقد رُوي عن الحسن أنّ الشهداء أحياء عند الله تعالى ، تُعرض أرزاقهم على أرواحهم ، فيصل إليهم الرَّوح والفرح ، كما تُعرض النار على أرواح آل فرعون غدوّاً وعشيّاً ، فيصل إليهم الوجع . فوصولُ هذا الرَّوح إلى الرُّوح هو الرزق ، والامتياز ليس بمجرّد الحياة ، بل مع ما ينضمّ إليها من اختصاصهم بمزيد القرب من الله عزّ شأنه ، ومزيد البهجة والكرامة ، والله أعلم .

صادق : نريد القول الفصل في الإسراء والمعراج . هل كانا يقظة بالروح والجسد الشريفين .

الشيخ : نعمْ . . كانا يقظة وبالروح والجسد الشريفين معاً ، هذا هو القول الفصل الذي اتفق عليه جمهور العلماء سلفاً وخلفاً . ولو أنهما كانا مناماً فقط ، لما استبعدهما المشركون ، ولما ارتدَّ ضعاف الإيمان من المسلمين . فكلّهم يعلم أنَّ الروح تجول في الملكوت حيث شاء الله في منامها ، ولا يستغرب هذا أحد ، ولكنّ الغرابة عند غير المؤمنين ، وقوعهما بالجسد والرّوح معاً . والله سبحانه يقول : ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء : ١] ، وهو للجسد والروح معاً .

صادق: هل الملائكة، يا سيّدي، ينتمون إلى عالم الأرواح، ولا علاقة لهم بالأجسام؟.

الشيخ: لا . . الملائكة أجسام مخلوقة من نور، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يقال عنهم إنهم ذكور أو إناث. وهم مطيعون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. وقد قال الرسول ﷺ:

«خُلقت الملائكة من نور، وخلق الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم». وللملائكة قدرةٌ على التشكلات الجميلة.

صادق: وما دام الشيء بالشيء يُذْكر، أرجو أن تحدّثنا عن الجانّ يا سيّدي.

الشيخ: يجب الإيمان بوجود الجنّ، هذا أولاً وقبل كلّ شيء. ثم أقول: الجنّ ذوو أجسام لطيفة نارية، لهم قدرة على التشكلات المختلفة. ومنهم المطيع ومنهم العاصي.

صادقة: قرأت، يا جدّي العزيز، كتاباً يتحدث عن حكمة التشريع. حكمة الصلاة، وحكمة الزكاة، وحكمة الصيام، وحكمة الزكاة، وحكمة الحج، وما إلى ذلك، وكم أتمنّى أن يكثر علماؤنا من تأليف مثل هذا الكتاب فهل أنا على حقّ في هذا؟ لأن أخي هذا سمع كلاماً آخر حول ما يُكتب عن حكمة التشريع.

الشيخ: اسمعي يا ابنتي. . الأصل في العبادة، قَصْدُ وجهِ الله الكريم بها، دون أيّ ملاحظة لأمر آخر، فإنّ كلّ النظرات ثانوية بالنسبة إلى هذه النظرة، بل لا يسوغ إلا اعتمادها، والاتجاه إليها، وإلا . . كان الأمر معلّلاً بحبّ العاجلة . . الدنيا . . التي طلب الله إلينا أن نرتفع عن مستواها، فإنّ حبّها هو الداء العَياء، وفطم النفس عنها هو الشفاء: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠ ـ ٢١].

وإنّ شأن المؤمن، الانقيادُ والخضوع والإذعان لتشريعات الله وتعليماته، والاعتداد بأمره ونهيه، موفياً عبوديته لربّه حقَّها، فالحلال

ما أحلَّه الله له، والحرام ما حرّمه عليه، والدين ما شرعه له. هذا مع اعتقاد أنّ حكمة الله منثورة في مشروعاته، ومبثوثة في تعليماته، من حيث إنه سبحانه، حكيم عليم، لا يأمر إلا بما فيه نفع، ولا ينهى إلا عمّا فيه ضرر.

وقد بدت حكمٌ كثيرة في المشروعات الإلـٰهية، يزداد بها المؤمن استبصاراً واطمئناناً. ومهما أنعم النظر في التعرف إليها بالقدر المسموح به، فاح له عبيرها، وهبّت عليه نسائمها، فعبدَ اللهَ عبادة العارف المستنير، وازداد إلى نور التسليم نورَ الفهم عن الله، والوقوف على أسرار الأوامر والنواهي.

صادق: هل معنى هذا أنّ حكمة التشريع واضحة في كلّ العبادات يا سيّدي؟.

الشيخ: لا.. فقد يطوي اللهُ حكمةَ بعض الأحكام ابتلاءً لعباده، إذ يعاملهم معاملة المختبر العالم بخفايا ما يطوون من نيّات، وهو العليم بذات الصدور، لكنه يريد إقامة الحجّة عليهم، مما يكون منهم إزاء حدوده التي أمر بأن لا تُتَعَدَّى، وحُرُماته التي طلب أن لا تُنتهك.

صادقة: إذن؟.

الشيخ: إذن.. لا مانع من حسن العرض للأحكام، وما يحفّ بها من فوائد ومنافع، شريطة أن لا تكون هي المقصد، دون التقرب إلى الله بالعمل خالصاً لوجهه الكريم، طبقاً لما يمليه علينا الأمر النبويّ القائل:

«يا أيها الناس، أخلصوا أعمالكم، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما خلص له، ولا تقولوا: هذه لله وللرحم، فإنّها للرحم، وليس لله منها شيء، ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم، وليس لله منها شيء».

فالمطلوب هو التعبّد المحض، والطاعة الخالصة التي فرضها الله علينا، سواءٌ أظهرت الحكمة منها أم لم تظهر.

لَحَظَ الشيخ تململي، وعرف أن لديّ سؤالاً أريد أن أسأله، وأتردّد في سؤاله، فقال لي:

- هل لديك ما ترغب في قوله يا بنيّ؟.

- نعمْ يا سيّدي.

- تفضّلْ وسلْ ما بدا لك.

- أريد أن أعود إلى حديث الجنّ، فالناس في زماننا هذا يكثرون من الحديث عنهم، وسؤالهم عن أمور غيبية، وعن المسروقات وما شابه هذا، فماذا تقول يا سيّدي؟.

لملم الشيخ أطراف جبّته الفضفاضة، ثم قال:

- كما قلت لكم قبل قليل: الجنّ من مخلوقات الله، كبني آدم لا يعلمون الغيب، وعلمُهم مقصور على ما يشاهدون، دون المستقبل، ودون ما يخفى عليهم من الوقائع. والله يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، والله لا ﴿يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧]، والغيب لا يختص بالأمور المستقبلة، بل يشمل الأمور الواقعة التي هي غائبة عن الشخص، وعلى هذا، فالجني وغيره سواء في عدم العلم للغيب. والرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام، ينهى عن تصديق الجان فيما يخبرون به من الغيب بقوله: «من أتى كاهناً أو عرّافاً فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد».

فسألتْ صادقة عن الكاهن، فأجاب فضيلة الشيخ:

- هو الذي يتعاطى الإخبار عن الكائنات في المستقبل، ويدّعي معرفة الأسرار، كمكان الشيء المسروق أو الضائع ونحوهما، عن طريق صاحبه الجنّي.

- والعرّاف؟.

- العرّاف هو المنجّم الذي يخبر عن المستقبل بطلوع النجم وغروبه.

ـ والحاصل؟ .

ـ الحاصل: أنّ العرّاف والكاهن والرمّال والمنجّم والذي يزعم أنّ له صاحباً من الجنّ يخبره عما سيكون . . كلُّ هؤلاء مذمومون شرعاً، ومحكوم عليهم وعلى مصدّقهم بالكفر. وإذا لم يجز سؤال الجنّ عن المسروقات، لم يكن إخبارهم عنها دليلاً شرعياً، وإذا لم يكن إخبارهم دليلاً شرعياً، كان اتّهاماً للبرآء.

وسألتْ صادقة عن القول بسخرية القدر، كما يكتب بعض الكتّاب، فاستشاط الشيخ غضباً، مستنكراً مثل هذا الكلام، وقال:

ـ القدر لا يسخر. . وربُّنا سبحانه حكيم عليم، لا يتطرَّق إلى قضائه وقدره عبثٌ ولا سخرية، ولا شيء من نحو هذا الذي يعتري البشر، فلنكن وقّافين عند الحدود، وافين بالعهود، ولا نصف الله سبحانه إلا بما هو أهله.

وسألتُ فضيلة الشيخ عن علاقة الحظّ بالقضاء فأجاب:

ـ الحظّ من جملة المقدورات الإلٰهية، إذ كلُّ شيء بقضاء وقدر. والإيمان بالقدر أساس من أسس العقيدة، وركنٌ من أركانها، ونحن نؤمن بالحظّ على أنه قدرٌ من الأقدار، كما أنّ الحرمان قدرٌ من الأقدار، وقد ييسّر الله أسباب المحبوبات لبعض عبيده لينالوا ما قسم لهم منها، وقد تحول الأقدار بين العبد وبين ما يريد.

قالت صادقة:

ـ أرجو أن لا تضيق بأسئلتنا يا جدّي العزيز، فلطالما حلمنا بلقاء شيخ عالم عامل مثلك.

فردّ فضيلة الشيخ الحامد وهو يبتسم في سرور ظاهر:

ـ لا لا يا أولادي. . أنا مسرور جدّاً بهذه الأسئلة التي ثارت في زماني، وأجبتُ عليها. . فاسألوا ما تشاؤون.

اهتبلتُ الفرصة السانحة وقلت :

ـ هل تسمح يا سيِّدي بالحديث عن مأساة العرب والمسلمين في فلسطين التي احتلّها اليهود، وشرّدوا وقتلوا الكثير من أهلها، وهم يزعمون أنها بلادهم، وأنها أرض الميعاد، وقد عادوا إليها؟ .

اعتدل الشيخ في جلسته، ورفع كلتا يديه، حتى نزل كمّاه عن معصميه، وزوى ما بين حاجبيه، ثم قال :

ـ جاء اليهود من مصر، واحتلوا الأرض المقدّسة، ثمّ شتّتهم الله في الأرض عقاباً على فسقهم وبغيهم وكفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق. قال الله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، ثم جئنا نحن العرب المسلمين، وملكناها بالفتح الإسلاميّ، فهي ملكُنا بتمليك الله إيانا لها، وقد طرد الله منها خلوف السوء، إخوان القردة والخنازير (اليهود) فهي لنا، ونحن لها، وإنّا إليها لعائدون بإذن الله، وإننا لمنتصرون عليهم إن شاء الله، وعدَنا بذلك نبيُّنا، عليه وآله الصلاة والسلام، مذ أخبرنا بأننا سنقاتل اليهود آخر الزمان، فنقتلهم ونغلبهم، ولا شكَّ في موعود الله سبحانه.

صادق : وكيف ترى حالنا مع اليهود اليوم وغداً يا سيِّدي الشيخ؟ .

الشيخ : هذا هو الهمّ الذي أقلقني وأبعدني عن الهدوء، وزجّ بي في غمرات الحزن. . ولمَ لا أحزن، والخطر يدنو، والشرُّ يكبر، والأمر لا يزداد على الأيام إلا شدّة، وقُوى الشرّ لا تنفكّ تؤيد العدوّ المغتصب، وتدفع عنه، وتمدّه بما يزيده لجاجاً في باطله، وإمعاناً في غيّه.

وصعَّد الشيخ زفرة حرَّى، ثم تابع يقول :

ـ أيُّ شرّ هذا الشرّ الذي مُنِيْنا به؟ .

وأيُّ غفلة غَفْلتُنا عن تقدير حقيقته؟ .

الويل لنا إن دامت غفلتنا، وطال ثواؤنا على الأباطيل، وتعلّقنا بالأماني والأحلام، دون أن نواجه الحقائق المُرّة القاسية.

اليهود اللُّعناء أهاروا ألمانية ـ الدولة العسكرية القوية ـ في حربين عالميتين متواليتين بمكرهم الخفيّ، وكيدهم الدائب، مع أنها فطنت لهم، ونكّلت بهم تقتيلاً وتشريداً فما أغنتْ عنها فطنتُها شيئاً. فما القول فينا، ونحن في بدء التكوّن العسكري، وأول الظهور السياسي؟.

هل من الحزم أن ننام على الوهم، ولا نقدر عدوَّنا الماكر الخبيث قدره، لنعمل على إحباط خططه التي إن تمّ له تنفيذها، كانت كارثة لم يمرَّ بالعرب والإسلام شبيهٌ لها، أو نظير؟.

إننا لن نذكر حروب الصليبيين، ولا إغارات التتار، بجانب الشرّ المبيَّت لنا من هؤلاء اليهود، الذين هم أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا، كما ينطق القرآن الكريم.

صادق: كيف استطاع هؤلاء الخبثاء تنفيذ خططهم يا جدّي؟.

الشيخ: من المؤسف أنّ جانباً من خططهم نُفّذ بالمساندة الفاجرة لهم من خصوم الإسلام وأعدائه، فخلتْ بلاد من أهلها، وامتُهنت كرامات، وديست مقدّسات، ووقعت هزائم، وللأسف الشديد، ما كان كلُّ هذا ليعيد إلى الأمة رشادها الذي أضاعته باللهو والعبث، وسلوك السُّبُل التي لا تفضي بسالكها إلا إلى التحطم في الهاوية.

صادقة: والحّل؟.

الشيخ: الحلّ في أن تحسن الأمّة صلتها بالله، وتدخل في حصنه الآمن، وهو الإسلام المحض؛ إيماناً صادقاً، وعملاً صالحاً، وتطبيقاً لنُظُم الدين في الشؤون كلّها.. أن تعيدوها إسلامية أولية في السياسة والحرب والسلم، والحكم والبيت، وفي المسجد والشارع والمدرسة، بهذا تأخذ الأمّة لنفسها أماناً من عقاب الله، وتستنزل نصره العزيز، بنصرة دينه، وإقامة كتابه، وتحكيم شرعه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، فالطرق كلُّها مسدودة، والأبواب جميعها مغلقة، إلا طريقاً واحداً وباباً واحداً، هو طريق الإسلام المنير الحكيم، الذي ينتهي بالسائرين

فيه إلى باب السعادة والعزّة والرضوان والمغفرة، وهو مفتوح على مصراعيه، وربُّنا سبحانه يدعونا إليه.

صادق: كيف؟.

الشيخ: التاريخ يجيبك.. فالذي أنقذ البلاد من الصليبيين هو هذا الإسلام، وهو نفسه الذي طرد منها التتار، وهو الذي أثار الحماسة، وبعث القوة، وأحيا الطمع في الشهادة، بعد أن خلط القلوب المؤمنة بعضها ببعض، وألّف بينها، فكان الفوز، ونزل النصر.

صادقة: وماذا عن اليهود يا جدّي؟.

الشيخ: اليهود أقدر الناس على إفساد الأفراد وإفساد الجماعات. وأمكر الناس، وأحذق الناس للفتن، يبعثونها من رقادها، وأعدى الناس لهذا الإسلام، فقد كادوا للإسلام منذ نشأته الأولى، وصدموه في عراك مسلّح، وما وقعة الأحزاب (غزوة الخندق) وحصار المدينة المنوّرة إلا صُنْعُ أيديهم، ونتاج أفكارهم، أرادوا بها وأد الإسلام، وقتل نبيّ الإسلام، وسَبْيَ بناته وأزواجه ونساء المسلمين، بعد أن يشفوا صدورهم قتلاً وولوغاً في دماء الصحابة رضي الله عنهم. ومن قبلُ همُّوا بقتل النبيّ ﷺ، بإلقاء حجر عليه. ولمّا يئسوا من مواجهة النبي الكريم ﷺ، التفتوا إلى الدسّ والفتنة وكانوا من وراء قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وكان عبد الله بن سبأ، وكان وكان.

صادق: إذا كان الأمر كذلك، فهل نأمن مكرهم إنْ نحن هادنّاهم؟.

الشيخ: حالنا مع اليهود لا تقبل هدنة، ولا تدنو من صُلْح.. إنها عقدة لا تحلّها إلا القوة، وإنهم يسابقوننا إليها، ليأكلونا بها، ويذيبونا في أحشائهم، فلنأخذْ نحن بأسباب القوة التي تخضد شوكتهم، وتكسر رؤوسهم، وتردّهم على أعقابهم مدحورين.. لا بدّ من القوة المعنوية إلى جانب القوة المسلّحة.. لا بدّ من قوة النفس وصلاحها، وصلتها الوثقى بالله تعالى العزيز القدير ناصر المؤمنين.. ولن تكون لنا قوّة، والميوعةُ

أصلٌ لدينا معتمد، والحربُ للدِّين طريقٌ معبّد، ومحاربة الله بالفسق عن أمره مُعْلَنٌ بها. . التقوى عنصر النصر الأقوى، والحرب بيننا وبين اليهود واقعة حتماً، إن لم تكن الآن ففي المستقبل، أخبر بها سيّدنا رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: فقال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهوديّ: يا مسلم، هذا يهوديٌّ ورائي فاقتله».

صادقة: هذا الحديث الشريف يفيد أننا سوف ننتصر على اليهود آخر الأمر.

الشيخ: أجلْ يا ابنتي، شريطة أن تنقشع عن قلوبنا سُحُبُ الأوهام، وتتبدّد ظلمات الغفلات عن الله، ونستمسك أشدّ الاستمساك بدينه المتين.

فهتفتُ بأعلى صوتي:

ـ ألا فلتصغِ الأمة بسمعها إلى دعوة الحقّ، ولتجتمع كلمتها، ولتتوحَّدْ صفوفها.

فعلّق الشيخ على هتافي بقوله السّديد:

ـ فالألفة رحمة، والفرقة عذاب، وإنّ تصدُّع صفوف الأمة قوة كبرى لأعدائها عليها.

ثمّ رفع يديه إلى السماء، وأغمض عينيه، وابتهل:

ـ اللهمّ ألّفْ قلوبنا، وأصلحْنا وأصلحْ ذاتَ بيننا، واهدِنا إلى الحقّ، وإلى طريق مستقيم. آمين.

وسألتْ صادقةُ فضيلة الشيخ عن النظريّات العلميّة وعن موقف الإسلام منها، فأجاب في تأنٍّ شديد:

ـ ما فتئ العلم الحديث يتحفنا في الحين بعد الحين بطُرَفه، ويطالعنا بنظرياته، ويكشف الغطاء عن كثير من المحجوبات الكونية، فيسدي إلينا أيادي بيضاء نقدّرها له أتمَّ تقدير. ذلك لأنّ الدين الإسلاميّ أخو العلم

الصحيح، وقرينه، دعا إليه بنصوصه الكثيرة المعلومة لكلّ من ينظر في القرآن الكريم نظرة إمعان ورويّة، ويقرؤه قراءة تدبّر وتفكُّر واستنارة واستبصار. وما من شكّ في أنّ الإيغال في البحث عن المكونات، داعٍ إلى الإيمان، وداعمٌ له، يشدّ أزر العقيدة، ويثبتها.

غير أنّ هذه النظريات متفاوتة الثبوت.. بعضها مقطوع به، ولا سبيل إلى جحده وإنكاره، وبعضها ما يزال قيد الدّرس والبحث، وبعضٌ آخرُ ظهر زيفه وبطلانه، بعد أن كان محسوباً في نظر أصحابه من الحقائق.

سكت فضيلة الشيخ لحظات، ثم تابع يقول:

ـ وبما أنّ بعضاً من النظريات الحديثة يلامس ما عرض له الكتاب الكريم بالإثبات أو بالنفي، وجب أن يقف المسلمون منه موقفاً يلائم العقيدة والإيمان، ويوائم هدي القرآن الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، فيثبتوا ما أثبته، وينفوا ما نفاه. وما لم يتعرّض له بإقرار ولا إنكار تركوه للتحقيق العلميّ، فهو وحده الذي يتحمل تبعة إقراره أو إنكاره. وليحذروا أن يغلبهم الهوى، وتحكمهم العاطفة، فيحاولوا تنزيل الكتاب المحكم المتين الذي لا يتبدّل ولا يتغيّر، على فِكَرٍ حديثة ما تزال متأرجحة، ليس لها من البرهان ما يجعلها ثابتة أو مسلّمة الثبوت. ولو فعلوا ذلك، والتمسوا من الآيات الكريمة تأييد نظرية ظهر ـ بعدُ ـ بطلانُها، لأساؤوا إلى دينهم إساءة بالغة، إذ يمكّنون خصوم الإسلام وأعداءه من الطعن فيه، وأن يقولوا: إنه باطل، لأنّ نصوصه تؤيّد الباطل.

شكرْنا فضيلةَ الشيخ الحامد على ما تفضّل به من رأي صائب، ثم اعتذرتْ صادقةُ عن الإجهاد الذي نسبّبه له، ولكنّ فضيلة الشيخ أبدى سروره بهذه الأسئلة، وطالبَ بالمزيد منها، على أن ننقلها كما هي إلى زملائنا وأصدقائنا، فوعدناه بذلك، ثمّ سألته صادقة عن القرآن المكيّ، والقرآن المدني، أو عن السُّور والآيات المكيّة، وكيف نميّزها من المدنيّة، فاعتدل في جلسته، ومسح بكلتا يديه على لحيته الكثّة، ثم قال:

ـ مدّة نزول القرآن الكريم ثلاث وعشرون سنة، ثلاث عشرة سنة في

مكة، وعشر سنوات في المدينة. فالقرآن المكيّ هو الذي نزل قبل الهجرة، ولو كان مكان نزوله في غير مكة، والقرآن المدنيّ هو الذي نزل بعد الهجرة، أينما كان هذا النزول. وقد استخرج العلماء فوارق بين هذين النوعين من الوحي.

أولاً: إن آيات الأحكام التي فيها بيان الفرائض والحدود، أكثرها مدنيّ. أمّا المكّيّ، فأكثر آياته يرجع إلى تشييد بناء العقيدة الصحيحة، وهدم الشرك، ومهاجمته، وغسلِ السرائر وتطهيرها من أوضار الرذيلة وأدرانها، وتزيين الفضيلة وإحلالها في القلوب، والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

صادق: ثانياً؟.

الشيخ: ثانياً: يغلب على صيغة الخطاب المكيّ أن تكون بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١]، أو ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، إلا في مواضع معدودة، أمّا المدني، فالغالب فيه أن يكون الخطاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤].

ثالثاً: الآيات المكيّة قصيرة، أمّا المدنية فهي أطول منها.

رابعاً: وقع ذكر المنافقين في الآيات المدنية، لأنّ النفاق ظهر في مجتمع المدينة وما حولها، ونشأ المنافقون بعد الهجرة الشريفة.

صادق: جميل.

الشيخ: خامساً: كلُّ سورة فيها سجدة فهي مكيّة، إلا سورة الحجّ، فالراجح أنها مدنية.

سادساً: كلُّ سورة فيها كلمة (كلّا) مكيّة.

صادق: لماذا يا سيّدي؟.

الشيخ: لأنّ (كلّا) للزجر والتقريع اللذين يتناسبان مع جبابرة المشركين في مكة، أمّا المدينة فقد كان اليهود من سكانها، وهم أذلّاء ضعفاء، وخطاب الضعيف ليس كخطاب القويّ.

صادقة: ما هي أبرز المشروعات في المدينة المنوّرة، بعد الهجرة يا جدّي؟.

الشيخ: أخوّةُ الإسلام. . أعني التآخي الذي شدَّ رباطه سيّدنا رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكلّ مهاجر أخاً من الأنصار، حتى كانت تلك الأخوّة في الله أقوى بكثير من أخوّة النّسب.

صادق: ويا ليتنا نعود إلى إحياء الأخوّة في الله فيما بيننا، لأننا نرى كثيراً من الإخوان اليوم، يكادون يكونون خالين من هذا الحسّ الشريف خلوّاً تامّاً، فلاتعاطف ولا تراحم ولا توادّ ولا تراؤف، اللهمّ إلا قليلاً من ذلك لا يروي غلّة، ولا يفيد ريّاً. . كلُّ همٍّ أحدهم راحةُ نفسه، وسيّان لديه تعبُ أخيه وراحتُه وحياتُه وموتُه. وهذا ملموس بالمشاهدة والاستقراء، حالُهم ما ترون: تراشقٌ بالشتائم، وسباب، وتضارب وتطاحن، وهذا ما ينكره الإسلام الذي ندين به.

الشيخ: أعوذ بالله.

صادقة: ثم ماذا عن أبرز المشروعات الأخرى في المدينة يا سيّدي؟

الشيخ: هناك أشياء كثيرة. . كمعاملة المنافقين واليهود والنصارى، وكقتال المشركين. . والصوم، والصلاة، والزكاة، والحجّ، والآداب العامة، والآداب البيتية، والمعاملات المدنية، والأحوال الشخصية.

صادقة: ماذا عن المنافقين يا جدّي؟.

الشيخ: كان المنافقون من العرب الذين أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر، وكان هؤلاء المنافقون يكيدون للإسلام أشدّ الكيد، ويظهرون أعداء الإسلام على مواطن الضعف في الدولة الإسلامية الوليدة، فكان ضررهم كبيراً جداً، لا يقاس به ضرر غيرهم، لأنهم العدوّ الداخلي المخالط، ولذا فإن عقوبتهم في الآخرة من أنكى العقوبات. قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء: ١٤٥].

صادق: هذا في الآخرة.

الشيخ: صدقت.. أمّا في الدنيا، فإن سيّدنا رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: كان يقبل ظواهرهم، ويكلُ ضمائرهم إلى الله عزّ وجلّ.

صادق: فقط؟.

الشيخ: لا.. فلم يُؤْثَرْ عن النبيِّ أنّه ولّى رجلاً منافقاً عملاً له، لئلا يجد المنافق ثغرة أو ثلمة تساعده على الإضرار بالمسلمين.

صادق: وكذلك ينبغي أن يكون قادة الأمة، متأسّين بالنبي الكريم.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: فلا يجوز لهم أن يولّوا الأعمال العامّة إلا الصادقين المخلصين أصحاب الماضي النظيف، والسيرة الصالحة، والسلوك المستقيم.

الشيخ: أحسنتَ يا ولدي.. ولكنْ مَنْ يولّي مَنْ؟.

صادقة: واليهود والنصارى يا جدّي؟.

الشيخ: كان هؤلاء ـ قبل البعثة النبويّة ـ يتشوّفون إلى النبيّ المنتظر، الذي بشّرت به التوراة والإنجيل، وكان اليهود، إذا قاتلوا العرب المشركين، استفتحوا عليهم بالنبيّ المنتظر.

صادق: عفواً يا سيّدي.. ما معنى استفتحوا عليهم؟.

الشيخ: أي استنصروا الله تعالى بالنبيّ المنتظر الذي سوف يؤمنون به، ويقودهم، ويحارب أعداءهم العرب المشركين.

صادقة: ولكنهم لم يؤمنوا به عندما بُعث.

الشيخ: هذا لأنهم من أشقى الأمم، فقد تمكّن منهم الحسد، وضاقت عيونهم أن تصير النبوّة إلى بني إسماعيل عليه السلام، فكفروا به، وهم يعلمون أنه هو النبيّ المنتظر.

وكزَّ الشيخ الجليل على أسنانه وهو يقول:

ـ ألا لعنة الله على الكافرين.

صادق: ألم يُسْلم منهم أحد؟.

الشيخ: بلى.. أسلم منهم بعض رؤسائهم، كالحَبْر عبد الله بن سلام، وتبعهم بعض عامّة اليهود.

صادقة: هل كان اليهود متفاهمين مع المنافقين ضدّ المسلمين يا جدّي؟.

الشيخ: طبعاً كانوا متفاهمين متعاونين متضامنين.. يتعاونون على الإثم والعدوان وأذى الإسلام وإيذاء نبيّ الإسلام محمد.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: على الرغم من العهد الذي عقده الرسول الكريم مع اليهود.

صادقة: ما فحوى ذلك العهد يا جدّي؟.

الشيخ: فحوى ذلك العهد، تركُ الحرب والأذى، فلا يغزوهم المسلمون ولا يضرّونهم، وهم ـ مقابل هذا التعهد ـ لا يثيرون حرباً على المسلمين، ولا يمالئون عليهم عدوّاً، وإن هاجمهم في المدينة مهاجم، فعليهم نصرةُ المسلمين، ومقاتلة المهاجمين، ولم يجبرهم النبيُّ ﷺ على الإسلام، بل تركهم وما يدينون، لا رضاً بالكفر، بل لأنّ لهم من العلم بقايا قد تدفعهم إلى الإسلام. ولكنّ الشقيّ هو الشقي ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

صادق: هل حافظ اليهود على عهودهم يا سيّدي؟.

الشيخ: إذن لا يكونوا يهود. . إذ ما لبثوا أن نقضوا ما عاهدوا عليه النبيَّ والمسلمين، وأعانوا المشركين غير مرّة، فبدّدهم الله الكبير المتعال بأيدي المؤمنين ما بين قتيل وشريد، وأمن المسلمون شرور عدوٍّ قريب يتربّص بهم الدّوائر.

صادقة: والنصارى؟.

الشيخ: النصارى كاليهود من حيث المعاملة، ضرب الله الجزية عليهم جميعاً، إلا أن يسلموا. قال الله تعالى:

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

صادقة: صدق الله العظيم.

صادق: على ذكر الجزية، هل تعطينا فكرة واضحة عنها يا سيّدي؟.

الشيخ: الجزية عبارة عن ضريبة تُفرض على رؤوس من دخل في ذمّة المسلمين من اليهود والنصارى، ممن يقدر على دفعها.

صادقة: وهذا معنى (عن يدٍ) أليس كذلك يا جدّي؟.

الشيخ: بلى يا ابنتي. . هكذا فسّرها بعض المفسّرين.

صادق: ما مقدار الجزية يا سيّدي؟ هل هي ضريبة باهظة؟.

الشيخ: بل ضريبة بسيطة، أقلُّ من الزكاة بكثير. . مقدارها ثمانية وأربعون درهماً في السنة، وتؤخذ من الأغنياء فقط، أمّا متوسّطو الدخل، فيدفعون نصف هذا المبلغ. . أربعة وعشرين درهماً في السنة، ويدفع الفقراء اثني عشر درهماً في السنة فقط. وهذه ضريبة يسيرة لا تكاد تُذكر إذا قيست بالضرائب التي تفرضها الحكومات على رعاياها. ثم إن هذه الجزية تُدفع مقابل ما ينعم به الذميّون من راحة وأمن على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، حتى إنّ التاريخ ليروي لنا من حسن معاملة المسلمين لأهل

الذمّة ما يدهش له الناظر فيه.

صادقة: هل تروي لنا حادثة على هذا يا جدّي؟.

الشيخ: نعمْ يا ابنتي.. فقد روت لنا كتب التاريخ أنّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً من أهل الذمّة شيخاً كبيراً، فسأله عن حاله، فأخبره بضيق يده وفقره، فقال له عمر:

«ما أنصفناك. نأخذ منك الجزية شاباً، ونتخلّى عنك شيخاً» وأمر بالإنفاق عليه من بيت مال المسلمين.

صادقة: الله أكبر!.

صادق: تُرى.. ألم تؤثّر هذه المعاملة الطيّبة بأولئك الذميين؟.

الشيخ: بلى.. أثّرتْ في كثير منهم، فدخلوا في الإسلام أفواجاً، وقد نشأ عن هذا نقصٌ في موارد الدولة، حتى شكا منه بعضُ الولاة، فكتب إليه أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ عبد العزيز رضي الله تعالى عنه:

«إنّ الله تعالى بعث محمداً ﷺ هادياً، ولم يبعثه جابياً».

صادقة: يا سلام.. ما أروع هذا الكلام!. وما أروع عمر.

صادق: بل قولي: ما أروع الإسلام الذي أنجب مثل عمر.

الشيخ: ثمّ إنّ الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال الأحرار العقلاء، فلا تؤخذ من امرأة ولا صبيّ ولا عبدٍ ولا مجنون.

صادقة: يا سلام ما أروع هذا الدين.

الشيخ: ثمّ إنّ الجزية جزاء الحماية، لأنّ الذّمّيين مُعْفَوْنَ من قتال الأعداء الخارجيين. إذن.. لا أقلَّ من أن يشارك أهل الذمّة في العمل على سلامة الدولة التي ينعمون في ظلّها بالأمن والسلامة، بجزءٍ يسيرٍ من المال.

صادق: وإذا شارك الذمّيّ في الدّفاع عن الوطن؟.

الشيخ: يُعفى من الجزية إذا هو قاتل مع المسلمين.

صادقة: ليس في التاريخ القديم والحديث، وليس في الدنيا كلّها كالمسلمين في عدلهم وإنصافهم، فأيُّ معاملة للأقليات تعدل معاملة الإسلام لهم؟.

صادق: وليتك تعلم، يا سيّدي، أيّ كوارث ينزلها اليهود والنصارى بنا نحن المسلمين في هذه الأيام، في فلسطين، في أفغانستان، في البوسنة والهرسك، في الشيشان، في أذربيجان، في الصومال، في السودان، في سائر بلاد الدنيا، وحيث وُجِدَ المسلمون.. قتلٌ وتشريد واغتصاب للحرائر المسلمات.. ما فعله ويفعله الصرب في البوسنة، ومعهم سائر الكفّار في العالم، فوق كلّ وصف، وما يفعله الروس في الشيشان وسواها لا تدانيه نذالة الأنذال.. إنهم يشنّون حرباً عالمية على الإسلام والمسلمين في كل مكان.

صادقة: إذا سمحتَ، يا جدّي العزيز، أريد أن تحدّثنا عن بنات جنسي، عن المرأة، فلديّ أسئلة كثيرة، فهل تسمح بالانتقال إليها؟.

- تفضّلي يا صادقة.. سلي ما شئت.

صادقة: هل صحيح ما يقال من أن الإسلام قيّد المرأة بقيود ظالمة؟.

الشيخ: أعوذ بالله.. هذا افتراء على الإسلام، واجتراء على الحقّ.. الإسلام لم يغلَّ يدَ المرأة، ولم يقيّدها إلا بقيود أدبيّة ترفع مكانها، وتزيد في سموّها.. الإسلام أخذ بيد المرأة، وأنقذها من الظلم الذي كانت رازحة تحته في الجاهلية.. نعمْ.. أخذ الإسلام بيدها، وحرّرها تحريراً صحيحاً معقولاً، وأعطاها حقَّها كاملاً غير منقوص، وجعلها قرينة الرجل في التكاليف والأحكام كلّها، إلا ما تقتضيه طبيعتها من الانفراد ببعض الخصائص، وهو في كلّ هذا لا يقيِّدها، بل يراعي تكريمها واحترامها والعطف عليها، حتى قال رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: «ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهنَّ إلا لئيم».

صادقة: الله أكبر! ما أروع هذا الكلام.

الشيخ: وقال أيضاً لأصحابه رضي الله تعالى عنهم:

«خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي».

صادقة: عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

الشيخ: وكان ـ عليه السلام ـ يقوم بمهنة أهله بنفسه الشريفة، وكان يؤنس أزواجه، ويسمر معهنّ، وسابق السيدة عائشة مرّة فسبقَتْه، ثم سابقها مرّة أخرى فسبقها، فقال لها: «هذه بتلك».

صادقة: الله أكبر!. ما أعظمك يا سيّدي يا رسول الله.. وكيف كان حال المرأة في الجاهلية؟.

الشيخ: كانت تُسترَقُّ وهي حرّة، فتُباع وتُشترى، كأنها بهيمة أو متاع من الأمتعة، وكان بعض الجاهليين لا يرون القِصاص من الرجل إذا قتل المرأة، ويُعفُونه من الدِّية أيضاً، وكان كثير منهم يرون الحقَّ للأب في قتل بنته ووأدها، أي دفنها وهي حيّة، وكانوا يجبرون بناتهم على التزوّج ممّنْ يكرهْنَ.

صادقة: وكذلك يفعلون اليوم.

الشيخ: لا.. هذا لا يجوز، فقد أثبت الإسلام لهنّ كمال الحريّة في اختيار الزَّوج المناسب، فلا تُجَبرُ الفتاة البالغة على الزواج، لأن أمر زواجها منوط بها، وبمحض إرادتها ورغبتها، واسمعي هذا الحديث الشريف. دخلتْ فتاة على أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، فقالت: إنّ أبي زوّجني من ابن أخيه وأنا كارهة، فقالت لها أمُّ المؤمنين: اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ. فلمّا جاء الرسول الكريم أخبرتْه بقصّتها، فأرسل إلى أبيها، فدعاه إليه، وأخبره أنّ الأمر يعود إليها، فقالت الفتاة: يا رسول الله، قد أجزْتُ ما صنع أبي، ولكنْ أردتُ أن أعلم النساء أنْ ليس للآباء من الأمر شيء.

صادقة: يا سلام! ما أجرأ هذه البنت، وما أعظم تصرُّف الرسول القائد عليه الصلاة والسلام.

الشيخ: وكان من عادة العرب في الجاهليّة، أنّهم لا يورّثون إلا الذكور الكبار القادرين على القتال، ولا يورثون النساء، فأبطل الإسلام هذه العادة الذميمة، وورّث النساء.

وسكت الشيخ لحظة، وأخرج من جيبه منديلاً نظيفاً ناصع البياض، مسح به فمه، ثمّ تابع يقول:

ـ الإسلام ينظر إلى المرأة كما ينظر إلى الرجل، على أنها إنسان مفكّر، ونفس محترمة، لها تفكيرها الشخصي، ولها إرادتها الخاصّة بها، ولها مشاعرها وعواطفها، بينما نرى نظرة بعض الأديان إليها على أنّها حيوان نجس لا روح له ولا خلود، وتجب عليها الخدمة والعبادة، وأن يكمَّ فمها كالكلب العقور، لمنعها من الضحك والكلام، لأنها أحبولة الشيطان، وهي أحقر من أن تكون من نوع الإنسان.

صادقة: أعوذ بالله.. هؤلاء أوباش يا جدّي.

الشيخ: وقد اختلف رجال تلك الأديان المحرَّفة، فتساءلوا:

هل المرأة إنسان؟.

هل لها نفس وروح باقية كالرجل؟.

هل يسوغ تلقينها الدِّين؟.

هل تجوز عبادتها؟.

هل تدخل الجنة في الآخرة؟.

صادقة: ما هذا التخلّف يا جدّي؟.

الشيخ: نعمْ يا ابنتي.. كان بعضهم يرى أنّه لا يصحّ أن يكون للمرأة دين، وبناء على هذا، حظروا عليها قراءة كتب دينهم رسمياً.

صادق: بينما الإسلام جعل النساء شقائق الرجال.

الشيخ: والإسلام سوّى بين الرجال والنساء في الأحكام والتكاليف، ويسمّي الفريقين مؤمنين ومؤمنات، ومسلمين ومسلمات، وقانتين وقانتات، وأمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ تكون أوّل المؤمنين برسالة الرسول ﷺ، وتكون في مقدمة المناصرين له، والمعاونين على تأدية رسالة ربّه تبارك وتعالى.

صادقة: رضي الله عنها.

الشيخ: وقد بلغ من احترام الإسلام للمرأة، أنه بعد جمع القرآن في مصحف واحد، وضع الصحابة الكرام هذا المصحف عند أمّ المؤمنين حفصة رضي الله تعالى عنها.

صادق: أين هذا التصرّف النبيل من تصرّف رجال الأديان الأخرى؟.

الشيخ: قال الله تعالى في مُحكم كتابه العزيز:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وقال تعالى:

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

صادق: صدق الله العظيم.

الشيخ: اسمعوا هذه القصة.

صَعِدَ أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ـ منبرَ رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: ثم قال: «أيُّها الناس. ما إكثارُكم في صُدُق النساء (أي لماذا

تغالون في مهور النساء) وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصَّدُقات (أي المهور) فيما بينهم، أربعَ مئة فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة، لم تسبقوهم إليها». وهدّد الذين يغالون في المهور ثم نزل، فاعترضَتْه امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين. كيف تنهى الناس أن يزيدوا في مهور النساء على أربع مئة درهم؟ أما سمعتَ ما أنزل الله في القرآن؟.

قال عمر: وما ذلك؟.

قالت المرأة: أمَا سمعتَ الله يقول:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾[النساء: ٢٠ـ٢١].

صادقة: الله أكبر، ما أروع الإسلام الذي ربَّى بناته هذه التربية.

الشيخ: فقال أمير المؤمنين عمر:

«اللهمّ غفراً، كلُّ الناس أفقهُ من عمر».

ثم صَعِدَ المنبر فقال:

«أيّها الناس. إني كنت نهيتكم أن تزيدوا في صدقاتهن على أربع مئة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحبّ، فليفعل».

صادقة: الله أكبر ما أروعكَ يا أمير المؤمنين.

صادقة: وما أروعَ الإسلامَ الذي ربَّى أميرَ المؤمنين.

الشيخ: وهذا يدلّ بوضوح، على أنّ سلطة الحاكم لا تمتدُّ شرعاً إلى تحديد أكثر المهر.

صادق: وأقلّه؟.

الشيخ: لا . . أقلُّ المهر محدَّد بقول النبيّ عليه الصلاة والسلام:

«أقلُّ المهر عشرة دراهم» .

صادق : والحكمة من هذا يا سيّدي؟ .

الشيخ : في عدم تحديد أكثر المهر ، حمايةٌ قوية للنساء ، ورحمة لهنّ ، وفتحٌ لباب تكريمهنَّ بما يحبّ أزواجهنّ دون أيّ مانع أو عائق .

صادق : ولكنْ .

الشيخ : أعرف ما تريد أن تقول يا ولدي . . لذلك أقول : على الناس أن يدركوا أنهم إذا غالوا في المهور ، فسوف يقلّ المقبلون على الزواج الذي فيه الصّيانة والحصانة ، فتشيع الفاحشة ، ويفشو المنكر .

صادق : عظيم . . ثمّ ماذا من أمر المرأة في الجاهليّة يا سيّدي؟ .

الشيخ : كانوا ـ في الجاهلية ـ يحرمون المرأة من حقها في الميراث ، كما يحرمونها من التصرف بأملاكها الخاصّة بها ، فبدّد الإسلام هذا الظلم ، وأكدّ حقّها في الميراث ، وفي التصرف بأملاكها كما تشاء ، كالرجل تماماً ، ضمن الدائرة المشروعة طبعاً للتصرف .

صادقة : الحمد لله .

الشيخ : قال عمر رضي الله تعالى عنه :

«والله كنّا في الجاهلية ما نعدُّ النّساء ، حتى أنزل الله فيهنّ ما أنزل ، وقَسَمَ لهنّ ما قسم» .

قال الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء : ٧] .

صادق : يا سلام! ما أعظم الإسلام! .

الشيخ : وجاءت امرأة الشهيد سعد بن الربيع ـ رضي الله عنهما ـ بابنتيها إلى رسول الله .

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

الشيخ : فقالت : «يا رسول الله . هاتان ابنتا سعد بن الرّبيع ، قُتل أبوهما معك يوم أُحُدٍ شهيداً ، وإنّ عمّهما أخذ مالهما ، فلم يدع لهما مالاً ، ولا تتزوجان إلا ولهما مال» .

صادقة : أعوذ بالله . فماذا كان تصرّف النبيّ الكريم يا جدّي؟ .

الشيخ : قال النبيّ الكريم : «يقضي الله في ذلك» .

ثمّ نزلت آية الميراث ، فبعث رسول الله ﷺ إلى عمّهما ، وقال له : «أعطِ ابنتي سعد الثلثين ، وأعط أمّهما الثمن ، وما بقي فهو لك» .

فهتفنا أنا وصادقة :

ـ الله أكبر . . الله أكبر . . ما أعدل الإسلام! .

ولمّا رأى الشيخ حماستنا وفرحنا بهذه المعلومات الجديدة علينا ، تابع يقول :

ـ كان الرجال في الجاهلية يرثون النساء كأنهنّ مال أو متاع ، كما كانوا يتصرّفون بزواجهنّ وكأنه تركة من جملة ما ترك الميت لهم ، فأبطل الله تعالى هذا الظلم بقوله الكريم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾[النساء : ١٩]

قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ في هذه الآية :

«كانوا إذا مات الرجل ، كان أولياؤه أحقَّ بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوّجها ، وإن شاؤوا زوّجوها ، وإن شاؤوا لم يزوّجوها ، وهم أحقُّ بها من أهلها» .

فعلّقت صادقة بقولها :

ـ الله أكبر . . شتان مابين الجاهلية والإسلام . . بين الجاهلية القاسية الغليظة الميّتة القلب ، وبين الإسلام العادل الرحيم الشفّاف .

وقال فضيلة الشيخ:

ـ هذه نماذج ياأولادي، تريكم مبلغ احترام الإسلام للمرأة، وحياطته إياها، وتوفيته حقّها، وصدق الله ورسوله، وكذب الأفّاكون الذين يذرُّون الرَّماد في العيون، ويقلبون الحقائق، ليهدموا المعاني الإسلاميّة في نفوس السُّذَّج والبُسَطاء. ولكنْ.. خسئوا، فإنّ الإسلام أمتن من أن تناله أيديهم بالتهديم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

قلت لفضيلة الشيخ:

ـ هل تعبتَ يا سيّدي؟.

هل أثقلْنـا عليك؟ ففي النفس أسـئلة كثيرة أحبُّ أن أتلقَّى أجوبتها منك.

ابتسم الشيخ ابتسامة لطيفة وهو يقول:

ـ يبدو أنكم لا تثقون بشباب شيخكم وجدّكم.. سَلُوا ما شئتم، فأنا من ورثة النبيّ الكريم، عليه وآله الصلاة والسلام، وهو القائل:

«من كتمَ علماً عن أهله، أُلجمَ يوم القيامة لجاماً من نار».

وأنتم، فيما أحسب، من أهل العلم. وقال عليه وآله الصلاة والسلام:

«مَنْ كتمَ علماً ممّا ينفع الله به الناسَ في أمر الدِّين، ألجمه الله يـوم القيامة بلجامٍ من نار».

هذه التهديدات ـ يا أولادي ـ عملتْ عملها في نفسي، فدفعَتني إلى البيان دفعاً، فراراً من لعنة الله إلى رحمته، وإنقاذاً لمهجتي من عذابه الأليم، وعقابه العظيم.. دفعتْني في الماضي، وتدفعني الآن، وأنا مستعدٌّ للإجابة عن كل ما يخطر على بالكم من أسئلة، مهما طال الزمن، فاطمئنّوا، واسألوا جدَّكم الشيخ.

فرحْنا كثيراً لهذا الكلام، وللحيويّة التي رأيناها فيه، فسألته:

ـ من هو المسلم يا سيّدي؟ .

أجاب الشيخ الوقور:

ـ المسلم هو الذي يقرّ بالإسلام، ويعترف بوحدانيّة الإلـه سبحانه، وبصدق الرسالة المحمديّة، وعمومها إلى الخلق كلّهم، ولا ينقض إقرارَه هذا بشتم مقدَّس، أو إنكار أمرٍ معلومٍ من الدِّين بالضرورة.

سألت الشيخ العالم عن معنى كلامه هذا (إنكار أمر معلوم من الدِّين بالضرورة) فأجاب:

ـ هو الذي يستوي في العلم به الخاصُّ والعامُّ، كحرمة الخمر والرِّبا والزِّنى.. أقول: من كان كذلك فهو مسلم، وإنْ فرَّط في العمل وقصَّر، فإن الإيمان غيرُ العمل. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧]، والعطف يقتضي المغايرة من حيث الأصل.

ـ كيف؟ .

ـ يعني.. عندما تقول: حضر محمدٌ وعليٌّ، فهذا يعني أنّ محمداً غيرُ عليّ، هذا معنى قولهم: العطف يقتضي المغايرة. فالإيمان غيرُ العمل. ولكنَّ كمال الإيمان والإسلام أن يكون هناك عملٌ صالح. فالإيمان الكامل إقرارٌ باللسان، وتصديق بالجنان (أي القلب) وعملٌ بالأركان.

صادقة: والمذنب غير التائب؟ .

الشيخ: هو في مشيئة الله تعالى.. إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه. لكنّ آخر أمره الخروج من النار، والمصير إلى الجنة.

صادقة: يعني.. لا نكفّر مسلماً بذنب؟ .

الشيخ: أجل يا ابنتي.. فنحن ـ مَعْشَرَ أهل السّنّة والجماعة ـ لا نكفّر مؤمناً بذنب، إلا إذا أنكر أمراً قطعيّاً في الإسلام، فإنه يكفر من حيث إنّه ثابتٌ يقيناً عن النبيّ عليه وآله الصلاة والسلام، ومَنْ كذّبه في أمرٍ واحد، فهو

كمن كذّبه في كل الأمور، لأنّ العقيدة لا تتجزأ، بل هي وحدة واحدة.

صادق: وإذا أنكر أمراً غير قطعيّ؟.

الشيخ: إذا أنكر أمراً غير قطعيّ، أي لا يعلمه كلُّ الناس، بل يخفى على كثير منهم، فإن كان إنكاره مع استهزاء بالإسلام، كان كفراً، وإن كان مع الأدب، كان بدْعة محرَّمة، وفسقاً كبيراً، إلا أنه ليس كفراً. فالكفر مَرَدُّه إلى تكذيب النبيّ ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ فهو، مهما تعدّد وتنوَّع، شيء واحد. ولذا كان الكفر مِلَّةً واحدة.

صادقة: ما الفرقُ ـ إذن ـ بين المؤمن والكافر؟.

الشيخ: الفرق في التصديق وعدمه؛ فمن صدَّق وأقرَّ فهو مؤمن مسلم، ومَنْ كذَّبَ فهو كافر خاسر.

صادق: عفواً سيِّدي الشيخ... هل نستطيع أن نقول: إن القرآن الكريم لفظُ الله سبحانه وتعالى؟.

الشيخ: لا.. لا يقال: إن القرآن لفظ الله عزَّ وجلّ.

صادقة: لماذا يا جدّي؟.

الشيخ: لأن اللفظ يستدعي مخارج حروف، وهذه المخارج إنما تكون في الأجسام. والله سبحانه ليس جسماً، تعالى وتنزّه، لكننا نقول: القرآن كلام الله، أنزله على قلب نبيّه الكريم ﷺ، وإنّ نظْمَ القرآن ومعناه من الله تعالى، والنبي ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ كان يستمع إلى سيِّدنا جبريل الأمين ـ عليه السلام ـ كما أمره الله، فإذا هو بعد انقضاء الوحي مجموعٌ في قلبه الشريف: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ـ١٩].

صادق: لماذا هذا النهيُ عن تحريك لسان النبيّ الكريم ﷺ بالقرآن يا سيّدي؟.

الشيخ: لأنّ النبيَّ ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ كان أولاً يحرّك به

لسـانه الشريف وقت إلقاء الوحي، فأمره الله باتباع قراءة جبريل عليه السلام إذا قرأه بأمر الله، وضمن الله له أن يجمعه كلَّه في قلبه الشريف.

صادقة: ما الفرق بين الأحاديث القدسيّة والأحاديث النبويّة الأخرى يا جدّي؟.

الشيخ: هي كلُّها من ألفاظ النبيّ ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ ولكنّ الأحاديث القدسيّة خطاب من الله تعالى لخلقه.

صادق: هناك بعض المسلمين يزعمون أن في القرآن الكريم غناء عن الأحاديث النبوية.. ما رأيك يا سيِّدي بهؤلاء أو بمزاعمهم؟.

الشيخ: فكرة الاكتفاء بالقرآن العظيم، وهجران الأحاديث النبويّة الشريفة، فكرة خاطئة في ذاتها، إلا أنها وجدتْ لها أنصاراً في بعض القلوب التي تنظر في الأمور من وجه واحد، وليس لها من المتانة العلميّة ما يؤهّلها للبحث في الشيء من جميع نواحيه. ثمّ إن هذه الفكرة السّيِّئة تزعزع الإسلام، وتقوّض دعائمه، وهي ـ لو طُبِّقتْ ـ لصيَّرتنا إلى فوضى دينية لا نستطيع معها إبصار وجه الصَّواب، ولا إدراك أكثر الحقائق الشرعيّة. وقد تبدو هذه الفكرة، لأوّل وَهْلة، صالحة في نظر السُّذَّج الأغرار، لأنّ فيها رفعاً لقدر الكتاب العزيز، ولكنها، في الحقيقة، زيفٌ مبهرج.

صادقة: لماذا يا جدّي؟.

الشيخ: لأنها تنقض الكتاب العزيز، وتنقض آياته الكريمة.

صادقة: كيف؟.

الشيخ: إليكم البيان:

لم يكن النبيُّ الكريم.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: مبلِّغاً للقرآن فحسب، كلا. فقد كان، مع هذا، يبيِّن مجمله، ويوضِّح مُشْكله، ويخصّص نصوصه العامّة، ويقيّد المُطلَقَة منها. وقد دلَّتْ

آياتُ الكتاب العزيز على اعتباره ـ عليه الصلاة والسلام ـ أصلاً تشريعياً بقوله وفعله وتقريره. وحسبُنا دلالةً على هذا، قولُه تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

النبيُّ ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ سراج منير، أنَّى سار أنار، وحيثما اتّجه أضاء. قولُه شرعٌ، وفعلُه شرعٌ، وتقريره شرع. وقد ضُبطتْ أحواله ـ ﷺ ـ قولاً وفعلاً وتقريراً، ونقلها أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وتناولها الأئمة المجتهدون درساً وفهماً واستنباطاً، وهم ـ حين عملوا بها، على أنها أسٌّ ثانٍ بعد الكتاب ـ غيرُ حائدين عن الصواب، ولا مبتعدون عن الحقّ؛ لأنهم عاملون بتعليمات الله تعالى في كتابه.

صادقة: إذن.. لم يكن ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قوله أو فعله أو تقريره إلا صادراً عن وحي الله.

الشيخ: طبعاً.. ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧].

وقد آتانا ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ كثيراً من الأحكام الشرعية، وما علينا إلا القبول والطاعة، كما طلب الله منا. قال الله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وقد بيّنت السُّنّةُ الشريفة هذا الكمال للدين، بما شرحتْ من آيات،

وفسّرتْ من نصوص. والكتاب الكريم حوى علم كلّ شيء دينيّ من حيثُ الأصلُ، حسبما دلّ عليه قولُه تعالى:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

ولو لم يقم النبي ﷺ بالبيان والشرح والتفسير لاستغلقت الأفهام عن إدراك مرادات الله من بعض آياته الكريمة، لكنه ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ حقّق قول الله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

قال الإمام الشافعيُّ رحمه الله ورضي عنه:

«إنّ كلَّ فريضة فرضها الله تعالى في كتابه، كالحجّ والصلاة والزكاة، لولا بيان رسول الله ﷺ لها، ما كنّا نعرف كيف نأتيها، ولا كان يمكننا أداء شيء من العبادات».

صادقة: يا سلام!.

وتحرّك الشيخ في مقعده حركة سريعة نزقةً، ثمّ تابع يقول في حماسة:

ـ أنشدكم الله ـ يا معشر المنصفين ـ كيف نقيم الصلاة لو لم نأخذ بقول الرسـول ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ وبفعله؟ فهو الذي بيَّن لنا كيفيّتها، وهو الذي أوضح لنا سجودها وركوعها، وخشوعها وخضوعها، وأركانها وواجباتها وسننها وآدابها. هو الذي بيَّنَ لنا ما فُرض من الصلوات وما سُنّ، وصلّى وقال:

«صلُّوا كما رأيتموني أصلّي».

والزكاة؟ كيف نؤتي الزكاة؟ وما هي الزكاة أولاً؟ وما مقدار ما تجب فيه الزكاة منها؟ وما هي المدّة التي تجب فيها الزكاة؟ وما مقدار ما تجب فيه الزكاة؟.

وما هي المدّة التي يتجدّد بتجدّدها الوجوب؟ .

ما هو الجواب على هذه الأسئلة، لولا بيانات رسول الله ﷺ؟ .

ومثلُ هذا يقال في الصَّوم والحجّ والكفّارات والنُّذور والأيمان والنكاح والطلاق والمهور والحضانة والنفقات وسائر الأحوال الشخصية، وكذلك المعاملات.

فأيُّ فساد كبير كان يعمّنا لولا إرشادات الرسول ﷺ؟ ! .

أيُّ خطر كنّا نُستهدف له لو تحققت للمفسدين أهواؤهم، وليس تحقّقها إلا القضاء على الإسلام.

ونهض الشيخ الجليل ثم قال بعنف:

ـ خسئوا.. وخسئوا.. فهو باقٍ على رغم أنوف الجاحدين.

صادق: إنهم يشككون بصحة الأحاديث الشريفة يا سيِّدي، ويحتجّون بكثرة الوضّاعين للحديث، وبأنّ النبيَّ الكريم نفسه نهى عن كتابة الحديث، وبأنّ تدوين الأحاديث كان على رأس المئة الأولى للهجرة، و..

الشيخ (مقاطعاً): كفى كفى.. سأجيبك على مزاعمهم وشكوكهم.

أمّا أنّ الوضّاعين كثر، فهذا مما لا خِلاف فيه، كما لا خلافَ أيضاً في وفرة عدد الرُّواة المتقنين الثّقات العُدول الذين حذقوا صناعة الحديث، وأتقنوها، وحاطوا حديث رسول الله ﷺ بسياج متين، يعسر على الأفّاكين اختراقُه.. إنّ الله أراد حفظ الشريعة، فقيَّض للحديث نُقّاداً ذوي علم وبصائر، نقدوا الرواة، وبيّنوا أحوالهم، وصنّفوا فيهم كتباً ضخمة أوعبوها أسماءهم وصفاتهم، ومن ضبط منهم، ومن خلط منهم، ومن تغيّر آخراً، بعد أن كان ضابطاً.. وإنّ الناظر في مصنّفات أولئك الرجال الأفذاذ، يدهش من هذا الفضل الجمِّ الذي خصَّ الله به أمّة سيد المرسلين، عليه وآله الصلاة والسلام.. إنّ هذه الأمة امتازت بالإسناد.

صادق: ما هو الإسناد؟ .

الشيخ : هو نقلُ الثّقة عن الثقة حتى يبلغ به النبيَّ ﷺ . . خصَّها الله به دون سائر الملل التي في أسانيدها انقطاع كثير . ومع هذا، لا يقربون من أنبيائهم كقربنا من نبيّنا محمد ﷺ؛ فهم يقفون بينهم وبين نبيّهم أكثر من ثلاثين عصراً .

صادق : وماذا عن نهي النبيّ الكريم عن كتابة الحديث يا سيِّدي؟ .

الشيخ : نهى النبي ﷺ عن كتابة الحديث . . هذا صحيح . . وكان هذا خشية اختلاط الحديث بالقرآن ، ثم صدر الإذن فيه ، فقد أمر رسول الله ﷺ بالكتابة لأبي شاه ، وكتب عليٌّ بعض الأحكام ، وكتب عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة من الحديث .

صادق : إذن . . دعوى منع الكتابة مطلقاً غير صحيح؟ .

الشيخ : نعمْ غير صحيح ، ولا نسلّم به . . ثمّ لمّا خاف المسلمون من ضياع السنّة ، أمر عمر بن عبد العزيز بتدوين الحديث ، فدوّنوه حفظاً له من الضَّياع ، ونشط رجال الجرح والتعديل بعد ذلك لبيان صحيح الحديث وسقيمه ، فأتوا بالعجب ، وحفظوا لنا تلك الثروة العلمية الضخمة من أن تتبدد .

صادقة : هل تعطينا فكرة عن حجم الأحاديث النبوية يا جدّي؟ .

الشيخ : قال البخاري رحمه الله :

«أنا أحفظ مئة ألف حديث صحيح ، ومئتي ألف غير صحيح» .

صادقة : ما شاء الله؛ فهو لم يستوعب كلَّ ما صحَّ عنده في صحيحه ، بل استوعب غير الصحيح أيضاً! .

صادق : وغير البخاري يا سيِّدي؟ .

الشيخ : الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله انتخب أكثر من سبع مئة ألف حديث صحيح ، وكان يحفظ مليون حديث .

فهتفنا أنا وصادقة : الله أكبر . . الله أكبر . .

ثم قلت لفضيلة الشيخ العالم :

ـ زعم بعضهم أن الأحاديث الصحيحة لا تزيد عن أربعة آلاف حديث .

فتحرك الشيخ حركة سريعة في مجلسه ثم قال :

ـ ردَّ أبو زرعة الرازي على من زعم هذا بهذا الدّعاء اللطيف :

«من قال ذلك، قلقل اللهُ أنيابه. هذا قول الزّنادقة. ومن يحصي حديث رسول الله ﷺ؟ فقد قُبض عليه الصلاة والسلام عن مئة وأربعة عشر ألفاً من الصحابة، ممّن روى عنه، وسمع منه، عليه الصلاة والسلام» .

نهضتُ نحو الشيخ العالم، وطلبتُ منه أن يسمح لي بالسؤال عن بعض القضايا التي سبق أن تحدّث عنها في بداية الجلسة .

فرحّب وقال :

ـ قلت لكما : اسألا عمّا تشاءان، ولا بأس من تكرار بعض الأسئلة .

فسألت الشيخ العالم :

ـ ما رأيكم، يا سيّدي، في إشراك نيّة الدفاع عن الوطن والعرض والمال في نيّة الجهاد في سبيل الله إعلاءً لكلمة الله عزّ وجلّ؟ .

فأجاب الرجل العالم :

ـ الأصل في الجهاد أن يكون لله وفي سبيل الله، إعلاءً لكلمته، وتقريراً لأحكامه. وقد جاء في الحديث الشريف :

«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله» .

ومهما كانت هناك نيّة دنيوية كجمع المال مثلاً، فقد خرج الأمر عن أن يكون جهاداً دينيّاً في سبيل الله .

صادقة : يعني. . الدفاع عن أوطان المسلمين ليس في سبيل الله؟ .

الشيخ : إذا قصد الدفاع عن أوطان المسلمين كي تبقى لهم عزّتهم،

وتسلم لهم ديانتهم، وتصان أعراضهم، ولا تُمتهن كرامتهم، ولا يستولي العدوُّ على أراضيهم وأموالهم، فيصيروا أذلّاء فقراء بين يديه ـ إذا قصد المجاهد بجهاده هذه المعاني الشريفة، فهو في سبيل الله، لأنَّ هذه المعاني مما تضمّنه إعلاء كلمة الله تعالى؛ لأنها عائدة على الإسلام بالحفظ والتأييد والصَّون للمسلمين عرضاً ومالاً ونفساً وكرامة، وبهذا كله، يتوفّر المجاهدون على عبادة الله، ويورثون الإسلام أبناءهم وحَفَدتَهم من بعدهم. وقد جاء في الخبر الشريف: أنّ منْ قُتل دون ماله فهو شهيد، وكذا النفس والعرض بالأولى.

صادقة: إذن؟.

الشيخ: إذن.. صفوة القول: إنّ باب النيّة الصالحة مفتوح، وإذا كان المرء ذا قصدٍ صالحٍ يقرّه الدِّين ويرضاه، فإنّ جهاده مقبول إن شاء الله، وليحذر المجاهد أنْ يكون جهاده جافاً خالياً من هذه المعاني السامية الشريفة التي هي من فروع الجهاد الدّيني الذي يقصد به إعلاء كلمة الله تعالى.

صادق: عفواً سيِّدي الشيخ.. ما حُكْمُ التدرُّب على استعمال السلاح، للجهاد في سبيل الله؟.

الشيخ: إذا كان الجهاد في سبيل الله فرضاً، فإن التدريب على استعمال السلاح فرضٌ أيضاً، لأنّ للوسائل أحكام المقاصد.

صادق: فهل تنصحني بالتدرّب؟.

الشيخ: الذي أراه لك ولأمثالك من الفتيان، أن تتدرب لتصبح لك نيّة الغزو في سبيل الله، فراراً من الوعيد الذي جاء في قول الرسول القائد عليه وآله الصلاة والسلام:

«من مات ولم يغزُ، ولم يحدِّث نفسَه بالغزو، مات على شعبة من النفاق».

هذا أولاً، وثانياً: لتكون قدوةً لغيرك من الشبّان، ثم إذا وقعتْ

حربٌ، ولم تكن قادراً، كنتَ معذوراً.

وتململت صادقة في مجلسها، ونظرتْ إليّ نظرة أفهم معناها، فقلت لها:

ـ سلي فضيلة الشيخ عمّا تريدين.

فأقبلتْ نحو الشيخ بوجهها، فيما كان الشيخ يغضّ من طرفه وقالت:

ـ ما رأيكم، يا جدّي العزيز، في تقبيل يد الأب والأم والعالم؟.

فابتسم الشيخ ابتسامته اللطيفة ثم قال:

ـ لا بأس في ذلك، على ألّا تفعلوها معي..

تبادلتُ وصادقة النظرات، كأننا نقول لفضيلة الشيخ: «سوف ترى» ثم سألتُ العالمَ الجليل عمّا إذا كان أصحاب رسول الله ﷺ، يقبّلون يد الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال:

ـ وكانوا يقبّلون أطرافه كلّها ـ بأبي هو وأمّي ـ ولذلك لم ير العلماء بأساً في تقبيل يد العالم والسلطان العادل، بل إنّ الإمام سفيان بن عُيَيْنة قال مرة، وكان عنده الإمام عبد الله بن المبارك:

«تقبيل يد العالم والسلطان العادل سنة».

فقام عبد الله بن المبارك وقبّل رأسه.

فهجمتُ على يد فضيلة الشيخ وقبّلتُها، والشيخ يحاول سَحْبَها وتخليصها من بين يديّ، ثم قال الشيخ الذي بُوغتَ بتصرّفي هذا:

ـ وذكر الإمام النوويّ في (رياض الصالحين) عن صفوان بن عسال رضي الله عنه قال: قال يهوديٌّ لصاحبه: اذهبْ بنا إلى هذا النبيِّ (يعني محمداً ﷺ) فأتيا رسول الله، فسألاه عن تسع آيات بيّنات.. وأجابهم الرسول الكريم ﷺ، فأقبلا عليه، فقبّلا يده ورجله وقالا: نشهد أنّك نبيّ.

وأخرج الحاكم بسندٍ صحيح أنّ رجلاً أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال:

يا رسول الله. أرني شيئاً أزداد به يقيناً. فقال: «اذهبْ إلى تلك الشجرة فادعُها». فذهب إليها فقال: إن رسول الله يدعوك. فجاءتْ حتى سلّمتْ على النبيّ، فقال لها: «ارجعي». فرجعتْ.. ثمّ أذِنَ للرجل، فقبّل رأسه ورجليه، عليه وآله أفضل الصلاة.

وسألتُ فضيلة الشيخ العالم عن معانقة الرّجال فأجاب:

ـ معانقة الرجال بعضهم بعضاً جائزة إذا كان على كلٍّ من المتعانقين ثيابه، فقد عانق النبيُّ ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ جعفرَ بن أبي طالب حين قدِمَ من الحبشة، وقبَّل بين عينيه.. يعني جبينه.

وسألتُ فضيلة الشيخ عمّا إذا كان بعض الصحابة الكرام يقبّل يد بعض، فقال:

ـ نعمْ.. قبَّلَ أبو عبيدة بن الجراح يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقبَّلَ زيد بن ثابت يد عبد الله بن عبّاس وقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا ﷺ.

وقال فضيلة الشيخ العالم:

ـ ثمّ.. نحن نعلم أنّ المؤمن أعظم حُرْمةً عند الله من الكعبة، ومع هذا شرع لنا تقبيل الحجر الأسود فيها.

وتحركتْ صادقة في كرسيّها استعداداً للكلام كعادتها، ثم سألتْ:

ـ هل قبّلتَ يد أحدٍ يا جدّي؟.

وأجاب الرجل التقيّ النقيّ:

ـ نعمْ يا ابنتي.. إني لأقبّل أيدي أشياخي الذين علّموني، وبهم تخرّجت، وإني أسأل الله تعالى أن يجزيهم عن الإسلام وعني خيراً.

آمين.

وقالت صادقة:

الرسول الكريم ﷺ يقول:

«الجنة تحت أقدام الأمهات».

فهل معنى هذا، جواز تقبيل قدم الأمّ يا جدّي؟.

ـ أجلْ يا صادقة، وذلك اعترافاً بجميلها وإحسانها إلى الولد. وقد أمر رسول الله ﷺ رجلاً ببرِّ أمّه وقال له:

«الزمْ رِجْلَها، فثمَّ ـ أي فهناك ـ الجنة».

ـ الله أكبر! ما أعظم الإسلام ونبيَّ الإسلام!.

وقلت لفضيلة الشيخ:

ـ سمعت كثيراً عن الشيخ حسن البنا رحمه الله تعالى، وأريد أن أسمع منك ـ يا سيِّدي ـ القول الفصل في هذا الرجل. فماذا تقول؟.

نهض الشيخ واقفاً، ولملم أطراف جُبّته الأنيقة، ومسح على لحيته الظريفة، وأشرق وجهه بنور الحبّ، ثم قال:

ـ على الخبير وقعتَ يا ولدي؛ فالإمام الشهيد حسن البنا ـ رحمه الله، وأغدق عليه غيوث الإحسان والكرم ـ هو سيِّدي، وأخي في الله، وأستاذي الذي أثّر في نفسي تأثيراً من نوع خاص، وله يدٌ في تكويني الشخصي.

صحبتُه في مصر سنين، وحديثي عنه ـ لو بسطته ـ لكان طويل الذيل، ولكانت كلماته قِطعاً من قلبي، وأفلاذاً من كبدي، وحُرَقاً من حرارة روحي، ودموعاً منهلّة منسجمة تشكّل سيلاً من فاجع الألم، وعظيم اللوعة.

ولكنني أكتفي بالإيجاز.. أكتفي بالقول: لقد بكيتُه كثيراً بعد استشهاده، ولا أزال أذكره حتى ألقاه في زمرة الصالحين إن شاء الله تعالى وتبارك.

إنه أخي قبل أخوتي في النّسب، ولمّا وافاني نبأ اغتياله قلت:

إنّ موت ولديّ، ولم يكن لي غيرهما حينئذٍ، أهونُ عليّ من وفاة الأستاذ المرشد.

وكنتُ رأيت فيما يرى النائم، ليلة قُتل، ولا علمَ عندي بالذي حصل، رأيت أننا في معركة مع اليهود، وقد بدأ التقهقر في جندنا، حتى إني لأمشي منحنياً لئلا يصيبني رصاصهم، فاستيقظت واستعذتُ بالله من شرّ هذه الرؤيا. وفي النهار، ألقى إليّ بعض الناس الخبر، فكان وقعُه أشدَّ من شديد، وكان تأويل رؤياي.

ـ الله أكبر! . إلى هذا الحدّ كنتَ معجباً بالإمام البنَّا يا جدّي؟.

ـ وأكثر. . واسمعوا مني هذه الكلمة، ولا بأس بروايتها عني، فهي كلمة حرّة نابعة من أعماقي:

«إنّ المسلمين لم يروا مثل حسن البنا منذ مئات السنين، في مجموع الصّفات التي تحلّى بها، وخفقت أعلامها على رأسه الشريف».

ـ يا سـلام! ما أروع هذه الشـهادة من عالم تقي مجاهد بالشيخ حسن البنَّا!.

الشيخ: وأنا لا أنكر إرشاد المرشدين، وعلم العالمين، ومعرفة العارفين، وبلاغة الخطباء والكاتبين، وقيادة القائدين، وتدبير المدبّرين، وحنكة السائسين ـ لا أنكر هذا كلَّه عليهم من سابقين ولاحقين، لكنّ هذا التجمع لهذه المتفرقات من الكمالات، قلّما ظفر به أحدٌ كالإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله. . لقد كان لله بكلّيّته؛ بروحه وجسده، بقالبه وقلبه، بتصرّفاته وتقلّبه. . كان لله، فكان الله له، واجتباه وجعله من سادات الشهداء الأبرار.

وسكت الشيخ لحظةً يتذكّر، ثم قال:

ـ حدّثني عالمٌ في مصر كانت له به ـ بحسن البنَّا ـ صلة، قال لي:

«إنّ الإلحاد امتدَّ إلى مصر، وانتشر فيها، وغمر كثيراً من أوساطها، ولم يستطع الأزهر الشريف، ولا الجمعيات الدينيّة أن تردَّ سيله الجارف الهادم، حتى جاء حسن البنا، فدرأ (أي دفع) خطره، وأنجى من شرِّه».

قال لي هذا العالم هذا القول، وكنت أرى بعيني توفيق الله لأصحابه، وقد كانوا، من قبلُ، في ظلمات، فأخرجهم منها إلى نور.

وأخرج الشيخ الجليل منديلاً نظيفاً من جيبه، مسح به دمعتين تحدَّرتا على خدّيه، ثم قال في شبه بكاء:

ـ لهذا ولأسباب لا تقلُّ عن هذا الذي ذكرت، قتلوا حسن البنا.

صادقة: والسباعي؟ ما رأيُك ـ يا جدّي العزيز ـ في الدكتور الشيخ مصطفى السباعي؟.

الشيخ: رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنانه..

ومسح الشيخ دمعة أخرى انسربت من عينه، ثم تابع يقول:

ـ مصطفى السباعي هو الشيخ صفا.. هو أخي وزميلي وصديقي وحبيبي، أحببتُه مذ عرفته، وما فارقتُه حتى لقي وجه ربِّه الكريم.. السباعي، يا أولادي، رجلٌ فذٌّ بين الرّجال، قلَّ نظراؤه بين الدعاة، وهو عالم عامل، قلَّ أن تجد له مَنْ يشبهه في دقة فهمه بعويص المسائل. وفي سعة اطلاعه، وفي وعي الواقع المعيش، ولقد تحمّل من الأعباء ما ناء به كاهله المتين، كما تحمَّل الكثيرَ من الأعداء في الداخل والخارج، حتى أقعده المرض، أو هكذا ظنّ المرض أنه يستطيع أن يقعده، ولكنّ السباعي الرائع كان فوق الآلام والأوجاع، وظلّ يعمل في ميادين الدعوة والعلم، حتى سبقني إلى لقاء الرّحمن الرّحيم.

صادق: ولكني سمعتُ..

الشيخ (مقاطعاً): أننا اختلفنا.. أليس كذلك؟.

صادق: نعمْ يا سيِّدي.

الشيخ(في امتعاض باسم): لا تقلْ (نعم) يا بني.. قلْ (بلى) لأنّ (بلى) حرف جواب يجاب به عن النفي، ويُقصد به الإيجاب.

صادق: شكراً يا سيِّدي على هذه الملاحظة القيّمة.

الشـيخ: اختلفتُ مع السّـباعي كما اختلفـتُ مع غيـره في عدد من القضايا العلميّة، ولكنّ اختلافنا لم يفسد لودِّنا قضيّة ـ كما قال من قال ـ. . بقي أخي وصديقي وحبيبي، وقد بكيتُه يوم مرض، ويوم مات، وإن لم يمت ذكره وذكرياته في نفسي، فهو ملء النفس والعين، وملء القلب والعقل، وهيهات أن تلد النّساء مثلك يا أخي يا مصطفى، يا أبا حسّان.

واغرورقت عينا فضيلة الشيخ بالدّمع، فأرادت صادقة التخفيف من وقع ذكرى السباعي على نفسه، فقالت:

ـ ما الأمور التي كان لها آثار كبيرة في حياتك يا جدّي؟.

الشيخ: أبرزها، على العموم، وقوفي في وجه الإلحاد الذي كان قد فشـا بين الناس، وقد عملتُ جاهداً على ردّ أولئك الشاردين الملحدين المنحرفين إلى الجادّة، رحمةً بهم، واستخلاصاً لهم من مهاوي الشقاء.

صادقة: والثابتون على الإسلام؟.

الشيخ: عملتُ على تغذيتهم بالعلم الواقي، والمعرفة الدَّارئة، كي تقوى فيهم ملكـة المناعـة الإيمانيـة، فلا يجد الزَّيغ سـبيلاً إلى قلوبهم ليفسدها.

صادقة: وما السبيل إلى ذلك يا جدّي؟.

الشيخ: السبيل إلى ذلك، توضيح محاسـن الإسلام، بعرضه عرضاً جميلاً.

صادق: عن طريق الخطب المنبريّة يا سيِّدي؟.

الشيخ: الخطب المنبرية، والدروس الدينيّة العامّة والخاصّة تفيد إذا كان الخطباء والمدرّسون ممتلئين علماً ومعرفة وإخلاصاً لله سبحانه، وعملاً بما إليه يدعون. يضاف إلى هذا، نشرُ العلم عن طريق الكتابة بلغة قريبة من الأفهام، غير مستعصية عليها بدقّة التركيب، ووعورة التعبير، ليسلك سبيله إلى الأذهان والأفهام، ولا يبقى مخبوءاً في بطون الكتب، لا يطّلع عليه إلا أخصُّ الخاصّة من المحصّلين.

صادق: لقد أصبتَ ما في نفسي ونفوس غيري يا سيِّدي بكلامك هذا عن بعض الكتّاب الكبار.. الكتّاب الإسلاميين الكبار، من أمثال المرحوم مصطفى صادق الرافعي، والأستاذ محمود محمد شاكر.. فأنا وغيري من الشباب، نقرأ لهما الكتاب والمقالة والقصة والقصيدة أكثر من مرّة، فلا نفهم منها إلا القليل، مع أننا نحبُّهما، ونقتني كتبهما، ونباهي بهما..

صادقة: وما رأيُك، يا جدّي العزيز، بالكتابة في المجلات؟.

الشيخ: لا بأس بالمجلات العلميّة الدينية، شريطة أن يشرف عليها علماء أجلّاء، لئلا يطيش السّهم بشباب الكاتبين، فيخبطوا ويخلطوا ويسيئوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

صادق: آه لو سمعك بعض شبابنا اليوم يا سيِّدي؟.

الشيخ: ماذا عساهم أن يتصرّفوا؟.

صادق: إنهم، أو إن بعضهم، أو إن المغرورين منهم، وما أكثرهم، يُسْقِطون الكبار من حسابهم، ويستهينون بخبراتهم وتجاربهم وثقافتهم.

الشيخ: كفى يا بنيّ، فهذا نذير السقوط، وعلى علماء الدين ملاحظة أولئك الشباب، لإنقاذهم من هذه الفتنة الزاخرة، وقاية لهم من الزيغ والانحراف.. على العلماء أن يسعوا إلى أولئك الشباب، مع أن العكس هو الذي ينبغي أن يكون، من أجل ترشيدهم، ليقوهم من الضلال المُرْدي في المهالك.

صادق: أكثر هؤلاء الشباب ـ يا سيِّدي ـ يفتقرون إلى التربية البيتية.

الشيخ: هذا صحيح.. فليقم الرجل بواجبه في التربية، ولتقم المرأة بواجبها أيضاً، وليأخذوا أولادهم بالطهارة النفسيّة، والتزكية الروحية، والأدب الجم، والتوجيه الصحيح، وفي الحديث الشريف.

«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيته. الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرَّجل رَاعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت

زوجها ومسؤولة عن رعيتها . وكلُّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته» .

صادق : واقع المسلمين اليوم واقع متخلّف ، ومنحرف ، ومحزن . . انحرفوا عن الإسلام ، وتمزّقوا شيعاً وأحزاباً . . فكيف السبيل للخلاص؟ ما العمل يا سيِّدي؟ .

الشيخ : السبيل الوحيد هو الرجوع إلى الإسلام الأول العتيق فعلاً وقولاً ، لا كالذي نرى ؛ فقد كثرت الأقوال وقلّت الأفعال ، وعظمت الفتنة التي تحدّث عنها الحديث الشريف بأنها تدع الحليم حيران ، كنتيجة لفسق الشبان ، وطغيان النّساء ، وترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ورؤية المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، والأمر بالمنكر ، والنهي عن المعروف .

الإسلام العتيق الأول ـ يا أولادي ـ يأبى علينا هذا كلَّه ، وخصوصاً تحريف الحقائق الدينية ، وتكييفها بما يروق للقلوب المريضة ، والعقول الزائفة ، تكييفاً تأباه النصوص ، إذا أُخذتْ بفهم صحيح من سبيل سليم . . متى نخلص من هذا السُّوء الذي قلبَ معالمَ الحقِّ ، فعبث بالنصوص والأحكام باسم الإسلام ـ نفزْ . . فلنعملْ من أجل هذا الخلاص ، بتصحيح الأفهام ، والعودة السليمة إلى الإسلام ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [الحج : ٥٤] .

صادق : صدق الله العظيم .

واعتدل فضيلة الشيخ في مجلسه ، ومسح العرق من تحت عمامته تاج رأسه ، ثم قال :

ـ اسمعوني جيداً ، وانقلوا كلامي إلى أبيكم ومعلّميكم ومشايخكم .

أخرج الخطيب البغدادي في الجامع وغيره ، أنّ رسول الله ﷺ قال :

«إذا ظهرت الفتن ـ أو قال البدع ـ وسُبَّ أصحابي ، فلْيُظْهِرِ العالمُ علمه ، فمن لم يفعل ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً» .

ـ يعني؟ . .

ـ يعني أنّ الله تعالى لايقبل من ذلك العالم الذي يُخفي علمه ولايظهره للناس، لا يقبل منه فرضاً ولا نفلاً. وقال عليه وآله الصلاة والسلام:

«إذا ظهرت البدع، ولعن آخرُ هذه الأمة أوّلَها، فمن كان عنده علمٌ فلينشره، فإن كاتم العلم يومئذٍ، ككاتم ما أنزل الله على محمد» ﷺ.

وقالت صادقة:

ـ وقد فعلتَ الفرض وقمتَ بالواجب والنَّفل، يا جدّي، بما خطبتَ وكتبتَ ورددتَ على أباطيل القوم.

صادق: ولكنك، يا سيّدي، ما كنت تذكر أسماء المنحرفين الذين كنت تردّ عليهم.

الشيخ: فعلتُ هذا لسببين اثنين:

أولهما: هو أنّ القصد من الكتابة كان لتمحيص الحقّ مجرّداً، وتخليصه من أدران الأخطاء إن شاء الله تعالى، لا للتنكيل بالأشخاص، والتشهير بهم. وإني لأربأ بالعلم الديني أن يتخذه صاحبه أداة طعن في المخطئين، لمحض التشفي منهم، لحزازة نفسية، وحقد ذاتي.

صادق: وهذا ما نراه في بعض الكتّاب الذين يدّعون أنّهم دعاة إلى الله، وقد شهدتُ واحداً منهم، يحسب نفسه من الدعاة، وهو أستاذ جامعيٌّ وذو لحية بيَّضها الشيب، شهدته ينقد بعض زملائه بحقد ولؤم وخسّة طبع، وكأنه يتشفَّى منه، يكاد الحسد والحقد واللؤم يأكل أعصابه.

الشيخ: ادعُ له بالهداية يا ولدي، وبالشفاء من هذه الأمراض الخبيثة الفتّاكة، فهي لا تقلّ عن السرطان.

صادق: سمعت والدي يسمّيها جَرباً نفسياً.

الشيخ: عافانا الله وعافى الدعاة خاصة، والمسلمين عامة منها.

صادقة: والسبب الثاني يا جدّي؟.

الشيخ: السبب الثاني في إغفالي أسماء من رددتُ عليهم، هو أنّ رحمة الله قد تدركهم كلاً أو بعضاً، فيتوبوا من الضلال، ويثوبوا إلى الصواب.

صادقة: هذا تفكير عظيم، وبُعدُ نظر، قرأناه في حياة الإمام الشهيد رحمه الله.

الشيخ: وكم أدركتْ رحمةُ الله سبحانه وتعالى من ضالّين فاهتَدَوا، ومن شاردين فأوقفهم على بابه الكريم. ولذلك كان رأي الإمام الشهيد رحمه الله تعالى على صواب، وقد استفادت الدعوة كثيراً من رأيه هذا، ومن آرائه الأخرى.

صادق: كم تحبّ الأستاذ البنا يا سيِّدي؟.

فاغرورقت عينا الشيخ بالدموع وقال:

ـ ليتكم رأيتموه لعرفتم فيه المرشد الكامل، والوارث المحمّدي.

وانتظر الشيخ لحظة حتى سكت عنه البكاء، وهدأت نفسه، ثم قال:

ـ ولكن رسائل السيد المرشد موجودة بين أيديكم، فاقرؤوها مرة ومرّة ومرّة.. اقرؤوها جيداً، وافهموها جيداً، واعملوا بما جاء فيها من تعاليم ونصائح، وخذوا آراءه السّديدة، وطبّقوها في حياتكم، في سلوككم؛ فهي كلُّها مستمّدة من كتاب الله تعالى، ومن سُنّة نبيِّه الكريم محمد ﷺ.

وسألت صادقة عن أبرز صفات الإمام الشهيد التي حبّبته إليه، وقرّبتْه منه، ودعتْه إلى أن يدعو الناس إلى حبّه، وإلى قراءة كتبه، والانضمام إلى جماعته، فقال:

ـ الإمام البنا ـ رحمه الله تعالى ـ عالم ربّاني، ومجاهد كبير، ومتَّبع لما جاء في كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله الكريم عليه وآله الصلاة والسلام، وهو الرجل الذي عرف زمانه، واستقامت طريقته.. وعى زمانه وأهل زمانه، وعرف ما فيهم من صلاح وطلاح، وعرف مكائد أعداء الإسلام والمسلمين، فتصدَّى لها بما يلائم حاجات العصر، فشكَّل جماعته، وبنى رجاله، وأعدّهم للمواجهة، وخاض بهم غمار مختلف الميادين، فكانوا الدّعاة، وكانوا

المجاهدين، الذين يرخصون كلَّ شيء في سبيل الله تعالى، كما كان أجدادنا المجاهدون رضوان الله عليهم. . لهذا ولعشرات الصفات النبيلة التي تمثّلها شخصه الكريم. . أحبُّه. . وأدعو إلى حبّه، فهو الأخ، وهو المعلم، وهو الأستاذ، والمرشد، والإمام، وهو الشهيد إن شاء الله تعالى، وأرجو أن يجمعني الله به يوم القيامة، مع الصالحين والأبرار من عباده.

ـ آمين يا ربَّ العالمين.

أحسنا ـ صادقة وأنا ـ أننا أثقلنا على فضيلة الشيخ الحامد، أبي المحامد، فقد ظهر عليه التعب والإعياء، وإن حاول أن يبدو متماسكاً أمامنا، فانتابنا الشعور بالذنب تجاه هذا العالم العامل مرشد الشباب، وموجّههم، فاعتذرت ممّا كان منا من إثقال في الأسئلة، ولكنه ـ رحمه الله وعفا عنه ـ أبى إلا أن يكون كريماً معنا حتى آخر لحظة من هذا اللقاء الذي كان وأنا بين النائم واليقظان، فقال:

ـ لا بدَّ أن تسألوني شيئاً قبل أن أغادركم.

فطلبتُ من فضيلة الشيخ أن يوجّه كلمة أو نصيحة للشباب، أحملها إليهم، وتحملها أختي صادقة لزميلاتها وصديقاتها وأخواتها، فقال:

ـ يا إخوتي ويا أبنائي وحفدتي.

أنتم في زمان زاخر بالشرور، مليء بالفتن، وقد اغترب الحقُّ فيه حتى عند أهل الإسلام، تصديقاً لما ورد من أنه «بدأ الدين غريباً، وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء» وهم الذين يستمسكون بالحقّ، ويعضّون عليه بالنواجذ، ويأتمّون بالقرآن الكريم، ويُحْيُون سُنَنَ الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، ولا يقيمون وزناً لما يتّجه إليهم من لوم وتعنيف وإيذاء، بل إنهم ليرون كلَّ هذا عذباً في مرضاة الله سبحانه وتعالى.

يا أولادي!.

طريق السلامة معبّدة، لا زلل فيها ولا زلق ولا عوج، بل إنّ ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، كما جاء في الحديث النبويّ الشريف،

فالاعتقاد الصحيح، والعمل الصالح، ومجانبة الفسق عن أمر الله سبحانه، كلٌّ أولئكم يوفّر السلامة، ويلقي ملتزمه في روضات الجنان، ويغمره في الرضوان.

يا أولادي!.

الاعتقاد الحقّ هو الأصل الأصيل، وهو الركن الركين، وهو الأول الأول، والعمل الصالح يقع ثانياً في المرتبة، فلترفضوا كلَّ فكرة يرفضها الكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالح، ولتحرّروا اعتقادكم فيما بينكم وبين ربّكم جلَّ وعلا على النحو الصحيح. والمنهج الحقّ الذي نهجه سيّدنا رسول الله ﷺ، وصحبُه والتابعون لهم بإحسان.

والقرآن الكريم ـ يا أولادي ـ لم يُبقِه الله في الأرض عبثاً، فهاهو ذا حيٌّ يُتلى، وتقام به الحُجَّة على الخلق. فلتعشقوا هذا القرآن الكريم، وليختلط حبُّه بدمائكم ولحومكم، حتى تجري مبادئه فيكم مجرى الدّماء في العروق، وحتى تسطع عليكم أنواره، ويغلبكم سلطانه، وتضمحلّ أهواؤكم في دعوته.

وإذا أضفنا إلى نوره الوهّاج نورَ السّنّة الشريفة التي شرحتْه، وهي أقوال النبيّ الكريم وأفعاله وتقريراته ـ تمَّ لكم العنصران اللذان بهما الهداية والسعادة والكرامة في الآخرة والأولى.

ولن يتمّ لكم هذا ـ يا أولادي وحفدتي ـ إلا بموجّهين ومشرفين من علماء الإسلام الذين شربوا من معين الشريعة حتى ارتووا، ثم عملوا بعلمهم، ثمّ دعوا إلى الله على بصيرة، لا يريدون من الناس جزاء ولا شكوراً، فإن ظفرتم ـ يا أحبائي ـ بعالم عامل تصحبونه، فنعمَ ما ظفرتم به، ومرحباً بالخير يجري على يده، فهو الوارث المحمّديّ الذي يقود إلى دار السلام بالسلام. اجلسوا إلى هؤلاء الفضلاء الذين إذا رأيتموهم ذكرتم الله والإسلام برؤيتهم، وسرتْ إليكم منهم الحال الشريفة التي تنهض بكم إلى معالي الأمور، وترفعكم عن سفاسفها.

السير بدون مرشد عالم قد لا يفضي إلى الغاية المرجوّة، فلا بدّ لكم

منه، فإذا فقدتموه، فالجؤوا إلى العمل بتعاليم الإسلام، مع الإكثار من الصلاة والسلام على سيّدنا رسول الله ﷺ، صلّوا عليه نحواً من ألف مرّة في اليوم على أقلّ تقدير، فهذا يقوم مقام المرشد من حيث بركاتُ روح الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، تعود على من يكثر الصلاة والسلام عليه وعلى آله، فتكون الروح الشريفة مربّية لروح المصلّي عليه، فيسلس قياد نفسه للشرع، وتزول عنها رُعُوناتها، وتذوب عنها أخباثها، وتتجه إلى العلم الصحيح، عن طريق الفهم الطيّب الذي يلقيه الله في النفس، فيكون التوفيق لها رفيقاً، والإسلام لها طريقاً.

يا أولادي!.

ليكن لكلٍّ منكم مجلسٌ مع ربّه سبحانه وتعالى، يتلو كتابه، ويذكره بما يشاء من صيغ الذّكر، فإنّ الذّكر يصقل القلوب، ويهذّب النفوس، وينعش الأرواح.. وما خيرُ المسلم إن كان جافاً لا يرقّ له قلب، ولا ينهمر منه دمع؟. إنّ قساوة القلوب تداوى بذكر الله سبحانه.

ولنستمع إلى قوله سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٨-٢٩].

ولتكونوا ـ يا أولادي ـ مجتمعين إلى بعضكم، متحابين في الله، فقد جاء في الحديث الشريف: «يدُ الله على الجماعة، ومَنْ شذَّ شذَّ إلى النار» وجاء: «الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد».

إيـاكم ـ يـا أحبابي ـ وتلطيخ شـبابكم بالفواحـش، ففي الحديث الشريف:

«ألا مَنْ سـلمَ له شبابُه دخل الجنة» ولا تصافحوا النسـاء، وغضُّوا أبصارَكم، وكونوا طاهرين مطهَّرين تفلحوا».

* * *

المصادر والمراجع

١ ـ علماء ومفكرون عرفتهم. محمد المجذوب.

٢ ـ الشيخ محمد الحامد. عبد الحميد طهماز.

٣ ـ ردود على أباطيل. محمد الحامد.

٤ ـ مجلة حضارة الإسلام. عدد خاص.

٥ ـ مجموعة رسائل الشيخ محمد الحامد. محمد الحامد.

٦ ـ ترجمة الشيخ محمد الحامد (مخطوط). محمود الحامد.

٧ ـ ملامح حول شخصية الحامد (مخطوط). د. أحمد فارس جواد.

٨ ـ صور ومواقف مع سيّدي فضيلة الشيخ محمد الحامد (مخطوط). حاتم الطبشي.

٩ ـ مقابلات مع السادة: الأستاذ نعسان عرواني، الأستاذ فارس مللي، الشيخ عبد المعزّ الحامد.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

* * *



الجزء الأوّل

١. مُحَمَّد بْن مَسْلَمَة
٢. عبدُ الله بْنُ رَوَاحَة
٣. سعدُ بْنُ أبِي وَقّاص
٤. حمزة بن عبد المطلب
٥. مُصْعَبُ بْنُ عُمَير
٦. جَعْفَر بْنُ أبِي طالِب
٧. الطّفيلُ بْنُ عَمْرو الدَّوسي
٨. الشَّيْخ عبد الرّحْمن الكواكبي
٩. عَبْدُ الرَّحْمن بْن عَوْف
١٠. طَلْحَة بْنُ عُبَيْدِ الله

دار القلم
دمشق



الجزء الثاني

١١- الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّام
١٢- عَمْرُو بْنُ العَاص
١٣- أَبُو عُبَيْدَة بْنُ الجَرَّاح
١٤- خَالِدُ بْنُ الوَلِيد
١٥- الشَّيْخُ عِزُّ الدِّين القَسَّام
١٦- الشَّيْخ سُلَيْمَان الجُوسَقِي
١٧- سُلَيْمَانُ الحَلَبِي
١٨- النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّن

دار القلم
دمشق